تاريخ افريقيا العام
دراسات
ووثائق

١١

ليبيا القديمة



تاريخ افريقيا العام : دراسات ووثائق

ليبيا القديمة

تقرير ودراسات الندوة التي نظمتها اليونسكو في باريس في الفترة من ١٦ الى ١٨ يناير/كانون الثاني ١٩٨٤

اليونسكو

أصدرته في عام ١٩٨٨ منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة
٧ ساحة فونتنوا، ٧٠٠ ٧٥ باريس

طُبع في المطبعة الكاثوليكية ش م ل، عاريا – لبنان

الترقيم الدولي للكتاب
ISBN 92-3-602376-2

© اليونسكو

تصدير

في عام ١٩٦٤ فوّض المؤتمر العام لليونسكو المدير العام في اتّخاذ التدابير اللازمة لإعداد ونشر تاريخ عام لافريقيا، كجزء مما تبذله المنظمة من جهود لتعزيز التفاهم فيما بين الأمم والشعوب.

وقد شمل العمل التحضيري عقد ندوات وحلقات دراسية علمية حول موضوعات تتّصل بهذه المهمة، وأتاحت البحوث التي أُعِدَّت للمناقشة في هذه الاجتماعات، كما أتاح ما جرى خلالها من تبادل للرأي في موضوعات جمة، مادة تاريخية ثمينة قرّرت المنظمة أن تذيعها على أوسع نطاق ممكن بنشرها في سلسلة بعنوان: «تاريخ افريقيا العام: دراسات ووثائق».

ويضم الكتاب الحالي، وهو الحادي عشر في هذه السلسلة، الدراسات التي قُدِّمت للندوة التي عُقِدَت من ١٦ إلى ١٨ يناير/كانون الثاني ١٩٨٤ بمقر اليونسكو بباريس لمناقشة موضوع «ليبيا القديمة: دراسة عن فزان والعلاقات التي قامت بين البحر المتوسط وحوض بحيرة تشاد وبين وادي النيل فيما بين القرنين الأول والسابع الميلاديين»، كما يضمُّ تقريرًا عن المناقشات التي دارت خلال هذه الندوة.

ويتحمّل المؤلّفون مسؤولية اختيار وتقديم الوقائع التي يحتويها هذا الكتاب، كما يتحمّلون مسؤولية ما يرد به من آراء لا تمثّل بالضرورة رأي اليونسكو ولا تلزمها.

والتسميات المستخدمة في هذا الكتاب وطريقة تقديم مادته لا تعنيان تعبير اليونسكو عن أي رأي بشأن الوضع القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة، أو بشأن سلطاتها أو بشأن تحديد مواقع حدودها أو تخومها.

المحتويات

مقدمة

أخذت اليونسكو على عاتقها مهمة إعداد **تاريخ عام** لإفريقيا. وقد بدأت المجلّدات المنشورة منه في تغيير مناهج استقرّت طويلاً في دراسة تاريخ القارة الافريقية. ولا شكّ أن مشروع تاريخ افريقيا العام، بطبيعته ومداه وطابعه العلمي، كفيل بأن يذكي تطلّع الشعوب الافريقية إلى تحديد ذاتيتها الثقافية وتوكيدها. ذلك أنه بمثابة تعبير – من الداخل – عن الرؤية الافريقية للعالم وتجلية للطابع الفريد لقيم وحضارات شعوب القارة في مجموعها.

وقد بدأ المشروع في عام ١٩٦٥، وخصّصت السنوات الخمس الأولى لإعداد مسح نقدي للمصادر التوثيقية، وتوّجت بنشر سلسلة بعنوان «دليل لمصادر التاريخ الافريقي» شمل أحد عشر مجلّدًا.

وقام بنشر المجلّدات الثمانية الأولى شركة Inter Documentation Company AG of Zug (سويسرا) وتولّى نشر المجلّد التاسع KG Saur Verlag KG Tostfach في ميونيخ، ونشر المجلّد العاشر رابطة والتهام للدراسات الافريقية بولاية ماسوشيتس.

ويتولّى الإشراف على العمل لجنة علمية دولية تضمّ تسعة وثلاثين عضوًا يمثّلون جميع المناطق الجغرافية – الثقافية الرئيسية. وقد قرّرت اللجنة تقسيم التاريخ العام لافريقيا إلى ثمانية أجزاء يحتوي كل منها على ثلاثين فصلاً، وتغطي تاريخ افريقيا منذ عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا. ويمكن أن ينظر إلى هذا التاريخ من عدّة زوايا يذكر منها أنه وسيلة لتوضيح المشاكل المتصلة بالوضع الراهن للمعارف والاتجاهات الرئيسية للبحث. كما أنه يبرز أوجه التباين في المذاهب والآراء حيثما وُجدت. ويعالج كل مجلّد فترة بعينها ويبحث تطوّر الأفكار والحضارات والمجتمعات والمؤسسات خلال تلك الفترة.

وإذا كان التاريخ يصبو إلى بلوغ أعلى مستوى علمي ممكن، فإنه لا يسعى لأن يكون تاريخًا شاملاً جامعًا بل مصنّفًا يؤلّف بين عناصر شتى متحاشيًا الاعتساف المذهبي. وهو يستعين في معالجة التاريخ الافريقي بمناهج وتقنيات طائفة عريضة من العلوم منها اللسانيات والانثربولوجيا والآثار والمأثورات الشفهية وتاريخ الأديان والفنون وعلم الموسيقى وعلم الاجتماع والقانون والعلوم الطبيعية.

وقد صدر منه حتى الآن أربعة مجلّدات : ظهر الأول (المنهجية وافريقيا فيما قبل التاريخ) في عام ١٩٨٠ (الطبعة الفرنسية) و١٩٨١ (الطبعة الانجليزية) و١٩٨٢ (الطبعتان الأسبانية والبرتغالية) ؛ وصدرت الطبعة الفرنسية من المجلّد الثاني (الحضارات الأفريقية القديمة) في عام ١٩٨٠ والانجليزية في عام ١٩٨١ والأسبانية والبرتغالية في عام ١٩٨٣ ؛ وصدرت الطبعة الانجليزية من المجلّد الرابع (افريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر) في عام ١٩٨٤ والطبعة الفرنسية في عام ١٩٨٥ ؛ وصدرت الطبعتان الانجليزية والفرنسية من المجلّد السابع (أفريقيا تحت السيطرة الإستعمارية) في عام ١٩٨٥. وسوف يبدأ قريبًا إعداد ترجمة إيطالية للمجلّدات المنشورة. وقد صدرت الطبعة العربية للمجلّد الأول في عام ١٩٨٣ وللمجلّد الثاني في عام ١٩٨٥ ، ويجري الآن إعداد المجلّدين الرابع والسابع للنشر. أما المجلّدات الأخرى فسوف تُنشر على النحو التالي :

المجلّد الثالث : **افريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر** (١٩٨٥ – ١٩٨٦)

المجلّد الخامس : **افريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر** (١٩٨٥ – ١٩٨٦)

المجلّد السادس : **القرن التاسع عشر حتى العقد التاسع** (١٩٨٥ – ١٩٨٦)

المجلّد الثامن : **افريقيا منذ عام ١٩٣٥** (١٩٨٦ – ١٩٨٧)

وعلى الرغم من ترتيب ترقيم المجلّدات حسب التسلسل التاريخي فإن ترتيب صدورها مرهون بانتهاء مؤلّفي كل مجلّد من إعداده.

ويجري نشر التاريخ كاملاً بالإنجليزية والفرنسية والعربية ومن المزمع ترجمته إلى لغات أوروبية أو آسيوية أخرى حيث أن تعريف أوسع جمهور ممكن بثقافات الشعوب الافريقية وحضاراتها يُعدّ هدفًا من الأهداف الأولى لمشروع **تاريخ افريقيا العام** ؛ وهو يمثّل ، فضلاً عن ذلك ، جانبًا من المهمة التي تضطلع بها اليونسكو لتعزيز وتطوير التواصل فيما بين شعوب العالم من خلال الارتقاء بإلمامها بثقافات بعضها البعض.

ويجري الآن إعداد طبعات مختصرة من تاريخ افريقيا العام لنشرها باللغة السواحيلية ولغة الهاوسا وبلغات افريقية أخرى. ومن المزمع أيضًا استخدام الطبعات المختصرة لإعداد طبعة على صورة مسلسلات مصوّرة وطبع تسجيلات صوتية باللغات الافريقية.

وقد نُظِّمت ندوات وحلقات دراسية علمية حتى تُتاح للمؤلّفين فرصة التعرّف على أكبر قدر ممكن من المواد الوثائقية والإفادة من أحدث البحوث حول الموضوعات التي يتناولها كل مجلّد. وتنشر البحوث التي أُعدَّت للمناقشة في هذه الاجتماعات بالإنجليزية والفرنسية وبلغات أخرى ضمن سلسلة «تاريخ افريقيا العام : دراسات ووثائق» وقد صدر منها حتى الآن الأجزاء التالية :

١. **عمران مصر القديمة وفك رموز الكتابة المروية.**

٢. **تجارة الرقيق الافريقي من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر.**

٣. **العلاقات التاريخية عبر المحيط الهندي.**
٤. **التدوين التاريخي لافريقيا الجنوبية.**
٥. **تصفية الإستعمار في افريقيا: افريقيا الجنوبية والقرن الافريقي.**
٦. **الأسماء الإثنية وأسماء المكان الافريقية.**
٧. **العلاقات التاريخية والاجتماعية – الثقافية بين افريقيا السوداء والعالم العربي من عام ١٩٣٥ إلى الوقت الحاضر.**
٨. **منهجية التاريخ الأفريقي المعاصر.**
٩. **العملية التربوية وتدوين التاريخ في افريقيا.**
١٠. **افريقيا والحرب العالمية الثانية.**
١١. **ليبيا القديمة.**

وقد نظّمت اليونسكو الندوة التي أسفرت عن إصدار الجزء الحالي بغية «توفير مزيد من المعلومات العلمية الكفيلة بالإسهام في تصويب مادة المجلّد الثاني (الحضارات الافريقية القديمة) ومعالجة أوجه قصوره، وتوفير مادة لاستخدامها في المجلّد الثالث (افريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر).

وتتناول هذه الأبحاث التي يضمّها هذا الجزء الاستقرار أو التغير البيئي قبل الفتح العربي، وأنظمة الري والنشاط الإقتصادي، والعناصر السكانية، ومحاور الاتصال، والفن فيما قبل التاريخ من منطقة البحر المتوسط إلى تشاد، واحتمالات الاتصال بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر، والوضع الاجتماعي من نهاية العصر البيزنطي إلى عشية الفتح العربي.

التنمية الزراعية في ليبيا في عهد الرومان وتأثيرها على الإقتصاد الليبي – الروماني قبل الفتح الإسلامي

أ. لاروند

مقدّمة

عرفت ليبيا نشاطًا زراعيًا كثيفًا خلال الفترة الرومانية والبيزنطية، أي فيما بين القرنين الأول والسابع الميلاديين، وهو جانب من حضارتها لم يحظَ، حتى سنوات قريبة، بعناية الباحثين. وعلى الرغم مما ذكره الرحّالة الاوروبيون (باتشو، ١٨٢٨، ص ٢٣٦) والعرب (الحشايشي، ١٩١٢، ص ٦٠) عن وجود آثار هامة، فإن الآراء التي طرحت عن أهمية ليبيا الزراعية كانت تصدر عن أفكار مسبقة تنحو تارة إلى المبالغة في أهمية ليبيا إبان الفترة الاستعمارية وتارة أخرى إلى التهوين منها (مارتينو ١٩١٢، ص ١٤٥). وهذا فضلاً عمّا حظيت به الأرض الساحلية من اهتمام يفوق كثيرًا الاهتمام الذي حظيت به الأراضي الداخلية الشاسعة.

من هنا الحاجة إلى وضع الحقائق في نصابها. وسوف نبدأ أولاً بإلقاء نظرة على الوضع الجغرافي والديموغرافي، والتعرّف على أشكال استغلال الأرض وأنماط النشاط الزراعي، بحيث نستطيع أن نتبيّن، على وجه اليقين، الخطوط الرئيسية للتطوّر التاريخي.

الجغرافيا والسكان

التباين الاقليمي

يجدر بنا – بادئ ذي بدء – أن نتذكّر أن مساحة ليبيا تبلغ نحو مليون و ٧٦٠ ألف كيلومتر مربع، وأن طول ساحلها المطل على البحر المتوسط يبلغ ١٩٠٠ كيلومتر، وأنها تتكوّن إلى حد كبير من سهول وهضاب وأودية مما يجعل الإتصال ميسورًا بوجه عام على الرغم من طول المسافات.

ولا تختلف المنطقة الساحلية عن المناطق الداخلية في التضاريس بقدر ما تختلف عنها في كمية الأمطار. فالحد الأدنى لمتوسط كمية الأمطار السنوية اللازمة للزراعة الجافة للحبوب وأشجار

الزيتون ، أي دون استخدام الري ، هو ٢٠٠ ملليمتر. وفي إقليم طرابلس يشمل خط أمطار المائتي ملليمتر سهل الجفاره وحافة الجبل باستثناء قطاع أكثر جفافًا يقع على سفح الجبل غربي العزيزية. أما في شرق البلاد ، فيشمل خط أمطار المائتي ملليمتر منطقة تقع شمال غربي خط يمتدّ من غمينس إلى رأس التين. ويتسارع التدهور جنوب ذلك الخط حتى نصل بعد ثمانين كيلومترًا إلى خط أمطار لا تزيد كميتها على خمسة وعشرين ملليمترًا ، إلى المنطقة الصحراوية بمعنى الكلمة (فانتولي ، ١٩٥٢).

وتحتوي المنطقة الساحلية أو منطقة البحر المتوسط شبه المدارية على أراض تصلح للزراعة وأراض أخرى غير صالحة للزراعة. ومرجع ذلك إلى التفاوت في عمق واتصال طبقة التربة الصالحة للزراعة ، سواء كانت من التربة الخفيفة (الموجودة في إقليم طرابلس) أو الطينة الحمراء الموجودة في الجبل الأخضر (خريطة مسح موارد التربة والمياه ، ١٩٧٢). والمناطق التي تغشاها طبقة رقيقة أو غير متّصلة من التربة ينمو عليها جاريج البحر المتوسط الذي ترعى عليه قطعان الماشية.

ويتكونّ الإستبس الداخلي والمنطقة شبه الصحراوية من قيعان أودية تحتوي على قدر من الرطوبة ، ومن هضاب جافة. ولا تزال قيعان الأودية تحتفظ ببعض المياه التي تجري تحت الأرض على أعماق تبلغ أحيانًا ثلاثين مترًا أو يزيد. ولا سبيل إلى استغلال هذه الإمكانات إلاّ بإقامة منشآت هيدروليكية. وتظهر على الهضاب أشكال موسمية من الغطاء العشبي توفّر المرعى لفترات قصيرة.

أما المنطقة الصحراوية فتنطوي على تباين أوضح بين الواحات وما يحيط بها من حمّادات وأياديم.

السكان قبل الفتح الإسلامي

معلوماتنا – في هذا الصدد – مستمدّة من مصادر أدبية : هيرودوت – الكتاب الرابع (انظر شامو ، ١٩٥٣) ، وديودور الصقلي – الكتاب الثالث من مكتبته التاريخية الذي يحتوي ، على الرغم من أنه أقل شهرة ، على معلومات وفيرة عن القبائل الليبية وطرق معيشتها (شامو ، ١٩٨١) ، وبلينيوس الكبير – الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي. أما المصدر الرئيسي بالنسبة للفترة البيزنطية فهو سينسيوس (انظر روك ، ١٩٨٢). ولم يجرِ أي تسجيل منظّم للبيانات الأثرية ، باستثناء ما حدث في الجزء الجنوبي من إقليم طرابلس حيث تضطلع اليونسكو بمشروع لمسح الأودية الليبية (باركر وجونز ، ١٩٨١ ؛ ريبوفات ، ١٩٨٢). أما بالنسبة لإقليم برقة، فلدينا عدد كبير من البيانات الفردية المتفاوتة القيمة والتي تنتمي إلى فترات مختلفة. وقد سبق لي استعراض هذه البيانات بإيجاز (لاروند ١٩٨٣ – أ). ولا بدّ لنا أن نشير إشارة خاصة إلى الأعمال التصويرية العديدة التي تعود أساسًا إلى الفترة ما بين القرنين الثاني والرابع ، ومنها لوحات الفسيفساء في بعض المباني الكبيرة على الساحل والنقوش البارزة

التي عُثر عليها في الأراضي الداخلية ولا سيّما نقوش جرزه (رومانللي ، ١٩٣٠ ، إلى حين نشر دراسة ليدي بروجان عن ذلك الموقع).

وكثيرًا ما يصعب تحديد التاريخ الذي تنتمي إليه المستوطنات السابقة على الفتح الإسلامي نظرًا لعدم اتفاق مواصفاتها مع المعايير الكلاسيكية للعمارة بحيث يصعب تحديد الهوية الثقافية لسكانها. إلاّ أنه سن الممكن – بطبيعة الحال – تمييز مجموعات المساكن ، أي القرى والنجوع ، سن المساكن المتناثرة. ولعلّ الأخيرة قد حُصِّنت هي الأخرى في فترات معينة على الأقل.

وترتهن كثافة المستوطنات ، في المقام الأول ، بإمكانات فلاحة الأرض في المنطقة ، وهي إمكانات كبيرة بطبيعة الحال في كل أرجاء منطقة البحر المتوسط القابلة للزراعة ، إلاّ أنها تأخذ في التردِّي كثيرًا في الإستبس والمنطقة شبه الصحراوية. ويفصل بين المستوطنات في الأودية ، مثل وادي الكبير ، عدة كيلومترات (ريبوفات ، ١٩٨٢). وفيما يتّصل بروافد وادي سوفجين ، مثل أودية جوبين وميمون ولاموت ، برهن باركر على وجود ارتباط إيجابي بين كمية المياه المتاحة والاحتياجات البشرية والحيوانية مما أتاح له تقدير حجم السكان والماشية (باركر وجونز ، ١٩٨٢).

كذلك كانت كثافة المستوطنات ترتهن بوجود طرق المواصلات ، ولا نعني بذلك مجرّد الطرق البرية الممتدّة داخل ليبيا وإنّما نعني أيضًا الطرق البحرية في البحر المتوسط التي ازدادت أهمية بالنسبة لليبيا بعد ما أصبحت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية وذلك باستثناء إقليم طرابلس في الفترة التي احتلّه خلالها الوندال. وهذا يفسّر لنا كثافة السكان في منطقة الجبل الأخضر الساحلية ، لا سيّما بالقرب من الموانئ (شامو ، ١٩٨٠) على الرغم من أن المياه فيها أقل منها في الهضبة المرتفعة.

كذلك ينبغي لنا أن نحذر التسوية بين النشاط الزراعي وبين الاستقرار في الأرض. فمن الجائز أن المساكن ومعدات التجهيز ، مثل معاصر النبيذ ، كانت تُستخدم استخدامًا موسميًا. ومن الجائز أيضًا – من الناحية المقابلة – أن المناطق التي لا يوجد بها من الآثار الظاهرة سوى الآبار أو صهاريج المياه قد تطوّرت في ارتباط بقطاعات أخرى بعيدة نسبيًا ، من خلال ترتيبات كانت لا تزال موجودة لبضع سنين خلت ، قبل أن تشرع ليبيا في برنامجها الحالي للتحديث السريع (جونسون ، ١٩٧٣ ، ص ٥١). ومن شأن هذا أن يؤثّر بعض التأثير على تقديرنا للأهمية النسبية لكل من السكان الرحل والمستقرين.

أشكال التنمية

اقتضى الشكل الأول والأكثر انتشارًا للتنمية الريفية في ليبيا ، جمع المياه والرطوبة والمحافظة عليها ، نظرًا لنفاذية أنواع التربة في منطقة البحر المتوسط وعدم كفاية موارد المياه السطحية في الداخل.

وقد بذلت ليبيا ، منذ بداية الفترة الرومانية – البيزنطية ، جهدًا خارقًا لتطوير عيون المياه وكل الموارد المائية الأخرى عن طريق حفر الآبار وبناء الخزانات. وفي هذا الصدد تتسم خريطة المنشآت المائية في إقليم برقة (أهلمان ، ١٩٢٨) بأهمية خاصة إذ أنها تبيّن استقرار الظروف المناخية التي سادت منذ بداية التاريخ الميلادي. ومن الشواهد الأخرى التي تؤكّد هذا الاستقرار عمق الآبار القديمة الموجودة في الأودية الكبيرة جنوبي إقليم طرابلس. فعمق هذه الآبار يتراوح بوجه عام بين ١٥ و ٤٠ مترًا ، مما يثبت أن الطبقات الحاملة للمياه لم تكن في ذلك الحين أكثر ارتفاعًا منها اليوم. وقد استخدمت إلى جانب الآبار والخزانات تقنيات أخرى لجمع مياه الصرف السطحية ، من خلال النزح المتقن للسطوح الصخرية وإنشاء روافد على منحدرات الأودية تتجه صوب الاستبس والمنطقة شبه الصحراوية... الخ.

وقد وُجدت أيضًا سدود على الأودية في ناحية ليبتس ماجنا (لبده) (كروفا ، ١٩٦٧) وفي جنوبي إقليم طرابلس حيث اكتُشِفَت نظم مائية بالغة الإتقان منها على سبيل المثال النظم التي اكتُشِفَت في وادي لاموت (باركر وجونز ، ١٩٨٢ ، ص ١٦).

كذلك تجدر الإشارة إلى التكسيات التي بُنيت عبر الأودية على مسافات منتظمة تتراوح بين سبعين مترًا ومائة متر. وقد صُمِّمت هذه الجدران ، التي شيدت من كتل ضخمة غير منتظمة لا يزيد ارتفاعها على مترين ، لصون التربة الصالحة للزراعة والمحافظة على قدر من الرطوبة ، وثمة أمثلة طيبة لهذه الأنظمة في وادي ميمون جنوبي إقليم طرابلس (باركر وجونز ، ١٩٨٢ ، ص ١٥) وفي وادي سناب بإقليم برقه وهو أحد الأودية المرتفعة في شبكة أودية الكوف (ب. عطية وس. ستوشى ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥٦) وقد شاهدت بنفسي أنظمة مماثلة على الساحل بالقرب من مصب وادي جيار جياروِمّة (لاروند ، ١٩٨٣ ب).

وتمثّل بقايا المعاصر القديمة النمط النموذجي لمنشآت معالجة المنتجات الزراعية وحفظها ، وهي حقيقة معترَف بها منذ زمن بعيد (مانيتي ، ١٩١٨). وقد أُجريت دراسة رائدة على إحدى المنشآت في البيداء بإقليم برقة (كاتاني ، ١٩٧٦). وليس من السهل دائمًا التفرقة بين معاصر الزيتون ومعاصر النبيذ ، إذ يمكن استخدام معصرة واحدة لكلا الغرضين. وعلى أية حال فإن انتشار هذه المنشآت يقدّم لنا مفتاحًا ثمينًا للتعرّف على أنواع المحاصيل التي كانت تُزرع في العصور القديمة. وإذا كانت معرفة الأغراض المحدّدة التي كانت تُستخدم فيها منشآت أخرى أمر أكثر صعوبة ، فإننا نلاحظ أن الأبراج (Pyrgoi) يمكن أن تكون قد استُخدمت لخزن المحاصيل أو لأغراض دفاعية.

ونأتي أخيرًا إلى المساكن. وكان هناك ضربان من البيوت : متجمّعة ومتناثرة. وتشمل البيوت المتجمّعة القرى الكبيرة أو ما يسمى بـ« القصر » ، *gasr* وهي تكثر في منطقة البحر المتوسط بصفة خاصة. أما ما يسمى بـ« الأكوام » في إقليم برقة فلم يدرس بعد (لاروند ، ١٩٨٣ ب). وتوجد مثل

هذه القرى في الداخل أيضًا في المواقع المهمة على طرق المرور، ومنها القرية الفربية (باركر وجونز، ١٩٨١، ص ١٧). أما **المساكن المجمّعة** فيمكن أن تشمل بضعة مبان، تفصلها عن بعضها البعض مسافات كبيرة في كثير من الأحيان، وكان السبب الوحيد لتجمّعها هو توفّر المياه. وهذا النمط هو الأكثر شيوعًا في تجمّعات المساكن وبخاصة في الإستبس والمنطقة شبه الصحراوية. والظاهر أن الدفاع كان يمثّل اعتبارًا ثانويًا، لا سيّما وأن هذه التجمّعات كانت تقع على المنحدرات الدنيا للأودية (باركر وجونز، ١٩٨١، ص ٣٥).

وأما **المساكن المتناثرة** فكانت تتكوّن أساسًا من مزرعة يلحق بها فناء مسوّر بجدار تشيّد عليه المباني المختلفة. وفي حالة وحيدة، كان يتوسّط هذه المباني – في أحد مساكن إقليم برقه ولعله كان مسكنًا لصاحب المزرعة – برج مبني بالحجر المرصوف جيدًا، ربّمَا كان حصنًا أو مكانًا لخزن المحاصيل أو يُستخدم لكلا الفرضين. ومن المتصوّر أن المباني الأخرى، في مثل هذه المساكن، كانت تُستخدم كحظائر للماشية أو مخازن للأدوات.

وفي الحالات التي كان فيها التشكيل الصخري صالحًا لتوفير المأوى، وُجدت أيضًا أشكال المساكن الكهفية، كما استُخدمت المقابر في بعض الأحيان، وهي حقيقة سبق أن ذكرها الكتّاب القدماء، ومنهم على سبيل المثال بطليموس في حديثه عن قبيلة لاسانيكي في إقليم برقة (لاروند، ١٩٧٧).

أنماط الزراعة

تتميّز المنطقة الساحلية، ولا سيّما في الموانئ، بسمات خاصة. فقد أتاح توافر المياه استخدام الري في زراعة محاصيل تحتاج إلى عناية بالغة، ومنها المحاصيل التي تُزرع لصق المساكن مباشرة. ولم يقتصر ذلك على إقليم طرابلس وحده، بالقرب من ليبتس ماجنا (رومانللي، ١٩٢٩، ص ٥٤٠) أو أويا – طرابلس الحالية – بل شمل أيضًا إقليم برقة، حول أبولونيا (سوسة)، ولا سيّما في المنطقة الواقعة غربي الميناء، وذلك منذ بداية الفترة الهلّينستية، الأمر الذي نتبيّنه من مسرحية «رودنز (Rudens)» لبلاوتوس، وهي مسرحية مستلهمة من ملهاة أثينية تقع حوادثها في تلك المنطقة نفسها، ونتبيّنه أيضًا من وجود مواقع عديدة جيدة الري في المنطقة الواقعة بين هانية ومتين العقيلة (لاروند، ١٩٨٣ ب). كما توفّرت موارد إضافية من صيد الأسماك وتربية الماشية، لا سيّما الضأن والماعز، في الأراضي المراحة. وتتيح لنا آثار خطوط تحديد الملكيات البادية للعيان بوضوح في شاطئ إقليم برقة، أن نحدّد بدقّة نسبية المناطق التي كانت تُربّى فيها الماشية.

وكانت الفلاحة في منطقة ساحل البحر المتوسط تقوم على الجمع التقليدي بين محاصيل الحبوب ، المتمثّلة أساسًا في القمح الصلب والشعير ، وغرس أشجار الزيتون والكرمة وتربية الماشية بما فيها الخراف والجياد. ويصدق هذا على كل منطقة الجفرة والطرف الشرقي للجبل في منطقة ترهونة (جود تشايلد ، ١٩٥١) ومصراته (رومانللي ، ١٩٢٩ ، ص ٥٤٤) ، كما يصدق على إقليم برقة ، في الهلال الخصيب الممتد من بنغازي إلى درنة. وكان شمال إقليم طرابلس يشتهر بأشجار الزيتون التي كانت مصدرًا لثروة ليبتس ماجنا منذ عهد يوليوس قيصر (جسل ، ١٩٢٤).

ومنذ بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، كانت صفحة الأرض في إقليم برقة تتبدى بصورتين مختلفتين ، وهو ما نعرفه من كتاب «تاريخ الحيوانات» ، المجلّد الخامس – ٣٠ لأرسطو ، الذي يؤيّده في ذلك سترابون (١٧ – ٣ ، ٢٣) وبلينيوس الكبير في المجلّد الخامس من «التاريخ الطبيعي». فكانت الحقول على الهضبة العالية تُخصَّص لزراعة الحبوب وتربية الماشية ، على حين تُزرع الأراضي المتوسطة الارتفاع بالأشجار ولا سيّما أشجار الزيتون. ويرجع هذا التباين إلى أن الأراضي متوسطة الإرتفاع كانت بمنجى من رياح الجنوب الجافة ، كما كانت أفضل ريًّا إذ تقع على التلال السفحية. وقد أتاح ذلك ظروفًا مؤاتية لري أنواع نباتية أكثر احتياجًا للعناية ، مثل أشجار الفاكهة والكرمة والزهور. ويذكر بلينيوس الكبير في تاريخه الطبيعي (٢١ – ١٠ ، ١٩) أن برقة كانت مشهورة بورودها التي كانت تُستخدم لصناعة عطور غالية الثمن. ولما كانت الهضبة المرتفعة أكثر جفافًا وتعرّضًا للرياح الجنوبية (القبلية) ، فقد خُصِّصت للزراعة الإنتشارية للحبوب ولتربية الماشية. وتتيح لنا آثار الأسيجة المحيطة بالأراضي التي تبدو في الصور الملتقطة من الجو ، والتي ما زال من الممكن مشاهدتها على الأرض نظرًا لوجود حدود لتعيين الملكيات وآثار للطرق القديمة ، أن نعيد تركيب صورة صفحة الأرض وأن نتبيّن مرة أخرى الضياع الكبيرة للفترة الهلّينستية ، وفي مقدّمتها الـ« *agri Apionis* » ، أي الضياع الملكيا القديمة للبطالسة ، والتي كان على الدولة الرومانية ، وبخاصة في عهدَيْ نيرون وفسبيان ، أن تحمي حقوقها فيها من عدوان الأفراد (بفلاوم ، ١٩٦٢). وكانت هناك علاقة تكاملية بين الحقول الفسيحة بأعلى الهضبة والمزارع الموجودة تحتها. فكان نفس المزارعين الذين يفلحون مصاطب الكروم وبساتين الزيتون في وادي سناب هم الذين يفلحون الأراضي المجاورة على الهضبة العالية. كما يوحي غياب أو ندرة الآثار على الأرض الخصبة الواقعة في جنوب غربي برقة بوجود علاقة بين أنشطة الفلاحة في هذه المنطقة والأنشطة الرعوية الإنتجاعية التي تميّزت بها ليبيا حتى وقت ليس ببعيد. وعلى ذلك فإن هذه المنطقة لم تكن بالضرورة حكرًا على السكان المستقرّين.

وكانت الأراضي الداخلية تتميّز بأشكال من الحياة المستقرّة في أودية منطقة الاستبس والأراضي شبه الصحراوية. فاستغلال قيعان الأودية أتاح زراعة الحبوب بل أشجار الزيتون وحتى

أشجار الكرمة. وكان من الممكن تربية الماشية، من الماعز والأغنام أساسًا، سواء في قيعان الأودية بعد الحصاد أو على الهضاب القريبة طالما توفّر بها الكلأ. وكان هذا الضرب من النشاط الرعوي يستكمله الانتجاع صوب الجنوب فيما بين شهري نوفمبر/تشرين الثاني ومارس/آذار، وصوب الشمال فيما بين مايو/أيار وأكتوبر/تشرين الأول (باركر وجونز، ١٩٨١، صفحة ٣٥).

وكانت البداوة سمة تميّز، في المقام الأول، المنطقة الصحراوية، وهو ما نعرفه من الحقائق التي لم تتغيّر منذ عهد هيرودوت (٤ – ١٧٢) الذي وصف حركات الناسامون بين واحة أوجيلة وشاطئ سرت. ولا شكّ أن حياة البدو الرعوية، التي ترتبط بأنشطة فلاحية في الواحات وفي المناطق الشمالية المتاخمة للبحر، كانت تستكمل بأنشطة جمع مثل جني محصول السيلفيوم (انظر تقرير الدكتور رجب الأثرم)، وبأنشطة ذات طابع تجاري واضح في حالة الجرامانت (دانييل، ١٩٧٠، صفحة ١٩) وأنشطة أكثر عدوانية مثل أنشطة السلب والنهب في نهاية الفترة الهلّينستية، والتي تحدّث عنها ديودور الصقلي في الكتاب الثالث (شامو، ١٩٨١) أو خلال عصر الإمبراطورية الرومانية على نحو ما رواه تاسيت في تاريخه (٤ – ٥٠).

التطور الإقتصادي

في بداية عهد الإمبراطورية الرومانية، أي في فجر القرن الأول الميلادي، كانت ثمة صورتان بالغتا التباين للحياة الريفية توجدان جنبًا إلى جنب. فكان هناك من ناحية إقتصاد يقوم على البداوة، وتمارسه القبائل الليبية في إقليمي طرابلس وبرقة على السواء، وكان هناك من ناحية أخرى إقتصاد ريفي يقوم على الزراعة الواسعة النطاق في منطقة البحر المتوسط. وكانت هذه الضياع الزراعية الكبيرة خاضعة لإدارة جباة ضرائب يمثّلون مصالح الدولة الرومانية، وهو ما يصدق بوجه خاص على الضياع الملكية السابقة في إقليم برقة. وفيما عدا ذلك كانت هذه الضياع، المملوكة للدولة أو للأفراد، تخضع لجزية تُدفع لروما، وهو ما كان يحدث مثلاً في ليبتس ماجنا (جسيل، ١٩٢٤). وقد أدّى فرض روما لسلطانها في البداية إلى صدامات مع البدو الرحل استمرّت طيلة القرن الأول الميلادي، بدءًا من حروب مرمريكا خلال عهد أوغسطس (بداية القرن الأول) وانتهاءً بحملات الفلافيان. وكانت الأرباح الناجمة عن الزراعة تدفع تطوّر المدن ولا سيّما مدن إقليم طرابلس التي أفادت أيضًا من أنشطة تجارية هامة.

وقد ظلّت الحياة الزراعية في المنطقة المطلّة على البحر المتوسط بطيئة في تطوّرها حتى منتصف القرن الثالث. إلاّ أننا يمكن أن نلاحظ أن الاقتصاد الزراعي كان يقوم على أسس وطيدة، فلم يؤثّر في إقليم برقة حادث خطير مثل التمرّد اليهودي الذي وقع في السنوات ١١٥ – ١١٧ الميلادية. وقد

أسهم عدد من العوامل في الإرتقاء بالحياة الريفية خلال تلك الفترة : الكفاءة المتزايدة للإدارة الرومانية والتقدّم في الرومنة وما ترتّب على ذلك من مزايا للأشخاص الذين حصلوا على المواطنية الرومانية ، واستغلال أراض جديدة دون أية زيادة في الضرائب تتناسب مع زيادة الأراضي. ومع ذلك لا بدّ من ملاحظة أن الامبراطورية زادت من الأراضي المملوكة لها خلال عهد سبتيميوس سفيروس ، ولا سيّما في إقليم برقة حيث عين أحد الفرسان « *eques* » مديرًا ماليًا (رينولدز ، ١٩٧١).

وفيمَا بين نهاية القرن الأول ونهاية القرن الثالث حدث تغيّر واسع المدى في الأراضي الداخلية تمثّل في نشأة نمط من الحياة المستقرّة وبذل جهد مرموق لاستغلال الأرض في قيعان الأودية. وتشمل هذه المنطقة أودية سوفجين وزمزم وكبير وفروعها ، وهي منطقة تمتدّ غربًا حتى مشارف الشويرف في الحمادة الحمراء ، وتمتدّ جنوبًا إلى ما بعد البونجم (ريبوفات ، ١٩٨٢). كما امتدّت إلى المنطقة الساحلية المحيطة بتمد حسن وسرت وامتدّت جنوبًا إلى إقليم برقة ، والجبل الأخضر ، في الأرض الداخلية الواقعة بين الأبجار والمقيلي ، وكذلك في مرمريكا إلى الجنوب من طبرق. والمأمول أن تجري في إقليم برقة عملية تنقيب مماثلة للعملية التي جرت في جنوبي إقليم طرابلس. وقد كانت المستوطنات دائمًا صغيرة ، وكان عدد الأشخاص الذين تعولهم الوحدة الإنتاجية محدودًا : فالخمسون هكتارًا التي كانت تشكّل الموقع الرئيسي في وادي ميمون كانت على الأرجح ، على ما يذهب إليه باركر ، لا توفّر من الحبوب إلاّ ما يكفي نحو أربعين شخصًا ومن الزيت ما يكفي قرابة مائة شخص (باركر وجونز ، ١٩٨٢ ، صفحة ٢٠). وإذا كان الجيش الروماني في عهد سفيروس قد ظلّ مرابطًا هناك لمدة نصف قرن ، وكان مستهلكًا كبيرًا للأغذية ، فإن ذلك لا يعني أنه كان هناك من الموارد المحلية ما يكفي لسدّ احتياجاته ، فقد كان معظم الإمدادات الغذائية يأتي من الساحل (ريوفات ، ١٩٧٧ ، صفحة ٤٠٩). فلم تكن عملية الإستقرار وما صاحبها من ازدهار زراعي في المنطقة ، نتيجة ترتّبت على وجود الجيش الروماني بل كانا سببًا له ، فقد استمرّا طويلاً بعد رحيل الرومان مما يبرهن على أنهما كانا نابعين من ليبيا وأن الحياة الريفية في ليبيا كان يغلب عليها الإكتفاء الذاتي. وواقع الأمر أن جرذة قد استمرّت في الازدهار حتى القرن الرابع. فالنقوش البارزة على القبور تصوّر مشاهد للقنص والزراعة ، وتظهر في المشاهد الزراعية صور للكروم وأشجار الزيتون والرمّان بالإضافة إلى الحبوب ، كما تظهر فيها الإبل بوفرة. وكان التطوّر الوحيد الذي يمكن ربطه بانسحاب الجيش الروماني هو ظهور المزارع المحصّنة (باركر وجونز ، ١٩٨٢ ، صفحة ٣).

وخلال الفترة البيزنطية ، من القرن الرابع إلى القرن السابع ، حدث تغيّر في توازن الإقتصاد نتج إلى حد كبير عن انكماش التجارة. وبذلك انتهت التكاملية التي كانت تتّسم بها العلاقة بين منطقة ساحل البحر المتوسط والأراضي الداخلية. وكان الحدث الرئيسي في حياة سكان الساحل

الشمالي في إقليم طرابلس هو غزو الوندال. وعلى الرغم من أنهم لم يحتلّوا المنطقة بكاملها، فقد أعاقوا تطور الحياة الحضرية وعزلوا المنطقة على الرغم من عودة البيزنطيين لفترة قصيرة. ولم تؤد هجمات البدو إلى إحداث اضطراب واضح في الحياة الريفية. وإذ اتّخذنا ما حدث في برقة مقياسًا، وجدنا أنه على الرغم من شكوى سينسيوس من هذه الهجمات (روك، ١٩٨٢) فإن كثافة السكان في برقة بلغت ذروتها في تلك الفترة. وربّما أن زيادة قوة الكنيسة قد أسهمت في اقتطاعها لجانب كبير من الموارد الزراعية، إذا ما حكمنا بالعدد الكبير من الكنائس سواء في المدن الكبيرة والصغيرة أو في الريف. وتتجلّى نزعة المنطقة إلى الإكتفاء ذاتيًا والإنغلاق على نفسها فيما يرويه سينسيوس عن الفلاّحين في القرى الواقعة على الهضبة وكيف أنهم لم يروا السمك في حياتهم وكانوا يتوهّمون ثعابين البحر حيات.

وقد حافظت الأراضي الداخلية في بعض الأماكن على أسلوب الحياة المستقرّة حتى بداية الفترة الإسلامية (باركر وجونز، ١٩٨١، صفحة ٣٨). إلاّ أن التقدّم في ذلك الإتجاه قد أُعيق منذ بداية القرن الرابع، وهو ما يرجع في المقام الأول إلى إجهاد الأرض ابتداءً من القرن الأول، ممّا أدّى إلى إتلاف الغطاء النباتي نهائيًا بعد أن حلّت محلّه المحاصيل وإلى تآكل التربة بصورة سريعة. وفي الوقت نفسه أدّى نضوب المياه السطحية في عدد من الأماكن إلى تفاقم عملية التصحر. ومن هنا يمكن أن يُقال أن البدو الرحل قد ورثوا الصحراء ولم يصنعوها (لي هويرو، ١٩٥٩، صفحة ١١٨).

الخلاصة

إن إمعان النظر في الحقائق يكشف عن استقرار البيئة بوجه عام. فالتغيرات التي حدثت منذ العصور القديمة وحتى الآن كانت محلية الطابع وراجعة إلى تغيرات في المناخ المحلي، وإلى اختفاء أشكال من النباتات كانت بسبيلها إلى الانقراض منذ العصور القديمة، وإلى دمار التربة. وتصدق هذه الاستنتاجات بوجه خاص على منطقة الاستبس والمنطقة شبه الصحراوية الأكثر عرضة للتأثر بالتغيرات.

وعلى الرغم من تقسيم ليبيا إلى ولايتين، ولاية أفريقيا التي كان يحكمها نائب القنصل (إقليم طرابلس فيما بعد) وولاية قورينة (برقة) ومملكة الجارامنت في الداخل، فإن الحياة الريفية في البلاد تكشف عن قدر من الوحدة داخل كل منطقة من هذه المناطق الجغرافية. كما يجدر الإهتمام أيضًا بنوعية التطوّر الريفي.

وكان الوضع الذي ساد في عهد الإمبراطورية الرومانية قد دخل مرحلة التأزّم خلال الفترة البيزنطية، أي قبل الفتح العربي.

المراجع :

AHLMANN, H. W. 1928. La Libye septentrionale. Études de géographie physique et humaine. *Geografiska Annaler*. No. 10, pp. 1-118

ATTIYAH, B.; STUCCHI, S. 1974. Prima escursione nello uadi Senab e nel Got Giaras. *Libya Antiqua*, Nos. 11-12, pp. 251-96.

BARKER, G. W. W.; JONES, G. D. B. 1981. The Unesco Libyan Valleys Survey, 1980. *Libyan Studies*, No. 12, pp. 9-48

—. 1982. The Unesco Libyan Valleys Survey, 1979-1981: Palaeoeconomy and Environmental Archaeology in the Pre-Desert. *Libyan Studies*, No. 13, pp. 1-34.

CATANI, E. 1976. I frontoi della fattoria bizantina di El Beida. *Quaderni di archeologia della Libia*, No. 8, pp. 435-48.

CHAMOUX, F. 1953. *Cyrène sous la monarchie des Battiades*. Paris, De Boccard. (Bibliothèque de l'École Française, Athènes et Rome, 177).

—. 1980. Les travaux de la mission archéologique française à Apollonia de Cyrénaïque. *Bulletin de la Société nationale des Antiquaires de France*, pp. 32-5.

—. 1981. Diodore de Sicile et la Libye. *Simposio internazionale Cirene et i Libci*. Rome and Urbino.

CROVA, B. 1967. Opere idrauliche romane all'uadi Caam, il Cinyps della Tripolitania romana. *Quaderni di archeologia dclla Libia*, No. 5, pp. 99-120.

DANIELS, C. 1970. *The Garamantes of Southern Libya*. London, Hodder & Stoughton.

EL HACHAICHI, M. 1912. *Voyage au pays des Senoussia á travers la Tripolitaine et les pays touareg*. Translated by V. Serres and Lasram. Paris, Challamel.

FANTOLI, A. 1952. *Le pioggie della Libia con particolare riguardo alle zone di avvaloramento*. Rome, Ministero dell'Africa Italiana.

GOODCHILD, R. G. 1951. Roman Sites on the Tarhuna Plateau of Tripolitania. *Papers of the British School at Rome*, No. 19, pp. 43-77. (Reprinted in *Libyan Studies*, pp. 72-106. London, Paul Elek, 1976.)

GSELL, S. 1924. L'huile de Leptis. *Rivista della Tripolitania*, No. 1, pp. 41-6. (Reprinted in *Études sur l'Afrique antique. Scripta varia*, pp. 151-6, Lille. Université de Lille III, 1981. (Travaux et recherches.)

JOHNSON, D. L. 1973. *Jabal al-Akhdar Cyrenaica: An Historical Geography of Settlement and Livelihood*. Chicago, The University of Chicago, Department of Geography. (Research Paper No. 148.)

LARONDE, A. 1977. *Libykai Historiai. Recherches sur l'histoire de Cyrène et des cités grecques de Libye*. Paris, Université de Paris-Sorbonne.

—. 1983a. Aspects de l'exploitation de la chôra cyrénéenne. *Society and Economy in Classical Cyrenaica*. London, British Academy Reports.

—. 1983b. Kainopolis de Cyrénaïque et la géographie historique. *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. Comptes rendus*, pp. 67-85.

LE HOUÉROU, H. N. 1959. *Recherches écologiques et floristiques sur la végétation de la Tunisie méridionale*. Algiers, Institut de Recherches Sahariennes.

LIBYAN ARAB REPUBLIC. 1972. *Soil and Water Resources Survey Map*. Tripoli; *Carte de la Cyrénaïque* (1/250,000). Paris, GEFLI.

MANETTI, O. 1918. *Gli'Asnam' del Gebèl Tripolitano. Note di archeologia agraria tripolitana*. Florence, Istituto Agricolo Coloniale italiano.

DE MARTINO, G. 1912. *Tripoli Cirene e Cartagina*. Bologna, Nicola Zanichelli.

PACHO, J. R. 1828. *Relation d'un voyage dans la Marmarique, la Cyrénaïque et les oasis d'Audjelah et de Maradeh*. Paris, Firmin Didot. (Reprinted by J. Laffitte, Marseille, 1979.)

PFLAUM, H. G. 1962. Légats impériaux à l'intérieur de provinces sénatoriales. *Hommages à A. Grenier*, pp. 1232-42. Brussels, Coll. Latomus 3.

REBUFFAT, R. 1977. Une zone militaire et sa vie économique: le limes de Tripolitaine. *Armées et fiscalité dans le monde antique*. Paris, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique.

—. 1982. Recherches dans le désert de Libye. *Académie des Inseriptions et Belles-Lettres. Comptes Rendus*, pp. 188-99.

REYNOLDS, J. M. 1971. Two equites romani at Balagrae in Cyrenaica. *Libya Antiqua*, No. 8, pp. 43-6.

ROMANELLI, P. 1929. L'economia della Tripolitania romana sulla base delle scoperte archeologiche. *Revista delle eolonie italiane*, No. 3, pp. 537-51.

—. 1930. La vita agricola tripolitana attraverso le rappresentazioni figurate. *Africa Italiana*, No. 3, pp. 53-75.

ROQUES, D. 1982. *Synésios de Cyrène et la Cyrénaïque de son temps*. Paris, Université de Paris-Sorbonne.

نبات السيلفيوم في إقليم برقه

رجب الأثرم

كان السيلفيوم (السلفيون باليونانية) منتجًا من أهم المنتجات الإقتصادية لإقليم قورينة (برقة) خلال العهدين اليوناني والبطلمي. إلاّ أنه على الرغم مما بذله علماء الآثار والنبات من جهود مضنية خلال القرنين الماضيين، لم يُعثر على دليل يثبت استمرار وجوده في المنطقة. وسأحاول – في بحثي هذا – أن ألقي الضوء على هذا النبات الذي يعدّ الآن نباتًا منقرضًا.

لقد ورد ذكر السيلفيوم بالإسم في كتابات قديمة وكانت معظم عملات قورينة تحمل صورته[١]. فهيرودوت[٢] يصفه بأنه نبات معروف وشائع الاستعمال. وثيوفراستومس[٣] يتحدّث عنه بإسهاب، بينما يحدّد سترابون[٤] مناطق نموّه ويتحدّث بلينيومس الصغير[٥] عن مزاياه العظيمة.

ويذكر سكيلاكس[٦] أن أول منطقة أنتجت السيلفيوم كانت خليج بمبا. ويقول ثيوفراستوس[٧] إن النبات ظهر في أعقاب هطول أمطار غزيرة قبل سبع سنوات من إنشاء مدينة قورينة، ويؤيّده في ذلك بلينيوس الصغير[٨]. ويبدو هذا القول مقبولاً إذ كان خليج بمبا أول منطقة ينزل بها الإغريق. وقد حدث ذلك في الفترة التي حدّدها ثيوفراستومس وبلينيوس. ولعلّها كانت المرة الأولى التي رأى فيها الإغريق ذلك النبات، وربما كان موجودًا في المنطقة قبل ذلك بوقت طويل ولم تُعرف قيمته الكبيرة قبل الفترة اليونانية.

وكان النبات ينمو على الهضبة الواقعة فيما بين الهلال الخصيب والصحراء، ابتداءً من منطقة خليج بمبا شرقًا إلى منطقة سرت في الغرب[٩]، ويكثر بوجه خاص في الأراضي المتاخمة ليوهسبريدس (بنغازي الحالية) أي في نطاق يربو على الخمسمائة ميل[١٠]. ويعني هذا أن النبات كان ينمو في المنطقة الواقعة تحت السيطرة الليبية. وكان الليبيون، الذين ينفردون بمعرفة موسم حصاد هذا النبات، يجمعونه وينقلونه إلى المدن التي يصدّر منها إلى اليونان.

وقد أخفق اليونانيون فيما بذلوه من محاولات لتهجين السيلفيوم وزراعته في بلادهم، فقد كان نباتًا صحراويًا بريًّا[١١]. ويذكر سترابون أن المنطقة التي كان ينمو فيها كانت تتكوّن من أشرطة طويلة من الأرض الجافة يبلغ عرض الواحد منها نحو ثلاثمائة ستاديوم[١٢] (وحدة قياس يونانية قديمة تتراوح بين ٦٠٧ و ٦٣٨ قدمًا انجليزيًا). وإذا كان السيلفيوم لا يظهر في حسابات مراقبي الأسواق

demiourgoi ، فذلك لأنه لم يكن يُباع في أسواق المدن اليونانية في إقليم قورينة ، وإنّما كان يصدّر بكامله . وكانت لهذا النبات جذور طويلة قوية تتغلغل عميقًا في الأرض ، وكانت براعمه تظهر في الربيع[١٣] ، ثم تنمو الساق إلى أن تصبح في حجم ساق نبات القنة[١٤] . وكانت الأوراق – التي أطلق عليها الإغريق اسم ماسبتون[١٥] – تنمو بالتبادل على كلا جانبي الساق أو متقابلة في بعض الأحيان[١٦] ، وتشبه أوراق المقدونس أو الكرفس[١٧] . وينتهي الساق دائمًا بعنقود من الزهور الصغيرة المستديرة التي تجفّ في نهاية موسم النو . وعندئذ كانت رياح الجنوب تبعثر البذور على مساحات كبيرة من الأرض[١٨] ، بحيث تُغرس البذور لمحصول العام التالي دون جهد بشري .

وحين نفحص صور هذا النبات المنقوشة على العملات ، نجد أنها تتفق مع الأوصاف الواردة في النصوص اليونانية . ويمكن أن نميّز بين نوعين من العملات ، نوع لا تظهر عليه سوى ثمرة النبات ونوع يظهر عليه النبات كاملاً . وفي هذا الصدد ، يقرّر روبنسون[١٩] ، معتمدًا على أسانيد فنية ، أن العملات التي تظهر عليها صورة الثمرة وحدها أقدم من العملات التي تحمل صورة النبات كاملة ، وأن النوع الأول يرجع إلى الفترة السابقة على عام ٤٨٠ قبل الميلاد .

وهناك فوائد عديدة لهذا النبات الذي كان معروفًا جيدًا خلال تلك الفترة ، فكان يُعتبر علفًا جيدًا للماشية إذ يسمنها ويجعل لحمها طيب المذاق كما يؤكّد ثيوفراستوس[٢٠] وبلينيوس الصغير[٢١] . كذلك كان يُعتبر نوعًا ممتازًا من الخضروات[٢٢] ، وكانت سيقانه تؤكل بعد تقطيعها قطعًا صغيرة وتخليلها[٢٣] . وكان يُستخدم أيضًا ، كما يذكر أثينايوس[٢٤] ، كأحد المكوّنات التي تدخل في طبخ نوع من السمك يسمى « البودبون » .

أما الذي كان يفوق كل ذلك في أهميته فهو العصارة المستخرجة من جذور النبات وسيقانه ، وكانت العصارة المستخرجة من الجذور تُعدّ أفضل من نظيرتها المستخرجة من السيقان . فكانت تُمزج بالدقيق ليُصنع منها مستحضر طبّي يمكن الاحتفاظ به مدة طويلة . ويذكر ثيوفراستوس[٢٥] أنه لولا ذلك لفسدت العصارة . كما يذكر بلينيوس الصغير[٢٦] أن أوراق النبات كانت تُستخدم كعلاج لتوسيع الرحم ودفع الجنين الميت ، بينما كانت جذوره علاجًا ممتازًا لالتهابات القصبة الهوائية ، وكانت تُستخدم بعد خلطها بالزيت لعلاج الجروح ، وبعد خلطها بالشمع لعلاج أورام الغدة اللمفاوية . وكانت عصارة السيلفيوم ، عند تناولها كشراب ، تخفّف آلام الأعصاب وتوقف آثار التسمّم من الأسلحة ولدغ الثعابين وعض الكلاب . كما كان المسنّون يستخدمونه كهاضم ومسكّن للسعال وآلام الأسنان وعلل أخرى .

ولا تدع النصوص مجالاً للشك في أن نبات السيلفيوم كان يخضع لإشراف الملوك مباشرة وأن التجارة فيه كانت حكرًا ملكيًا . وكان ملوك أسرة باطّوس يأخذونه من الليبيين كضريبة . وبعد سقوط دولتهم ، حصلت القبائل الليبية على الاستقلال الداخلي وكانت تبيع النبات للإغريق[٢٧] .

ومن المرجّح أن البطالمة قد فرضوا الاحتكار على السيلفيوم في فترة لاحقة ؛ فثمة شواهد كثيرة تثبت أن النبات كان يخضع للاحتكار الملكي ، ومنها كأس رسمت عليه صورة لاركسيلاس الثاني وهو يشرف على وزن السيلفيوم[٢٨] وتعبئته في أكياس[٢٩] . ويشير سترابون[٣٠] إلى وجود تجارة سرية في السيلفيوم بين تجار قورينة (ولعلهم كانوا ليبيين) وتجار قرطاجة الذين كانوا يقايضونهم بالكحول.

كما يشير شامو[٣١] إلى استخدام ارستوفانيس (–٤٥٠ إلى –٣٨٥) لتعبير «سيلفيوم باطّوس» في كتاباته. وهناك أيضًا صورة للنبات على رأس عمود يظهر فيه الملك باطّوس الأول وأمامه نبات السيلفيوم بكامله ، وربّما كان في ذلك ما يؤكّد أن السيلفيوم كان احتكارًا ملكيًا[٣٢] . وكان النبات يُباع مقابل وزنه فضة ، وكانت الشحنات التي تُرسل إلى روما تُحفظ في الخزانة العامة ، مثلها مثل الذهب والفضة[٣٣] ، مما يدل على قيمته العظيمة.

ومن الغريب أن يختفي نبات كانت له مثل هذه الأهمية البالغة وكان موضوعًا تحت الرقابة الملكية ؛ فقد أخذ محصول السيلفيوم يتناقص بسرعة ابتداءً من العصر الروماني. ويذكر بلينيوس[٣٤] أن يوليوس قيصر حين استولى على السلطة بعد انتهاء العهد الجمهوري ، وجد ١٥٠٠ رطل من السيلفيوم في الخزانة العامة فضلاً عمّا وجده فيها من ذهب وفضة. وفي عهد نيرون كان نبات السيلفيوم قد أصبح شديد الندرة حتى أن تويجًا منه قدم إلى الامبراطور على أنه هدية ثمينة.

وقد طرحت أسباب عديدة لتفسير انقراض السيلفيوم. ويفسر سترابون[٣٥] اختفاءه بعداء الليبيين للإغريق ورغبتهم في حرمانهم من مصدر عظيم من مصادر الدخل بتدمير جذور السيلفيوم واجتثاثها من الأرض. أما بلينيوس[٣٦] فيفسّر انقراضه بلجوء جباة الضرائب (*Publicani*)[٣٧] ، الذين كانوا يؤجّرون أراضي المراعي في تلك الأجزاء ، إلى القضاء على السيلفيوم تمامًا ، إذ تركوا الأغنام ترعى فيه ساعين إلى تحقيق أرباح أعظم (والمقطوع به أن الأغنام كانت تلتهم السيلفيوم بشراهة).

ويعزو البعض انقراض السيلفيوم إلى تغيّر الظروف المناخية أو إلى استغلال الأراضي التي كان ينمو عليها في زراعة المحاصيل. وهذه المزاعم لا سند لها ، فليس هناك ما يشير إلى حدوث مثل هذا التغيّر في الظروف المناخية بعد العصر اليوناني ولم تُستخدم الأراضي التي كان ينمو عليها السيلفيوم في الزراعة بانتظام منذ ذلك العهد.

وربّما كان اختفاء السيلفيوم راجعًا بالفعل إلى شراهة قطعان الأغنام. فقد كانت هناك مراع كثيرة في المنطقة التي ينمو فيها السيلفيوم ، مما يحتمل معه أن تكون الأغنام قد أتت على أشجاره بحيث لم تتح للنبات فرصة التكاثر. وربّما كان تزايد أهمية العصير المستخرج من جذور هذا النبات سببًا آخر لاختفائه. فلعلّه أدّى إلى تدمير الجذور وإلى انقراض النبات بالتالي. كما أننا لا نستطيع أن

نتغاضى هنا عن السبب الذي ألمح إليه سترابون ، وهو عداء الليبيين لمحتلّي بلادهم ، فهذه حقيقة يعرفها كل من درس تاريخ المنطقة حتى الفتح الإسلامي .

ولا بدّ أن نوضح ، قبل أن نختم هذه المناقشة عن السيلفيوم ، أنه على الرغم من أن هذا النبات كان احتكارًا ملكيًا ، فإنه لم يظهر قط في النقوش اليونانية . ولست أجد لذلك تفسيرًا سوى أن هذا النبات كان يخضع لسيطرة القبائل الليبية فهي التي كانت تجنيه وتسلّمه إلى الملوك الذين كانوا يقومون بتصديره . وبعد سقوط النظام الملكي كان الليبيون يبيعونه للحكام الإغريق .

ولا بدّ لنا أن نؤكّد في النهاية أن صورة هذا النبات ظهرت مرة واحدة على تاج عمود في ساحة المدينة ، رُسمت عليه رأس الملك باطّوس في مواجهة صورة لنبات السيلفيوم كاملاً[٣٨] . ويبدو أن هذا الرسم هو الوحيد من نوعه الذي عُثر عليه حتى الآن منقوشًا على أثر تذكاري . وقد ظهر إلى جانبه من جهة ، قناع يمثّل «التراجيديا» ، ومن جهة أخرى قناع يمثّل « الكوميديا » . وربّما يرمز هذان القناعان إلى الجانبين المظلم والمضيء للحياة في إقليم قورينة . ويوجد العمود الذي يعلوه هذا التاج في الجزء الغربي من ساحة المدينة .

الملاحظات

١. استخدم السيلفيوم كشعار على عملات قورينة منذ بداية سكّ العملات فيها وعلى امتداد العصرين اليوناني والبطلمي . E.S.G. Robinson, *Catalogue of Greek Coins of Cyrenaica,* Bologna, 1965; C. Seltman, *Greek Coins,* p. 44, London, Spink & Son, 1977.

٢. Herodotus, IV. 169

٣. Theophrastus, VI, iii

٤. Strabo, XVII. 20-21-22, 23

٥. Pliny the Younger, V, 5; XIX. 15; XXII. 48, 49

٦. Scylax, 108

٧. Theophrastus, VI. iii

٨. Pliny the Younger, XIX. 15

٩. A. Jones, *The cities of the Eastern Roman Provinces,* p. 356, Oxford, Clarendon Press, 1937

١٠. Theophrastus, VI. iii

١١. Jones, op. cit., p. 356; F. Chamoux, *Cyrène sous la monarchie des Battiades,* p. 248, Paris, 1953

١٢. Strabo, XVII. 23

١٣. Theophrastus, VI, iii

١٤. نبات يُستخرج منه نوع من الصمغ الطبّي – انظر Theophrastus, VI, iii

١٥. Chamoux, op. cit., p. 254

١٦. Theophrastus, VI. iii
١٧. Pliny the Younger, XIX. 15: Chamoux, op. cit., p. 254
١٨. Theophrastus, VI. iii
١٩. يعود تاريخ العمارت التي تحمل صورة ثمرة السيلفيوم إلى الفترة السابقة لعام ٤٨٠ ق. م. – انظر:
Robinson, op. cit., Pl. I, 3, 5; Pl. II, 1, 4, 6, 8 ff.; Pl. III, I, 3; Pl. IV, I, 3, 5, 6.
أما العمارت التي يظهر عليها النبات كاملاً فترجع إلى الفترة التالية لعام ٤٨٠ ق. م.
Ibid., Pl. V. 13, 16, 17, 21; Pl. VI, 1, 3, 8, 9, ff.; Pl. VII, 1, 5, 17, 18, 19.
٢٠. Theophrastus, VI. iii
٢١. Pliny the Younger, XIX. 15
٢٢. Theophrastus, VI. iii; Pliny the Younger, XIX. 15
٢٣. Chamoux, op. cit., p. 250; J. Boardman, *Greeks Overseas. Their Early Colonies and Trade*, p. 172, London, Thames & Hudson, 1980
٢٤. Athenaeus, XIV, 623
٢٥. Theophrastus, VI. iii
٢٦. Pliny the Younger, XXII. 48, 49
٢٧. Jones, op. cit., p. 356; Chamoux, op. cit., p. 249
٢٨. يذكر بوري أن كأس اركسيلاس يصوّر الملك وهو يشرف على وزن وتعبئة الصوف، وهو يختلف في ذلك مع معظم المؤلّفين الذين يعتقدون أن الكأس يصوّر الملك وهو يشرف على وزن السيلفيوم. انظر:
J. B. Bury, *A History of Greece to the Death of Alexander the Great*, 3rd ed., p. 117 Fig. 46, Oxford University Press, 1963
٢٩. Chamoux, op. cit., p. 249; C. H. Coster, *The Economic Position of Cyrenaica in Classical Ages*, p. 12, Chicago, Johnson, 1951
٣٠. Strabo, XVII. 20
٣١. Chamoux, op. cit., p. 249
٣٢. هذه الصورة هي أول صورة من نوعها تشاهد منقوشة على أثر تذكاري، إذ لم نجد هذا النبات مرسومًا على أي أثر غير العمود سالف الذكر – انظر:
Stucchi, *Cirene, 1957-1966*, p. 114, Fig. 91, Tripoli, 1967
٣٣. Pliny the younger, XIX, 15; Coster, op. cit., p. 13
٣٤. Chamoux, op. cit., p. 250
٣٥. Strabo, XVII. 22
٣٦. Pliny the Younger, XIX. 15
٣٧. Pliny the Younger, XIX. 15
٣٨. من المعروف أنه حين استولت روما على قورينة في عام – ٩٦، أصبحت الأراضي التي ينمو فيها نبات السيلفيوم من الأموال العامة التي تملكها روما، وفرضت ضريبة على هذا النبات – انظر:
Stucchi, op. cit., pp. 113, 114, Fig.. 91

لغة وهجرات رعاة الماشية القدامى في الصحراء الكبرى : تكوين فرع البربر

ب. بيرنز

هناك نوعان من المصادر لاستقاء معلومات عن تاريخ ليبيا القديم : كتابات المؤلّفين الكلاسيكيين والوثائق المصرية. وإذا كان الكتّاب الكلاسيكيون، مثل هيرودوت، يوردون على الأقل بعض التفاصيل الشائقة عن الليبيين القدماء، فإن المصادر المصرية، التي تغطّي الفترة السابقة على الكتّاب الكلاسيكيين تكاد تخلو إلاّ من ذكر الأسماء الإثنية والحروب والحملات التأديبية وصور الأسرى والغنائم من الماشية. وحتى الرسوم المصرية التي يظهر فيها الليبيون القدماء – وإن كانت لا تخلو في حد ذاتها من المعلومات – لا تضيف إلى معلوماتنا الحالية إلاّ النزر اليسير (ڤارن أوسنج، ١٩٨٠، الحواشي ص ١٠١٥). وتتبع هذه الدراسة نهجًا مختلفًا في محاولة لتحديد بعض معالم تاريخ ليبيا القديم.

مشكلات منهجية

تستند الدراسة التالية على المصادر المصرية وبحوث ما قبل التاريخ والشواهد اللغوية. ويرتكز جانب من الأسانيد، وهو الجانب اللغوي، على افتراض مؤداه أن اللغات السامية، واللغة المصرية القديمة، واللغات الكوشية الأوموتية، والتشادية، والبربرية – ترتبط جميعًا «بصلة الرحم» وتمثّل أسرة لغوية واحدة. وقد أصبح الإسم المألوف لهذه الأسرة اللغوية هو «الأسرة الأفرو آسيوية»، وإن كان لها إسم أقدم لا يزال مستخدمًا وهو اللغات الحامية – السامية. ويقوم «النموذج التكويني للأسرة اللغوية» على افتراض وجود «لغة أصلية» نشأت في موطن واحد، وتفرّعت عنها لغات أو أفرع لغوية كاملة سواء على فترات متعاقبة أو دفعة واحدة. ويمكن أن يحدث ذلك، مثلاً، عند هجرة بعض الناطقين باللغة الأصلية مع بقاء البعض الآخر في الموطن القديم. ويعتقد بوجود أسرة لغوية ناشئة عن أصل واحد، حين تكشف لغات مختلفة عن قدر من التماثل في شتى عناصر البنية اللغوية يتعذّر معه تفسير هذه الظواهر تفسيرًا سائغًا إلاّ بافتراض وجود نسق أساسي مشترك (اللغة الأصلية). (ڤارن سامس، ١٩٨٠، ص ١٤٦).

وقد برهن النجاح في تصنيف اللغات الهندية – الأوروبية صحة «النموذج التكويني للأسرة اللغوية». وقد طرح هذا النموذج بالنسبة لأسرة اللغات الأفرو آسيوية، وعلى الرغم من عدم كفاية البحوث التي أُنجزت حتى الآن، فإن احتمالات رجحانه كبيرة. بيد أنه لم يتم التوصّل بعد إلى دليل حاسم (لا سيّما وأن علماء اللغات السامية يظهرون بعض التردّد).

وينبغي أن يكون هذا التحفّظ ماثلاً في الأذهان عند النظر في الأفكار التالية:

المصادر المصرية

قام المبعوث – التاجر حرخوف (حوالى – ٢٢٣٠) بثلاث رحلات صاعدًا في النيل إلى أن وصل إلى كرمه في أعالي النوبة. وهو يذكر أن حاكم كرمه يحارب قبائل تعيش في المنطقة الواقعة غربي الجندل الرابع. وهذه القبائل تُسمى الـ«تمحو» *ṯmḥw*. وبعد فترة قصيرة من رحلات حرخوف، هاجر بعض هذه القبائل إلى وادي النيل واستقرّ في المنطقة الواقعة بين الجندلين الثاني والثالث. ويطلق علماء الآثار على هؤلاء الوافدين الجدد إسم «المجموعة جـ». وقد ثبت أنهم كانوا من رعاة الأبقار وأنهم كانوا يحتفظون بأعداد صغيرة من رؤوس الماشية (بيتاك ١٩٦٦، ص ٣٨). كما أمكن تحديد اللغة التي كان يتكلّم بها أفراد «المجموعة جـ»، وبالتالي لغة «التمحو»، بأنها لغة ذات صلة بلغة البربر الحالية. وهذا الرأي يرتكز على الشواهد التالية: بعد زهاء ٥٠٠ عام من وصول «التمحو» (المجموعة جـ)، وصلت إلى وادي النيل مجموعة إثنية جديدة استوطنت نفس الأراضي التي كانت تعيش فيها «المجموعة جـ»، وشكّلت بذلك مجموعة سكّانية مختلطة الأعراق. وكانت لغة الوافدين الجدد هي النوبيينيه Nobiin (وهي فرع من اللغات النوبية النيلية وتسمى في الكتابات الأقدم عهدًا لغة المحس) التي لا يزال يوجد من يتكلّمها في المنطقة. وتحتوي النوبيينية، وسائر اللغات النوبية النيلية، على عدد من الكلمات التي يوجد لها نظير في مآصل (lexemes) اللغات البربرية الحالية. ولا خيار أمامنا، لتفسير هذه الطبقة التحتية اللغوية، إلاّ أن نفترض أن أسلاف المتحدّثين بالنوبيينية، أي المجموعة جـ أو «التمحو»، كانوا ينتمون لغويًا إلى فرع البربر (فيسيشل ١٩٦١، ص ٢٨٩؛ برنز ١٩٨١، الصفحات ٢٤ وما يليها و٣٦ وما يليها؛ بتشهاوس جرست، ١٩٨٣، ص ١٢٧ وما يليها). وترد بالمرفق الأول أمثلة لهذه الطبقة التحتية البربرية في اللغات النوبية النيلية.

وفضلاً عن السيرة الشخصية الواردة على المسلة التذكارية للملك انيوتف الثاني (حوالى – ٢٢١٨ – ٢٠٦٩)، والتي تتضمّن بعض التفاصيل عن إعادة توحيده للصعيد، فإننا نجد أيضًا رسومًا لكلابه الخمسة وقائمة بأسمائها. ومن بين هذه الكلاب كلب للصيد – أو سلوقي – أُطلق عليه إسم غير مصري وهو *3b3qr*. وكما أوضح أ. باست منذ زمن طويل (١٨٩٧، ص ٨٩)، فإن

هذا الإسم يطابق تمامًا كلمة بربرية (طوارق الهجار) وهي كلمة *abaikur* التي تعني «كلب صيد – سلوقي». ولما كان هذا الكلب لم يأتِ بالتأكيد من منطقة الهجار، وكان انيوتف الثاني منقطع الصلة بالتحنو على الحدود الشمالية الغربية للدلتا (فقد ظلّ يحارب طيلة حياته حكام هيراقليوبوليس في مصر السفلى) (انظر فيما يتعلّق بالتمحو الشماليين المصدر المصري رقم ٥)، فإن التفسير السائغ هو أن الكلب الذي يحمل هذا الإسم كان هدية أو جزية جاءت من الجنوب، أي من التمحو الناطقين بالبربرية – أو المجموعة جـ – في أيام انيوتف.

ويبدو أن التمحو ظلّوا يعيشون في مناطق السافانا الجافة المتاخمة لغربي النيل الأعلى (ابتداءً من الجندل الثاني إلى الجندل الرابع) على الأقل حتى عهد رمسيس الثاني (– ١٢٩٠ – ١٢٢٤). فقد عثر في وادي السبوع بالنوبة على لوحة تكريس للضابط المصري راموز جاء فيها أن راموز قد أوفد لتجنيد عمّال بناء من بين التمحو لبناء المعبد المحلي (يويوت، ١٩٥١، ص ٩).

وعند اغتيال أمنمحت الأول (– ١٩٩١ – ١٩٦٢) شن خليفته سيزوستريس الأول حملة على التمحو الذين كانوا يعيشون على أطراف مصر في أراض متاخمة لدلتا النيل (جوديكه، ١٩٥٧، ص ٨٥؛ سبالنجر، ١٩٧٩، ص ١٣٧)، وقيل إن ولي العهد استولى على كل ماشية التمحو.

وتكشف المصادر المصرية إبّان عهد المملكة الحديثة عن مزيد من الألفة بالتمحو الذين يعيشون في الشمال (في الأراضي المتاخمة للدلتا)، وتورد إلى جانب التسمية العامة التي كانت تُطلق عليهم – أي التمحو – أسماء بعض القبائل أو الاتحادات القبلية: ومن بينها ليبو *(rbw)* ومشوش *(mšwš)* (هولشر ١٩٥٥، ص ٤٧ وما يليها). وتشير الألقاب التي توردها النقوش المصرية لرؤساء هذه القبائل إلى اللغة التي كانوا يتكلّمونها: فهم يسمون *wr* أو *ms* الليبو أو المشوش. واللقب الأول *wr* هو لقب مصري يعني «العظيم»، أما *ms* فليس لقبًا مصريًا ويُعتبر تسمية محلية لرئيس القبيلة من الليبيين أو المشوش. ويطابق هذا اللقب تمامًا الكلمة البربرية (طوارق الهجّار) *mess* التي تعني «السيد – الرب».

وتبيّن الرسوم التي تصوّر التمحو الشماليين، والتي عُثر عليها في قبر سيتي الأول (باتس ١٩١٤، ١٩٧٠، اللوحة الثالثة)، أن الليبو والمشوش بوجه عام كانوا ملتحين، وهو أمر غريب على المصريين الذين كانوا حليقي الوجوه أو يكتفون بشوارب صغيرة (أما لحى الغراعنة المستعارة فكانت استثناء). وربّما كان هذا هو السبب في أن الكلمة البربرية المشتركة التي تعني «لحية – ذقن» وهي كلمة *ta-mar-t* (*ta-mar-t*= لحية بلغة سيوه (ستانلي)؛ *ta-mar-t* = لحية أو ذقن بلغة طوارق الهجار؛ *ta-mar-t* = لحية أو ذقن بلغة القبيليين؛ *ta-mar-t* = لحية صغيرة بلغة باعمراني؛ *za-mar-z;* = لحية بلغة صنهاجه) قد استعارها المصريون لتصبح *t3 mrt* = ذقن – لحية (سونرون، ١٩٥٢، ص ١٢ و١٣، وإن كان يلاحظ مع ذلك أن الكلمة لا ترد في النقوش

إلاّ بعد فترة طويلة من ظهور التمحو الشماليين لأوّل مرّة) . وإذا كانت الكتابة المقطعية تلمح إلى أن الكلمة دخيلة ، فإن الدليل على كونها دخيلة تقدّمه لنا حقيقة أخرى وهي أن اللغة المصرية كانت قد تخلّت منذ فترة طويلة عن استخدام تاء التأنيث في نهاية الكلمة واستخدمت بدلاً منها أداة التأنيث *t3* ، ومن هنا كان المتحدّث المصري يظن أن تاء التأنيث البربرية في نهاية *ta-mar-t* جزء من جذر الكلمة ، ويتوهّم أن علامة التأنيث الثانوية البربرية *t* هي أداة التأنيث المصرية *t3* . وهذا اللبس تؤكّده طريقة الكتابة الهيروغليفية كما تؤكّده الصيغة القبطية *mopt* = *mort* = لحية (وستندورف ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٠) .

تعقيب على المصادر المصرية

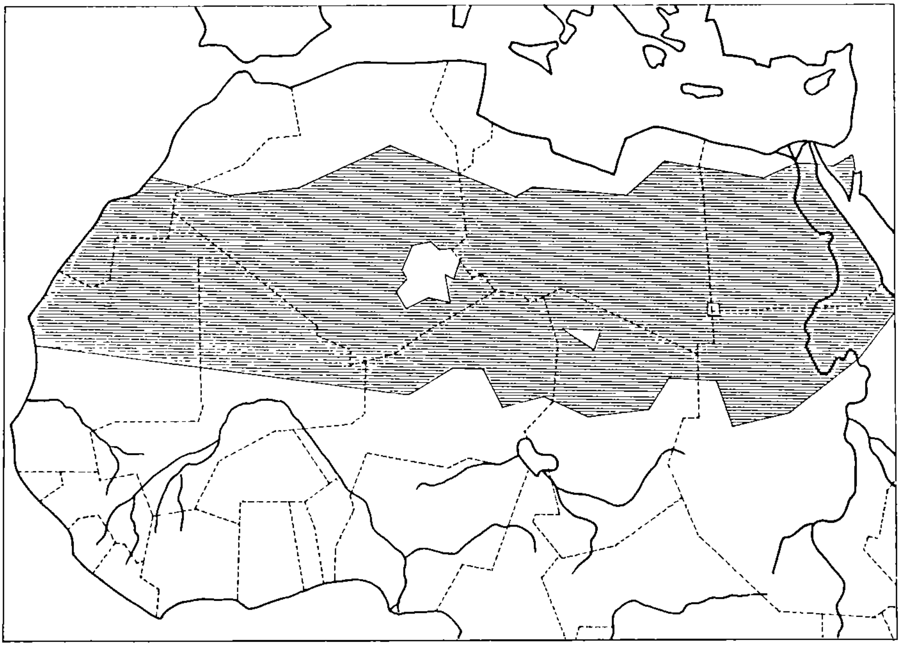
انعقد رأي علماء المصريات منذ زمن طويل على اعتبار تمحو الجنوب ، الذين ورد ذكرهم في تقارير



الشكل ١ : تمثيل استعادي لمناطق الصحراء الكبرى التي كان يقل فيها منسوب الأمطار عن ٥٠ ملليمترًا سنويًا أثناء ذروة الرعي المتنقل للأبقار ، حوالى – ٣٥٠٠ – ٢٥٠٠ (نقلاً عن هستر وهوبلر ، ١٩٦٩ ، الشكل ١٥٥) .

حرخوف ، وتمحو الشمال في أوائل عهد المملكة الوسطى شعبًا واحدًا ، وانه إما أن يكون بعض الجنوبيين قد هاجروا نحو الشمال (بيرنز ، ١٩٨١ ص ٣٦؛ هولشر ، ١٩٥٥ ص ٥٠؛ أوسنج ، ١٩٨٠ ، ١٠٢٠ ؛ سبالنجر ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٣) أو بعض الشماليين قد اتّجهوا نحو الجنوب (بيتس ١٩١٤ ، ١٩٧٠ ، ص ٤٩ ؛ شنكل ١٩٧٥ ، ص ٦٩). إلاّ أن الحقائق التالية تلقي ظلالاً من الشك على هذه الفكرة :

١. كما يتبيّن من الشكلين ١ و ٢ فإن المناطق التي تمتدّ غربي النيل ، أي المناطق التي شهدت الهجرة المزعومة للتحنو في فترة تتراوح ما بين عام – ٢٢٠٠ وعام – ٢٠٠٠ ، ظلّ منسوب الأمطار بها ، منذ عام – ٣٥٠٠ وحتى الآن ، يقلّ عن ٥٠ ملليمترًا سنويًا. ولمّا كانت مناطق رعي الأبقار تحتاج إلى منسوب للأمطار يتراوح بين ٤٠٠ و٦٢٥ ملليمترًا سنويًا (ماكهيو نقلاً عن فندروف ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧١) ، وألاّ يزيد البعد بين نبعين للماء على ٢٠ إلى ٣٦ كيلومترًا (أي ضعف المسافة القصوى التي يحدّدها جابرييل ، ١٩٧٨ ، ص ٣٢ ،



الشكل ٢ : تمثيل استعادي لمناطق الصحراء الكبرى التي كان يقل فيها منسوب الأمطار عن ٥٠ ملليمترًا سنويًا أثناء فترة الاحتلال الروماني ، من سنة ١ إلى ٤٠٠ ميلادية (نقلاً عن هستر وهوبلر ، ١٩٦٩ الشكل ١٥٦).

بين أرض المرعى ونبع الماء)، فإن أية نظرية تفترض هجرة التمحو بأبقارهم هي نظرية لا تقوم على أساس، نظرًا لعدم توفر الظروف المناخية الضرورية.

ولا معنى أيضًا لأن نفترض أن التمحو قد هاجروا إلى الشمال دون ماشية، فالمصدر الذي يعود إلى عهد المملكة الوسطى والذي يشير إلى وقت أعقب الهجرة المزعومة مباشرة أو يتلوها بفترة قصيرة، لا يدل فحسب على أن عدد سكان التمحو الشماليين كان كبيرًا إلى حد ما، وإلاّ لما قاد ولي العهد – شخصيًا – الحملة ضدّهم، وإنّما يؤكّد أيضًا أنهم كانوا يملكون أبقارًا، فهو يقول إن ولي العهد أحضر «ماشية من كل نوع تفوق الحصر». ومع كل تحفّظاتنا إزاء المبالغات الفرعونية، فلا بدّ أن العدد كان كبيرًا.

كذلك فإن افتراض تحرّك التمحو الشماليين نحو الجنوب دون ماشيتهم، يتعارض مع الإشارة إلى تمحو الشمال بعد مائتي عام من الإشارة إلى تمحو الجنوب. وقد كان عددهم كبيرًا (وإلاّ لما شنّ حاكم كرمة حملة عليهم) وكانت لديهم ماشية كما تبيّن الشواهد الأثرية في مواقع المجموعة جـ (بيتاك، ١٩٦٦، ص ٣٨).

٢. لم يكن التمحو الشماليون والجنوبيون متماثلين تمامًا من الوجهة الثقافية. فقد كان المصريون يطلقون على أفراد المجموعة جـ (التمحو الذين كانوا يعيشون في وادي النيل) اسم نهسي *(Nhsj)* وكانوا يستخدمونهم في كثير من الأحيان كجنود مرتزقة. وفي الرسوم التي يظهر فيها هؤلاء المرتزقة نجد أن الزي المميز لهم هو شريط ينحدر على الكتفين ويتصل بإزار عال يلتفّ حول الوسط (فيشر، ١٩٦١، ص ٦٦)؛ وينبغي ألاّ يُخلط بين هذا الشريط الصدري المنفرد وبين أشرطة الصدر المتصالبة التي كان يرتديها التحنو *(ṯhnw)*. أما التمحو الشماليون فيتميّزون بعباءاتهم والأغمدة الواقية لعوراتهم (أوسنج، ١٩٨٠، ص ١٠١٨ وما يليها). ومن ناحية أخرى كانت ريشة النعام – وهي رمز للرتبة العسكرية أو لمنصب رئيس القبيلة – سمة تميّز التمحو الشماليين والجنوبيين على السواء (هلك، ١٩٦٧، ص ١٤٠ و ١٤٨ (النهسي الذين يضعون الريشة) وهولشر ١٩٥٥ ص ٣٦ (في معرض الإشارة إلى رئيس ليبي ألقى بريشته بعد هزيمته).

تقييم

من تحليل المصادر المصرية، يمكن أن ننتهي إلى النتائج التالية: إن السكان الذين كان المصريون يطلقون عليهم إسم «التمحو» قد عاشوا خلال القرون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد في الأراضي الواقعة غربي منطقة أعالي النيل والأراضي الواقعة غربي دلتا النيل. وعلى الرغم مما تشترك فيه

المجموعتان من سمات ثقافية فإنهما ليستا متطابقتين. وتوضح الشواهد اللغوية أن المجموعة الجنوبية كانت تتكلّم بلغة ذات صلة بلغة البربر الحالية، كما توحي إيحاءً قويًّا بافتراض مؤداه أن المجموعة الشمالية كانت تتكلّم أيضًا لغة ترتبط بلغة البربر الحالية. ولمّا كان التوزيع الجغرافي للمجموعتين لا يمكن أن يكون نتيجة هجرة مباشرة خلال الأراضي الواقعة غربي النيل، فإن تفسير هذا التوزيع يقتضي بحث أنماط أخرى من الهجرة.

المصادر البربرية

احتفظت اللغات البربرية في المغرب، كما أوضح فيسيشل منذ عدة سنوات (١٩٥٢، ص ١٩٨ وما يليها)، بعدد من الكلمات المستعارة – بحكم بنية جذورها – من اللغة البونية. وقد كانت البونية هي اللغة التي يتكلّمها سكان محلّة قرطاجة الفينيقية والمنطقة المتاخمة لها. ووجود هذه الصيغ في اللغة البربرية قد يكون نتيجة لاتصال مباشر بين المستعمرة الفينيقية والسكان الناطقين بالبربرية أو لصلة غير مباشرة – من خلال ناطقين بلغة ثالثة كانت تربطهم أولاً علاقات مع القرطاجيين ثم مع القبائل الناطقة بالبربرية. بيد أن تغير الشكل الفونولوجي للبنى المستعارة وفقًا للتطوّر العام للغات البربرية دون سواها، ووجود أوجه تناظر فونولوجي بين الصيغ البربرية واللغات السامية الشمالية الغربية يؤيّدان الاحتمال الأول، أي العلاقة المباشرة، ويستبعدان الاحتمال الثاني (فضلاً عن ضرورة طرح سؤال: أي لغة – من اللغات التي لا ترتبط بلغة البربر – هي التي قامت بدور الوسيط؟).

وعند محاولة تحديد تاريخ الاتصال بين اللغة البونية واللغات البربرية يمكن أن يُقال إن البونية كانت هي اللغة المستخدمة في قرطاجة والمنطقة المتاخمة لها في فترة يمكن تحديدها على وجه التقريب بما بين عام – ٨٠٠ وعام ٢٠٠ الميلادي (موسكاتي وآخرون، ١٩٨٠، ص ١٠). ولكن الفلاّحين حول مدينة هيبو القديمة كانوا – حسبما قال القديس أوغسطين – لا يزالون يتحدّثون بالبونية في عهده (حوالى عام ٤٠٠ الميلادي) (فيسيشل، ١٩٥٢، ص ١٩٨). ولمّا كانت كل الكلمات المقطوع بأنها مستعارة تنتمي لمجال دلالي واحد هو مجال الزراعة، فإن هذا يمدّنا بتاريخ أكثر تحديدًا في إطار هذه الفترة الزمنية الطويلة. فقد ذكر أن الملك النوميدي ماسينيسّا (– ٢٣٨/– ١٤٨) كان هو الذي أدخل الزراعة في مملكته، ومن هنا قد لا تكون هناك غضاضة في القول بأن الاتصال لا يمكن أن يكون قد حدث قبل عهده. إلاّ أن هناك مع ذلك تاريخًا أقدم يبدو أكثر معقولية: فهيرودوت يشير إلى زراعة أشجار الزيتون. والكلما البربرية التي تعني «زيتون/شجرة زيتون» مستعارة من اللغة البونية (انظر المرفق الرابع). وعلى ذلك فثمة احتمال كبير في أن يكون الاتصال قد حدث حوالى عام – ٤٥٠. وهذا يعني أن الأقوام الناطقة بالبربرية كانت تعيش في ذلك الحين متاخمة لقرطاجة.

إن ما يسمى بالنقوش الليبية القديمة التي عُثر عليها في أراضي الممالك النوميدية (ومنها أراضي تونس الحالية)، تمدنا ببعض الكلمات المناظرة لمآصل في اللغات البربرية الحالية. ومن أمثلة هذه الجذور الليبية القديمة: *agellid* = GLD = «ملك»؛ *U* = W = «ابن (فلان)»؛ *ult* = WLT = «ابنة (فلان)»؛ *m(m) a(t)* = MT = «أم» (بينون، ١٩٧٠ ص ٦٨). وترجع هذه النقوش إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد.

تعقيب على المصادر البربرية

تفترض المادة اللغوية الواردة في المصادر البونية أن المنطقة المحيطة بقرطاجة كانت منطقة الاتصال اللغوي. وهذه المنطقة نفسها هي الموطن الرئيسي لمادة النقوش الواردة في المصادر الليبية القديمة.

ويمكن أن تستخلص من كلا هاتين الفئتين من المصادر نتيجة مؤداها أنه في حوالى الفترة −٤٠٠/−٢٠٠، كانت تعيش في هذه المنطقة عينها أقوام تتكلّم لغة ذات صلة بلغات البربر الحالية. ولمّا كانت كل من الفئتين مستقلّة عن االأخرى، فلا غضاضة في قبول النتائج المستخلصة منهما بوصفها حقيقة تاريخية.

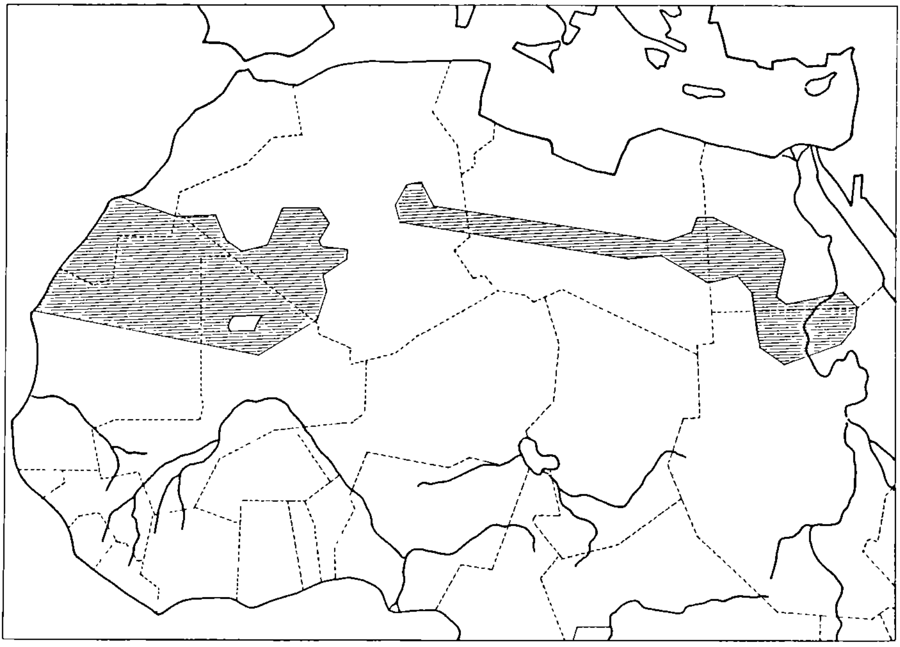
الشواهد المناخية

قبل الألف السابع السابق على الميلاد، كان مناخ الصحراء لبضعة آلاف من السنين جافًا كما هو اليوم. ثم بدأت بعد الألف السابع قبل الميلاد مرحلة مطيرة ظهر على أثرها غطاء نباتي شبيه بالسافانا في أجزاء كبيرة من الصحراء الكبرى (تاوت، ١٩٧٨، ص ٥٨). ومن هنا كانت الزيادة الكبيرة في عدد السكان التي يمكن ملاحظتها قرب الألف الخامس قبل الميلاد (سميث، ١٩٧٨، ص ٢٢٠)؛ ويميل كوبر (١٩٧٨، ص ٦٧) إلى تحديد زمن أقدم لهذه الزيادة السكانية فيجعلها في حوالى −٧٠٠٠. ولكن الأشكال من ١ إلى ٣ توضح أن الفترة المطيرة كانت قصيرة ثم أعقبتها، قرابة −٤٥٠٠، مرحلة جافة جديدة أفضت إلى تصحر جديد، وهي مرحلة لم تنتهِ حتى اليوم.

تحليل عملية التصحر

على الرغم مما قد يكون هناك من تباين اقليمي في عملية التصحر المبينة على نحو إجمالي في الأشكال من ١ إلى ٣، فإن ثمة ظاهرة هامة يمكن ملاحظتها، وهي أن منسوب الأمطار السنوية لم يتجاوز في

رقعتين كبيرتين – تقع إحداهما شرقي الصحراء والأخرى غربيها – خمسين مليمترًا. فإذا أخذنا في الاعتبار الظروف المناخية اللازمة لرعي الأبقار أو الماشية الصغيرة (إذ تحتاج الأبقار إلى أمطار سنوية تتراوح بين ٤٠٠ و٦٢٥ مليمترًا بينما تحتاج الماشية الصغيرة إلى أمطار تتراوح بين ٢٠٠ و ٤٠٠ مليمترًا) استنتجنا أن هاتين المنطقتين لم تصلحا قط لرعاة الأبقار والماشية الصغيرة. ولم تتوفّر الظروف المناخية الضرورية إلاّ في منطقتيْ الشمال والجنوب مع شريط يربط بينهما. وخلال عملية التصحر اتّسعت الرقعتان المجدبتان فلم يتبق سوى شريط مناخي صغير بين منطقتي الرعي في الشمال والجنوب. وبعد بضعة قرون من بداية الألف الثاني أُغلقت الفجوة تمامًا بين الرقعتين المجدبتين، وغدت أية هجرة كبيرة لرعاة الأبقار أو الماشية الصغيرة من الشمال إلى الجنوب، شبه مستحيلة منذ ذلك الحين.

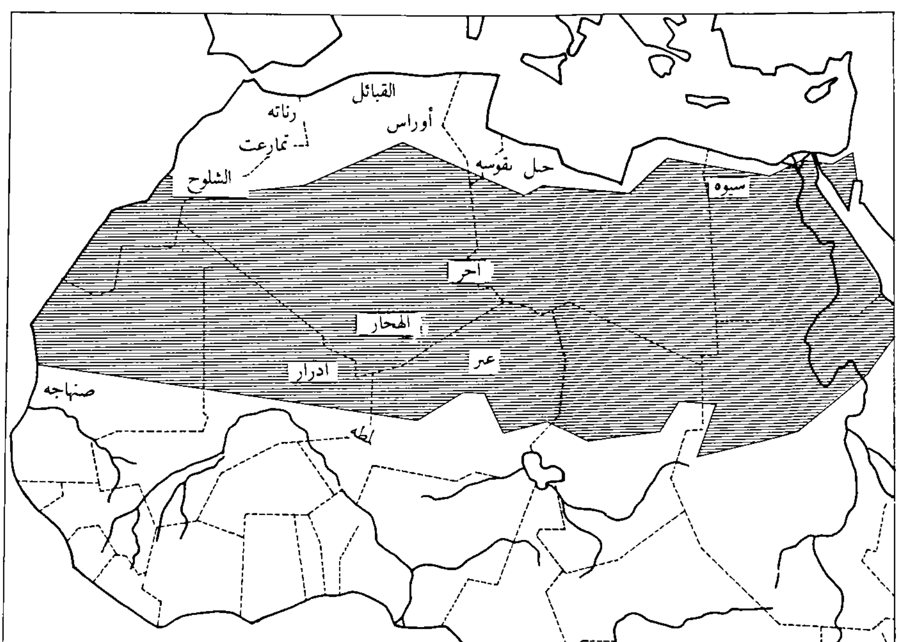


الشكل ٣ : تمثيل استعادي لمناطق الصحراء الكبرى التي كان يقل فيها منسوب الأمطار عن ٥٠ مليمترًا سنويًا في حوالى – ٦٠٠٠ – ٥٠٠٠ (نقلاً عن هستر وهوبلر. ١٩٦٩. الشكل ١٥٤).

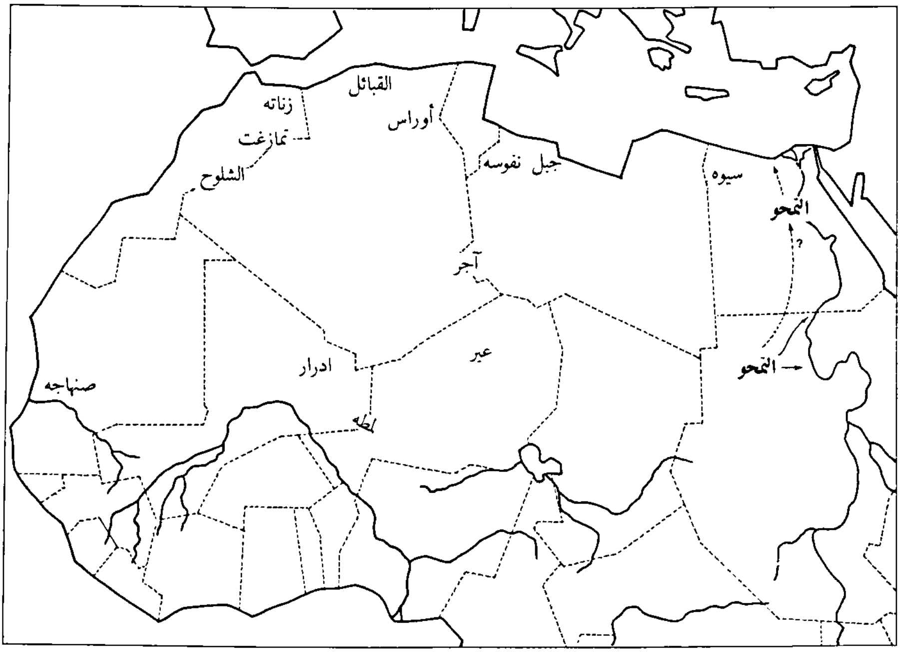
التوزيع السكّاني

من الجلي أن التوزيع الجغرافي الحالي للأقوام الناطقة بالبربرية ناتج عن عملية الإجداب، التي وصفناها آنفًا، في الصحراء الكبرى. فهم يعيشون في شمال وجنوب منطقة القحولة القصوى، ويقطنون المناطق الجبلية التي تتلقّى قدرًا ضئيلاً من الأمطار.

وهذا يطابق كل المطابقة توزيع الجماعات الناطقة بالبربرية في مستهل التاريخ؛ ففي القرون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد كان التمحو الناطقون بالبربرية يعيشون جنوبي الرقعة المجدبة الواقعة شرقي الصحراء الكبرى، وكان ناطقون بالبربرية يعيشون في منطقة تونس في حوالى – ٤٥٠، وفي الجهات المتاخمة للحد الغربي لدلتا النيل في حوالى – ٢٠٠٠، وهو ما يشير إشارة قوية إلى التواصل اللغوي للهجات البربرية في الشمال.



الشكل ٤ : المناطق الصحراوية الحديثة التي يقل فيها منسوب الأمطار عن ٥٠ ملليمترًا سنويًا. والتوزيع الحالي للجماعات المتحدثة بالبربرية (نقلاً عن هستر وهوبلر، ١٩٦٩، الشكل ١٥٧).



الشكل ٥ : هجرة التمحو – البربر نحو الشرق وانتقالهم المزعوم نحو الشمال حوالى سنة – ٢٣٠٠ ؛ التوزيع الحالي للجماعات المتحدثة بالبربرية.

سيناريو الهجرات

استنادًا إلى : (أ) أن الجماعات الناطقة بالبربرية كانت تعيش في شمال وجنوب الرقعة المجدبة الواقعة شرقي الصحراء الكبرى في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، و (ب) استحالة أية هجرة كبيرة لرعاة الأبقار والماشية الصغيرة فيما بين مناطق الرعي الواقعة في شمال وجنوب الكتلة الصحراوية بعد بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، نتيجة للظروف المناخية ، و (جـ) عدم وجود شواهد لغوية تشير إلى وجود ناطقين بلغات أفروآسيوية أخرى في منطقة الصحراء الكبرى ، يمكن تصوّر السيناريو التالي :

إن الناطقين باللغات التي سُمِّيت فيما بعد بالبربرية ، انفصلوا في وقت ما ، خلال الألفين السابع والسادس قبل الميلاد ، عن المجتمعات الناطقة بالأفروآسيوية ، وهاجروا إلى أراضي الصحراء الكبرى. وكانوا ، كما يبرهن المرفقان الثاني والثالث ، من رعاة الأبقار والماشية الصغيرة (الكلمات التي تؤدّي معاني «ثور» و«بقرة» و«لبن» و«قومس» كلمات أفروآسيوية مشتركة ، فالراعي يمكن

دائمًا اقتفاء أثره وعليه أن يدافع عن «ممتلكاته». وأدّى الإجداب المطرد إلى انقسام الجماعات إلى مجموعتين إحداهما شمالية والأخرى جنوبية، ومن ثم أدّى – في نهاية المطاف – إلى التوزيع الجغرافي الحالي للغات البربرية. ونظرًا للمكانة التي يتمتّع بها الرعي حتى الآن، يمكن أن نستنتج أيضًا أن رعاة الأبقار الناطقين بالبربرية قد استوعبوا بعض الجماعات التي تمارس الصيد والجمع أو الزراعة البدائية، والتي كانت تعيش حينذاك في الصحراء الكبرى. وممّا يؤيّد هذا الافتراض وجود صور لرعاة ينتمون إلى خليط من الأجناس في رسوم الكهوف التي تعود إلى فترة رعي الماشية.

المرفق الأول : الكلمات البربرية المستعارة في اللغات النوبية النيلية

١. نوبية نيلية	« بصل »	=	*fill e*	نوبينيه
			fell e	الفدجه
			bill e	الدناقلة ، الكنوز
بربرية	« بصل »	=	*efĕ l ēli*	طوارق الهجار
			afi l u	سيوه (كويبل)
			afi l -an (pl.)	سيوه (ستانلي)
			af l il	غدامس
			ifa l il	سوكنا
٢. نوبية نيلية	« سرة »	=	*f u t*	نوبينية
			f ū d	فدجه
بربرية	« سرة »	=	*t-ebout-out*	طوارق الهجار
			ab u d	باعمران
			z-im i ṭ-ṭ	زناتة
			t-im i -ṭ	قبائل
٣. نوبية نيلية	« عصا »	=	*gá ll e*	نوبينيه
			ga ll ǽ	الفدجه
بربرية	« عصا »	=	*aġou l a*	طوارق الهجار

٤. نوبية نيلية	«كُلية»	=	*ji g il ti*	الدناقلة
بربرية	«كُلية»	=	*t-ag ẓ el-t*	طوارق الهجار
			t-a dj el-t	سيوة (كويبل)
			t-a j el-t	سيوة (ستانلي)
			t-ig ẓ el-t	باعمران
			t-igezẓ al-t	زناته
			t-igezẓ el-t	القبائل
٥. نوبية نيلية	«ذئب»	=	*je ll ek, jelek*	نوبينية – الدناقلة ، الكنوز
			je ll ek	فدجه
بربرية	«ذئب»	=	*agou l eh*	طوارق الهجار
٦. نوبية نيلية	«فأر»	=	*jigi r*	نوبينية
			jigi rr	فدجه
بربرية	«جرذ»	=	*egîger*	طوارق الهجار
٧. نوبية نيلية	«خيط»	=	*sēr*	الدناقلة ، الكنوز
بربرية	«شريط رفيع»	=	*ăsîra*	طوارق الهجار
	«حزام رفيع»	=	*asaru*	القبائل
٨. نوبية نيلية	«شاه»	=	*eged*	نوبينية ، الدناقلة ، الكنوز
			eged	الفدجه
بربرية	«شاه»	=	*yayid*	سيوة (كويبل)
			yayid	سيوة (ستانلي)
	«عنزه»		*eyeid*	طوارق الهجار
			aǰɔgad	صهناجه

			t- ayaṭ-ṭ	باعمراني
			z-aya -ṭ	زناته
			iyid	قبائل
٩. نوبية نيلية	« ماء ، نيل »	=	*aman*	نوبينية
			aman	الفدجه
بربرية	« ماء »	=	*âman*	طوارق الهجار
			āmân	سيوة (كويبل)
			amán	سيوة (ستانلي)
			aman	قبائل
			aman	باعمراني
			aman	زناته
			aman	صنهاجه

تعقيب على المرفق الأول

ملاحظات عامة

لا توجد في نظر الباحثين « صلة قربى » بين اللغات النوبية النيلية ولغات البربر . فعلى حين تنتمي اللغات البربرية ، بلا نزاع ، إلى أسرة اللغات الأفروآسيوية ، صُنِّفت اللغات النوبية ضمن اللغات السودانية الشرقية (جرينبرج ، ١٩٦٦) ، ثم صُنِّفت ، في وقت أحدث ، ضمن اللغات السودانية الشمالية (اهرت ، ١٩٨٣ ، ص ٣٧٨) . فإذا كانت اللغات البربرية واللغات النوبية النيلية تشترك في عدد من الكلمات التي تحمل نفس الدلالات وتتقارب بنية جذورها ، فإن هذه الكلمات – إذ لا تعود إلى أصل مشترك – ينبغي أن تُعتبر كلمات مستعارة نشأت عن اتّصال وثيق بالناطقين باللهجات النوبية النيلية . ولو صحّ أنها كلمات مستعارة ، لكان علينا أن نتساءل عمّا إذا كانت البربرية هي التي استعارت من اللغات النوبية النيلية أم العكس .

تعليق على قائمة الكلمات

رقم ١. اخترلت لهجة سيوة، على خلاف اللغات البربرية الأخرى، جذر الكلمة إلى حرفين ساكنين، وهي تتفق في ذلك مع اللغات النوبية النيلية.

رقم ٢. الكلمات البربرية إما مذكّرة أو مؤنّثة، ويؤنّث الإسم بإضافة تاء التأنيث في صدر الكلمة أو عجزها.

رقم ٤. لا يبدو لأول وهلة تناظر بين جذع كلمة *jigil* النوبية وجذع كلمة *gizal* البربرية. ولكننا إذا افترضنا وجود أصل مشترك هو *gigal**، فإن الاختلاف بين الصيغتين يمكن تفسيره بوصفه ناتجًا عن عملية فونولوجية بسيطة: فتقديم موضع اللسان سوف يعطينا *gizal*، على حين يؤدّي إدغام الساكن الأوسط مع تحريك اللسان نحو الحنك إلى نطق الكلمة بصيغة *jigal*. وهناك فضلاً عن هذا التفسير المحتمل لهذا التباين، ثلاث حجج أخرى تؤيّد الافتراض القائل بأن *jigilti* كلمة بربرية استعارتها اللغات النوبية النيلية: (أ) التطابق التام في المعنى؛ (ب) كون الساكن الأخير في الصيغ النوبية النيلية هو *t*، التي تناظر تاء التأنيث في البربرية القديمة، والتي تحتفظ بها جميع الأمثلة البربرية؛ (جـ) الندرة الشديدة للكلمات الثلاثية المقطع في اللغات النوبية النيلية. وهي كلمات يظن عادةً أنها دخيلة (بتشهاوس – جرست، ١٩٨٣، ص ١٢٧).

رقم ٥. ثمة اختلاف هنا بين الساكن الأخير في النوبية النيلية /*k*/ وفي لغة طوارق الهجار /*h*/. إلاّ أنه يمكن توضيح ذلك بأنه في السياق الأفروآسيوي وفي لغات البربر، يمكن أن يُستبدل بصوتي الأطباق الحلقيين $/^{+}g/$ و $/^{+}k/$ صوت الـ /*h*/:

الطوارق «حمار برّي» *ahou l il*
الماجي «حمار» *k ul ul*
الكافا «حمار» *k ur o*
الأرومو «حمار» *h a rr e*
ساهو «حمار» *ok al i*
أمهرية «حمار» *ah i yy a*
بانانا «حمار» *k ɘ r ɘ ra*
سيباك «حمار» *kwa r a*
الطوارق «نسر» *eh e d er*

القبائل	«نسر»	*ig i d er*
باعمراني	«نسر»	*ig i d er*
صنهاجة	«نسر»	*g ū ď ɔrh*

رقم ٨. لا شكّ أن المعنى الأصلي لهذا المأصل كان هو «الواحد من الأنعام الصغيرة»، فأصبح فيما بعد إما «خروف» أو «عنزة». وقد احتفظت صيغة صنهاجة بالجانب الأكبر من بنية الصيغة الأصلية. وتظهر بقية المواد «تآكلاً» هامشيًا إذ ضعف صوت الـ /g/ في الصيغة الأصلية وتحول إلى /y/

الخلاصة

من تأمّل الأمثلة التي أوردناها للكلمات النوبية النيلية المستعارة من البربرية، يمكن أن نقرّر الظواهر المطردة وأوجه الخلاف التالية:

أ) أن الصوت /g/ أو /ǵ/ في البربرية يناظر بصفة مطردة صوت /g/ في النوبية النيلية أو صوت الاستهلال النوبي النيلي /j/ حين تتبعه حركة أمامية. والاستثناء الوحيد (رقم ٤)، مقابل ست حالات تطّرد فيها هذه القاعدة، يمكن تفسيره بأنه ناتج عن عمليات تشكلية فونيمية.

ب) ان الـ /ll/ النوبية النيلية في الموقع الأوسط للكلمة تناظر باطّراد الـ /l/ في البربرية (رقم ١ و٣ و٥).

ج) لا تحتوي الأمثلة من الرقم ١ إلى الرقم ٧، إلاّ على مآصل للكلمات النوبية النيلية، على حين تحتوي الكلمات البربرية إمّا على صوت متحرّك يمثّل أداة تعريف قديمة أو على السابقة /t/ كأداة تأنيث ثانوية. وعلى العكس من ذلك، تبدأ المآصل النوبية النيلية في الرقم ٨ و٩ بحرف متحرّك. ويرجع ذلك، في كلتا الحالتين، إلى استعارة مآصل «متآكلة» جزئيًا. وفيما يتعلّق بالرقم ٨ تقدّم سيوه، وصنهاجة بوجه خاص، البنية الأكثر اكتمالاً للمآصل، على حين تمثّل *am.an (-an)* في الرقم ٩ لاحقة الجمع البربرية. وقد احتفظت لغات آسيوية أخرى بالبنية الأصلية للكلمة: *yamma* = «البحر» (سريانية)، *jm* (= *jvm* =) «البحر» (مصرية قديمة)، *yam* = ماء (لغة البجة).

د) توجد في المفردات النوبية النيلية في حالتين مورفيمات صرفية بربرية، وهما تاء التأنيث البربرية في الرقم ٤ ولاحقة الجمع البربرية في الرقم ٩، وهو ما يبيّن أن النوبية النيلية هي التي استعارت من البربرية.

إن إنعام النظر في الظواهر المطّردة وفي تفسير أسباب الاختلاف عنها، يدفعنا إلى استخلاص نتيجة مؤداها أن التقابل **المطرد** بين المآصل النوبية النيلية والمآصل البربرية أقوى من أن يعزى إلى الاتفاق العرضي في المعنى والمبنى. ومن هنا فإن وجود طبقة تحتية بربرية في اللغات النوبية البربرية يكاد يكون أمرًا مقطوعًا به.

المرفق الثاني : تسميات أفروآسيوية مشتركة لكلمات «كبش» و«ثور/بقرة» و«حليب/يحلب»

أ) «كبش»

بربرية	ê k r e r	طوارق الهجار
	a k r a r	نفوسه
	i kerr i	القبائل
	i k̆arr i	زناتة
	i k r u	الشلوح (= كبش مخصي)
	ə g r ə rh	صنهاجة
تشادية	kir	انجاص (= كبش يُحتفظ به في الدار للتسمين)
	kar o	سيا
كوشية	kol a	بورجي (= كبش مخصي)
	i 'al é	ماعا
سامية	'l	أجريتية
	'aii l	عبرية
	ā l u	أكادية

ب) «ثور/بقرة»

بربرية	e s ou	طوارق الهجار (= «ثور»)
	t- ə šš i	صنهاجة (= «بقرة»)
تشادية	š a	هاوسا (= «ثور»)

	t a	سيباك (= «بقرة»)
	t a xa	جليفيدا (= «بقرة»)
	t a -ta	جابين (= «بقرة»)
كوشية	s a h	رنديل (= «بقرة»)
	s a’	بوني (= «بقرة»)
	s a‘	صومالي (= «بقرة»)
	s a’ a	أورومو (= «بقرة»)
	s á a	بورجي (= «بقرة»)
أوموتية	z ś -ku	ماجي (= ثور)
	é š a	شيماشا (= عنزة)
سامية	š	أجريتية (= شاه)
	š ā’	عربية (= شاه)

جـ) «حليب/يحلب»

تشادية	a n e m	موسجو (= «حليب»)
	n u m	بودوما (= «يحلب»)
	n u m	لوجوني (= «يحلب»)
كوشية	e l m	أورومو شمالية (= «يحلب»)
	a l m	أورومو واتا (= «يحلب»)
	a l b	أورومو مونيو (= «يحلب»)
	e l e m -tu	أورومو شمالية (= «وعاء الحلب»)
	i l i b a	بورونج (= «حليب»)
		ألاجوا (= «حليب»)
	l i b a	أسا (= «حليب»)

سامية	*a l ä b a*	جوراج زواي (= «يحلب»)
	a l ä b a	جوراج مسكن (= «يحلب»)
	a n ä b a	جوراج كاها (= «يحلب»)
	h a l i b	تجريبة (= «حليب»)
	ḥ a l i b	جعزية (= «حليب»)
	ḫ a l a b u	أكادية (= «يحلب»)
	ḥ a l a b	عربية (= «يحلب»)
	ḥ l b	أجريتية (= «حليب»)

تعقيب على المرفق الثاني

أ) «كبش»

إن إحلال الصوت الإطباقي الحلقي /*k*/ محل صوت الهمزة /ʾ/ هو عملية فونولوجية يمكن أن تلاحظ بكثرة في اللغات الأفروآسيوية. فالكلمة المصرية القديمة /ʾ-*y*-(rorl) = *ʿj3* = «حمار» تقابل كلمة *kulul* في لغة ماجي، وكلمة *okali* في لغة ساهو، وكلمة *kurō* في لغة كافا، وهي كلمت تحمل جميعًا نفس المعنى. كذلك الكلمة المصرية القديمة *šʿ.t* = /*š*-ʾ-*t*/ = «سكين» تقابل كلمة šuko في لغة بورجي، وكلمة *siko* في لغة دوباز، وكلمة *sikō* في لغة جانجرو، وكلمة *šikko* في لغة موخا، فمعناها «سكين» في هذه اللغات جميعًا باستثناء لغة الجانجرو حيث تعني «خنجر». (وصوت *-t* في نهاية الكلمة المصرية هو علامة التأنيث ومن الواضح أنها خاصية تنفرد بها اللغة المصرية).

ب) «ثور/بقرة»

لا بدّ أن هذا الجذر كان يعني أصلاً «حيوان مستأنس» وربّما كان تخصيص دلالته في «ثور/بقرة» و«عنزة» و«شاة» راجعًا إلى تغيرات في الوضع الاقتصادي و/أو الأيكولوجي للناطقين باللغة في كل حالة. وفيما يتعلّق بالصوت التشادي *tl* = /*t*/ الذي يمثّل /*s**/ (قارن بين ب. نيومان و ر. ما، ١٩٦٦، ص ٢٢٦).

جـ) «حليب/يحلب»

إن التمايز الدلالي بين «حليب» و«يحلب» يشير بوضوح إلى أن هذا المأصل يعني «حليب حيوان مستأنس» وليس «الحليب الذي يتغذّى عليه الحيوان الرضيع».

المرفق الثالث :
المأصل الأفروآسيوي المشترك لكلمة « قوس »

بربرية	*t-a ġ a ǹ h é*	طوارق الهجار
تشادية	*k i s e*	موسجو
كوشية	*q ā n s o*	صومالية
	' ā s	بوني
	q i s -t	بيلين
	g i s -t	أجاو
سامية	*q a š -tu*	أكادية
	q š -t	أجريتية
	q a š -ta	آرامية
	q a w s	عربية
	q e s -t	جعزية
	q e š e-t	عبرية

تعقيب على المرفق الثالث :

في سياق فونولوجي معين – عقب النطق مثلاً بساكن أنفي – تُستخدم لغة طوارق الهجار الصوت /h/ مقابل الصوت البربري المشترك /z/ .

ويتّضح ذلك من مقارنة المفردات التالية من لغة القبائل/طوارق الهجار *enz/enh* = « يبيع » ؛ *ffunzer/funher* = « نزف الأنف » ؛ *tinzert /tenhert* = « أنف ، منخر » *izi/ehi* « الذبابة » ؛ *agelzim/aġelhim* = « معزقة » .

وقد احتفظت معظم مآصل اللغات السامية والكوشية بعلامة التأنيث القديمة ، متفقة في ذلك مع لغة طوارق الهجار ، ولكنها – باستثناء الصومالية – أسقطت الجذر الثاني /n/ .

المرفق الرابع :
كلمات سامية شمالية غربية (بونية) دخيلة في البربرية

١. بربرية	« قصبة »	=	*ayan = im*	القبائل (دالّت)
	« قصبة »	=	*ayan = im*	الشلوح
	« أنبوب »	=	*γan = im*	نفوسة
	« قصبة »	=	*t-agum = am-t*	باعمراني
سامية شمالية	« أنبوب »	=	*q n*	أجريتية
غربية (بونية)	« قصبة »	=	*qāne(h)*	عبرية
	« أنبوب ، رمح »	=	*qanû*	أكادية
	« قصبة ، رمح »	=	*qana-t*	عربية
٢. بربرية	« خيار »	=	*t-aγess = im-t*	طوارق الهجار
سامية سمالية				
غربية (بونية)	« خيار »	=	*κισσου*	بونية
	« خيار »	=	*qišš u'*	عبرية
	« خيار »	=	*qišš û*	أكادية
٣. بربرية	« زيتون »	=	*t-azẓ it = un-t*	باعمراني
	« زيتون »	=	*z-a ẓ iz = un-t*	زناتة
	« زيت »	=	*a h ât = im*	طوارق الهجار
سامية شمالية –				
غربية (بونية)	« شجرة الزيتون »	=	*z t*	أجريتية

	«شجرة الزيتون»	=	*z ēta*	آرامية
	«زيت»	=	*zayit*	عبرية
	«شجرة زيتون»	=	*zayt*	عربية
	«شجرة زيتون»	=	*zayt*	جعزية
٤. بربرية	«بصل»	=	*aẓal = im*	باعمراني
	«بصل»	=	*ez̧ l = im*	القبائل (نيومان)
	«بصل»	=	*aẓal = im*	الشلوح
سامية شمالية – غربية (بونية)	«بصل»	=	*baṣal*	عبرية
	«بصل»	=	*baṣal*	عربية
	«بصل»	=	*baṣal*	جعزية
	«بصل»	=	*bäṣäl*	تيجرية

تعقيب على المرفق الرابع

ملاحظة عامة

استكملت المادة السامية الشمالية الغربية بمعطيات من فروع سامية أخرى. ولمّا كانت المآصل البونية غير وفيرة فإن الصيغة البونية لا ترد إلاّ في الرقم ٢ .وتظهر لنا طبيعة جميع المآصل البربرية ككلمات دخيلة من لاحقة الجمع «*im* =» الملحقة بنهاياتها والتي لا توجد إلاّ في السامية الغربية وحدها (موسكاتي وآخرون ، ١٩٨٠ ص ٨٧) . ولمّا كانت البونية تنتمي إلى هذا الفرع من اللغات السامية ، فإنها المصدر المعقول الوحيد لهذه الصيغ (أما صيغ الجمع العربية فمختلفة كل الاختلاف) .

تعليق على قائمة الكلمات

يتبيّن من الرقم ١ والرقم ٢ أن صوتي /*g*/ و /*y*/ في البربرية يقابلان الصوت الطباقي الحنجري /*k*,/ والصوت الانطلاقي الحلقي /*q*/ في اللغات السامية. وفي الرقم ٣ تظهر في مأصلين من

المآصل الثلاثة السامية الشمالية الغربية البنية الثنائية المادة للكلمات المستعارة من البربرية. ومن الواضح أن الجذر السامي الأصلي كان ثلاثيًا كما توحي العربية والجعزية والعبرية. وتُستخدم لغة طوارق الهجار /h/ عوضًا عن /z/ ولكن هذا تناظر مطرد كما سبق أن أوضحنا في تعقيبنا على المرفق الثالث. وفي الرقم ٤ أسقطت الصيغ البربرية للصوت الاستهلالي /b/ الموجود في السامية الشمالية الغربية. وعلى العكس من ذلك استُبدلت البربرية بالصيغ المستعارة من البونية صيغًا عربية لنفس المأصل: le-bṣel (القبائل. دالّت)؛ el-baṣel (صنهاجه)؛ bṣal; (نفوسه)، z-ibṣel-z (زناته)؛ وقد احتفظت لغتا القبائل وصنهاجة بأداة التعريف العربية على حين أخضعت زناتة الكلمة المستعارة للصيغة البربرية.

المراجع

BASSET, R. 1897. Les chiens du roi Antef. *Sphinx* (Uppsala), Vol. 1.

BATES, O. 1914, 1070. *The Eastern Libyans.* London, Macmillan.

BECHHAUS-GERST, M. 1983. Sprachliche und historische Rekonstruktion im Bereich des Nubischen unter besonderer Berücksichtigung des Nilnubischen. University of Cologne. (M. A. thesis.)

BEHRENS, P. 1981. C-Group-Sprache —Nubisch— Tu Bedawiye, Ein sprachliches Sequenzmodell und seine geschichtlichen Implikationen. SUGIA (*Sprache und Geschichte in Africa*) (Hamburg), Vol. 3.

BIETAK, M. 1966. *Ausgrabungen in Sayala-Nubien 1961-1965. Denkmäler der C-Gruppe und der Pan-Gräber-Kultur.* Vienna.

BYNON, T. 1970. The Contribution of Linguistics to History in the Field of Berber Studies. In: D. Dalby (ed.), *Language and History in Africa,* London, Frank Cass.

EHRET, C. 1983. Nilotic and the Limits of Eastern Sudanic: Classificatory and Historical Conclusions. In: R. Vossen and M. Bechhaus-Gerst (eds.). *Nilotic Studies.* Berlin.

FISHER, H. G. 1961. The Nubian Mercenaries of Gebelein during the First Intermediate Period *Kush* (Khartoum), Vol. 9.

GABRIEL, B. 1978. Die Feuerstellen der neolithischen Rinderhirten. In: *Sahara, Katalog der Museen der Stadt Köln.* Cologne.

GOEDICKE, H. 1957. The Route of Sinuhe's Flight. *The Journal of Egyptian Archaeology* (London), Vol. 43.

GREENBERG, J. H. 1966. *The Languages of Africa.* The Hague/Paris.

HELCK, W. 1967. Eine Briefsammlung aus der Verwaltung des Amuntempels. *Journal of the American Research Center in Egypt* (Boston), Vol. 6.

HESTER, J. J.; HOBLER, P. M. 1969. *Prehistoric Settlement Patterns in the Libyan Desert.* Salt Lake City, University of Utah. (Anthropological Papers, No. 92.)

HÖLSCHER, W. 1955. *Libyer und Ägypter.* Glückstadt.

HUARD, P. 1967/68. Influences culturelles transmises au Sahara tchadien par le Groupe C de Nubie. *Kush (*Khartoum), Vol. 15.

KUPER, R. 1978. Vom Jäger zum Hirten —Was ist das Sahara-Neolithikum? *Sahara. Katalog der Museen der Stadt Köln.* Cologne.

MOSCATI, S. et al. 1980. *An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages.* Wiesbaden.
NEWMAN, P.; Ma, R. 1966. Comparative Chadic: Phonology and Lexicon. *Journal of African Languages* (London), Vol. 5.
OSING, J. 1980. Libyen, Libyer. In: W. Helck and W. Westendorf (eds.), *Lexikon der Ägyptologie.* Vol III Wiesbaden.
SASSE, H. J. 1980. Neue Perspektiven im Afroasiatischen, *Berliner Afrikanistische Vorträge.* Berlin. (Marburger Studien zur Africa-und Asienkunde, Series A, Vol. 28.)
SAUNERON, S. 1952. *Rituel de l'embaumement.* Paris/Cairo.
SCHENKEL, W. 1975. *Die altägyptische Suffixkonjugation.* Wiesbaden.
SMITH, A. 1978. Die ersten Haustiere in der Sahara. In: *Sahara, Katalog der Museen der Stadt Köln.* Cologne.
SPALINGER, A. 1979. Some Notes on the Libyans of the Old Kingdom and Later Historical Reflexes. *The SSEA Journal (*Toronto), Vol. 9.
TAUTE, W. 1978. Das Ende der Altsteinzeit in Nordafrika. *Sahara, Katalog der Museen der Stadt Köln.* Cologne.
VYCICHL, W. 1952. Punischer Spracheinfluß im Berberischen. *Journal of Near Eastern Studies* (Chicago), Vol. 11
—. 1961. Berber Words in Nubian. *Kush* (Khartoum), Vol. 9.
WENDORF, F.; SCHILD, R. 1980. *Prehistory of the Eastern Sahara.* New York, Academic Press. (Studies in Archaeology.)
WESTENDORF, W. 1965-77. *Koptisches Handwörterbuch.* Heidelberg.
YOYOTTE, J. 1951. Un document relatif aux rapports de la Nubie. *Bulletin trimestriel de la Société Française d'Égyptologie* (Paris), No. 6.
—. 1961. Les principautés du delta. *Mélanges Maspero I, Orient Ancien,* Fasc. 4. Paris/Cairo.

العلاقات الليبية – البربرية مع مصر القديمة
التحنو في المصادر المصرية

عبد الله حسن المسلمي

كانت ليبيا ، في نظر المصريين ، جزءًا من منطقة غامضة يُطلق عليها إسم « الغرب » . فحتى الملكة حتشبسوت ، وهي من الأسرة الثامنة عشر ، كانت ترى أن حدود مصر الغربية تمتدّ حتى جبل مانو ، أي « مغرب الشمس »[١] . وقد استخدمت ألفاظ تماثل في معناها كلمة « البرابرة » لوصف سكان الواحات ، وهم قبائل أجنبية – ربّما كانت من أصل أوروبي[٢] – وجدت سبيلاً لها إلى حدود مصر الغربية[٣] . ويُقال ان منطقة تبستي – انيدي Tebesti-Ennedi كانت مصدرًا لهجرات تدفّقت على وادي النيل[٤] .

وقد استخدم المصريون إسمًا إثنيًا هو « التحنو » كي يميّزوا سكان الواحات عن سواهم من الأجانب كالآسيويين[٥] . وكان من معانيه أيضًا « سكان بلاد التحنو » أو « بيض البشرة » أو « القاطنون غرب وادي النيل وشمال المنطقة الزنجية »[٦] .

وتوجد في مصادر عصر ما قبل الأسرات ، مثل Arki Knif علامات تماثل العلامات المستخدمة لوصف الليبيين في النقوش التاريخية المصرية[٧] . فالعلامة الموجودة على تمثال الملك العقرب (حوالى عام – ٣٥٠٠) ، الذي عثر عليه في أبيدوس ، تشير إلى أقدم الأسماء الليبية التي عرفها المصريون وهو « تحنو » ، وقد استنتج من ذلك أن الملك العقرب قد اضطر لمحاربة التحنو عند توحيده لمصر .

وكان « التحنو » معروفين للمصريين باسم « سكان الغرب » إذ كانوا يعيشون على مشارف وادي النيل[٨] . ويبدو أن التحنو كانوا أوائل الليبيين الذين استقرّوا في الأرض واستأنسوا الحيوان . وقد وردت أول إشارة إلى الماشية الليبية في نقش بارز يعود إلى عهد الأسرة الخامسة ويبدو فيه التحنو وهم يتضرّعون إلى الملك ساحورع[٩] . ثم ترد إشارات أخرى إلى الماشية في رسوم تصوّر الماشية التي غنمها مرنبتاح[١٠] ، وفي رسم تأبيني للأسرة الثانية عشرة في مقابر بني حسن يظهر الليبيون وهم يقدّمون الجزية[١١] . وكانت للماشية الليبية شهرة واسعة نجد صدى لها في هوميروس[١٢] . ولعلّ إجراء مزيد من البحث المدقّق يثبت أن مناطق التحنو كانت من أقدم المناطق وأبرعها في تربية الماشية .

وعلى الرغم من الدلالة العامة التي كانت تحملها كلمة « التحنو » ، فقد كان « التحنو »

يحتلّون أيضًا، منذ عصور تاريخية مبكرة، الواحات والفيوم. فالرسوم الموجودة في معبد ساحورع تبيّن أن الليبيين قد وصلوا، حتى في عهد الأسرة الخامسة، إلى جنوب ممفيس[١٣]. ولم تخضع الواحات للمصريين إلاّ في عصر المملكة الحديثة. وثمة شواهد كافية تبيّن أن الواحات كانت تخضع لرؤساء أجانب كانوا يؤدّون الجزية لمصر في عهد الأسرة الثانية عشرة[١٤]. وكان الموظّفون المصريون يزورون «أرض سكان الواحات»[١٥] لأسباب شتى. ويكاد يكون من المؤكّد أن «سكان الواحات» الذين تشير إليهم المصادر المصرية هم «التحنو». فمن المؤكّد أن سكان الواحات الذين كانت تؤخذ منهم الجزية لتُرسل إلى حتشبسوت كانوا من «التحنو»[١٦]. ومن المعتقد أن الحكومة المصرية سعت في عهد الأسرة الثامنة عشر إلى إسناد جمع الجزية من التحنو إلى جهة مركزية واحدة. فالمصادر المصرية تتحدّث عن رئيس «لجميع بلاد الواحات» وهو في الغالب لقب فخري استُخدم عند جمع الجزية لحتشبسوت[١٧]. وقد استعمر المصريون الواحات بصفة دائمة في عهد رمسيس الثالث وزرعوها بالكروم. واشتهرت معظم الواحات بعد ذلك بمحاصيل أو بأشجار معينة تختلف باختلاف أنشطة السكان في مختلف الفترات[١٨].

لقد كان التركيب السكاني في مختلف مناطق الشمال الأفريقي عرضة للتغير الدائم كما سنبين فيما بعد. ولم ينفرد «التحنو» دائمًا بسكنى الواحات والصحراء الشمالية، إذ يُقال إن الواحات الخارجة كانت مكانًا لتأديب العصاة سواء كانوا ليبين أو مصريين[١٩]. وكانت الواحات الداخلة مأهولة – لأسباب غير معروفة – بمزيج من السكان الليبيين والمصريين[٢٠].

وقد أدّى تدفّق الليبيين المستمر على الدلتا التي كانت مفتوحة أمام غزواتهم الوافدة من الغرب، إلى إضفاء طابع ليبي على غرب الدلتا ظلّ باقيًا حتى وقت هيرودوت. لقد استقرّ «التحنو» منذ عهد باكر في مناطق محدودة على كلا جانبي الحدود المصرية ومن ثم كانت ملامحهم وأزياؤهم مشابهة لملامح وأزياء المصريين ممّا جعل المؤرّخين يتوهّمون أنهم جنس واحد.

ولكي نفهم الامتزاج الذي حدث بين هذه العناصر، لا بدّ أن نعرف مساره وأبطاله وأن نتعرّف على فاتحين وحروب وغزوات لم يصل إلينا أي صدى لها أو أية إشارة إليها[٢١]. فمنذ قيام مملكة الشمال في الدلتا والفرعون يحارب الغزاة الليبيين. ولا بدّ أن هذه المملكة كانت تتسم بسمات ليبية أو نشأت من أصول ليبية[٢٢]. لقد دأب الرعاة على التحرّك نحو المراعي في الدلتا والواحات منذ عصور ما قبل التاريخ. وظلّ الليبيون المنتمون لنفس العنصر يعيشون في شمال غربي الدلتا في الجزء المتاخم للفرع الكانوبي في العصور التاريخية[٢٣]. ولا شكّ أن من المفيد أن نحدّد المناطق الصالحة للزراعة حتى نستطيع أن نعيّن الأماكن التي نشأت فيها مجتمعات زراعية. لقد كانت أخصب أجزاء ليبيا هي الأجزاء المتاخمة لنهر كينيبس حيث تجود زراعة الحبوب. وكانت منطقة يوهسبيرس Euhesperis صالحة لزراعة الحبوب[٢٤]. وأراضي برقة تنتج أكثر من محصول في السنة[٢٥]. وكان سكان أمونيوم

والواحات يعملون بالزراعة منذ البداية. والذي نعرفه عن الطرق التي استخدمها الجارامنت Garamantes في إعداد أراضيهم للزراعة يوحي بأنهم كانوا يقيمون في الواحات[٢٦]. ومثل هذا الاحتمال قد يثير التساؤل عمّا إذا كان هناك أي تماثل بين طرق الفلاحة التي كان يستخدمها الجارامنت والطرق التي كان يستخدمها «التحنو» سكان الواحات[٢٧].

إن الشواهد تبيّن أن منطقة غربي الدلتا قد تأثّرت تأثّرًا عميقًا بالغزاة الليبيين. ففي المملكة القديمة، كانت عبادة الإله الليبي حورس (الإله الصقر) وأمه سحت – حورس، راعية الماشية، عميقة الجذور في المنطقة الثالثة بالدلتا، ثم انتشرت في الفترات التالية من الدلتا حتى وصلت إلى برقة[٢٨]. وكان من الطبيعي أن تنتشر هذه العبادة في غرب الدلتا حيث تبيّن المصادر المصرية أن مصر كانت موطنًا لحيوانات لا ترعى الكلأ، وقد ظلّت الأجزاء الغربية مراعي حتى وقت متأخر[٢٩]. فالبكري، الذي كتب في القرن الحادي عشر الميلادي، يحدّثنا عن رواسب لعبادة الثور جورزيل Gorzil في ليبيا[٣٠].

وكان معبد سايس في غربي الدلتا، المركز الرئيسي للتأثير الليبي في مصر، يحمل إسم «بيت ملك مصر السفلي»[٣١] وكانت الآلهة الرئيسية لهذا المعبد هي نيث (الرهيبة بأقواسها وسهامها) التي تعيش «في الغرب». وكان الليبيون القاطنون في الشمال الغربي لمصر، ولا سيّما في سايس، يرسمون رمز الآلهة نيث بالوشم على سواعدهم. ويبدو أن سايس كانت، في فترة ما، مقرًّا لأحد ملوك الدلتا الليبيين. ويُقال إن أصل الحية الملكية للفراعنة Uraeus يرجع إلى أحد الملوك الليبيين القدامى الذين حكموا الدلتا، وهو ما يتّضح من النقوش البارزة التي اكتُشفت في هرم ساحورع في أبو صير والذي يظهر فيه أربعة من الرؤساء الليبيين يضعون هذا الشعار الملكي فوق جباههم، وجدير بالذكر أن التحنو كانت القبيلة الليبية الرئيسية التي تسلّلت إلى مصر قبل الغزوات الليبية التي سنتناولها فيما بعد.

لقد ردّد الفولكلور المصري صدى انتصارات الملك نارمر على الليبيين، فوصفه بأنه رجل فرّ من بيت أسرته إلى مسقط رأسه، ليبيا، نتيجة مؤامرة من زوجة أخيه. وقد تبيّن أن الأخ الهارب هو ناربانا (نارمر)[٣٢]. وقد اضطر نارمر إلى تأديب المقاطعات الليبية المتمرّدة في غربي الدلتا وأسر عددًا كبيرًا من الليبيين. وكان ذلك، في رأي البعض، بمثابة ترحيل لمنطقة بأسرها[٣٣]. ويجدر بنا أن نلاحظ ان الامتزاج بين الليبيين والمصريين كان قد بلغ في عهد نارمر حدًّا جعل برستيد يقول بوجود مقاطعات ليبية في غرب الدلتا[٣٤]. وهناك أسطوانة من العاج تمجّد انتصار نارمر على الليبيين في الغرب[٣٥]، ممّا يوحي بقيام مقاطعات إدارية ليبية في غربي الدلتا. وفيما يتعلّق بالواحات، فإنه على الرغم ممّا يقوله البعض عن خضوعها للإدارة المصرية منذ عهد المملكة القديمة[٣٦]، فليس هناك دليل قاطع على ضمها إلى مصر قبل عهد رمسيس الثالث في الأسرة العشرين.

ويعتقد بعض المؤرّخين أن الانتصار الذي حقّقه كل من نارمر والملك العقرب كان انتصارًا على المصريين لا على الليبيين[٣٧] . ويمكن أن يُقال إن وجهتي النظر صحيحتان ، نظرًا لامتزاج المصريين بالليبيين منذ ما قبل التاريخ. فمن ناحية ، كانت الواحات تخضع لرؤساء أجانب يؤدّون الجزية للفراعنة[٣٨] . ومن ناحية أخرى ، اضطرّت التغيرات المناخية وإجداب الصحراء الليبية الليبيين إلى الهجرة إلى وادي النيل في موجات متعاقبة. وتذكر المصادر المصرية أن التحنو كانوا يقيمون في الدلتا والفيوم ووادي النطرون وعلى امتداد الجانب الغربي من وادي النيل[٣٩] . وإذا استثنينا ما حدث من تبادل للمواقع بين القبائل الليبية نتيجة لعامل خارجي هو ظهور شعوب البحر على شواطئ شمال افريقيا[٤٠] ، فقد ظلّت هذه القبائل في نفس هذه المواقع إلى حوالى عام – ١٢٠٠ .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الفترات الطويلة من الاختلاط بين أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة هي الامتزاج التدريجي إلى الحد الذي يصعب معه في بعض الأحيان تمييز الليبيين عن المصريين. ونضرب مثلاً على ذلك اللبس باللوحة التي سماها ماسبيرو «جنود ليبيون أثناء الصيد»[٤١] ، فقد اتّضح أن الأشخاص المرسومين فيها مصريون ، فهم يرتدون إزار الوسط وشعرهم مجعّد ويستخدمون نوعًا من الأقواس نجده مرسومًا على إحدى الأواني التي أُكتُشفت في هيراقليوبوليس[٤٢] . والواقع أن الضغط المستمرّ من الغرب نحو الشرق سعيًا إلى الأرض الخصبة دفع القبائل إلى التحرّك باستمرار. فأزاح المشوش الريبو وأزاح الريبو التحنو. ونحن نعرف موجتين على الأقل من هذه الموجات . فقد أكتسح الريبو مناطق التحنو في عهد مرنبتاح واكتسح المشوش أراضي الريبو والتحنو معًا في عهد رمسيس الثالث[٤٣] ، خلال هجمات عديدة لم تتوقّف ، سعيًا للاستقرار في مصر. والجدير بالملاحظة أن التحنو كانوا يضغطون باستمرار في اتجاه الأراضي المصرية وكانوا أكثر القبائل امتزاجًا بالمصريين في الدلتا. فالمصادر المصرية تقول على سبيل المثال «إن أراضي التمحو والسابد والمشوش كان يقطنها لصوص ينهبون مصر كل يوم»[٤٤] . وهذا الاختلاط هو الذي جعل المصريين يخلطون، في كثير من الأحيان، بين «التمحو» و «التحنو». فإذا كان المقصود هو «التمحو» وليس «التحنو» ، فإن معنى ذلك أن المصريين لم يكونوا ينظرون إلى التحنو نظرتهم إلى المشوش وغيرهم[٤٥] .

وفيما يتعلّق بالزي والملامح ، فإن لدى المؤرّخين من الأسباب ما يجعلهم يتشكّكون في أن نارمر قد حارب الليبيين وليس المصريين في الدلتا . لكن الأمر يختلف بالنسبة لخليفته عحا . فقد أقام عحا معبدًا في سايس للآلهة نيث ، واقترن بزوجة تسمى نيث – حوتب ، ربّما كانت من سايس أيضًا . ووُجد اسم زوجته هذه على بعض الأختام والأشياء المختومة . وبعض أختام الملك عحا تحمل اسم «سا إيسا» الذي يشير إلى هذه المدينة ويعني «إبن إيسا» . ويرد اسم هذا الملك أحيانًا بصيغة «حور – عحا» التي تُكتب بعلامة الصقر المرتبط بالصحراء الغربية[٤٦] . وليس هناك ما يشير إلى قيام هذا الملك بشن حروب على الليبيين ، الأمر الذي يتّفق مع الاعتقاد بتعاطفه مع سكان سايس أي

التحنو » . وتشهد المصادر المصرية على ما بلغه « التحنو » من نفوذ وازدهار . كما يتّضح ممّا جاء فيها عن الأسلاب التي غنمها من الليبيين كل من « خع – سخموى » من ملوك الأسرة الثانية و « نفر كارع » من الأسرة الثالثة و « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة[٤٧] . وقد اتّضح بعد إجراء مزيد من البحث أن الليبيين كانوا يوسّعون بالتدريج رقعة أراضيهم على الرغم من استمرار الوثائق المصرية في الحديث عن انتصارات الفراعنة وعن الأسرى الليبيين. فقد احتلّ « التحنو » غرب الدلتا والفيوم ووصلوا إلى جنوب ممفيس أثناء عهد الأسرة الخامسة ، وهو ما يمكن استنتاجه من رسوم معبد « ساحو – رع »[٤٨] .

وقد أطلق الملك « ساحو – رع » ، الذي هزم الليبيين ، اسم « هاتي تحنو » على رئيسهم أي أنه اعتبره أميرًا لهم . ومعنى ذلك أن الفرعون لم ينظر إلى التحنو باعتبارهم أجانب تمامًا[٤٩] . ويبدو أن خطر هجمات الآسيويين في الشرق ، الذي نتبيّنه من رسوم مقبرة « دشاشة »[٥٠] ، قد حفز « ساحو – رع » على إقامة شكل ما من العلاقات الدبلوماسية مع « التحنو » . وكان هذا الهجوم من الخطورة بحيث مهّد الطريق لثورة « أونامس » آخر فراعنة الأسرة الخامسة . ويعتقد البعض أن « أونامس » هذا هو « أونى » الذي يظهر مع الرئيس الليبي الذي هزمه « ساحو – رع »[٥١] . وإذا صح ذلك ، فإن العلاقة بين آخر ثلاثة من فراعنة الأسرة الخامسة ، وهم « منكاو – حور » و « جد – كور » و « أونامس » ، تكتسب دلالة خاصة . ذلك أنهم لم يحرصوا على إضافة اسم رع إلى أسمائهم كما لم يبنوا له معابد في أبو صير[٥٢] . فأونامس ، مثلاً ، أطلق على نفسه اسم « ابن تفنوت وحاتحور » وهما إلهان كانا يُعبدان في غربي مصر وفي ليبيا . كما أعلن أونامس أنه ظفر بالتاج الأبيض في البلد العظيم الذي يقع في جنوبي ليبيا ، وأنه « السبك » العظيم لـ « شريت » (الفيوم الحالية) ، وابن « حرى شف » اله اهناسيا ، وأنه سليل « حور » الأحمر العين[٥٣] .

وجدير بالذكر أن النصوص الموجودة على هرم أوناس لا توحي فحسب بالأصل الليبي لذلك الملك ، وإنّما تشير أيضًا إلى المناطق التي كان يحتلّها « التحنو » . فالألقاب والصفات التي يُنعت بها « أوناس » تبيّن أنه كان يرتبط بغرب الدلتا والفيوم واهناسيا وسايس ، وهي جميعًا مناطق ظلّ « التحنو » يحتلّونها حتى عام – ١٢٠٠ على الأقل . ومن هنا ذهب البعض إلى أن « أونامس » هو ابن « المرأة الشقراء ذات الشعر الأحمر » التي تظهر في إحدى لوحات الأسرة الرابعة ، والتي كان يعتقد أنها أميرة ليبية كانت تعيش بالقرب من الفيوم . وعلى الرغم من شك بعض علماء التاريخ في مصرية هذه المرأة ، واعتقادهم بأن القول بأصل ليبي للأسرة الرابعة قول لا يقوم على أساس متين[٥٤] ، فإن الأشخاص المنهكين الذي يظهرون في إحدى اللوحات على جدران الطريق المؤدّي إلى هرم أوناس ربّما كانوا من الليبيين الذين استمرّوا في محاولاتهم للاستقرار في أراضي مصر ونجحوا في احتلال الرقعة

الممتدة بين قوص وأبيدوس[٥٥]. أما كيف أمكن لأولٰئك الليبيين أن يساعدوا أوناس في ثورته فمسألة بالغة الدقة يصعب القطع فيها برأي.

وقد أورد الحكيم «ايبو ور»، في بردية ليدن ٣٣٤[٥٦]، وصفًا مؤسيًا لما اعترى الأسرة السادسة من ضعف وفساد. وتحتوي قائمة الملوك المدوّنة في بردية تورين (المجلّد الرابع – الجزء السابع)، التي احتفظ بها ايراتوسثينس، على أسماء بعض من أهم الملوك والملكات ومنهم «نيت – اقر» التي أسماها هيرودوت ومانيتون باسم «نيتوكريس»[٥٧]. ويبيّن ثبت الملوك في أبيدوس أن ملوك ما يسميه مانيتون بالأسرة السابعة كانوا يعتبرون ملوك الأسرة السادسة أسلافًا لهم، ولكن ليس هناك دليل يؤيّد هذا الزعم[٥٨]. كان طبيعيًا أن يؤدّي الضعف والتفكّك اللذان استمرّا جيلاً كاملاً إلى استمرار تدفّق الليبيين على وادي النيل. وقد استطاعت مدينة هيراقليوبوليس، مركز عبادة حورس ومقر معبده، الواقعة غربي الفيوم أن تعيد النظام إلى البلاد بانتصارها على الأسرة الثامنة الضعيفة في منف. وأقام بيت هيراقليوبوليس المالك علاقات طيبة مع «سيوت» إلى حدّ أنها أصبحت بمثابة «دولة عازلة» في الجنوب. وأصبح أحد نبلاء «سيوت» قائدًا عسكريًا لمصر الوسطى في ظل بيت هيراقليوبوليس المالك[٥٩] الذي ظلّ قويًا إلى أن أفضى تفوّق طيبة إلى انهياره وانتقال السلطة من الشمال إلى الجنوب. ولعلّ اتّخاذ أسماء مثل اسم «نيتوكريس» ينمّ عن ميل واضح نحو «نيت» إلّهة سايس التي كانت مركزًا لليبيين. فهذا الميل نحو نيت قد ينمّ عن تزايد في نفوذ الليبيين، نتج عن التسلّل الليبي المتزايد إلى مصر، وقدرتهم على الإستيلاء على السلطة. وعلى هذا النحو فإن سيادة «هيراقليوبوليس» في الفترة ما بين الأسرتين السابعة والثامنة لم تكن سوى احتلال ليبي لمصر الوسطى[٦٠].

ومن طيبة استطاع الملك «إنيوتف الأوّل»، أول ملوك الأسرة الحادية عشرة، أن يشدّد النير على البيت المالك في «هيراقليوبوليس» وأن يفرض هيبة مصر على الليبيين ويجبرهم على تأدية الجزية للملك[٦١]. وينسب البعض الانتصار على «الريبو» و«التحنو» إلى «منتوحوتب الأول»[٦٢]، بينما ينسبه آخرون، معتمدين على نفس النقوش[٦٣]، إلى «منتوحوتب الثاني»[٦٤]. ويبدو أن المعلومات عن الأسرة الحادية عشرة تخلط أحيانًا بين «الأناتفة» Intefs و«المناحبة» Menthuhoteps. وفضلاً عن ذلك، وكما يروي كتاب الحوليات المصريين[٦٥]، اتّخذت معارك هؤلاء الملوك مع الليبيين، وهي المعارك التي تمجّدها نقوش «الجبلين»، شكل الغارات والغارات المضادّة والقلاقل من جانب الليبيين القاطنين على امتداد النيل. وعلى ذلك يمكن أن يُقال أن «ستوحوتب الأول» قد ردّ الليبيين المهاجمين لمصر على أعقابهم، على حين شنّ «منتوحوتب الثاني» حربًا ظافرة على المصريين، في الشمال وفي الجنوب، وعلى القبائل الليبية على حدّ سواء[٦٦]. وقد كان من عادة الملوك المصريين أن يكرّروا، عند تمجيد انتصاراتهم، نفس الكلمات التي استخدمها أسلافهم.

وقد أرسل «أمنمحات الأول»، أول ملوك الأسرة الثانية عشرة، ابنه «أوسرت – سن الأول» (سيزوستريس) لتأديب الليبيين على الحدود الغربية في حوالى عام – ١٩٧٠. ويذكر ديودور الصقلي أن «أوسرت – سن» قد أخضع جزءًا كبيرًا من ليبيا[٦٧]. ويروي سنوحي[٦٨] أن «أوسرت – سن» قد أُرسل للإغارة على أرض «الريبو» وأنه عاد بعدد لا يُحصى من الأسرى الليبيين والمواشي[٦٩]. ويحدّثنا هيرودوت عن الليبيين الذين يعيشون بين مصر وبحيرة تريتونيس، ويذكر أنهم يعيشون على اللبن واللحم[٧٠]. كما يضيف أنهم يحرّمون لحم الأبقار وتربية الخنازير وأن نساءهم كنَّ يقدّسنَ الآلهة المصرية إيزيس[٧١]. وهذا يوضح الأثر المصري على الليبيين.

وقد عني موظّفو «أوسرت – سن» الأول بزيارة «أرض سكان الواحات»[٧٢]. وكان سكان الواحات أولئك من الليبيين بوجه عام والتحنو بوجه خاص. وكانت تصحب هٰؤلاء الموظّفين في زياراتهم للواحات قوات من الجند لجمع الجزية وتأديب العصاة وشنّ الغارات المضادة. غير أن من الواضح أن السبب الرئيسي لهذه الزيارات كان جمع الجزية. فعلى سبيل المثال يذكر برستيد أن أحد موظّفي «أوسرت – سن» الثالث عاد «محمّلاً بأطايب منتجات التحنو اعترافًا بعظمة صاحب الجلالة»[٧٣] ومن المحتمل أن موظّفي «أوسرت – سن» الثالث كانوا يجمعون الجزية من غربي الدلتا أو الواحات كما كان يفعل موظّفو «أوسرت – سن» الأول. والمؤكّد أن سكان الواحات كانوا من التحنو الذين يخضعون – شأنهم شأن القبائل الأخرى – لسلطة مصر ويؤدّون لها الجزية[٧٤].

ومن المحتمل أن تكون مواقع السكان الليبيين قد ظلّت على النحو الذي تصفه المصادر المصرية. ويعني ذلك أن «التحنو» كانوا جيرانًا لمصر من ناحية الشمال الشرقي، وأن «التمحو» كانوا يعيشون جنوب «التحنو»، على حين كانت القبائل الأخرى تعيش ناحية الغرب[٧٥]. إلاّ أن ما اعترى مصر من تفكّك وضعف إبّان حكم «الهكسوس» أتاح لليبيين التقدّم نحو الدلتا واحتلال بعض أراضيها الخصبة. وربّما كان هذا هو أفضل تفسير للحرب التي دارت بين «امنحوتب الأول» والليبيين، فقد ردّ هذا الفرعون الليبيين على أعقابهم وغزا بلادهم[٧٦]، كما يتّضح من أقوال ضابطه «أموز بن نخبت» الذي يذكر أنه ذبح ثلاثة من الأعداء وأحضر ثلاثًا من أياديهم المقطوعة[٧٧]. والليبيون المقصودون هنا هم «الكيهيك» الذين كانوا يعيشون في الشمال. ويحدّد ماسبيرو أراضيهم بالمنطقة الواقعة بين بحيرة مريوط وواحة سيوة، وهو ما قد يعني أنهم كانوا فرعًا من أفرع «التحنو».

وقد فرض ملوك الأسرة الثامنة عشرة مهابة مصر في إمبراطوريتهم الشاسعة. فكان «تحتمس الثالث» يتلقّى الجزية من شتى البلدان الخاضعة له في آسيا وأفريقيا، والتي كانت تمتدّ من أقصى آسيا الصغرى وبلاد الرافدين إلى الشواطئ البعيدة لليبيا وواحات الصحراء[٧٨]. وكان رؤساء القبائل الليبية يحضرون لهذا الفرعون «الجزية من واحات الجنوب والشمال»[٧٩]، أي من «التحنو» و«التمحو» على الأقل. وفي أنشودة النصر، التي وضعها كهنة «آمون» على لسان الإله، يعدّد «آمون» معجزاته فيقول

« لقد جئت لأهبكم القوة لسحق التحنو »[٨٠]. ويمكن القول بأن « تحتمس الثالث » قد أخضع معظم القبائل الليبية إن لم يكن كلها حتى فيما وراء الواحات. ولم تضطر شتى قبائل التحنو إلى الخضوع لهذا الفرعون فحسب، بل إلى حمل الإتاوات على ظهورهم إلى الملك حتى يظلّوا باقين على قيد الحياة.[٨١].

ويظهر « التحنو » في كل الوثائق المصرية كعامل من أهم العوامل في العلاقات القديمة بين مصر وليبيا. ويبدو أن الفترة التي بدأت مع الأسرة الثامنة عشر قد شهدت تغيّرات خطيرة في هذه العلاقات. فمعظم الوثائق تستمرّ في الحديث عن الهزائم التي ألحقها الملوك المصريون « بالتحنو » أو بغيرهم من القبائل. وقد أمر الإله الملكة حتشبسوت، زوجة تحتمس الثالث، أن تضرب « التحنو »[٨٢]، ولكن من المحتمل جدًا أن يكون هذا الأمر الإلهي قد سجّل بعد تنفيذه[٨٣]. وقد أعلنت حتشبسوت أن إمبراطوريتها تمتدّ من الجندل الثالث إلى نهر الفرات وأن حدودها الغربية « تمتدّ حتى جبل مانو (مغرب الشمس)... سلطاني فوق سكان الرمال جميعًا... وقد أحضرت الجزية من التحنو (ليبيا) وهي مكوّنة من العاج وسبعمائة سن فيل كانت هناك وعديد من جلود الفهود... »[٨٤]. وأيًا كان ما تزعمه حتشبسوت عن حدودها فإن مواقع هذه الحدود تبدو غامضة كما يتّضح من حديثها عن حدودها الغربية التي تقع عند جبل مانو. وأغلب الظن أن جيوش « تحتمس الثالث » و « حتشبسوت » قد أوغلت في كل اتجاه، وأن الشعوب لم تجد مناصًا، ما دامت في متناول أيديهما، من الخضوع ودفع الجزية « حتى تُتاح لها فرصة الحياة » كما قال « نيهي » نائب الملك في « كوش » في حديثه عن « التحنو »[٨٥].

ولا بدّ أن نتذكّر أن الواحات دخلت في نطاق مصر الإداري إبّان عهد المملكة القديمة. وفي عهد « كاموس » أرسلت قوة عسكرية إلى الواحات البحرية خلال المعركة ضد « أوسر أبوفيس ». ومن المحتمل أن تكون السلطة المركزية قد عادت إلى فرض سيطرتها على الواحات جميعًا في أوائل عهد الأسرة الثامنة عشرة. ففي عهد « أمينوفيس الأول » أصبح هناك موظف كبير يسمى « عمدة الواحات »[٨٦]. ولا شكّ أن اهتمام مصر بالصحراء الليبية قد أخذ في التنامي إلى أن اكتسب، في ظل الدولة الحديثة، سمات إقتصادية واضحة تتجلّى في تجارة القوافل مع الواحات المختلفة: سيوة والبحرية والفرافرة والخارجة والداخلة، وربّما أيضًا مع واحات كركور ودنجل ونخيله وسليمه[٨٧].

وقد اضطرّ الملك « أمنحوتب الثالث » إلى قتال الليبيين؛ فهزم التحنو وأسر عددًا منهم وأجبرهم على العمل في أحد الحصون المصرية. وقد كان من الطبيعي أن يسعى ملوك الدولة الحديثة إلى إخضاع الليبيين لسلطانهم[٨٨].

وفي عهد « أخناتون » أو خليفته كان رؤساء « الأقواس التسعة » Nine Bows يأتون إلى « حور محب » ليقدّموا فروض الطاعة كما كانوا يفعلون مع الفرعون[٨٩]. وقد يعني ذلك أن القبائل الليبية

المختلفة كانت لا تزال خاضعة للسيادة المصرية، ولكن الحرب المتقطّعة لم تتوقّف. واستمرّ الليبيون في ضغطهم الإثني وفي تسلّلهم إلى الدلتا المصرية بحيث أصبح هذا الضغط يشكّل خطرًا في نظر ملوك الأسرة التاسعة عشرة[٩٠]. ومن هنا اضطرّ «سيتي الأول» في العام الثاني من حكمه، أي في حوالى عام – ١٣١٢، إلى إرسال جيشه لدرء هذا الخطر الداهم الذي أحدق بمصر من الغرب. واضطر سيتي الأول إزاء هذا الخطر الذي استولى على اهتمام الفراعنة منذ بداية عهد الأسرة الثامنة عشرة، إلى خوض الحرب لمدة عام كامل[٩١] قبل أن يستطيع مواصلة عملياته الحربية في آسيا[٩٢]. فلم يتوان الليبيون القاطنون غربي النيل في اغتنام فرصة ضعف الحكومة في مصر كي يواصلوا اندفاعهم في الدلتا ويستولوا على كل ما كان بوسعهم الاستيلاء عليه من أراض. ولم تكن الحدود الغربية محدّدة تحديدًا واضحًا نتيجة متاخمتها لحدودهم. وقد واجه «سيتي الأول» الليبيين في معركة دارت في مكان ما غربي الدلتا[٩٣]. ويبدو أنه أمضى العام الثاني من حكمه في الدلتا، وخاض – على الأقل – معركتين ضاريتين مع الليبيين[٩٤]. وفي النهاية «جاء شعب بلاد التحنو جاثيًا على ركبتيه»[٩٥] إلى الفرعون الذي قدّمهم مع عدد كبير من الأسرى الآخرين إلى الإله آمون[٩٦]. وحصل سيتي على الجزية المعتادة من العدو[٩٧]. ومن الجلي تمامًا أن الليبيين بوجه عام و«التحنو» بوجه خاص، كانوا في عهد سيتي الأول لا يعيشون في غرب الدلتا فقط بل في الدلتا نفسها، ممّا يتبيّن معه بوضوح أن «التحنو» كانوا يحتلّون أيضًا الصحراء الواقعة غربي الدلتا.

ولم تؤدِّ الحملات التي شنّها «سيتي الأول» على الليبيين إلى توقّف الهجمات الليبية. إذ استمرّت القلاقل في الغرب[٩٨]، واضطرّ «رمسيس الثاني» إلى شنّ غارات مضادة على الليبيين حتى وصف بأنه «مبيد التحنو»[٩٩] وجاعل ليبيا «تسقط أمام سيفه»[١٠٠]. وتصوّر لوحتان في معبدي بيت الوالي وأبو سمبل «رمسيس الثاني» وهو يذبح الليبيين، وتصفه اللوحة الأولى بـ«ربّ السيف وهو يطبق على أراضي التحنو»[١٠١]، على حين يُوصف في اللوحة الثانية بـ«الإله الرحيم وهو يذبح الأقوام التسعة»[١٠٢]. وكان من أشدّ حملات الليبيين ضراوة الحملة التي شاركهم فيها قراصنة «الشردان» كحلفاء «للتحنو»، وهاجموا خلالها الحدود الغربية للدلتا. وقد جاء في نقوش مسلة تانيس[١٠٣] أن «رمسيس الثاني» استولى على بلدان الغرب... وتلقّى الجزية منها... الشردان المتمرّد القلب... والسفن الحربية في عرض البحر[١٠٤]. أما الذي كان يحدث في ليبيا نفسها في ذلك الوقت فغير واضح. ومن المعتقد أن «الشردان» جاءوا إلى ليبيا وتحالفوا مع الليبيين على غزو مصر. وهناك إشارة إلى «سفن حربية في عرض البحر» مما يعني وقوع معركة بحرية[١٠٥]. وأصبح «الشردان» وحلفاؤهم الليبيون يمثّلون خطرًا بالغًا. ومن المرجّح أن النقوش المسجّلة على مسلّة تانيس تتحدّث عن غارة شنّتها عصابات «الشردان» والليبيين التي دأبت على شن غارات للنهب في غربي الدلتا[١٠٦]. ويبدو أن هذه الغارة قد حدثت في مستهلّ عهد «رمسيس الثاني» الذي أسر عصابات النهب هذه، كما يذكر النص

المسمى «قصيدة قادش»[١٠٧]. واضطر رمسيس الثاني في العام الثاني من حكمه إلى التصدّي للغارات المستمرّة التي كان يشنّها الليبيون وحلفاؤهم من القراصنة الشردان. وقد جاء في نقوش مسلة أسوان التي أقامها هذا الفرعون أنه «انقضّ على محاربي البحر وهم نيام»[١٠٨]. كما شنّ الليبيون هجمات أخرى في عهد «رمسيس الثاني»[١٠٩] ولكنه ألحق الهزيمة بهم وبحلفائهم وأخذ أسرى منهم[١١٠]. وقد ضمّ هذا الفرعون جنودًا من الشردان والليبيين إلى جيشه، وأسكن التحنو في المرتفعات والحصون. ويُقال إن معظم جنوده كانوا من تلك القبائل الأجنبية[١١١].

وكانت الحروب أو الغارات التي حدثت في مستهل عهد «رمسيس الثاني» مقدّمة للغزوات الكبرى التالية. فحين تقدّم السن برمسيس ووهنت سطوته راح الليبيون و«شعوب البحر» يعيثون فسادًا في غربي الدلتا دون رادع، وتقدّموا صوب ممفيس وهليوبوليس. كما اندفع «التحنو» من غربي مصر حتى وصلوا إلى قناة هليوبوليس[١١٢]. وكانت هذه التحرّكات بداية للغزوات الكبيرة التي تعرّضت لها مصر إبّان عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين. وحين مات «رمسيس الثاني» اندفع الليبيون وحلفاؤهم من غربي الدلتا إلى شرقيها دون أن يتصدّى لهم أحد.

وخلف «مرنبتاح» أباه «رمسيس الثاني» في الوقت الذي كان فيه المغتصبون يوسعون مستوطناتهم لتصل حتى مشارف طيبة ويعبرون الحد الجنوبي للدلتا عند مشارف هليوبوليس. وكان «مرنبتاح» شيخًا مسنًّا فلم يبادر إلى التصدّي لهجمات الليبيين في الغرب. وفي السنة الخامسة من عهد «مرنبتاح» شنّ الليبيون وحلفاؤهم أخطر حملاتهم وأكثرها تهديدًا لأمن مصر[١١٣]. وتصف لنا الوثائق المختلفة عن عهد هذا الفرعون حالة مصر إبّان تلك الغزوات[١١٤]: كانت الأرض قد أُهملت طويلاً من جراء الغزاة الذين كانوا يتوغّلون في الحقول المصرية حتى ضفاف النهر العظيم ويمضون فيها الأيام الطوال باحثين عن الغذاء. وكانت الواحات البحرية وواحة الفرافرة قد انفصلتا عن مصر منذ فترة. بيد أن مرنبتاح أخذ يعد العدة للدفاع عن هليوبوليس وحماية شعبه[١١٥].

ولم يكن أولئك الغاصبون هم الدخلاء الوحيدين الذين توغّلوا في مصر: إذ كانت هناك قبائل ليبية أخرى تشق طريقها إلى داخل مصر. «فالتحنو» الذين كانت أراضيهم تقع غرب مصر مباشرة، تبعهم نحو الغرب «الليبو» أو «الريبو»، ثم «المشوش». وهذه القبائل هي أسلاف قبائل البربر في شمال أفريقيا[١١٦]. وقد ثبت أن هذه القبائل الليبية كانت قبائل متحضرة وقادرة على القتال. فقد أقامت دولة كانت حدودها لا تبعد بأكثر من عشرة أيام من السير عن قصر فرعون في شرق الدلتا. وقد دأب التحنو، بوجه خاص، على عبور الحدود الغربية للدلتا حتى مشارف الفرع الكانوبي[١١٧]، واستقرّ بعضهم في الواحات البحرية في جنوب الفيوم. ويمكن أن يُقال إن الدلتا، لا سيّما جزئها الغربي، تجري فيها الدماء الليبية وأنها كانت تغصّ بالأسر الليبية. ومن هنا تحدّثنا المصادر عن الأراضي التي تُركت لترعاها الماشية من جراء هجوم «الأقوام التسعة»[١١٨]، وكيف لزم

ملوك الصعيد مدنهم نظرًا لقلّة الجند[١١٩] ، وكيف كان الغزاة يذرعون البلاد يومًا بعد يوم بحثًا عن الغذاء[١٢٠] . كان هذا هو الوضع حين بدأ الليبيون وحلفاؤهم يستعدّون لشنّ غزواتهم الكبيرة في عهد «مرنبتاح».

وقد أجبر «مريائي ابن دِدْ» ، وكان ملكًا لليبو أو الريبو ، «التحنو» على الانضمام إليه في هجومه على مصر. وسانده في هذا الهجوم «الأكوش» و«الترش» و«اللوكا» و«الشردان» و«الشكلش» و«شماليون وافدون من كل الأقطار»[١٢٢] . واصطحب الليبيون وحلفاؤهم نساءهم وأطفالهم. وهكذا تحوّلت الهجرات المبعثرة التي شهدتها العصور السابقة إلى هجرة وغزو هذه المرة. وواجه المصريون الليبيين بالقرب من مكان يُعرف باسم «بربري» في غربي الدلتا[١٢٣] . وهزم «مرنبتاح» «مريائي» وحلفاءه ومعهم «التحنو». ومن هنا تقول أنشودة انتصار «مرنبتاح» : لقد أُطيح بالملوك... وها هم يقولون «سلام»... لا أحد يرفع رأسه بين أمم الأقواس التسعة. الذين أُبيدوا في أرض التحنو...[١٢٤] . ويُقال إن «مرنبتاح» غزا أرض «التمحو»[١٢٥] ، وأخذ الجزية سن أعدائه[١٢٦] ، وأنه حوّل معسكرات الليبيين إلى خرائب سن الأرض الحمراء... حتى لم يعد فيها حقل يُزرع وتبعثرت عائلات الليبيين كالفئران في الغلوات»[١٢٧] . وسن هنا يعتقد بعض المؤلّفين أن «مرنبتاح» قد تعقّب الليبيين بحملات تأديبية ، إلاّ أنه ليس هناك ما يثبت أن هذا الفرعون قد أرسل ما هو أكثر من قوات عسكرية صغيرة لطرد العدو إلى ما وراء الحدود الغربية[١٢٨] .

وتنفّس المصريون الصعداء بعد انتصار «مرنبتاح»[١٢٩] . وكان الإنتصار كفيلاً بوقف الهجمات الليبية على مصر لفترة طويلة لو أنها لم تسقط فريسة للإضطرابات نتيجة لضعفها بعد موت «مرنبتاح». ولكن الروح لمعسكرية كانت تتراجع على حين ارتفعت مكانة الكتبة[١٣٠] . وشجّع هذا الوضع الليبيين على غزو وادي النيل سن جديد. فجاءوا في عصابات للنهب راحت تعربد في كل أرجاء الدلتا من «ممفيس» إلى البحر المتوسط ، وأقاموا على الفرع الكانوبي للنيل[١٣١] . واستمرّت حالة الإضطراب هذه من موت «مرنبتاح» في عام – ١٢١٥ إلى أن تولّى العرش الملك «ست نخت» (حوالى – ١٢٠٠) الذي هزم الغزاة وأعاد النظام إلى البلاد. وبعد فترة قصيرة مات هذا الملك ليخلفه ابنه «رمسيس الثالث».

وجدير بالملاحظة أن مرتزقة «الشردان» كانوا يشكّلون جزءًا هامًا سن جيش «رمسيس الثالث». كما كان الجيش المصري يضمّ أيضًا فيلقًا من «الكيهيك». وكان الليبيون و«المشوش» الموجودون بمصر حينذاك ينهبون المدن الساحلية الغربية[١٣٢] . ولكن أحداثًا وقعت في آسيا وأوروبا دفعت الليبيين إلى محاولة غزو مصر مرة أخرى[١٣٣] . ولم يعد بوسع شعوب بحرية أخرى ، شل «الثكل» و«البلست» ، أن تتحمّل الضغوط الواقعة عليها. وكذلك كان الأمر بالنسبة لليبيين[١٣٤] .

وهكذا اشتركت شعوب البحر ، التي كانت ترابط على السواحل المصرية على امتداد الدلتا

لتشن حملات للسلب والنهب[١٣٥] . في المخططات الليبية لغزو الدلتا. وكان هذا هو الغزو الأول بقيادة «تمر» (Themer) الذي اخترق الحدود المصرية من ليبيا[١٣٦] في عهد «رمسيس الثالث» فيما يُعرف بالحرب الليبية الأولى. وقد زحف الليبيون – بطبيعة الحال – من الغرب على حين زحف حلفاؤهم من شعوب البحر إلى غربي الدلتا. واذا كانت شعوب البحر قد قبلت أن تحارب تحت إمرة قائد ليبي فإن هذا أمر له دلالته، فلا شكّ أن القائد الليبي كان أكثر دراية بالصحراء، وإن كان من غير المؤكّد أنه قاد أيضًا الغزوات الأوروبية في آسيا. على أن هذا التفوّق الليبي – لو سلمنا بوجوده – يظلّ غامضًا. فنحن لا نعرف على وجه التحديد مدى تفوّق القبائل الليبية على شعوب البحر في القوة والتنظيم والحضارة. والإجابة عن هذه الأسئلة تحتاج إلى مزيد من التنقيب والبحث في الأرض الليبية. وأيًا كان الأمر فقد هزم «رمسيس الثالث» الغزاة وسُمِّي «مؤدِّب الليبيين»[١٣٧].

والذي يهمّنا هنا أن تغيّرًا هامًا قد حدث فيما يتعلّق «بالتحنو». وقد بدأ هذا التغيّر منذ نهاية الأسرة الثامنة عشرة. ففي سجلات رمسيس الثاني إشارات كثيرة إلى التحنو مثل «مبيد التحنو»[١٣٨] و«يطبق على أراضي التحنو»[١٣٩]... الخ. وقد ظلّ «التحنو» حتى عهد رمسيس الثاني المصدر الرئيسي أو أكبر مصدر للقلاقل التي كانت تواجهها الإدارة المصرية في الغرب، وهذا يتجلّى بوضوح في المصادر المصرية. ففي نقوش مسلة تانيس يأتي اسم «التحنو» على رأس المجموعات الليبية المحالفة «للشردان»، وهم أول شعب أجنبي تذكره الوثائق المصرية عند الحديث عن الغزو الأجنبي في عهد «رمسيس الثاني»[١٤٠]. وربّما كانوا أيضًا قد حالفوا «الشردان» في الغزو الذي أُشير إلى إشتراك سفن حربية فيه وإلى وقوع معركة بحرية أثناء الحرب[١٤١]. كما تتحدّث «قصيدة قادش» عن التحالف بين «الشردان» و«التحنو» الذين أخذهم رمسيس الثاني «أخذ عزيز مقتدر»[١٤٢]. ويتبيّن من مسلة «رمسيس الثاني» في أسوان ومن وثائق أخرى من عهده أن «التحنو» ظلّوا دائمًا عدوه الرئيسي بين الليبيين[١٤٣]، كما تذكر أيضًا أن «رمسيس الثاني» قام بعد انتهاء الحرب البريّة والبحرية بضمّ «الشردان» إلى جيشه وأسكن «التحنو» على المرتفعات[١٤٤]. ومن المعتقد أن مجموعات ليبية أخرى قد اشتركت في هذه المعارك، وإن كان المحتمل أنها شاركت فيها تحت قيادة «التحنو».

وفي عهد «مريأي»، الملك الليبي الذي تحالف مع شعوب البحر وأجبر التحنو على الإنضمام إليه في غزوه لمصر في عهد «مرنبتاح»[١٤٥]، بدأ التحنو يفقدون مركزهم القيادي لتنتقل القيادة إلى مجموعات ليبيا أخرى. وعلى الرغم من أن نشيد نصر «مرنبتاح» يتحدّث عن انتصاراته على «التحنو»[١٤٦]، فإنه من الواضح أن «الريبو» كانوا قد أصبحوا حينذاك المجموعة الرئيسية. وربّما كان هذا هو السبب الذي جعل المصادر المصرية تستخدم اسم «التحنو» ليدلّ إما على مجموعة «التحنو» أو على «بلاد التحنو» أي ليبيا. ولعلّ اسمهم، بعد انتقال القيادة إلى «الريبو» أو «الليبو»، أصبح يعني عند المصريين ليبيا كلها.

ثم وقع مزيد من التغيرات في مركز «التحنو» حين بدأ «المشوش» ينهضون بدور نشط إبّان عهد الأسرة العشرين، فقد ظهر «المشوش» لأول مرة ضمن الغزاة الليبيين كحلفاء «للريبو» خلال الحرب الليبية الأولى في عهد رمسيس الثالث. واغتنم «المشوش» فرصة الضعف الذي حلّ بجيرانهم الشرقيين أي «الريبو» و«التحنو»، بعد هزيمتهم على يد رمسيس الثالث، فقام زعيمهم «مششر بن كبر» بغزو التحنو «فأصبحوا رمادًا وتحوّلت مدنهم إلى خرائب موحشة وانقطعت ذريتهم»[١٤٧]. ويرى باتس بحق أن «الريبو» قد تعرّضوا لنفس المصير، إذ كانوا جيرانًا «للمشوش» من ناحية الشرق[١٤٨]. وكون الوثيقة المصرية لم تذكر سوى التحنو في هذه الواقعة يؤيّد الرأي القائل بأن «التحنو» كان أكثر الأسماء المصرية شيوعًا للجماعات الليبية. وقد واجه «التحنو» هجمات متتالية من «الريبو» و«المشوش» إلاّ أنها لم تقضِ عليهم تمامًا. وبعد هزيمة «التحنو» و«الريبو» زيّنوا «للمشوش» غزو مصر، وحين هزمتهم مصر قال «المشوش»: «لقد خدعتنا ليبيا»[١٤٩]. وأغلب الظن أن هذه النصيحة كانت خطة ماكرة وضعها «الريبو» للتخلّص من أولٰئك السادة الجدد. وبعد هزيمة «المشوش» أصبح «الريبو» أقوى مجموعة من الحلفاء بحيث أصبح اسمهم مرادفًا لليبيا كلها.

وقد اندلعت الحرب الليبية الثانية في العام الحادي عشر من عهد رمسيس الثالث، فقد تجمّع «التمحو» في ليبيا ووحّدوا قواهم مع «الريبو» و«المشوش» و«السبد»[١٥٠]. ثم أخذوا جميعًا، ومعهم حلفاؤهم من شعوب البحر والليبيون المقيمون في الدلتا، يشنّون حملات السلب والنهب من البر والبحر[١٥١]. وظلّ بعض الغزاة في سفنهم محاولين الإبحار جنوبًا في الفرع الكانوبي للنيل، وأخذوا ينهبون مدن غربي الدلتا ابتداءً من مدينة «كربن» الواقعة جنوب ممفيس[١٥٢]. ويبدو أن الغزاة ظنّوا أنهم حقّقوا بغيتهم وأخذوا يستوطنون أرض مصر كمستعمرين. ولكنهم هُزموا في النهاية على يد رمسيس الثالث الذي يزهو بنصره فيقول «لقد أطحت بالذين غزوا حدودي... وجندلتهم في أماكنهم... لقد أذللت أرض التمح... المشوش... أنهم يجثون خوفًا مني»[١٥٣]. والظاهر أن «رمسيس الثالث» لم يسمح لفلول الغزاة أن تعيش بسلام في أراضيها.

ومن الواضح أن الغزاة كان لا بدّ لهم أن يعبروا أراضي «التحنو» عند اجتيازهم الحدود المصرية. ولكن الوثائق التي تسجّل حروب رمسيس الثالث ضد «المشوش» وحلفائهم لا تذكر اسم «التحنو». فهذه الوثائق تتحدّث عن تكوين حلف يضم خمس قبائل، هي «الاسبت» و«الشاي» و«البكن» و«الكيكش» و«الهس»، ولكنها تصمت عن ذكر «الريبو» و«التحنو» على الرغم من اشتراكهم – دون شكّ – في الحرب. ولا يظهر في قائمة الأسرى المصرية سوى «المشوش». وربّما كان السبب في ذلك هو استخدام الكتبة المصريين لاسم الفرقة الغالبة في الحلف، وليس تخلّف الحلفاء من غير «المشوش» عن الإشتراك في معركة «هاتشو»[١٥٤]، التي وضعت نهاية لحركات الهجرة

المسلّحة إلى مصر. ويمكن أن يكون فرض الملكة حتشبسوت للجزية على «التحنو» دليلاً على اشتراكهم في هذه الغزوات[١٥٥].

وبعد انتصار «رمسيس الثالث» على «المشوش» بقيادة «كبر»، صمتت الوثائق المصرية عن أي ذكر لشعوب البحر. وكان الملك يحيي ذكرى انتصاره باحتفال سنوي يسمى «ذبح المشوش»[١٥٦]. ولمّا أيقن الليبيون بعجزهم عن مواجهة الجيش المصري، بدأوا غزوًا سلميًا من خلال التسلل الدائم إلى الدلتا. وانضمّوا إلى صفوف الجيش وأصبحوا قادة لحصون وحاميات في الدلتا، وتبوأوا مناصب تكفل لهم النفوذ والسلطان. ويبدو أن «التحنو» قد حقّقوا نجاحًا بعيدًا في الزحف نحو الشرق حتى تركّزوا في الدلتا ومصر الوسطى. ويتجلّى هذا من وصول إحدى عائلات «التحنو» الليبية إلى مناصب كهنوتية وعسكرية في هيراقليوبوليس. وفي النهاية أصبح أحد أعضاء هذه الأسرة، التي تمصرت تمامًا، مؤسّس الأسرة الثانية والعشرين الليبية في مصر[١٥٧]. وبنهاية الألف الأول قبل الميلاد، كانت هذه الشعوب قد تحوّلت إلى مجموعات صغيرة استقرّت في شرقي البحر المتوسط وشمالي افريقيا، وتوقف ضغط الكتل البشرية الغفيرة التي كانت تندفع من جنوب أوروبا نحو الشمال الافريقي، ممّا أدّى إلى توقّف هجمات عصابات السلب على مصر[١٥٨].

أما المسألة التي تحتاج إلى مزيد من البحث فهي العلاقة بين «التحنو» وبين «الأدورماشيديين»، الذين يقول هيرودوت[١٥٩] إنهم استقرّوا ومعهم جزء من «الجيليجاميين»، في الأرض التي كان يسكنها «التحنو» من قبل. فهيرودوت يخبرنا أن عادات «الأدورماشيدين» كانت تماثل عادات المصريين ولكن ملابسهم كانت كملابس سائر الليبيين. ويكاد هذا الوصف ينطبق على التحنو. فمتى حلّ «الأدورماشيديون» محل «التحنو»؟ هل رحل «التحنو» إلى داخل مصر وأصبحوا مصريين، وهل ظهر «الأدورماشيديون» نتيجة لهذه الهجرة؟ إن الردّ على هذه الأسئلة يحتاج إلى إعادة النظر في توزيع القبائل القديمة وأصولها، لا سيّما بعد التدابير التي اتّخذها «رمسيس الثالث» وخلفاؤه[١٦٠].

الملاحظات

١. J. H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, Vol. II, p. 321, Chicago, University of Chicago Press, 1906

٢. المرجع نفسه، المجلد الرابع، ص ١٠٦، O. Bates, *The Eastern Libyans*, p. 48, London, Macmillan, 1914

٣. J. H. Breasted, *A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest*, p. 7, Darby, Pa., Darby Books, 1983 إصدار ثان لطبعة ١٩١٦

٤. W. Arkel, *The British Ennedi Expedition*, pp. 44 ff., 1951

٥. Breasted, *Ancient Records...*, op cit., Vol. I, p. 675

٦. انظر مقال H. Junker عن «ظهور الزنوج لأول مرة في التاريخ» في مجلة *Journal of Egyptian Archeology*، ١٩٢١، و F. Chamoux, Cyrêne sous la Monarchie des Battiades, pp. 42 f., Paris, 1953

٧. A Zethe, *Zeitschrift für Aegyptische Sprache und Alterumkunde*, Vol. LII, p. 56; W. M. F. Petrie, *Ceremonial Slate Palettes*, London, 1933; A. H. Gardiner, *Onomastica*, p. 396

٨. G. Galassi, *Tehene e le origini mediterrani della civiltà egizia*, p. 33, Rome, 1942; Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 579

٩. L. Borchardt, *Das Grabdenkmal des Königs Sahure*, Vol. I, Figs. 11, 12

١٠. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, pp. 584-9

١١. P. E. Newberry, *Beni Hasan*, Vol. I, Pl. XLVII; Bates, op. cit., pp. 95 f

١٢. Homer, *Odyssey*, IV. 85 f

١٣. Borchardt, op. cit., p. 17

١٤. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. II, pp. 385-6

١٥. Ibid., p. 321

١٦. Ibid., pp. 763, 767

١٧. Ibid., Vol. I, p. 527

١٨. I. Dümichen, *Die Oasen der Libyschen Wüste;* G. Parthey, *Der Orakel und die Oasen des Ammon*; Bates, op. cit., p. 48

١٩. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, pp. 650 ff

٢٠. Ibid., p. 725; Ptolemy, *Geographia*, IV

٢١. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 31 f

٢٢. يوجد في شجرة نسب «هاربسن»، الذي ينتمي لأسرة ليبية من مستوطني الدلتا المصرية، أسماء أحد عشر رجلاً وزوجاتهم. ويبدو أن كل رجال هذه العائلة كانوا – تحت التأثير المصري – يقترنون بزوجة واحدة.
(Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 787; Bates, op. cit., p. 109)

٢٣. H. Kess, *Ancient Egypt; A Cultural Topography*, p. 28, Chicago, University of Chicago Press, 1978

٢٤. Herodotus, IV. 198

٢٥. Ibid., 199

٢٦. Lucan, IV. 334

٢٧. Bates, op. cit., p. 98

٢٨. Kess, op. cit., pp. 30

٢٩. Bates, op. cit., p. 188

٣٠. Al-Bakrī, *Description de l'Afrique sepentrionale*, p. 12

٣١. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 31 f

٣٢. V. Vikentieve, in *Journal of Egyptian Archeology*, Vol. 17, 1931, pp. 67-80

٣٣. انظر لوحة الأردواز التي تمجّد هذا النص في J. E. Quibell, *Hieraconpolis*, Vol. I, p. 29

٣٤. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., p. 47

٣٥. Quibell, op. cit., Pl. XV, No. 7; Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., p. 49

٣٦. *C.A.H.*, Vol. II, Part 1, 1973, p. 310

٣٧. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 47, 49; Bates, op. cit., p. 210; E. Drioton and J. Vandier, *L'Égypte*, p. 135; A. Moret, *Le Nil et la civilisation égyptienne*, pp. 172 f., 1926

٣٨. A. H. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, pp. 116 ff., New York, Oxford University Press, 1964.

٣٩. Chamoux, op. cit., pp. 41 ff

٤٠. HH. R. Hall, *The Oldest Civilization of Greece*, pp. 171 ff.; W.W. Muller, *Asien und Europa*, pp. 371 ff.; Bates, op. cit., p. 216

٤١. G. Maspero, *The Struggle of the Nations*, p. 767; L. Heuzey, *Tribus asiatiques en expédition*, Pl. IV and V.

٤٢. Quibell, op. cit., Part 1, Pl. XIX, Fig. 1 Part II, Pl. XXVIII; Bates, op. cit., pp. 93 f

٤٣. Cf. Bates, op. cit., p. 44, Map 1, p. 51, Map 2; Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 579, may be the earliest mention of the attack of the Rebu on Tehenu.

٤٤. Ibid., pp. 569-70; Vol. IV, pp. 40, 52

٤٥. Cf. W.F. Petrie, *The History of Egypt*, Vol. III, p. 108; Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 447 ff.; Maspero, op. cit., p. 456; Bates, op. cit., p. 220.

٤٦. W. M. F. Petrie and F. L. Griffith, *The Royal Tombs of the Earliest Dynasties*, Vol. II, Pl. X, 2, Vol. XI, 1-2, London, Egypt Exploration Society, 1901; W. B. Emery, *Hor-Aha*, Figs. 13, 19; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, op. cit., pp. 411 f; Drioton and Vandier, op. cit., pp. 135 ff.; De Morgan, *Recherches*, p. 168, Fig. 558.

٤٧. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, op. cit., p. 418; Bates, op. cit., pp. 210 f.; Drioton and Vandier, op. cit., pp. 195 ff.; A. Fakhry, *The Monuments of Senefro at Dahshur*, Cairo, 1959-61.

٤٨. Borchardt, op. cit., Vol. I, pp. 17 f.; Bates, op. cit., p. 211

٤٩. Borchartd, op. cit., Vol. II, Table 1; J. Spiegel, *Das Werden der alt. Aegyptischen Hoch Kultur*, p. 820

٥٠. W. M. F. Petrie, *Deshasheh*, Pl. IV

٥١. Spiegel, op. cit., Gauthier, *Le Livre des Rois d'Égypte*, pp. 130 f

٥٢. J. H. Breasted, *The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt*, London, 1912; *The Dawn of Conscience*, New York, Scribner, 1933

٥٣. Spiegel, op. cit., pp. 773 f., 822 f. يمكن مقارنة هورس ذي العين الحمراء بالتاج الأحمر لساحو-رع و«الدار الحمراء» وغير ذلك من علامات المملكة الشمالية، وهي علامات ليبية الأصل. انظر : Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 31-32

٥٤. W.S. Smith, *A History of Egyptian Sculpture and Painting*, p. 143, 1949; G. A. Reisner, 'The Tomb of Hetep-herès, the Mother of Cheops', *A History of the Giza Necropolis*, Vol. II, 1942-55 والمؤلفان لا يعتقدان ان السيدة كانت بالضرورة شقراء.

٥٥. E. Drioton, 'Une représentation de la femme', *Bulletin de l'Institut d'Égypte*, Vol. XXV, 1942, pp. 45 ff.

٥٦. A. H. Gardiner, *The Admonitions of an Egyptian Sage*, Leipzig, 1909.

٥٧. Herodotus, II. 100; P. E. Newberry in *Journal of Egyptian Archaeology*, 1943, pp. 51 f.; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, op. cit., p. 102; Bates, op. cit., pp. 203 ff.

٥٨. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., p. 147.

٥٩. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. I, pp. 490, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 147 ff.

٦٠. Breasted, *Ancicnt Records...*, op. cit., Vol. I, pp. 398, 403

٦١. P. E. Newberry, *On the Parentage of Intef, King of the Eleventh Dynasty*, 1936; W. C. Heyes, *The Sceptre of Egypt*, p. 152, 1935; H. Stock, in *Mitt. Kairo*, vol. XIV pp. 44 ff.

٦٢. Bates, op. cit., p. 212

٦٣. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., p. 151

٦٤. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. I, p. 423

٦٥. Bates, op. cit., p. 212

٦٦. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., p. 151

٦٧. Diodorus Siculus, I. 53

٦٨. A. H. Gardiner, *Notes on the Story of Sinuche*, pp. 8 ff., ANET

٦٩. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. I, p. 492; Bates, op. cit., p. 218

٧٠. Herodotus, IV. 186

٧١. Kees, op. cit., p. 31

٧٢. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. I, p. 527, *History of Egypt...*, op. cit., p. 179

٧٣. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. I p. 675

٧٤. Bates, op. cit., p. 212

٧٥. Ibid., p. 50, Map II

٧٦. يعتقد ماسبيرو *Les contes populaires de l'Egypte ancienne*, Paris, 1982 أن «الكيهك» كانوا يعيشون في المنطقة الواقعة بين بحيرة مريوط وواحة سيوه في غربي الدلتا. ويعني ذلك أن هذه القبيلة كانت تنضوي تحت مجموعة التحنو.

٧٧. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., pp. 22, 42, *History of Egypt...*, op. cit., p. 254

٧٨. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., p. 320

٧٩. Breasted, *Ancient Record...*, op. cit., Vol. II, 385 ff.; Bates, op. cit., p. 213

٨٠. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. II, pp. 655 ff.; *History of Egypt...*, op. cit., pp. 318 f

٨١. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. II, p. 413, *History of Egypt...*, op. cit., p. 289; Bates, op. cit., p. 213.

٨٢. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 225

٨٣. Bates, op. cit., p. 213.

٨٤. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. II, p. 321, *History of Egypt...*, op. cit., p. 280; Bates, op. cit., p. 213.

٨٥. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. II, p. 225, 809; *History of Egypt...*, op. cit., p. 324.

٨٦. *C.A.H.*, Vol. II, No. 1, pp. 310-11

٨٧. Ibid., p. 387

٨٨. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. II, p. 892

٨٩. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., p. 400

٩٠. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 121

٩١. Ibid., p. 82

٩٢. Ibid., p. 135; Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 411 f

٩٣. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, pp. 120-32

٩٤. Ibid., pp. 133-9

٩٥. Ibid., p. 147

٩٦. Ibid., pp. 134 ff

٩٧. Ibid., pp. 137 ff.; Bates, op. cit., p. 213

٩٨. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, 448

٩٩. Ibid

١٠٠. Ibid

١٠١. Ibid., p. 646

١٠٢. Ibid., p. 457; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, op. cit., pp. 270 ff

١٠٣. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 491; Bates, op. cit., p. 214

١٠٤. المزيد من المعلومات عن ظهور الشردان لأول مرة في التاريخ ؛ انظر : Breasted, *History of Egypt...*, op. cit. pp. 424 f.

١٠٥. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 488; Bonfante, in *American Journal of Archaeology*, Vol. L, 1946, pp. 281 ff.

١٠٦. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 491; *History of Egypt...*, op. cit., pp. 424 f.

١٠٧. *Anastasi Papyrus*, II, v, 1-2; Bates, op. cit., p. 215

١٠٨. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 479. Cf. Petrie, *History of Egypt*, op. cit., Vol. III, p. 46. لاحظ بريستيد ان الليبيين في هذه المعركة كانوا هم التحنو

١٠٩. Bates, op. cit., p. 215, note 6

١١٠. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 307, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 449 f.

١١١. O. Bates, op. cit., p. 215; A. H. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, p. 270 ff.

١١٢. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 462 ff, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 576.

١١٣. Ibid., pp. 569-70

١١٤. W. Hölscher, *Libyer und Aegypter*, pp. 50 ff., Hamburg, 1937

١١٥. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, pp. 576-80

١١٦. Herodotus,IV. 168 ff.; Chamoux, op. cit., pp. 53, 58

١١٧. لمزيد من المعلومات عن القبائل الليبية ومحلاتها ، انظر :

Bates, op. cit., p. 51, and Chamoux, op. cit., pp. 47 ff., 55 ff.
١١٨. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 577
١١٩. تمكّن الدخلاء من قضاء عدة أشهر في مصر دون أن يتعرّضوا لأي خطر. Ibid., p. 580
١٢٠. Ibid., pp. 580, 585
١٢١. Bates, op. cit., p. 216; Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, pp. 574, 579; Hall, op. cit., pp. 171 ff.; Muller, op. cit., pp. 371 ff.
١٢٢. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 467 ff
١٢٣. حول الموقع الذي دارت فيه المعركة انظر: Bates, op. cit., p. 217, note 1.
١٢٤. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, pp. 616-17, *History of Egypt...*, op. cit., p. 470
١٢٥. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 608
١٢٦. Ibid., p. 541
١٢٧. Ibid., p. 598; Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 469 ff
١٢٨. Bates, op. cit., p. 219; Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 584. *History of Egypt...*, op. cit., p. 468.
١٢٩. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 611
١٣٠. انظر: *Anastasi Papyrus*, III, Pl. V, 1.5, VI, 1.2, IV, IX, 1.4; Maspero, op. cit., pp. 457 f.: A. Erman, *Aegypten und Aegyptisches Leben*, p. 722 'Hieratische Ostraka', *Zeitschrift für Aegyptische Sprache*, pp. 96 f; Bates, op. cit., p. 219
١٣١. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 405, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 474 f.
١٣٢. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 402
١٣٣. Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 477 f
١٣٤. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, op. cit., pp. 270 ff., 284
١٣٥. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 44; M. Pallotino, *The Etruscans*, p. 56, Harmondsworth, Pelican Books.
١٣٦. Ibid., p. 43; cf. Maspero, op. cit., p. 456
١٣٧. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 52, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 477 f.
١٣٨. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 448
١٣٩. Ibid., p. 464
١٤٠. Ibid., p. 491; Bates, op. cit., p. 214
١٤١. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 488
١٤٢. *Anastasi Papyrus*, II, V, 1-2
١٤٣. Breasted, *Acient Records...*, op. cit., Vol. III, p. 479; Bates, op. cit., p. 215 and note 2
١٤٤. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, pp. 307, 457
١٤٥. Breasted, *History of Egypte...*, op. cit., p. 467
١٤٦. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. III, pp. 616-17, *History of Egypt...*, op. cit., p. 470
١٤٧. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 87
١٤٨. Bates, op. cit., p. 223, note 4
١٤٩. Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 91
١٥٠. Ibid., p. 40; Bonfante, op. cit., pp. 251 ff

.١٥١ حول أصول شعوب البحر التي غزت غربي آسيا ومصر Ibid., p. 44; cf. Muller, op. cit., p. 360
وشمال افريقيا والمسائل التي تثيرها هذه المشكلة، انظر:
S. R. K. Glanville (ed.), *The Legacy of Egypt*, pp. 40 f., London, Greenwood Press, 1977; A. J. Wilson, *The Burden of Egypt*, pp. 244 ff., 1951; G. A. W. Wright, in *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. XXV, 1939, pp. 148 ff.; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, op. cit., pp. 270 ff.

.١٥٢ «كربن» موقع بالقرب من أبو كير، انظر: H. Brugsch, *Dictionnaire géographique*, p. 854

.١٥٣ Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, pp. 42, 54, 58

.١٥٤ Ibid., p. 405; Bates, op. cit., p. 224, note 9

.١٥٥ W. E. Muller, *Egyptological Researches*, Vol. II, p. 135

.١٥٦ Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. LV, p. 145; Herodotus, IV, 191
ما زالت مسألة قضاء «المشوش» على «الريبو» و«التحنو»، ولا سيّما في وقت ظهور شعوب البحر، مشكلة محيرة. ويشير هيرودوت إلى الأصل الطروادي «للمشوش»، انظر:
C.S. Coon (ed.), *The Races of Europe*, pp. 464 f., London, Greenwood Press, 1972; Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, op. cit., p. 259; Bates, op. cit., p. 226

.١٥٧ Breasted, *History of Egypt...*, op. cit., pp. 526-7, 533, 568; Bates, op. cit., pp. 227 f.

.١٥٨ J. Deniker, *The Races of Man*, pp. 315 ff., 321; Bates, op. cit., p. 226

.١٥٩ Herodotus, IV. 168, 169- Bates, op. cit., p. 51, note 10

.١٦٠ Breasted, *Ancient Records...*, op. cit., Vol. IV, p. 726; Strabo, XVII. 1.5; Bates, op. cit., p. 229

نشوء فرع البربر

شيخ أنتا ديوب

فترة ما قبل التاريخ

ينحدر البربر الذين يعيشون اليوم في شمال افريقيا والصحراء الكبرى من الشعوب التي حاولت غزو مصر في حوالى عام – ١٢٠٠ ، والتي تشير إليها النصوص المصرية باسم جامع هو «شعوب البحر».

فالبربر لا ينحدرون مباشرة – كما ساد الاعتقاد طويلاً – من أصل افريقي ايبيري – موراسي قديم. ذلك أن الثقافة الإيبيرية – الموراسية تنتمي إلى أواخر العصر الحجري القديم وإلى أعقاب العصر الحجري القديم. وقد ظلّت هذه الثقافة قائمة فيما بين الألفين العاشر والسادس قبل الميلاد، أي أن هناك فجوة قدرها خمسة آلاف عام تفصل بينها في مرحلتها الأخيرة وبين وصول شعوب البحر إلى افريقيا. والواقع أن سكان مشتى العربي الذين يمثّلون هذه الثقافة، لم يكونوا مختلفين اختلافاً بيّناً عن البربر في النمط البدني فحسب، بل انقرضوا منذ حوالى عشرة آلاف عام. وليس لهم علاقة واضحة بالجوانش في جزر الكناري الذين يقرنون بهم في بعض الأحيان. فالجوانش، الذين أبادهم الأسبان في القرن السادس عشر، كانوا شعبًا على مشارف التاريخ تغلغلت فيه إلى حدّ ما المؤثّرات الفينيقية، كما كان يمارس التحنيط. بل أن هناك من الباحثين من يذهب الآن إلى القول بأن الإيبيريين – الموراسيين قد جاؤوا من الجنوب، من منطقة السودان أو من كينيا.

الفترة التاريخية

إن الإطار المرجعي الزمني هنا تقدّمه لنا مصر، فحتى القرن الخامس قبل الميلاد كان الشعب الذي نتناوله بالدرس، لا يزال موضوعًا للدراسة الإثنوجرافية كما يتجلّى من الملاحظات التي أوردها هيرودوت في كتابه الثاني Euterpe.

وفي عهد المملكة القديمة، كان بعض قدامى الليبيين يجوبون أنحاء الصحراء الليبية، نتيجة لتسلّل أولي. بيد أن الإتّصال التاريخي الهام لم يحدث إلاّ في عهد الأسرة التاسعة عشرة (– ١٣٠٠). والدليل على ذلك تقدّمه لنا لوحات قبر حور محب بالأقصر ومدينة هابو الخ...

أما الفرعونان اللذان كانا يحكمان مصر أثناء هذا الغزو، واللذان كان يتعيّن عليهما احتواؤه، فهما منفتاح، الإبن الرابع لرمسيس الثاني، ورمسيس الثالث.

وقد تزامنت نهاية حكم رمسيس الثاني وبداية حكم منفتاح مع الغزوات الكبرى الأولى التي شنّتها شعوب الشمال وكان من شأنها أن تغيّر الملامح الإثنية لغربي آسيا كله. وإذا كانت مصر قد استطاعت أن تنجو من هذا الخطر فالفضل في ذلك راجع إلى تفوّقها التقني وحده. فقد اندفعت هذه الشعوب من مواطنها الأصلية (في جنوبي أوروبا وآسيا الصغرى) نتيجة للاندفاع المفاجئ للدوريين. وفي حوالى – ١٢٣٠، قاد الزعيم الليبي «مرياني» تحالفًا من الآخين والسيكل (صقلية) والشاردان (سردينيا) واللوكيين والأترسك لغزو مصر من غربي الدلتا. وهزمهم منفتاح بعد معركة استمرّت ست ساعات، فرّ بعدها مريائي تاركًا وراءه أسلحته وأمواله ونساءه. وبلغ عدد القتلى في ساحة القتال ٦٣٥٩ ليبيًا و٢٢٢ سيكليًا و٧٤٢ أتروسكيًا وآلافًا من الشردان والآخيين. واستولى المصريون على أكثر من تسعة آلاف سيف وحلّة حربية وغنموا أسلابًا هائلة. وتسجّل وتصف أنشودة انتصار منفتاح، المسجّلة على جدران معبده الجنائزي في طيبة، مدى حسرة أعدائه.

وقد أسّس الأسرة العشرين ست نخت، واضطر بعد عامين من حكمه إلى التنازل عن العرش لابنه رمسيس الثالث، الذي لم يلبث أن جُوبِهَ بتحالف آخر من شعوب البحر شنّ هجومه هذه المرة من البر والبحر. وشمل التحالف الجديد البلست وبعضًا من السيكل والشاجلشيين والداينونا والوشاش. وكان هذا التحالف هو أكبر تحالف بين الشعوب في العصور القديمة. وقد أقاموا معسكراتهم في أمورو في شمال سوريا. وكان قدر الأمة الحيثية أن تُباد خلال هذا الغزو الثاني. ودُمِّرت مدينة أجريت في شمال سوريا. واحتلّ الغزاة قبرص وقرقميش وأرفد وحوّلوها إلى قواعد لغزو مصر من البر والبحر.

ومع ذلك فقد أحرز الجيش المصري، بفضل تنظيمه الفائق، انتصارًا مزدوجًا على الائتلاف، في البر والبحر على السواء. ودمّر أسطول الائتلاف تدميرًا كاملاً في مصاب نهر النيل، وقطع الطريق البرّي الذي كان يسلكه الغزاة قاصدين الدلتا.

وفي الوقت نفسه كان تحالف ثالث يتكوّن في ليبيا ضد مصر، وهو التحالف الليبي الثاني ضد مصر. وقد قضى رمسيس الثاني على الغزو فورًا. وكان قد حاول قبل ذلك أن يولّي على الليبيين أميرًا شابًا من أمرائهم الذين ربوا كرهائن في البلاط المصري جريًا على السياسة التي انتهجتها مصر ابتداءً من الأسرة الثامنة عشرة ساعية إلى احتواء الرؤساء القادمين للدول التابعة لمصر. وبعد هذا الانتصار الثالث أسر رمسيس الثالث عددًا كبيرًا من الأسرى.

وحارب رمسيس الثالث معركة دفاعية في فينيقيا التي كانت حينذاك جزءًا من الإمبراطورية المصرية. وقاد بنفسه الأسطول المصري وهزم التحالف الرابع لشعوب البحر. وأغرق أسطول البلستيين

كله ، حتى لا تقوم لهم قائمة في البحر مرة أخرى. وهكذا أسر رمسيس الثالث شعبًا بأسره ، هو الشعب الفلسطيني وأسكنه في فلسطين أو « بالستيو » - كما تسمى في النصوص المصرية - التي سُمِّيت باسم ذلك الشعب. وتبعثر شمل شعوب البحر نهائيًا بعد هذه الهزيمة.

وكان الليبيون في غربي الدلتا يعملون في هذه الأثناء لإقامة التحالف الليبي الثالث ، وهو خامس تحالف يواجهه رمسيس الثالث ، الذي هزمهم في عام - ١١٨٨ بالقرب من ممفيس. ومنذ ذلك الحين لم يحرّك الليبيون ساكنًا ضد مصر. وإنّما أخذوا يتسلّلون إلى مصر بطريقة سلمية بل ويلتحقون بجيشها كقوات إضافية.

والبربر هم أحفاد أولئك الليبيين القدامى ، أو شعوب البحر التي جاءت إلى افريقيا حوالى عام - ١٢٠٠ . وقد استغرق انتشارهم من غربي دلتا النيل حتى وصلوا إلى سواحل الأطلنطي ، ٧٥٠ عامًا.

وحين زار هيرودوت مصر في عام - ٤٥٠ ، وكانت حينذاك تحت السيطرة الفارسية ، كان الليبيون لا يزالون في مرحلة البداوة - أي كانوا كتلك القبائل الرحل التي يدرسها الإثنوجرافيون. وكانوا ، حسبما يقول هيرودوت ، مبعثرين حول بحيرة تريتونيس في قورينة (برقة) وينتشرون حتى ضواحي قرطاجة. فلو أنَّ رحالة خرج من مصر قاصدًا المحيط الاطلنطي لكان قد التقى بهم بالترتيب الآتي :

أولاً : **الاديرماشديون** الذين تأثّرت عاداتهم وأسلوب حياتهم باتصالهم الطويل بمصر. ثم يأتي بعدهم **الجيليجاميون** الذين يسكنون أراضي تمتدّ حتى جزيرة أفروديت. ويأتي بعد هؤلاء **الاسبيسيون** الذين كانوا يقطنون الأراضي الداخلية فوق قورينة ، ويفصل بينهم وبين البحر **الأوشيزيون** الذين كانوا يعيشون فوق قورينة ويحتلّون جزءًا من الشاطئ بالقرب من هسبريدس ، على حين كان الباكليون يسكنون في منطقة تقع في وسط أراضيهم. ثم يأتي **الناسامونيون** ، الذين كانوا يأخذون بنظام تعدّد الزوجات ، ولكنهم كانوا يتقاسمون زوجاتهم مثلما يفعل رجال المساجيت. ويروي هيرودوت أن جماعة من شباب الناساموني‌ين نجحت في عبور الصحراء بأن سلكت طريقًا ملتويًا ، ربّما نحو منحنى نهر النيجر. وأيًا كان الأمر ، فقد وصل أعضاء هذه الحملة إلى افريقيا جنوبي الصحراء على ضفاف نهر تسكنه التماسيح حيث صادفوا سكانًا من الأقزام أو يشبهون الأقزام.

وبعد الناسامونيين ، سيلتقي الرحّالة **بالبسيليين** الذين أُبيدوا - كما يُقال - في ظروف غامضة ، وربّما كان ذلك راجعًا إلى بعض الظواهر الطبيعية مثل العواصف الرملية. وبعد الناسومنيين سيلتقي الرحّالة **بالجامفانت** أو **الجرامانتيين**... « الذين كانوا يعتزلون كل البشر ويفرّون من المجتمع وليس لديهم أسلحة ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم ». ولا يفوتنا أن نبدي هنا ملاحظة

عابرة، فهذه الرواية من مؤرّخ معاصر لا تستقيم مع فكرتنا عن الجرامانت كشعب محارب استطاع أن يفرض حضارة البحر المتوسط في هجرته نحو الجنوب.

ثم يأتي بعد ذلك **المكاي** الذين كانوا يسكنون بحذاء الساحل، وبعدهم الجيجام وكانوا يقطنون بالقرب من **لوتوباجي**، يتبعهم **الماشلي** الذين كانت ديارهم تمتدّ على طول نهر **تريتون** حتى يصب في بحيرة تريتونيس. كما يحدّثنا هيرودوت عن «الأوسا» الذين لم يعرفوا الزواج بل كانت النساء مشاعًا بين رجالهم[١].

تلك هي القبائل المختلفة في العصور القديمة والتي أخذت تنظّم نفسها تدريجيًا في ممالك في كل أرجاء شمال افريقيا:

(أ) مملكة موريتانيا في الحافة الشمالية الغربية لأفريقيا، بعد غزو الجواتوليا. (ب) مملكة نوميديا التي ازدهرت في عهد ماسيمسا والتي وقفت حدودها عند طرابلس وشرقي ليبيا، حيث كانت الجالية اليونانية في قورينة تعيش في بقعة منعزلة كان سكان جزيرة تيرا في سيكلادس Cyclades قد أنشأوها في القرن السادس قبل الميلاد (٦٣٠ ق. م.) إثر جفاف طويل قلّ معه الغذاء. وقد انضمّت أربع مستعمرات أخرى إلى قورينة وتكون منها ما يسمى بـ«البنتابوليس»، أي المدن الخمسة.

وعلى الساحل الغربي، كانت المستوطنات الفينيقية في فترة صور تعود فيما يبدو إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إثر غزوات الدوريين التي أحدثت قلقلة في الجانب الشرقي من حوض البحر المتوسط.

وكان أقدم العناصر في السكان الليبيين سكانًا سودًا وفدوا من جنوبي الصحراء الكبرى، الأمر الذي تؤكّده الآن الكشوف الأثرية. وقد استخدمت النصوص الفرعونية اسم «التحنو» أو «الليبو» للإشارة إلى هذه المنطقة. وهذان الجذران واضحان في اللغات السنغالية الحالية مثل لغة الولوف. وما زال سكان الرأس الأخضر، أي منطقة داكار، يمثّلون مجموعة الليبو الإثنية، وهي تشمل مجموعة فرعية من الليبو *Khonkh bop* : الليبو البيض، وهو تعبير يرجع إلى الفترة السابقة لهجرة الليبو.

ملاحظات

١. أفاد انجلز إفادة كبيرة بما ذكره هيرودوت عن عادة مشاعية النساء لدى **الناسامونيين والمساجيت والأوسا**، في تأكيد نظريته بشأن الشيوعية البدائية (Engels, F. *L'origine de la famille, de la propriété privée et de l'État*, éd. Sociale, Paris, 1954, p. 54).
ومع ذلك، ذكر انجلز أيضًا التيكور Tikours في شمال نهر الجانج في الهند.

المراجع

AMELINEAU, E. *Prolégomènes à l'étude de la religion égyptienne.* Paris Ernest Leroux, 1908 (2nd ed. 1916).

AYMARD, A.; AUBOYER, J. *L'Orient et la Grèce antique.* Paris, Presses Universitaires de France, 1961 (1st ed. 1953)

DAVIES, Norman de Garis. *Tomb of Rekh-Mi-Re at Thebes.* Vol. II. New York, The Metropolitan Museum of Art, 1943

DELORME, J. *La Grèee primitive et archaïque.* Paris, Armand Colin, 1969.

DIODORE DE SICILE. *Bibliothèque historique en 40 livres.* Livres 1-5: *Egypt.*

DIOP, CHEIKH ANTA. *Civilisation ou barbarie.* Paris, Présence Africaine, 1981.

HERODOTUS. Books I and II.

PIRENNE J. *Histoire de la civilisation de l'Égypte ancienne.* Boudry (Switzerland), Ed. de la Baconnière, 1961.

VERNEAUX, R. *Les origines de l'humanité.* Paris, F. Riedder & Cie, 1926

هجرات البربر إلى شمال إفريقيا

محمد الفاسي

إن البربر ، الذين كانوا يقطنون شمال افريقيا كله ، من منطقة غربي النيل إلى المحيط الأطلسي ، هم شعب سامي ما زال أصلهم محل جدال . فإذا كان النسّابة العرب والبربر يتّفقون على أن البربر جاءوا إلى افريقيا من شبه الجزيرة العربية ، فإنهم يختلفون في تحديد المكان الذي هاجر منه البربر إلى مناطق المغرب الكبير . فهناك من يقولون إنهم جاءوا من فلسطين ، وهناك من يرون أنهم جاءوا من اليمن . ومن المؤرّخين من يعتقدون أن قبائل صنهاجة يرجع أصلها ، مثلها مثل كتامة ، إلى قبائل حمير اليمنية . وهذان الجذعان الرئيسيان في شمال أفريقيا يمثّلان جل البربر . ويؤيّد هذا القول الطبري ، الذي تُنشر في باريس الآن ترجمة لأكبر مؤلّفاته التاريخية ، والمسعودي والسهيلي وسائر النسّابة العرب ، ويذهب هؤلاء إلى أن قبائل أخرى جاءت من سوريا وأن الملك داوود هو الذي طردها من فلسطين.

وليس هناك من هذه النظريات ما يستند إلى أن أدلة علمية لا تقبل الجدل . فإذا كانت الدراسات اللغوية الحديثة قد أثبتت أن لغة البربر لغة سامية بما لا يقبل الشك ، فإن هذا يوحي بالأصل العربي لهذه الأقوام التي سمّاها العرب بالبربر ، وهي كلمة لا صلة لها على الإطلاق « بالبربرية » . فالبرابرة تسمية أطلقها الإغريق على الشعوب الأوروبية التي لا تتحدّث باللغة اليونانية . ثم اكتسبت الكلمة بعد ذلك دلالة أخرى فأصبحت تعني « الهمج » ، وهي دلالة تحملها أصلاً في اللغة اليونانية . وعلى نفس النحو ، فإن العرب الذين وصلوا إلى المغرب وجدوا قومًا يهذون بكلام غير مفهوم لهم . فقالوا في وصفهم إنهم « يبربرون » ، إذا جاز لي أن استخدم هذه الكلمة التي تعني في العربية الفصحى « يهذون بأصوات لا معنى لها » . فكأنهم استخدموا لوصف كلامهم ، كلمة تعني أصلاً « يتكلّم في جلبة وصياح » ، وهي كلمة تستخدمها اللهجة العربية المغربية بمعنى « يتكلّم » .

أما البربر فيسمّون أنفسهم « أمازيغن » وهي جمع مفرده « أمازيغ » بمعنى حر . وهم في ذلك لا يختلفون عمّا درجت عليه شعوب كثيرة تعتبر نفسها حرّة والآخرين عبيدًا – شأن الفرنج في نظرتهم للسلاف – أو فصيحة والآخرين عجمًا شأن العرب الذين وصفوا أنفسهم بالفصاحة وسمّوا الآخرين « الأعجام » أي الذين لا يفصحون شأنهم شأن « العجماوات » . وهذا يتّفق كل الإتّفاق مع ما قلناه عن الإغريق الذين كانوا يعتبرون من لا يتحدّثون « باليونانية » « برابرة » أي شعوبًا تخلط في الكلام فكلامهم ليس سوى « بلبلة » (بربر) .

وأمثلة هذه النعرة بين كل الشعوب أكثر من أن تُحصى. وحين نعود إلى هجرات البربر من شبه الجزيرة العربية، سنجد نظرية أخرى طرحها السلفي الأندلسي العظيم إبن عبد البرّ في كتابه الشهير «التمهيد»، الذي ينطلق من تقسيم البربر إلى جزءين عظيمين هما البتر والبرانس، فيقول ان البتر ليسوا من البربر بل هم عرب ينتسبون إلى برع بن قيس بن عيلان بن مضر.

وخلاصة القول في هذه النظريات أنها وإن كانت تفتقر جميعًا إلى الدقة الكاملة، فإن الأقوام التي غزت شمالي افريقيا والتي نعرفها باسم البربر قد هاجرت من شبه الجزيرة العربية في أزمنة موغلة في القدم، وتثبت الدراسة المتأنّية للغتها أنها لغة سامية بل من أقدم اللغات السامية إذ تربطها صلات القربى باللغة الأكادية. ومن هنا نستطيع أن نخلص إلى القول بأنهم هاجروا من منطقة ما بين النهرين مع توقّف طويل في فلسطين بالنسبة للبعض، وفي اليمن بالنسبة للبعض الآخر، قبل أن يصلوا إلى مصر ومنها إلى شمالي افريقيا. وما زلنا نجد شاهدًا على هذه الهجرة العظيمة يتمثّل في واحة سيوة، فهي واحة بربرية في شرقي مصر.

عادات الدفن عند الجارامنت وعلاقتها بعادات الدفن عند شعوب أخرى في شمالي إفريقيا

فرج الراشدي

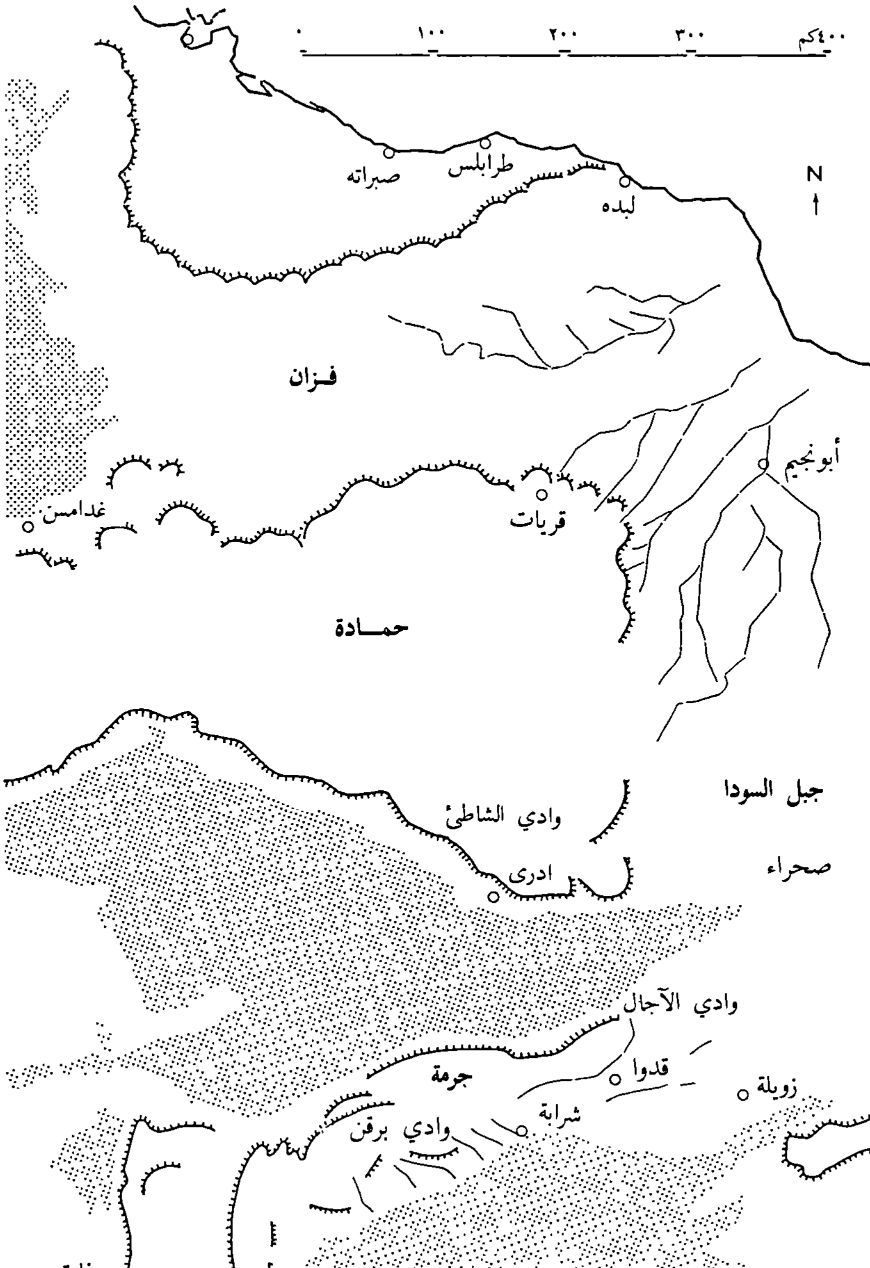
الجارامنت هم السكان القدامى لفزان، وهي إحدى المناطق الجنوبية في ليبيا الحديثة (انظر الخريطتين ١ و ٢). وقد شهد بوجودهم الكتّاب الكلاسيكيون، بدءًا من هيرودوت وحتى أواخر العهد الروماني. وقد أسفرت الأعمال التي نهضت بها مؤخرًا مصلحة الآثار الليبية (أيوب، ١٩٦١، ١٩٦٧) والبعثة البريطانية برئاسة السيد س. م. دانييلز C.M. Daniels، عن نشر قدر كبير من المواد الأثرية الجديدة يُضاف إلى ما سبق أن نشرته البعثة الايطالية لعام ١٩٣٣ (كابوتو وآخرون Caputo et al.، ١٩٥١)، والبعثة الفرنسية لعام ١٩٤٩ (بوفيليه Pauphilet، ١٩٥٣).

وتُعتبر عادات الدفن جانبًا من الجوانب الهامة لثقافة الجارامنت التي تتناولها هذه الدراسة بالبحث. وسوف نتناول عادات الدفن عند الجارامنت في إطار البربر وغيرهم من أقوام منطقة شمالي افريقيا في مجموعها.

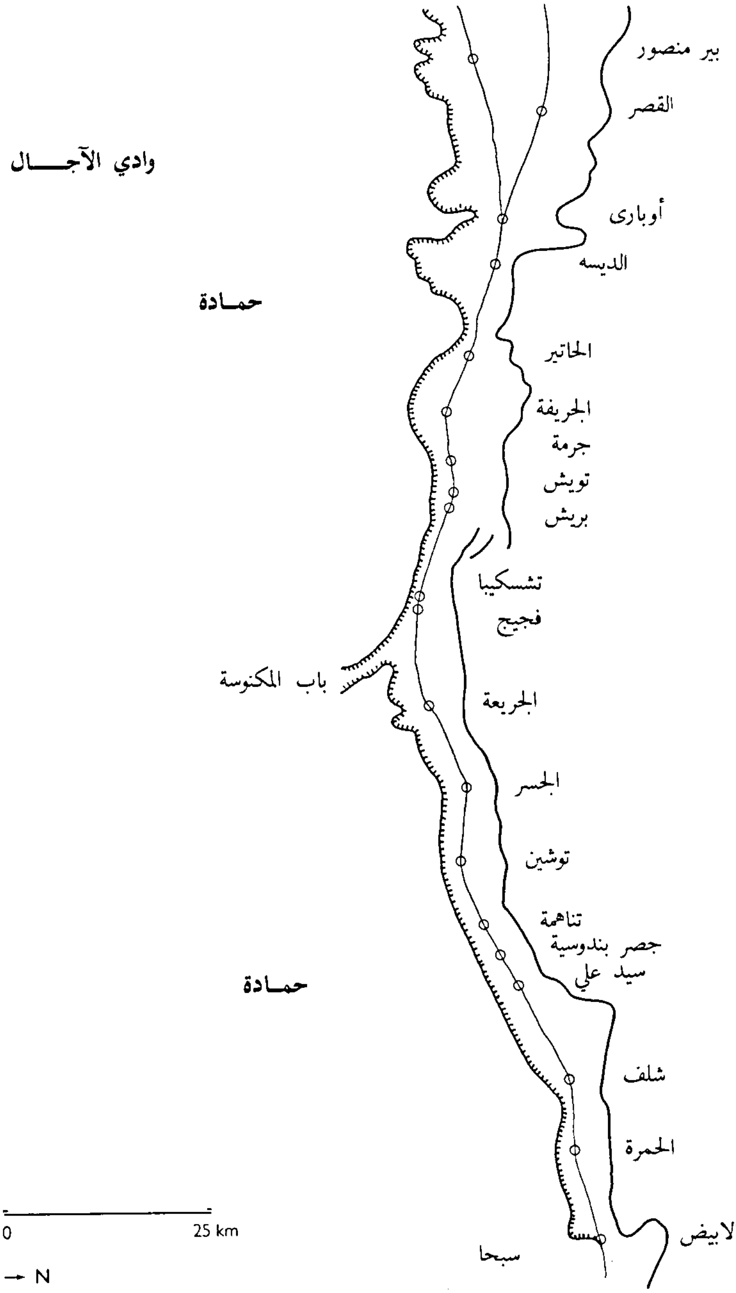
وتتّخذ أقدم المدافن الموجودة في وادي الآجال نفس الشكل الذي كان شائعًا بوجه عام لدى البربر في شمال غربي افريقيا، أي الشاهد الحجري البسيط (الشكل ٣). وهي متناثرة بالآلاف في منحدرات جرف حمادة، ويقوم كل منها مستقلاً بذاته ومنفصلاً عن غيره من الشواهد. ويتّضح لدى تفقّد هذه الشواهد، أنها أمثلة نمطية لأبسط طراز من عمائر الدفن على امتداد منطقة البربر في شمالي افريقيا.

الشواهد الأسطوانية أو الشوشيت

إلاّ أن الشواهد الأسطوانية المسماة «شوشيت» *chouchets*، هي أكثر أشكال المقابر القديمة تطوّرًا. وهي عبارة عن قطع أسطوانية من الأحجار العادية ذات سطح مستوٍ. ويوجد بعض هذه الشواهد في مواقع فجيج وفي منطقة قصر الوطواط ومواقع أخرى. ويوحي كثير من الشواهد في وادي الآجال، ومنها الشواهد الموجودة في زنشيكرا، بأنها بُنيت أصلاً على هيئة قبور مدرّجة (الشكلان ٤ و ٥)، إلاّ أن أكثر القبور الأسطوانية استرعاءً للإنتباه هي القبور التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي،



الشكل ١ : جرمة : حصون الحدود ومدن الساحل



الشكل ٢ : وادي الآجال موطن الجارامنت



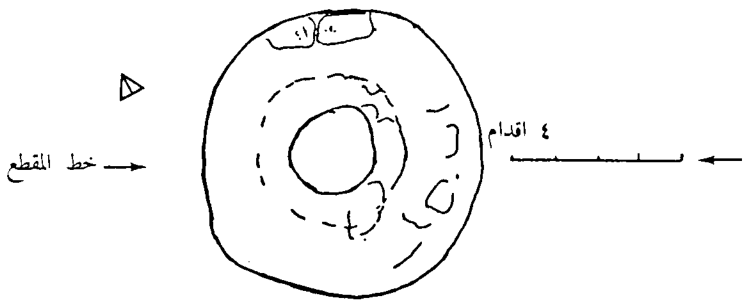
الشكل ٣ : نموذج للشاهد البسيط في وادي الآجال.

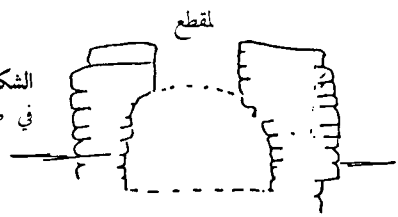
الشكل ٤ : مقبرة أسطوانية مدرجة في زنشيكرا.



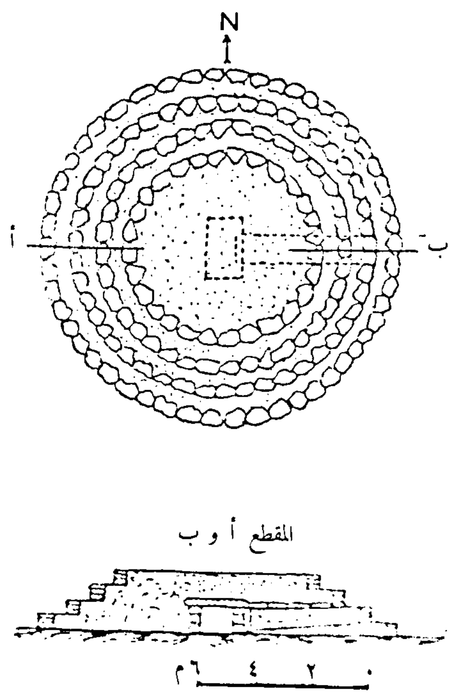


الشكل ٥ : تمثيل استعادي للمقبرة الاسطوانية المدرجة في وادي الآجال (نقلاً عن كامبس).





الشكل ٦ : المقبرة الأسطوانية رقم ١٢ في صينية بن هويدى.



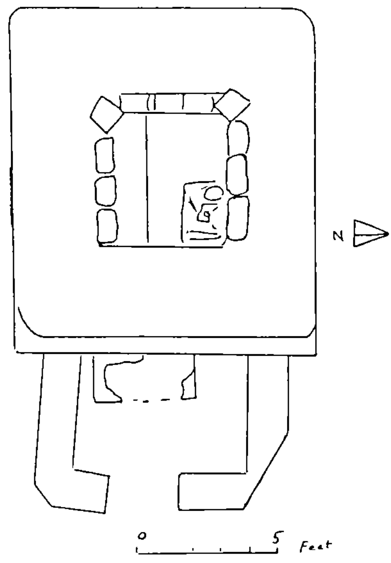
الشكل ٧ : مقبرة أسطوانية في جبل مستيري، الجزائر (نقلاً عن كامبس).



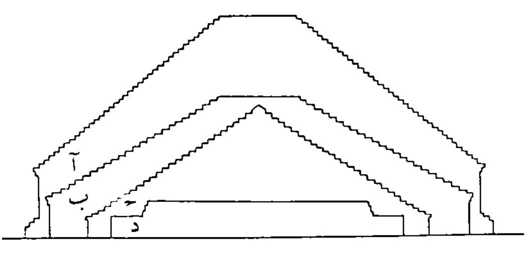
الشكل ٨ : المقبرة التاسعة في الشريح
(نقلاً عن كابوتو).



الشكل ٩ : تمثيل استيعادي للمقبرة المربعة المدرجة
في وادي الآجال
(نقلاً عن كامبس).



الشكل ١٠ : مقبرة في صينية
بن هويدى
(نقلاً عن دانييلز)



الشكل ١١ : نموذج تركيبي لمقابر البربر
(نقلاً عن كامبس) : (أ) قبر الرومية (الجزائر) ؛
(ب) المدرسين (الجزائر) ،
(حـ) الجذّار (الجزائر) ، (د) الغور (المغرب).

والموجودة في جبّانة صينية بن هويدي (الشكل ٦). وهذه القبور بكاملها مبنية بقوالب اللبن المصفوفة بمهارة، وينم التنوّع الواضح في أسلوب البناء عن ملكة الإبداع عند الحرفيين الجارامنت.

وتُعتبر المقبرة الأسطوانية، أو الشوشيت، في واقع الأمر، طرازًا افريقيًا شماليًا أصيلاً. ويبدو أن هذا الطراز كان مألوفًا لدى السكان القدامى لمعظم أرجاء هذه المنطقة. ويضمّ هؤلاء السكان المجموعة جـ وسكان جزيرة سيل في الشرق، وبربر المغرب الكبير والصحراء الواقعة جنوب المغرب، في الغرب (الشكل ٧). ولا شكّ أن المدرسين Medracen و«قبر الرومية» في الجزائر، يمثّلان هذا الطراز في أوج تطوّره، ويعتبران، في حقيقة الأمر، أشكالاً مكبرة متقنة للقبر الأسطواني البسيط. ويُعدّ النمط الموجود في وادي الآجال صورة لنفس التقاليد البربرية. وإذا كنا نسلّم بأن القبر المدرَّج هو صورة متطوّرة من القبر الأسطواني، فلا بدّ لنا أن نطبق ذلك على قبور الجارامنت. والواقع أن الشاهد ذا الدرجات الأربع في زنشيكرا يُعدّ نموذجًا طيبًا لهذا التطوّر.

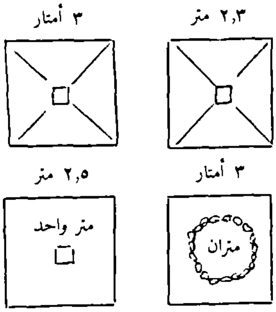
الشاهد الرباعي الأضلاع أو بازينا

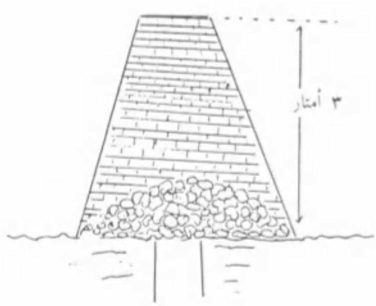
ينبغي أن يدرج الشاهد المربع والرباعي الأضلاع أيضًا ضمن الأشكال المتطوّرة لقبور البربر. ويتّسم العديد من هذه القبور، شأنه شأن الشوشيت، بأن له درجات، وتلك السمة هي ما يجعله يسمى بالبازينا *(bazina)*. ويزخر وادي الآجال بهذا الطراز من المدافن: والقبور الموجودة من هذا النمط في «الجبانة الصرحية» «Nécropole Monumentale»، أو الجبانة الملكية (على بعد خمسة كيلومترات جنوبي جرمة القديمة) تتّخذ شكلاً مربّعًا أو مستطيلاً وتعلوها درجتان أو ثلاث درجات (الشكلان ٨ و٩). وكانت تُطلى من الخارج بطبقة من الجبس. وثمة نموذج خاص في صينية بن هويدي (على بعد ثلاثة كيلومترات شرق جرمة) تتسم عمارته بقدر من التطوّر (الشكل ١٠). وكان هذا النموذج مبنيًا بقوالب اللبن، شأنه شأن جميع المدافن في صينية بن هويدي، ويظهر جزء منه فقط فوق مستوى الأرض. وهو يبدو في الوقت الحالي على هيئة بناء رباعي الأضلاع. ويوجد على الجانب الشرقي من الجزء الظاهر من المدفن نتوء يتمثّل في جدارين واطئين يتضمّنان بقايا لوحة حجرية ومائدة لتقديم القرابين.

وتوجد المقابر المربّعة في أجزاء أخرى من شمالي افريقيا (الشكل ١١)، إذ توجد في موريتانيا مقابر شبيهة بالمقابر المربّعة في صينية بن هويدي. وثمة فارق يتمثّل في أن بعض عمائر الدفن الموريتانية أكبر حجمًا نوعًا ما من نظيراتها في صينية بن هويدي. أما المدافن الجزائرية المعروفة باسم «الجِدّار» فهي تُعدّ بلا منازع أكثر المقابر الرباعية الأضلاع تطوّرًا في شمالي افريقيا. فهذه المقابر تفوق الأمثلة سالفة الذكر من حيث إتقانها، كما أنها أكبر منها نسبيًا. ولمّا كانت هذه المدافن أحدث

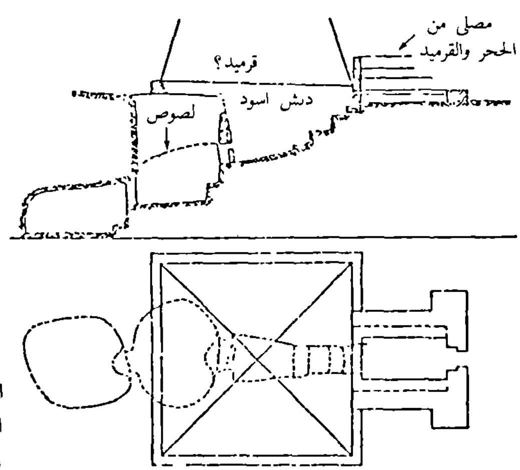


الشكل ١٢ : المقبرة الهرمية رقم ١ في الشريج (نقلاً عن كابوتو).





الشكل ١٣ : جزء من مقبرة هرمية (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ١٤ : البقراوية رقم ٢٧، العهد المتأخر لأهرام مروى (نقلاً عن دونهام).

عهدًا (القرن الثالث أو الرابع الميلادي) فقد يشجّعنا ذلك على أن نفترض أن المدافن المدرّجة في وادي الآجال ربّما كانت نموذجًا مُصغرًا بسيطًا وأصليًا للمدافن الجزائرية المتطوّرة المعروفة باسم «الجِدّار».

المدافن الهرمية

توجد في وادي الآجال ثلاث جبّانات معروفة بها مدافن هرمية الشكل. وتقع إحدى هذه الجبّانات أسفل الجرف عند الشريج (الشكل ١٢)، وقد أُكتُشِفت جبّانتان أخريان في عام ١٩٥٩ بالقرب من منطقة الحاتيه بوسط الوادي. كما لوحظ وجود نماذج منفردة في نقاط متناثرة في وسط الوادي (س. م. دانييلز، ١٩٧٠، ص ٣٥).

وكانت الأهرام تُقام عادةً في مواجهة الشرق، ومن ثم يكون الدخول إليها من هذا الجانب. وكان موضع المدفن يتمثّل في خندق مربع يقع تحت الأرض ويُغطّى بكومة من الأحجار (الشكل ١٣).

وموضوع منشأ هذا الطراز من المدافن موضوع شائق. فنحن نصادف هنا، في وادي الآجال، شكلاً من المدافن يبدو أنه لا يوجد أي وجه للشبه بينه وبين أنواع أخرى من المدافن، كما لا يسهل العثور على نظير له في أي مكان آخر في شمالي افريقيا. ويرجّح، لهذا السبب، أن يكون مصدر التأثير هنا هو الشرق والجنوب الشرقي، أي مصر والسودان، وهما بلدان عُرف سكانهما القدامى ببناء الأهرامات خلال عهد طويل من تاريخهما. وكان الاتجاه السائد في هذا الشأن هو أن ينسب مصدر هذا التأثير إلى الثقافة المروية في السودان، بما أن عاصمتها مروى قد ظلّت قائمة لفترة تناهز التسعمائة عام (القرن السادس قبل الميلاد إلى سنة ٣٥٠ ميلادية). وكانت الأهرامات، خلال هذه الفترة الطويلة، المكان المعتاد لدفن ملوك مملكة مروة وعائلاتهم (شينّى Shinnie، ١٩٦٧، ص ٥٢). ومع ذلك فمن المؤكّد أن الثقافة المروية بوجه عام والمدافن الهرمية بوجه خاص، كانت هي ذاتها نتاجًا للتأثير المصري، ولا سيّما تأثير المملكة الحديثة (- ١٥٨٠/- ١١٠٠). بيد أنه يُستبعد أن يكون التأثير المصري قد انتقل بصورة مباشرة من وادي النيل إلى وادي الآجال في تلك الفترة المبكرة في عهد الأسرات المصرية العظيمة، وعلى ذلك يكون لوضع مملكة مروى وتاريخها دلالتهما الكبيرة.

إن التاريخ الذي حدّد لأهرام وادي الآجال هو فترة تردّي المملكة المروية التي يُرجَّح أن تكون مصدر هذا الطراز من عمائر الدفن. وتُعدّ النماذج المبنية في جبل باركل أكثر النماذج المروية احتفاظًا بحالتها الأصلية فهي نماذج أقدم عهدًا، تمّ بناؤها في القرن الأول قبل الميلاد، وقد كانت الحضارة المروية في أوج ازدهارها (دونهام Dunham، ١٩٥٧، المجلّد الرابع ص ٩١). أما في

الجبّانة الشمالية الموجودة في بقرية، فتوجد مدافن قديمة ترجع إلى القرن الرابع الميلادي (المصدر السابق، ١٩٥٧، المجلّد الرابع ص ١٩١؛ شيني، ١٩٦٧، ص ١٥٢).

وممّا يؤسف له أن أية محاولة لمقارنة الأهرام المروية بأهرام وادي الآجال تنحصر في المقارنة بين شكل المدافن ووجهتها. فعلى حين تتّجه مدافن مروى، عادة نحو الغرب أو الجنوب الشرقي، تتّجه معظم مدافن وادي الآجال ناحية الشرق. ولم يتمّ العثور، في وادي الآجال، على أية مقابر مسورة أو ملحق بها معابد صغيرة وإن كانت اللوحات الحجرية التقليدية وموائد تقديم القرابين موجودة دائمًا.

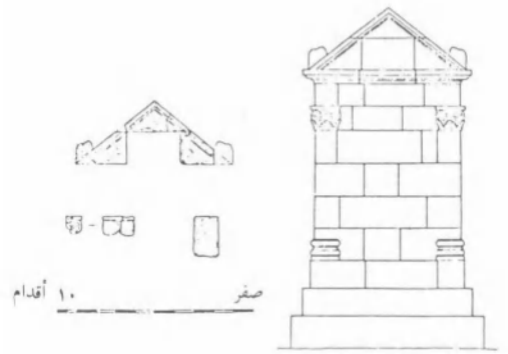
وكان مكان الدفن في الشريج بوادي الآجال يقع فيما يبدو أسفل كومة من الأحجار تحت الهرم نفسه، ويعلوه ممر رأسي. ومع ذلك لا يملك أحد حتى الآن تكوين فكرة عن حجم اللحد ذاته ولا عن اتّجاهه. كل ما هنالك أنه يمكن الإفتراض أن الجثث كانت تُدفن في وضع القرفصاء.

وفيما يتّصل بالجوانب الأنثروبولوجية لبناة أهرام وادي الآجال، طرح البعض احتمالاً مؤداه أن بناء المدافن ربّما كان نتيجةً لمجيء عنصر أجنبي، قد يكون مصريًا، أو نوبيًا، إذ توضح النتيجة التي خلص إليها سيرجي Sergi من دراسة جمجمتين عُثر عليهما في الشريج، أنهما تنتميان إلى عنصر أوروبي – أفريقي (كابوتو وآخرون، ١٩٥١، ص ٣٧١ – ٣٧٣). إلاّ أن السادة التي أسفرت عنها البحوث المحدودة التي أجرتها البعثة الإيطالية من الضآلة بحيث لا يمكن أن يستخلص منها أية نتائج جادة. وفضلاً عن ذلك، فقد اقتصرت هذه البحوث على جبّانة الشريج وحدها. ويشير اكتشاف جبّانة الحاتيه، ونماذج متفرّقة أخرى للمدافن الهرمية أن الجارامنت استخدموا هذا الطراز على نطاق أوسع ممّا كان معتقدًا من قبل. ويقتضي الأمر إجراء مزيد من الدراسات لهذه العبور.

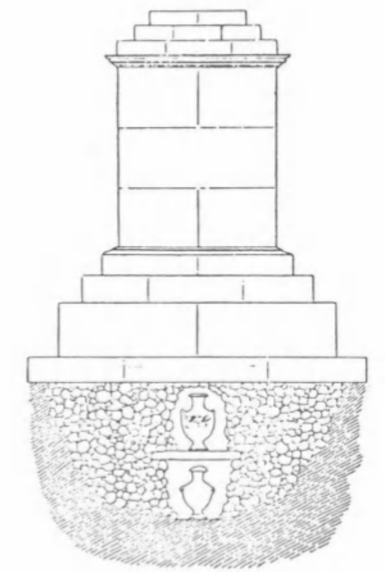
وربّما لا يعدو اختيار الشكل الهرمي للمدافن في وادي الآجال أن يكون مسايرة لنمط شائع. كما يحتمل أن يكون وجود هذا الطراز من المدافن دليلاً على قيام اتّصال بين السكان القدامى لوادي الآجال وسكان مروى. فالواقع أن هناك من يقولون بأن مملكة كوش المستقلة الأولى أسّسها الأسلاف الليبيون للبيانكلي. (ريسنر Risner، ١٩٢٣، ص ٣٤). ويُقال أيضًا أن أفراد قبيلة القوران في السودان هم أسلاف الجارامنت (كروان Kirwan، ١٩٣٤، ص ٢٠١ – ٢٠٢). إلاّ أنه لا بدّ من حل مشكلة أنثروبولوجيا القبيلة قبل أن نستطيع الشروع في تحديد مثل هذه العلاقة.

ضريح جرمة

ويتمثّل الطراز الأخير للمدافن في أرض الجارامنت فيما يُسمّى بضريح جرمة أو قصر الوطواط (الشكل ١٥) الذي اعتُبر لفترة طويلة نموذجًا فريدًا للتغلغل الروماني في الصحراء الكبرى، والذي



الشكل ١٥ : ضريح جرمة ، ويحتمل أن يكون قد حدث ترميم للقوصرة بأعلى الواجهة ، س.م. دانييلز .



الشكل ١٦ : قبر بطليموسي في جبانة الشاطبي (نقلاً عن برتشيا) .

يُعرف الآن بأنه النموذج الوحيد المتبقّي ممّا لا يقل عن خمسة أضرحة كانت تقع جميعًا في منطقة جرمة . ولكن لا بدّ لنا من النظر إلى أمثلة أخرى من الأضرحة في شمالي افريقيا ، قبل أن ننظر في طبيعة هذا الأثر المعماري الشهير ، سعيًا إلى فهمها .

إن الطراز المحلّي الأقدم عهدًا للأضرحة في شمالي افريقيا يتّفق والشكل المتعارَف عليه لعمائر الدفن البربرية العادية (الشكل ١١) . ويمكن رؤيته ، في أكبر حجم له ، في المقابر التي كانت تُقام للأسر الملكية المحلية ، والتي استُنبطت بالتأكيد من مقابر بسيطة أسبق عهدًا .

وتوجد ثلاثة أمثلة على هذه المقابر ، كلها في الجزائر وهي : المدرسين في منطقة باتنه و « قبر الرومية » في أرابيه ، بالقرب من تيبازا ، وجِدّار الجبل الأخضر ، بالقرب من تيارت .

وهناك طراز آخر من الأضرحة في شمالي افريقيا هو الطراز البرجي . وجميع هذه الطرز عبارة عن أبنية طويلة ، مربّعة أو مستطيلة القاعدة ، وتقوم على قواعد مدرّجة في الغالب . وهذا الطراز من المدافن شائع في شمالي افريقيا وفي مناطق البحر المتوسط ، فهو موجود في فرنسا وإيطاليا وصقلية

ودلماسيا. وهناك نماذج أخرى من سوريا، وبلاد الرافدين. ويُعتقد أن الأضرحة التي تتّخذ شكل الأبراج أضرحة سورية المنشأ (بويثيوس ووارد – بيركنز Boethius و Ward-Perkins ، ١٩٧٠، ص ٣٠١).

وينتمي الضريح ب في صبراطة (دي فيتا Di Vita ، ١٩٦٨، ص ١٦ – ٤٤) وضريح بني رحنان، في منطقة وهران بالجزائر، إلى نفس الطراز، ويمكن وصفهما بأنهما من طراز بوني – هلّينستي، على خلاف مقابر المدرسين التي تنتمي إلى طراز ليبي – بوني.

وتوجد من هذا الطراز مجموعة من الأضرحة تنتشر انتشارًا واسعًا في كل أرجاء مشارف الصحراء الجزائرية – الليبية. ويرجع أول ظهور هذا الطراز إلى العهود البونية أو الهلّينستيّة، ثم استمرّ خلال العصر الروماني، وأبرزها على الإطلاق مجموعة الأضرحة الموجودة في جرزه. ففي هذا المكان يوجد أربعة عشر قبرًا مقسّمة بين الجبّانة الشمالية والجبّانة الجنوبية اللتين كانتا ملحقتين بمحلة كبيرة محصّنة تعود إلى القرنين الثالث والرابع الميلاديين (بروجان Brogan ، ١٩٥٥، ص ١٧٣). وهذه المدافن تنقسم بدورها إلى فئتين: مدافن على هيئة معبد، ومدافن على هيئة مسلة.

ومع ذلك يبدو لي أن ضريح جرمة لا ينتمي إلى طراز الأضرحة الساحلية، مثل صبراطة ب، ولا إلى المدافن الموجودة على مشارف الصحراء. فهو يبدو، بالمقارنة بها، صغير الحجم غير متقن. ويبدو أن هذا الضريح، بعد ترميمه الأخير، قد كُلِّل بقوصرة وُضعت فوق مقدس يقوم على جدار منخفض بارز. وهذه السمات ليست شائعة على الإطلاق، سواء في المناطق الساحلية أو عند مشارف الصحراء. وما يجعلها غير مألوفة هو افتقارها إلى غرفة دفن تقع تحت الأرض. ومن شأن هذه العناصر جميعها أن تجعلنا نتردّد في إدراج هذا المبنى في عداد الأضرحة. ومع ذلك فإن البعثة الإيطالية لعام ١٩٣٣ قد عثرت، في الجانب الغربي، في مكان يبعد عن هذا الصرح بأقل من متر، على قبرين تحت كومة من الرمال والأحجار. وكان كل قبر من هذين القبرين يحتوي على أمفورة رومانية، من ذلك الطراز الذي شاع في القرن الأول أو الثاني الميلادي، مملوءة بعظام محروقة. ويُقال إن هذين القبرين يتّصلان بالصرح (كابوتو وآخرون، ١٩٥١ ص ٢٦٨ – ٢٧٠). ولمّا كانت عادة إحراق جثث الموتى نادرة جدًا في وادي الآجال، فمن المرجح أن يكون الإفتراض القائل بارتباط هذين القبرين بالصرح افتراضًا سليمًا. وتحيط بالضريح جبّانة مدافنها من طراز الشاهد العادي الذي كان شائعًا في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني.

وقد تجدر الإشارة في هذا المقام إلى صرح له نفس سمات ضريح وادي الآجال، ونعني به المقابر التي عُثر عليها في مدافن الشاطبي في الإسكندرية البطليموسية. وتتكوّن كل مقبرة من هذه المقابر من مقدس يرتكز إلى قاعدة مدرَّجة ويكلّله افريز تعلوه درجات (الشكل ١٦). وقد تمّ العثور، تحت الصرح على جرّتين تحتويان على رماد جثث محروقة ويفصل بينهما لوح حجري دون أن

تكون هناك مع ذلك غرفة دفن. وترجع هذه المقابر إلى القرن الثالث قبل الميلاد (بريتشيا Breccia ، ١٩١٢ ، ص ١٥). وهذا تاريخ مبكر نسبيًا. ومع ذلك فممّا له دلالته أن هذا الطراز من المدافن قد ظهر في هذا المكان في وقت قد يكون سابقًا على ظهوره في مناطق أكثر إيغالاً في اتجاه الغرب في شمالي افريقيا.

وفيما يتّصل بطبيعة ضريح جرمة، فإننا حين ننظر إلى شكله الكلاسيكي وزخارفه الكلاسيكية البحتة فإنه يستصوب أن ننظر إليه في إطار روماني، عوضًا عن أن ننظر إليه في إطار محلي أو حتى بوني، نظرًا لأن له سمات ذات طابع روماني. إلاّ أنه في حجمه وشكله النمطيين يذكّرنا بصروح مماثلة في المقبرة الغربية في تبسة (الجزائر) تحمل مزيجًا من السمات الرومانية والبونية. أما من حيث التفاصيل، مثل استخدام السقف المثلّث بدلاً من الهرم، فهو لا يعدو أن يكون على غرار المباني الحجرية في جرمة. وعلى الرغم من أن الذين أقاموه كانوا في أغلب الظن حرفيين استُحضروا من الخارج، فإنه يرجّح أن يكون قد أُقيم لشخصية محلية هامة ربّما كانت أحد رؤساء الجارامنت.

شواهد القبر الجارامنتي

على خلاف شواهد القبور المنتمية إلى ثقافات معاصرة والموجودة في حوض البحر المتوسط، فإن نماذج قليلة جدًا من شواهد قبور وادي الآجال هي التي تحمل نقوشًا، وقد ثبت، حيثما تمّ العثور على هذه النماذج، أنها حديثة العهد نسبيًا. ويترتّب على ذلك أن تظلّ الأمور غامضة إلى حدٍّ كبير حين نبحث عادات الجارامنت ومعتقداتهم، وأغلب الظن أن هذا الأمر كان أيضًا من أسباب عدم بذل أية محاولة لدراسة شواهد قبور الجارامنت دراسة منهجية وبحث طبيعتها.

ويبدو أن النماذج الأولى للشاهد البسيط لم يكن لها أي شكل من أشكال النصب التذكاري. وكان تطوّر المدافن هو الذي أدّى فيما يبدو إلى إدخال شكل العمود القائم الذي ظهر في وقت ما لم يتسنَّ تحديده. وتتكوّن هذه الشواهد في بعض الأحيان من أكثر من بلاطة، فكثيرًا ما نجدها تتكوّن من بلاطتين أو ثلاث بلاطات متّصلة ببعضها البعض.

وتكشف الجبّانات الأحدث عهدًا الموجودة في وادي الآجال عن مرحلة أخرى من مراحل تطوّر طرز المقابر. كما تبيّن الظهور المفاجئ لشواهد أكثر إتقانًا وتطوّرًا يبدو أنها شاعت بغتة. ولمّا كانت هذه الشواهد متنوّعة الأشكال فإنها تصنّف في مجموعات مثل المجموعة العمودية ومجموعة القرون ومجموعة الكفوف. وتظهر هذه الشواهد في جبّانات تحتوي على أوان فخّارية رومانية ترجع إلى فترة ما من القرن الأول الميلادي أو إلى فترة تسبقه بقليل.

وتنصبّ الأسئلة الملحّة المطروحة بشأن هذه الشواهد المتطوّرة على معرفة معناها ومنشئها، وهل هي محلية الأصل أم أنها نتاج لتأثير أجنبي، أم مزيج من الإثنين؟

الشواهد العمودية الشكل

كان للمقابر القديمة في وادي الآجال بلاطتان كبيرتان توضعان متعامدتين تقريبًا كشاهد يتّخذ شكلاً جمالونيًا بدائيًا جدًا (الشكلان ١٧ و١٨). وربّما لم يكن ذلك وليد الصدفة. فهذه الشواهد تُعتبر امتدادًا لشواهد القبور المنتمية إلى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. ومن أمثلتها شاهد في قرطاجة تحمل واجهته نصوصًا وزخارف بونية من ذلك النوع المألوف للباحثين والذي يتضمّن رسمًا لقرص الشمس والهلال ويصوّرهما متّجهين نحو الأسفل (الشكل ١٩). وقد ذهب البعض إلى أن هذا التغير في طراز الأعمدة البونية كان نتيجة لظهور الإلٓهة تانيت على رأس مجموعة آلهة القرطاجيين (بيسي، ١٩٦٨، ص٢١). وفيما يتّصل بالنماذج الجارامنتية فما من أحد يعرف على وجه اليقين ما إذا كان العمود الذي ينتهي بمثلّث له دلالة واحدة في كل الأحوال. وغاية ما يمكن قوله في هذا الشأن هو وجود تماثل بين شواهد فزان والشواهد البونية اللاحقة. وعلى ذلك يمكن أن نفترض أن الجارامنت ربّما يكونون قد استوحوا شواهد قبورهم من العمود البوني. ولا غرابة إذن أن تكون معظم الشواهد المكلّلة بمثّلث، كالشواهد الموجودة بمنطقة قصر الوطواط وفجيج، من أقدم الطرز في وادي الآجال.

الشواهد القرنية الشكل

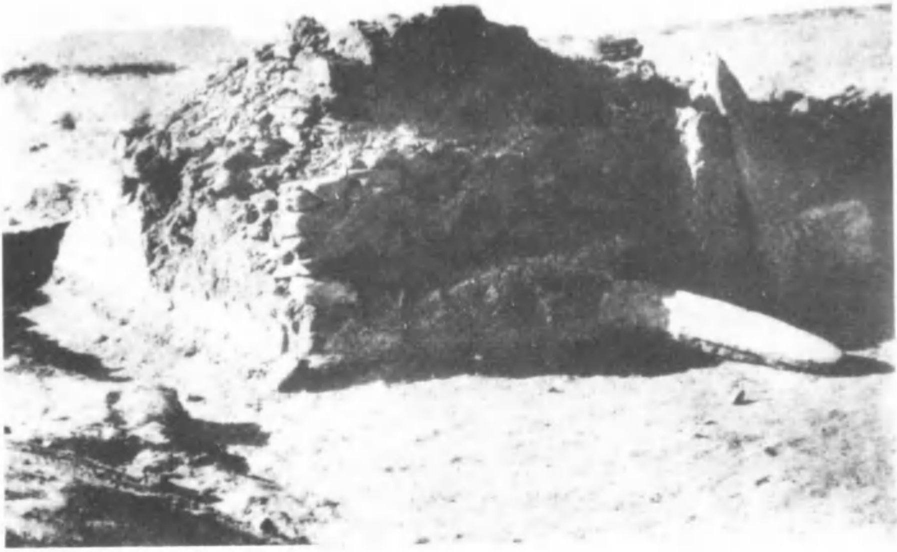
ظهر استخدام القرن كرمز لأول مرة في وقت مبكر يرجع إلى العصر الحجري الحديث (الشكل ٢٠)، ويمكن تتبّع تاريخه بسهولة حتى العصر الروماني. وفضلاً عن ذلك فإن هذا الرمز ينتشر عبر رقعة شاسعة تمتدّ من مواقع العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى إلى مواقع في حوض البحر المتوسط.

وفي فزان، ظهرت الشواهد القرنية الشكل مع المدافن الأولى في الجبّانة الجنوبية (Nécropole Méridionale) والجبّانة الصرحية (Nécropole Monumentale) (الشكل ٢١). وكانت بعض الشواهد التي عُثر عليها بجوار المدافن غير مصقولة وذات شكل ساذج على حين كان البعض الآخر مصقولاً بعناية ومتناسق الشكل.

وقد بُذلت عدّة محاولات للربط بين رمز القرن الذي يظهر في النقوش الصخرية في فزان والقرون المصوّرة في رموز مماثلة والتي ترجع إلى فترات لاحقة وتنتمي إلى ثقافات أخرى. وقيل إن مجموعة القرون الشعارية التي عُثر عليها في ليبيا تعبّر، في حالات كثيرة، عن برج من الأبراج السماوية والقمر أو الشمس أو النور بوجه عام.



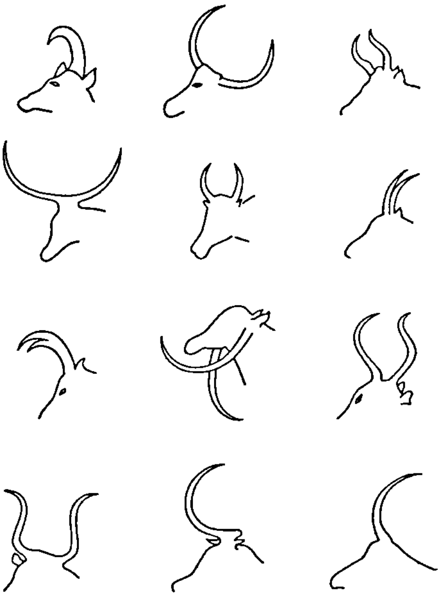
الشكل ١٧ : شاهد القبر رقم ١٨ ذو الأكليل الجمالوني (١٣) (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ١٨ : شاهد أعلاه مدبب ، من المقبرة رقم ٢ في الجبانة الشرقية (نقلاً عن كابوتو).



الشكل ١٩ :
شاهد من قرطاجة
ذو أكليل حمالوني.



الشكل ٢٠ : تمثيل استيعادي للقرن في الفنون الصخرية الليبية (نقلاً عن وينوارات).

وفي معظم الحالات كان القرن يُرسم بأسلوب تجريدي أو غير واقعي (وينورات – سكوت وفابري، ١٩٦٦ – ١٩٦٧، ص ٢٣٣ – ٢٣٩).

وعلى ذلك يمكن الافتراض أن كل ما فعله الجارامنت هو أنهم استمرّوا على تقاليد العصر الحجري الحديث وانتقلت منهم إلى العصور الوسطى ممّا أتاح لرمز القرن أن يظلّ باقيًا حتى وقتنا هذا.

الشواهد التي تتّخذ شكل الكف

هذا الطراز من شواهد القبور طراز يسهل التعرّف عليه، فهو عبارة عن بلاطة حجرية ذات وضع قائم وتستند عادةً إلى جدار المقبرة وتقع دائمًا وراء موائد تقديم القرابين (الشكل ٢٢). وهو يُنحت عادةً من الحجر ويبلغ طوله في المتوسط مترًا واحدًا وعرضه ستين سنتيمترًا. وقد اتّفق الباحثون على تسميته «الكف» بسبب شكله غير المألوف ولكونه شبيهًا بالكف البشرية. ويتكوّن الشاهد، في هذا



الشكل ٢١ : شواهد على شكل قرن من صينية بن هويدى (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ٢٢ : شاهد على شكل كف
ومائدة قرابين من قبر
يرجع إلى العهد الروماني
في جبانة زنشيكرا
(نقلاً عن دانييلز).

الطراز، من ثلاثة أو أربعة أجزاء يقسمها مجريان أو ثلاثة مجار عمودية محفورة في الشاهد، ممّا يسفر عن ثلاثة أو أربعة تقسيمات تبدو شبيهة بالأصابع البشرية.

ويبدو أن استخدام كلمة الكف في وصف هذه الشواهد قد استوحي من تصوير الكفوف المنحوتة على الأعمدة البونية، ومن ثم كان الاعتقاد بأن «الكفوف الجارامنتية» قد تكون نتاجًا لتأثير بوني. فقد ظهرت الكف في الفنون البونية قبل استخدام الشواهد الجارامنتية بزمن طويل، وترجع النماذج الأولى من الأعمدة التي تحمل نقوشًا للكفوف إلى القرن الثالث قبل الميلاد. كما ينبغي الإشارة إلى أن الكف البونية تُعدّ بوجه عام كفًا مطابقة للواقع منقوشة على العمود الحجري أو محفورة عليه.

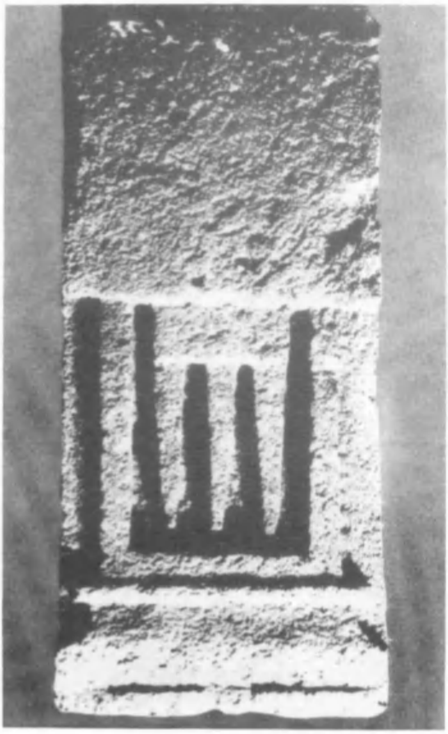
ففي النماذج الأولى للأعمدة البونية التي يرجع عهدها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، يشاهد الرسم الذي يصوّر ذكرًا أو أنثى رافعًا يده اليمنى محفورًا في تجويف مستطيل. وقد فسّر هذا الرسم على أنه يصوّر كاهنًا أو كاهنة أثناء الصلاة، وهو يظهر دائمًا بنفس الشكل. وفي أمثلة لاحقة، لم تبقَ سوى الكف التي كانت تُنحت في بعض الأحيان في الإكليل العلوي الجمالوني للشاهد (الشكل ٢٣)، وأحيانًا تحتل لوحة في واجهة الشاهد مع مجموعة من الرموز الأخرى بما فيها رمز تانيت. أما الكفوف الجارامنتية فتبدو مختلفة اختلافًا كبيرًا. فمعظمها يتكوّن من أربعة أصابع وإن كان بعضها يتكوّن من ثلاثة، ولكن لا توجد من بينها كف واحدة بها خمسة أصابع. وإزاء هذا القدر الكبير من التباين في الحجم والشكل ينتفي، في حقيقة الأمر، احتمال وجود أي قصد لتصوير كفوف بشرية على شواهد قبور الجارامنت.

ومع ذلك توجد نماذج من شواهد القبور البونية شبيهة نوعًا ما بالشواهد الجارامنتية، وهي الشواهد القرطاجية حيث يُقال إن العمود الحجري يمثّل رمزًا يصوِّر الآلهة (الشكل ٢٤). والواقع أن صورة الإله كانت تلقى من التبجيل ما يلقاه الإله نفسه بيسي. ١٩٦٨، ص ١١٩). وتظهر هذه الرموز على الأعمدة القرطاجية بأشكال مختلفة، فمنها العمودية الشكل ومنها المستطيلة أو التي تضيق تدريجيًا مع اتجاهها إلى قمة الشاهد. كما يتفاوت عدد الرموز المحفورة على كل شاهد. وكثيرًا ما نصادف رموزًا فردية أو مزدوجة أو ثلاثية. وهناك شاهد من تونس عليه ما لا يقل عن ستة رموز محفورة على عمود واحد، وهذا نسق قورن أيضًا بشاهد مقدس بوني.

إن دراسة هذه الشواهد البونية تعد أمرًا هامًا لكل من يحاول فهم سر شواهد القبور الجارامنتية التي تتّخذ شكل الكف. ومع ذلك فإن عدم وجود أي نصوص منقوشة يزيد من صعوبة فهم هذا السر ولا يدع لنا سبيلاً سوى التخمين والتكهّن. ولكن ليس من المستحيل الإفتراض بأن ما يسمى بالكفوف الجارامنتية قد يكون، شأنه شأن النماذج الفينيقية والقرطاجية، رسمًا تصويريًا أو رمزيًا لآلهة غير معروفة.



الشكل ٢٣ : شاهد بوني مزخرف برسوم بارزة من بينها رمز الإلهة تانيت. (نقلاً عن موسكاتي).



الشكل ٢٤ : شاهد فينيقي له ثلاثة أنصاب (نقلاً عن موسكاتي).

موائد تقديم القرابين

كثيرًا ما نجد أمام هذا الشاهد موائد لتقديم القرابين عبارة عن كتل من الحجر المنحوت متفاوتة الأحجام، تُوضع عادةً على الجانب الشرقي أو الغربي للمدفن أمام الشواهد. وكان الغرض من هذه الموائد هو أن تحمل القرابين التي يقدّمها أقارب الميت، سواء للميت نفسه، – أو للميتة – أو للإله المرسوم على الشاهد.

ومعظم موائد الجارامنت مستطيلة الشكل ومقسمة إلى جزءَين: الأول عبارة عن تجويف مستطيل كبير (يكون عادة بجوار الشاهد)، على حين توجد في الثاني تجويفات أصغر. وتوجد في زنشيكرا مائدة لتقديم القرابين ترجع إلى العصر الروماني، حُفرت فيها التجويفات بإتقان بالغ

(الشكل ٢٢). ويشغل التجويف الكبير نصف الشاهد، على حين يشمل النصف الآخر ثلاثة تجويفات أصغر حجمًا.

وتكشف موائد تقديم القرابين الموجودة في سبها، لأول وهلة، عن تباين واسع في الأشكال وعدد التجويفات وحجم الموائد (الشكل ٢٥). ويتراوح ارتفاع المائدة، في المتوسط، بين ٢٠ و٢٥ سنتيمترًا، على حين يتراوح طولها بين سبعين ومائة سنتيمتر وعرضها بين أربعين وخمسين سنتيمترًا. وعادة ما يكون التجويف المستطيل عميقًا جدًا بالمقارنة مع التجويفات الأصغر والتي غالبًا ما يكون عمقها ضئيلاً.

ولمّا كانت الموائد الافريقية تختلف اختلافًا بيّنًا من حيث شكل زخارفها، فإنه لا بدّ لنا الآن من بحث الأنماط المختلفة التي عُثر عليها والتي يتبيّن، لدى بحثها، أنها تنقسم إلى أربعة أنواع مختلفة على الأقل.

ويُعدّ النوع الأول النمط الأكثر إتقانًا بين موائد تقديم القرابين، وعادةً ما يكون مستطيل الشكل ومصنوعًا من أنواع مختلفة من الحجارة. وتوجد في الأجزاء العلوية من هذه الموائد رسوم بارزة تصوّر أواني توضع فيها سوائل تُراق تكريمًا للآلهة، وأرغفة خبز وقطع من اللحم أيضًا. وتوجد أمثلة لهذه الموائد في الغاريات وتابونيا ووادي أم الأجايرم (د. سميث، عمل لم يُنشر).

ويتّخذ النوع الثاني من الموائد شكلاً مماثلاً: فهو مصنوع من الأحجار وبه تجويفات غير مستوية محفورة على السطح العلوي. وعلى حين توضع القرابين في التجاويف يحمل السطح العلوي شاهدًا مستقيمًا. وهذا النوع أيضًا كان موجودًا في ليبيا، عند مشارف الصحراء، وتوجد بمتحف طرابلس أمثلة له من وادي العمود وتابونيا وسرت الخ... وفي بعض من هذه الموائد لا يبدو واضحًا ما إذا كان الغرض من التجويف الكبير هو أن يحمل شاهدًا مستقيمًا. على أن الأثر المصنّف طرابلس ٢٤٥٦، ما زال يحمل أجزاء من العمود مغروسة في التجويف (الشكل ٢٦).

ويُعتبر النوع الثالث نوعًا نادرًا لا يوجد إلاّ في شيرزا عند مشارف الصحراء في ليبيا. وهو عبارة عن كتلة مستطيلة وضيقة من الأحجار بها تجويفان أو ثلاثة أو أربعة تجاويف دائرية أو مستطيلة. ويوجد في حجر واحد سبعة تجاويف دائرية، ويبدو التجويف الذي يتوسّط الحجر أكبر نسبيًا من التجاويف الأخرى (بروجان، ١٩٥٥، ص ١٨٤).

ولئن كان من الشطط، في حدود معارفنا الحالية، أن نحدّد منشأ أي نوع من هذه الأنواع من الموائد تحديدًا جازمًا، فإنه يمكننا بالتأكيد الإفتراض بأنه لمّا كان النوع الثاني من الموائد منتشرًا في كثير من أنحاء شمال غربي افريقيا، فإنه يحتمل أن ينطوي على عنصر محلي. ويوجد أيضًا تأثير خارجي، ليس يونانيًا كما يُستبعد أن يكون بونيًا. ومن المرجّح أن يكون هناك بعض من التأثير الروماني. وثمة احتمال آخر لا ينبغي لنا أن نتغاضى عنه وهو تأثير مصر، أرض الفراعنة.

فقد ظلّت عادات وتقاليد الموتى في مصر مستمرّة بإطّراد لفترة تربو على ثلاثة آلاف عام. ومن ثم فربّما لم يكن من المستغرب أن نجد أوجه تناظر بين العديد من أنواع موائد تقديم القرابين التي عُثر عليها في فزان، وعند مشارف الصحراء، وفي المناطق الساحلية.

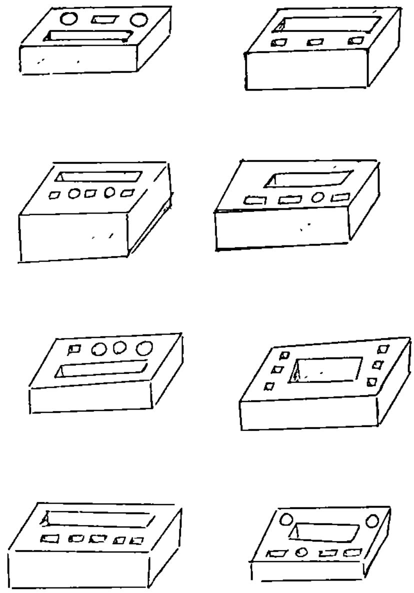
إن تقليد وضع مائدة لتقديم القرابين يُعدّ تقليدًا عريقًا في مصر القديمة. فقد ظهر في عهد المملكة القديمة (– ٢٧٧٨/– ٢٣٠٠) واستمرّ في المملكة الحديثة (– ١٥٧٠/– ١٠٧٥): أي أنه ظلّ قائمًا لفترة طويلة: وخلال هذه الفترة التي تربو على الألف عام، شهدت عادات الدفن بوجه عام وموائد تقديم القرابين بوجه خاص تغيرات تدريجية. وكانت هذه الموائد، في بادئ عهدها، موائد بسيطة تتمثّل سمتها الرئيسية في وجود تجويف مستطيل الشكل. ولعلّ في ذلك ما يشير إلى أهمية القرابين السائلة في المملكة القديمة. ونجد أحيانًا في مائدة واحدة من هذا النوع تجويفًا أو تجويفين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر. وكان سطح هذه الموائد يحمل نقوشًا مرسومة أو محفورة تصوّر مشاهد مختلفة كما تصوّر القرابين (فانديه، ١٩٥٤، المجلّد الثاني، ص ٥٢٢). وفي إحدى هذه الموائد (الشكل ٢٧) توجد أربعة تجاويف مستطيلة وثماني تجاويف دائرية محفورة على سطح المائدة، أما وسط المائدة فقد حُفرت عليه نقوش تصوّر مشاهد مختلفة. كما زيّن إطار المائدة بنقوش تمثّل حيوانات وبأنواع مختلفة من الأواني والرموز. والواقع أن الموائد التي ترجع إلى بداية عهد المملكة القديمة هي التي تشبه كثيرًا بعض هذه الموائد الليبية.

وتوضح مرحلة أخرى من مراحل تطور المائدة المصرية، وإن كانت تنتمي أيضًا إلى المملكة القديمة، إدخال أشياء مختلفة تشمل رسومًا لأشكال بشرية منقوشة ببروز بسيطة. والأكثر من ذلك أهمية إدخال علامة حيتب (*Hetep*) التي تصوّر حصيرًا ورغيفًا من الخبز. ويشغل هذا الرمز عادة جانبًا من الجوانب الطويلة للمائدة مع تجويف واحد أو عدّة تجاويف (فانديه ١٩٥٤، المجلّد الثاني، ص ٥٢٨). كما توجد نقوش تصوّر أيضًا أواني وخبزًا وحلوى وغير ذلك من الأشياء.

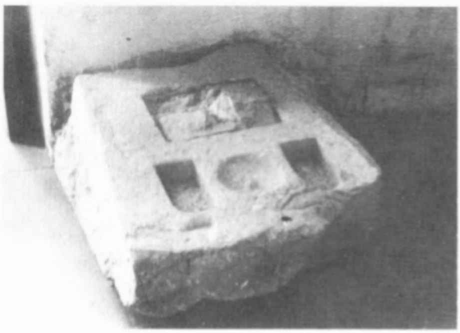
ويبدو أن موائد تقديم القرابين كانت قد فقدت أهميتها بحلول عهد المملكة الجديدة (– ١٥٧٠/– ١٠٧٥) حيث لا توجد منها إلاّ أمثلة نادرة. فقد تغيّر شكلها إلى مستطيل على هيئة صينية وأصبحت الموائد المربعة قليلة. كما لم تعد علامة حيتب تُحفر على المائدة، إذ أصبحت المائدة نفسها تصوّر هذه العلامة (الشكل ٢٨).

وممّا يسترعي الانتباه ذلك التشابه في مظهر بعض هذه الموائد المصرية والموائد التي سبق ذكرها والتي عُثر عليها في غاريات وتابونيا على مشارف الصحراء الليبية. إلاّ أن الفارق التاريخي بين الموائد المصرية والموائد الليبية يزيد على الألف عام. فهل يحتمل أن تكون هناك حقًا صلة بين النوعين؟

وهناك من ناحية أخرى احتمال أقوى في أن تكون الثقافة المروية في السودان قد شكّلت مصدر تأثير. وقد استمرّت مملكة مروى من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الميلادي الرابع،

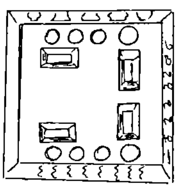


الشكل ٢٥ : مائدة حارامتية نمطية لتقديم القرابين موجودة بمتحف سبها.

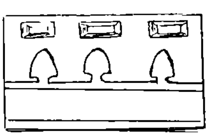


الشكل ٢٦ : مائدة لتقديم القرابين بها جزء من لوحة في أكبر تجاويفها (قلعة طرابلس ٢٤٥٦).

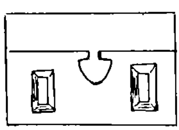
(أ)



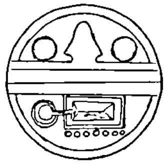
(ب)



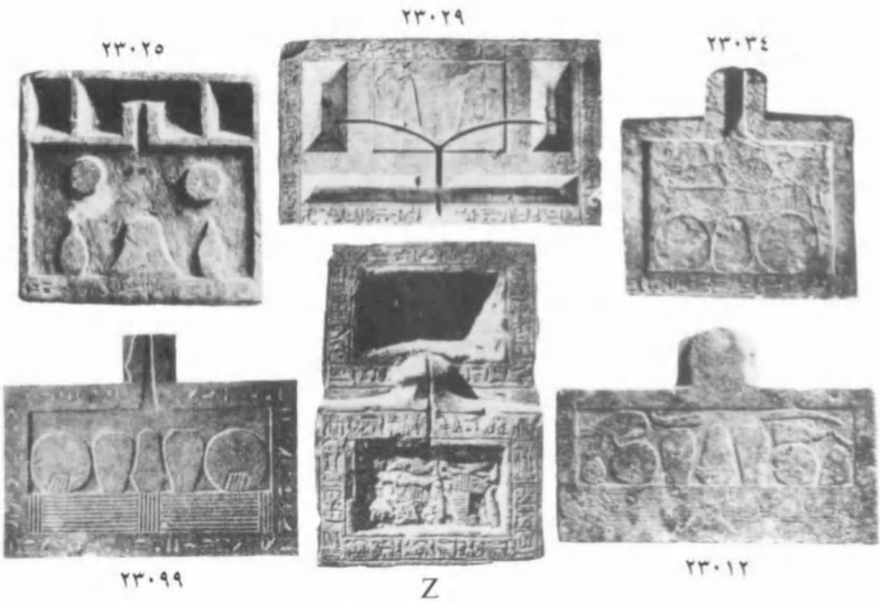
(ج)



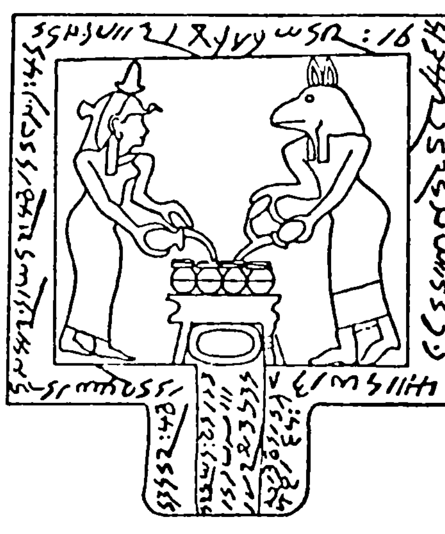
(د)



الشكل ٢٧ : (أ) مائدة لتقديم القرابين تنتمي إلى المملكة القديمة ؛
(ب، حـ، د) مائدة لتقديم القرابين متقنة الشكل تنتمي إلى المملكة القديمة (نقلاً عن فانديه).



الشكل ٢٨ : مائدة نمطية لتقديم قرابين من عهد المملكة الوسطى (القاهرة ٢٣٠٢٥ ، ٢٣٠٢٩). مائدة نمطية لتقديم قرابين من عهد المملكة الحديثة (القاهرة ٢٣٠٣٤ ، ٢٣٠٩٩ ، ٢٣٠١٢. (z) مائدة لتقديم القرابين من دير المدينة تنتمي الى المملكة الحديثة.



الشكل ٢٩ : مائدة لتقديم القرابين من عهد الملك المروي آرفيسيخ
(النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد).

ويعتقد أن ثقافتها كانت في أساسها مصرية الطابع . ويبدو أن موائد تقديم القرابين كانت معروفة جيدًا لسكان مروى القدامى ، إذ تمّ العثور على قدر كبير من هذه الموائد في الجبّانات المحيطة بالمواقع القديمة في المملكة المروية. وتوجد هذه الموائد عادةً أمام مداخل المقابر.

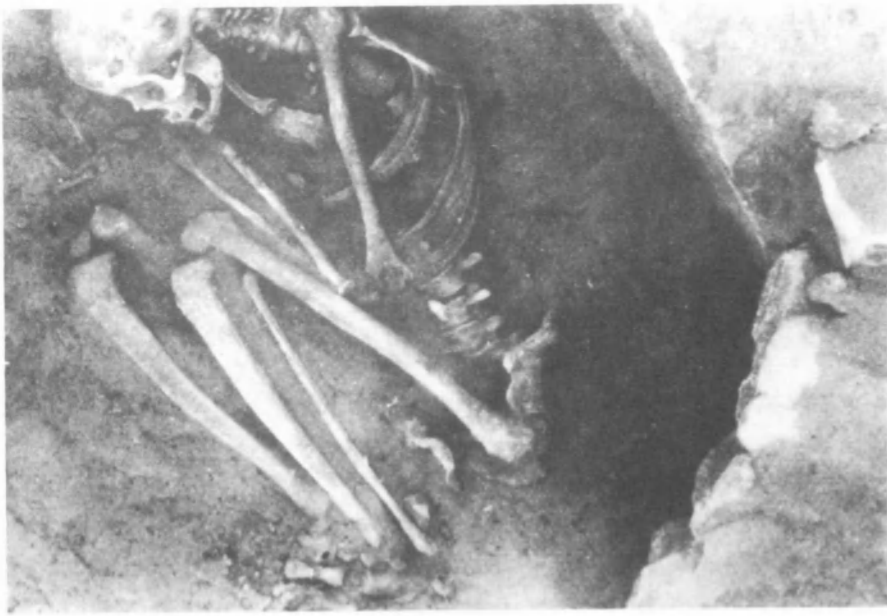
وتوجد في العادة نقوش على موائد تقديم القرابين المروية وإن كان هذا لا يشملها جميعًا. وترجع أقدم الأمثلة إلى القرن السابع قبل الميلاد (دونهام ١٩٥٥ ، ص ٢٣). وكانت هذه الموائد تُصنع من الجرانيت الرمادي اللون وتحمل نقوشًا قليلة البروز تصوّر القرابين. ويظهر على الموائد التي يرجع عهدها إلى القرن الرابع مزيد من النقوش التي تصوّر الطعام (دونهام ، ١٩٥٥ ص ٢٢٦). وفي الموائد التي تنتمي إلى فترة لاحقة (القرن الأول قبل الميلاد/القرن الميلادي الأول) تحلّ محل النقوش التي تصوّر الطعام مشاهد تصوّر كائنًا نصفه إنسان ونصفه ابن آوى وهو الإله أنوبيس الذي يمثّل الروح في الديانة المصرية (الشكل ٢٩). وفي مواجهته توجد الإلّهة نفتيس (دونهام ، ١٩٥٥ ، ص ١٣٧).

وليس هناك أي وجه للشبه بين موائد تقديم القرابين في وادي الآجال وبين النموذج المروي منها. ففي وادي الآجال كانت الموائدأكثر سمكًا ونادرًا ما تحمل نقوشًا. كما يمثّل وجود تجاويف بها وجهًا آخر من أوجه الإختلاف. وفضلاً عن ذلك ، فإن نوع الشواهد الذي يقترن عادةً بالنماذج الموجودة في وادي الآجال ، لا يشبه مطلقًا شواهد مروى. وتقدّم منطقة مشارف الصحراء أمثلة لجميع النماذج المذكورة في مصر والنوبه وشمال غربي افريقيا. وليس من السهل ، في حدود معارفنا الحالية ، أن ننسب منشأ المائدة الجارامنتية إلى أي مصدر من المصادر ، على الرغم ممّا يُقال من أن المقبرة الهرمية تحمل تأثيرًا مرويًا.

طقوس الدفن

يبدو أن الجارامنت قد مارسوا نوعًا واحدًا فقط من الدفن ، هو دفن الموتى في وضع القرفصاء. فكان الجثمان يوضع في وضع متكوّر بدرجات مختلفة من الإنكماش ، بدءًا من الوضع المرتخي أو نصف المنكمش إلى الوضع المنكمش تمامًا الذي يكون كوضع الجنين (الشكل ٣٠). وكان هذا الشكل شائعًا على نطاق واسع في شمال غربي افريقيا وفي جنوبي الصحراء منذ عصور ما قبل التاريخ. وقد عُثر على لحد يرجع إلى العصر الحجري الحديث في كهف تمّ استكشافه في وادي الجيتارا في منطقة وهران (الجزائر) (الشكل ٣١) (كامبس ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥٤). ووضع الجثمان ودرجة تكوّره في هذا اللحد ، مماثلان تمامًا للطريقة المتبعة في مدافن الجارامنت.

إن معنى الوضع المتكوّر أو الجنيني في تقاليد الجارامنت ليس مفهومًا بوضوح ، إذ لم تتبق أية



الشكل ٣٠ : هيكل عظمي في وضع القرفصاء من جبانة جات (نقلاً عن سيرجي).

مصادر يمكن تفسيره في ضوئها. ولا نملك هنا سوى الإفتراض بأنه إذا كان الجارامنت يؤمنون بوجود حياة أخرى بعد الموت، ويشاركون ثقافات أخرى سابقة عليهم معتقداتها في هذا الشأن، فإن دفن الجثمان في وضع مماثل لوضع الجنين ربّما كان يعني انتظار الميت لميلاد جديد في حياة أخرى.

وكانت رؤوس بعض الهياكل العظمية ترتكز إلى مسند رأس خشبي (الشكل ٣٢). وهي عادة ترتبط فيما يبدو بتقليد استمرّ طويلاً في العالم القديم. ومع ذلك فإن النمط الوحيد المناظر لمسند الرأس الذي عُثر عليه في وادي الآجال هو ذلك النمط الذي استخدمه قدماء المصريين على نطاق واسع. فقد كان لشكل مسند الرأس الذي استخدمه الفراعنة معنىً رمزيّ وجماليّ قوي، حسبما يُلاحظ من مختلف أنواع مساند الرأس. وكان مسند الرأس المصري يُصنع أصلاً من الخشب، وعادة ما يتّخذ شكل وسادة مقوّسة ترتكز إلى دعامة عمودية أو صلبة وكانت توضع عادة تحت رأس الميت المسجى في التابوت الحجري.

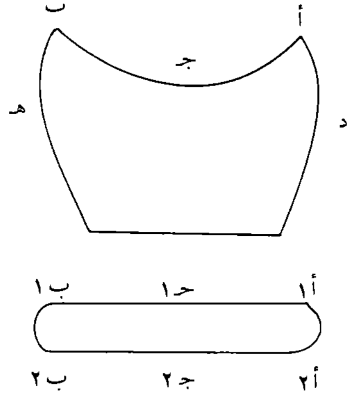
وقد عُثر على عدد من مساند الرأس ضمن كنوز توت عنخ آمون، وكان أحدها مصنوعًا من الزجاج الأزرق الفيروزي الموشّى بالذهب. ويُقال إن شكل مسند الرأس يرمز إلى أسطورة مصوّرة تصويرًا جيدًا في مسند رأس عاجي آخر. فهي تصوّر إله الأرض وإلهة السماء يفصل بينهما أبوهما



الشكل ٣١: مقبرة من وادي الجبتارا تنتمي الى العصر الحجري الحديث (نقلاً عن كامبس، ١٩٧٤، ص ٢٥٤).

شو، إله الجو، الذي يتوسّط الأرض والسماء ويرفع السماء مع جميع الآلهة الذين سبقوه في الوجود. ويصوّر أسدان شروق الإله رع إله الشمس وغروبه (الشكل ٣٣). ويمكن للميت عندئذ أن ينزل رأسه ويستريح في السماء.

ويمكن أن يُطرح هنا سؤال عمّا إذا كان ذلك يدلّ على أن الجارامنت كانوا يعتنقون نفس معتقدات المصريين أم أن وجود مساند الرأس في وادي الآجال لا يعدو أن يكون مجرّد مصادفة. فإذا أخذنا عناصر أخرى في الإعتبار وجدنا أنه في وادي الآجال، الذي يمكن بسهولة العثور على نظيره في مصر، لا يشكّل مسند الرأس بأي حال سن الأحوال مثالاً منفردًا للتأثير المصري في منطقة الجارامنت.



الشكل ٣٢ : مسند رأس من زنشيكرا ٢٠٩ (نقلاً عن دانييلز).



الشكل ٣٣ : مسند رأس من كنوز توت عنخ آمون.

ولمّا كان من المفترض أن الميت يحيا حياة أخرى في قبره ، الذي كان يُعتبر دار الخلود ، فقد تمّ توفير كل شيء لمساعدته على أن ينعم بالحياة الآخرة. وهكذا كانت توضع حول الجثمان أشياء تُستخدم في الحياة اليومية ، كالأواني وغيرها من الأدوات ، وهي عادات كانت تُمارس في معظم الثقافات المعاصرة حينذاك. وعادة ما تبيّن المواد التي تمّ العثور عليها مركز الميت ودرجة ثرائه ، وكانت المقابر تحتوي عادةً على عدّة أدوات الزينة من المؤكّد أنها كانت تُستخدم في بعض الأغراض الطقسية ، وتعاويذ ربّما كانت توضع لحماية الميت وطرد الأرواح الشريرة. وكانت هذه الأدوات تتألّف من سلع تُجلب من منطقة واسعة في حوض البحر المتوسط : قرطاجة وجنوبي بلاد الغال وإيطاليا ومصر.

والواقع أن فزان ، موطن الجارامنت ، كانت ذات موقع فريد من الناحية الجغرافية. فقد كان سكانها القدامى يتحكّمون في جميع الطرق التي كانت تسلكها القوافل قاصدة أرض سكان الكهوف السود في الصحراء. وقبل العهد الروماني كانت المنطقة الافريقية الواقعة غرب سرت ، خاضعة بكاملها لسيطرة القرطاجيين ، ومن الواضح أن القرطاجيين كانوا حريصين على الإتصال بشعوب الداخل. وتوضح قصة بناء هياكل الفيلاني قبيل منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، عند الحدود الغربية للمنطقة الخاضعة لسيطرة اليونان ، كيف حال القرطاجيون بصورة فعّالة دون أن يستخدم اليونانيون الطرق الجارامنتية المؤدّية إلى فزان.

وكان الجارامنت يتمتّعون بوضع هام باعتبارهم وسطاء في أي تجارة ، سواء تجارة العقيق الأحمر أو الذهب ، وربّمَا تجارة العاج أيضًا. كما كانوا يسكنون في منطقة ذات أودية خصبة ممّا جعلهم ينعمون بالرخاء والثروة.

وشأن معظم مدافن البربر فإن المدافن الأسطوانية والرباعية الأضلاع الموجودة في الوادي تتّسم بالبساطة ، وربّما كانت تمثّل نماذج مبسطة لعمائر دفن أكثر إتقانًا في الجزائر والغرب. ويمكن اعتبار الشكل المدرَّج (الأسطواني والرباعي الأضلاع) محاكاة أمينة للمقابر المصرية. فالواقع أن الأمثلة الموجودة في صينية بن هويدي وتجليت تعدّ أشكالاً مبسطة للمصطبة المصرية.

أما بالنسبة للمقابر الهرمية في وادي الآجال فإن هناك مصدرًا واحدًا فقط هو الحضارة المروية في النوبة. فعمائر الدفن في كلا الموقعين لها نفس الشكل ، كما تفصل بين الحضارتين فترة زمنية قصيرة نسبيًا. وكثيرًا ما يُشار إلى علاقات قامت بين سكان وادي الآجال وسكان النوبة ، سواء في وقت الحرب أم في وقت السلم. ومن بين ما تضمّنته مقابر المرويين الأوائل رسومًا لأسرى ليبيين منقوشة على أحجار (دونهام ، ١٩٥٥ ، ص٦٩). والواقع أن بعض المؤلّفين يرون أن المنطقة التي سيطر عليها الجارامنت ربّما تكون قد امتدّت حتى إلى النيل. ويرى البعض أن الجنوب الغربي ، أي المنطقة الواقعة شمال دارفور ووداي (شمال غربي السودان) كانت أرضًا جارامنتية. ولم يتأكّد لنا هذا الزعم

حتى الآن ، ولكن الأهم من ذلك في هذا السياق هو الشكل المشترك للمقابر في كلتا المنطقتين وانتماؤهما إلى فترة زمنية واحدة .

وحين نتطرّق إلى شواهد قبور الجارامنت وموائد تقديم القرابين تغدو الصورة أقل وضوحًا . وليس من المتعذّر أن نجد خارج أراضي الجارامنت مناظر لكل نوع من أنواع شواهد المقابر وإن كان من الصعب أن نربط بينها . ولدى دراسة موائد تقديم القرابين نخلص إلى أنه كان ثمة تأثير مصري ومروي قوي على الموائد الليبية . إلاّ أننا حين نتحدّث عن شواهد المقابر نكون أميل إلى ربط مقابر وادي الآجال بالطرز البونية منا إلى ربطها بالطرز المصرية أو المروية . والواقع أننا لا نصادف في مدافن مصر أو مروى الشواهد التي تتّخذ شكل الكف أو القرن . فكيف لنا أن نفسّر المزج بين الشاهد الذي يتّخذ شكل الكف (والذي يفترض فيه أنه يصوّر رمزًا لبعض الآلهة) وبين المائدة التي أوضحنا أنها تحمل تأثيرًا مصريًا أو مرويًا ؟ ويمكننا طرح نفس السؤال بشأن الشاهد الذي يتّخذ شكل القرن وارتباطه بموائد تقديم القرابين . فلم يحدث حتى الآن أن صادفنا هذا المزج في أي مكان آخر غير وادي الآجال . وإنني أميل إلى الإعتقاد بأن الجارامنت كانوا يتأثّرون بالثقافات المجاورة التي كانوا على اتصال بها . ويُحتمل أيضًا أن يكونوا قد عبدوا آلهة مشابهة لآلهة جيرانهم ومارسوا طقوسًا مماثلة لطقوسهم . وعلى الرغم من تصوير هذه الآلهة كرموز ، فإن الجمع بين الشواهد وموائد تقديم القرابين ليشكّل ظاهرة جارامنتية بحتة . ومن هنا فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذه الاختلافات ترجع إلى بعد الجارامنت وعزلتهم ، وذلك على الرغم من وجود شواهد عديدة تثبت قيام علاقات بين الجارامنت وجيرانهم .

وبصدد الحديث عن موضوع العزلة ، يوحي الإستخدام المؤكّد لطرق خاصة من طرق الدفن من جانب بعض مجموعات الجارامنت على الأقل ، بأن التأثير الخارجي لم يكن قادرًا دائمًا على إحداث تغيّر . فالدفن في وضع القرفصاء يمثّل الطريقة الوحيدة التي اتّبعها الجارامنت حتى القرون الوسطى وربّما بعدها . ولكن على الرغم من كل العناصر الهامة والتأثير الخارجي الواضح في أشياء كالكفوف والموائد ، فإن هناك جانبًا من ثقافة الجارامنت ، كاستمرار عادة الدفن في وضع القرفصاء ، يؤكّد بوضوح محافظتهم على عادات محلية خاصة بهم .

تنويه

يودّ المؤلّف أن يعرب عن امتنانه للسيد س. م. دانييلز C.M.Daniels، من جامعة نيوكاسل بالمملكة المتحدة، الذي تكرّم بالسماح له بالإطّلاع على مجموعة الصور والخرائط الموجودة لديه، كما تفضّل بالترخيص له بأن يتناول، في هذا البحث، المواد المتّصلة بتلك الوثائق، قبل نشر الدراسة حول مواقع وادي الآجال.

المراجع

AYOUB, M. S. 1961. *Excavation at Germa, the Capital of the Garamantes.* Tripoli.
—. 1967. *Excavation in Germa between 1962 and 1966.* Tripoli.
—. 1968a. *The Expedition of Cornelius Balbus 19 B.C.* Tripoli.
—. 1968b. *Fezzan: A Short History.* Tripoli.
—. 1968c. *The rise of Germa.* Tripoli.
AYOUB, M. S. 1968d. *The Cemetery of Saniat Ben-Howedy.* Tripoli.
BISI. A. M. 1968. Punic Stelae. *Arehaeologia Viva* (Paris), pp. 109-24.
BOETHIUS, A.; WARD-PERKINS, J. B. 1970. *Etruscan and Roman Architecture.* Harmondsworth, Penguin Books.
BRECCIA, E. 1912. *Le Nicropoli di Sciatbi.* Vol. I. Cairo, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale.
BROGAN, O. 1955. The Magnificent Tombs which the 'Home Guards' of Roman Tripolitania Built. *London Illustrated News,* 29 January, pp. 182-5
—. 1968. First and Second Century Settlement in the Tripolitanian Pre-desert. *Libya in History,* Historical Conference, Benghazi, pp. 121-8
CAMPS, G. 1956. La céramique des sépultures berbères de Tiddis. *Libyca,* Vol. IV, pp. 155-203.
—. 1958/59. Données nouvelles sur les tombeaux du Djebel Mistiri d'après une note de M. Latapie. *Libyca,* Vols. VI-VII, pp. 229-42
—. 1959. Sur trois types peu connus de monuments funéraires Nord-Africains. B.S.P.F., Vol. LVI, pp. 101-8
—. 1961. *Aux origines de la Berbérie: monuments et rites funéraires protohistoriques.* Paris, Arts et Métiers Graphiques.
—. 1965. Les Dolmens Marocains. *Libyca,* Vol. XIII, pp. 235-47
—. 1973. Nouvelle observation sur l'architecture et l'âge de Madracon Mausoleo de Numidie. *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, compte rendu des séances (C.R.A.I.),* pp. 470-517
—. 1974. *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara.* Paris.
—. 1974. Le gour, mausolée berbère du VII^e siècle. *Antiquités africaines,* Vol. 8, pp. 191-208.
CAPUTO, G., et al. 1937. *Il Sahara Italiana.* Part I: *Fezzān e Oasi di Gat,* pp. 243-330 Rome, Real Società Geografica Italiana.
—. 1951. Scavi Sahariani. *Monumenti antichi,* Vol. XLI, pp. 150-522
DANIELS, C.M. 1968. The Garamantes of Fezzān. *Libya in History,* op. cit., p. 267, Fig. 11, Pl. IX.

—. 1970. *The Garamantes of Southern Libya.* Cambridge, Oleander Press.
—. 1972/73. The Garamantes of Fezzān, An Interim Report of Research (1965-73). *The Fourth Annual Report of the Society for Libyan Studies,* London.
Di Vita, A. 1968. Influence grecque et tradition orientale dans l'art punique de Tripolitaine. *Mélanges d'archéologie et d'histoire* (Paris), Vol. LXXX, pp. 7-80.
Dunham, D. 1955. *The Royal Cemeteries of Kush.* Vol. II: *Nuri.* Boston, Mass., Museum of Fine Arts.
—. 1957. *The Royal Cemeteries of Kush.* Vol. IV: *Royal Tombs of Meroe and Barkal.* Boston, Mass., Museum of Fine Arts.
Kirwan, L. P. 1934. Christianity and the Kura'an. *The Journal of Egyptian Archaeology,* Vol. XX, pp. 202 f.
Pauphilet, D. 1953. *Mission au Fezzān (1949).* Publications Scientifiques de l'Institut des Hautes Études de Tunis.
Risner, G. A. 1923, The Meroitic Kindgom of Ethiopa. *Journal of Egyptian Archaeology,* Vol. 9.
Sergi, S. 1934. The Garamantes of Libya. *Congrès International de Sciences Anthropologiques et Ethnologiques. Compte rendu de la première session.* London.
—. 1936a. Les caractères physiques des Garamantes de la Libye. *XVI*[e] *Congrès International d'Anthropologie et d'Archéologie préhistorique, VI*[e] *Assemblée Générale de l'Institut International d'Anthropologie à Bruxelles, 1935,* Brussels, Imprimerie Médicale et Scientifique.
—. 1936b. La reliquie dei Garamanti. *Bolletino della Società Geographica Italiana.*
—. 1938. I Garamanti della Libya. Risultati di una missione anthropologica nel Fezzān, *Atti IV Congresso Nazionale di Studi Romani.*
Shinnie, P. 1967. *Meroe.* London, Thames & Hudson.
Vandier, J. 1951-54. *Manuel d'archéologie égyptienne,* Vol. I, 1951; Vol. II, 1954. Paris, A. & J. Picard.
Vuillemot, M.G. 1964. Fouille du Mausolée de Beni Rhenane en Oranie. *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, compte rendu des séances*, pp. 71-95
Winorath-Scott, A.; Fabri, M. 1966/67. The Horn in Libyan Prehistoric Art and its Traces in Other Cultures. *Libya Antiqua*, Vols. III-IV.

معلومات جديدة عن هضبة عير (النيجر) والرقعة المحيطة بها

ماريان كورنفان

بعد الإكتشافات والتأريخات التي حُدِّدت بالقياس الإشعاعي ، والتي توالى الإعلان عنها منذ عام ١٩٧٦ ، وبعد عام ١٩٨٢ بوجه خاص ، لا بدّ أن تُعتبر هضبة عير والرقعة المحيطة بها إحدى المناطق الرئيسية لعصر ما قبل التاريخ وإرهاصات العصر التاريخي لا في الصحراء الكبرى وحدها بل في افريقيا بوجه عام.

ما قبل التاريخ : بدايات العصر الحجري الحديث

في عام ١٩٨٣ ، أعلن ج. ب. روزيه ، وهو أحد علماء الآثار في مكتب البحث العلمي والتقني لما وراء البحار (ORSTOM) ، أن هضبة عير ومشارفها الشرقية كانت مركزًا لاختراع الفخار في منتصف الألف الثاسن قبل الميلاد ، وهو ما يعني أنها تسبق أقدم مواقع الشرق الأدنى ، وهو موقع يرجع تاريخه إلى حوالى عام – ٧٠٠٠.

بوادر العصر التاريخي

وصول البربر القدامى إلى هضبة عير

إنطلاقًا سن تحديد عام – ٧٣٠ وعام – ٢١٠ لعينتين سن الفحم النباتي أخذتا في عام ١٩٨٢ سن موقعين مختلفين في إوِيلين ، ذكر ج. ب. روزيه أيضًا في بحثه المقدّم إلى ندوة «ليبيا القديمة» (اليونسكو ، يناير/كانون الثاني ١٩٨٤) أن السمات الجديدة للفخار والرسوم المنقوشة على الصخور ووجود أشياء معدنية ورسمين لعجلات تشير كلها إلى وصول «أولى الموجات العديدة لمهاجري البربر» ، أسلاف الطوارق الحاليين ، إلى شمالي هضبة عير. وهذا التأريخ ، الذي يُعدّ أقدم تأريخ

يحدِّد لموقع صخري في هضبة عير ، يمثّل تقدّمًا كبيرًا في التأريخ لظهور الطوارق في الهضاب الواقعة وسط الصحراء الكبرى ويعتمد في توثيقه على النقوش الصخرية وحدها.

عصر المعادن في الصحراء الكبرى

في عام ١٩٧٦ ، أعلن باحثان في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي ، وهما الأثري ب. جولتكيه Gouletquer والإثنوجرافي المتخصّص في الآثار س. برنيس S. Bernus ، عن تأريخين كانا مثارًا للدهشة إذ حُدِّدا عام – ١٣٦٠ وعام – ٩٠ كتاريخين لبقايا أفران مختلطة بخبث النحاس اكتُشفت في سكيريت وأزليك في سهل تلاك بجنوب غربي هضبة عير. وفيما بين عام ١٩٧٧ وعام ١٩٨١ ، اكتشف د. جريبنار D. Grebenart وهو متخصّص في دراسات ما قبل التاريخ يعمل بنفس المركز ، خلال حفرياته في المنطقة الواقعة جنوب أغاديس (جرف تيجيديت) وغربيها ، وجود صناعة للنحاس امتدّت إلى شمال جرف تيجديت فيما بين القرن التاسع قبل الميلاد والقرن الميلادي الأول ، وصناعة للحديد في المنطقة الواقعة جنوب جرف تيجديت فيما بين القرن الخامس والقرن الأول قبل الميلاد. وقد لخّص د. جريبنار النتائج التي استخلصها في مقال نشره في المؤلّف الجماعي *Métallurgies africaines* (صناعات التعدين الافريقية) فقال «إن منطقة أغاديس تبدو الآن أقدم مركز للتعدين في افريقيا غير النيلية جنوب الصحراء».

نحن إذن أمام ثلاث نتائج باهرة أعلنت منذ عام ١٩٨٠ . فكم تغيّر الوضع منذ صدور المجلّدين الأول والثاني من «تاريخ افريقيا العام» . فاسم هضبة عير لا أثر له في فهرس أسماء الأماكن بالمجلّد الثاني . وعلى الرغم من أن فهرس المجلّد الأول يتضمّن خمس إشارات إلى هضبة عير ، فإن من بينها ثلاث إشارات إلى وضعها الجغرافي (الصفحات ٢٧٧ و٣٨١ و٦١٣) وإشارة ذات طابع إثنوجرافي (طوارق عير ص ٦٢٤) ، وإشارة واحدة في معرض الحديث عن عصر ما قبل التاريخ. وحتى هذه الإشارة لا تعدو أن تكون مجرّد ذكر لاسمها ضمن قائمة طويلة بأسماء المواقع المشهورة عالميًا بالرسوم الصخرية (ج. كي زربو ، ص ٦٦٦) . وقد أصبح من الضروري الآن أن تتناول الطبعات المقبلة هضبة عير والرقعة المحيطة بها عند الحديث عن كل مراحل العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى. وتحدّد الآن بداية هذه الحقبة (إنتاج أقدم الفخاريات) ، أو ما يُسمى الآن في كثير من الأحيان بعملية الإنتقال إلى العصر الحجري الحديث ، بالألف العاشر قبل الميلاد ، على حين كان التاريخ المسلّم به في عام ١٩٧٤ هو الألف السابع . ومن هنا يتعيّن على مؤرّخي ما بعد العصر الحجري الحديث ، أو عصر المعادن ، أن يشيروا هم أيضًا إلى هضبة عير.

لقد أصبح من الثابت اليوم ، أن هضبة عير والرقعة المحيطة بها ، هي إحدى المناطق المعدودة ، في افريقيا كلها ، التي قدّمت تأريخات موثوقًا بها (من الفحم النباتي الذي عُثر عليه في

الطبقات الأثرية) تعود إلى الألف العاشر قبل الميلاد. وإذا كان الوقت لم يزل مبكرًا لاستخلاص صورة إجمالية، فمن الممكن أن نقدّم الخطوط العريضة لاتجاهات التوطن السكاني في علاقتها بما اعترى جنوبي الصحراء الكبرى من تغيّرات مناخية يمكن تحديدها بسهولة نسبية نظرًا لوجود تغيّرات في الرسابات النهرية – البحيرية تكشف عن تلك التغيّرات بوضوح لا مثيل له في شمالي الصحراء الكبرى (ديوران، ١٩٨٢؛ ديوران وماتيو، ١٩٨٠؛ مالي، ١٩٨١؛ موتزوليني، ١٩٨٢).

فبعد فترة من الجفاف الشديد، فيما بين – ٢٠٠٠٠ و– ١٢٠٠٠، أخذت البحيرات تخطي بسرعة كل الرقعة الشمالية للصحراء الكبرى الحالية، فيما بين خطي العرض ٢١° و١٧° شمالاً، ووصلت هذه البحيرات إلى أعلى منسوب لها فيما بين – ٧٠٥٠ و– ٦٠٥٠. وفي حوالى – ٦٥٥٠ عادت بحيرة تشاد لتحتلّ رقعة تعادل المساحة التي كانت تحتلّها في حوالى عام ٢٨٠٥٠ قبل الميلاد وهي مساحة تعادل مساحة بحر قزوين، ومن ١٦ إلى أربعين ضعفًا مساحة بحيرة تشاد الحالية الواقعة في الربع الجنوبي الغربي لموقع البحيرة القديمة. ومن المحتمل أن تكون السرعة التي ملأت بها المياه المناطق الواطئة قد دفعت القادمين من الجنوب إلى الإستقرار أولاً في المناطق الجبلية الأكثر ملاءمة للسكنى. وقد يفسّر ذلك وضع تجالاجال في جبال بجزان على ارتفاع ١٨٠٠ متر (روزيه، ١٩٨٢)، وهو موقع يعود تاريخه إلى – ٧٣٨٠ ± ١٣٠ و٧٤٢٠ ± ١٣٠؛ وموقع لوني بهضبة الهجار الذي يرجع تاريخه إلى – ٧٣١٠ ± ١١٥ (ميتر، ١٩٧٦)، وموقع تينتورها في أكاكوس الذي يرجع تاريخه إلى – ٧١٨٠ ± ٧٠ (باريش، ١٩٨٢). ومن ناحية أخرى، فإن موقعيْ تمت – طبقه ١، وأدرار بوس– طبقه ١٠ (روزيه، ١٩٨٣)، اللذين يعود تاريخهما إلى – ٧٦٠٠ ± ١٠٠ و– ٧٠٨٠ ± ١٩٠، يقعان على شواطئ البحيرات القديمة التي يمكن الإستدلال عليها بوجود تراب الطحالب النهرية على سفح جبل جريبون وسفح جبل أدرار بوس. وتتميّز جميع هذه الطبقات بوجود الفخار (أداة لتمشيط الفخار في تمت) إلى جانب نوع من المعدات لطحن الحبوب الصلبة فضلاً عن صناعة لأدوات حجرية متنوعة. كما اكتشف ج. روزيه عددًا من الطبقات الأخرى في قطاع أدرار بوس، وهي طبقات تتسم في الغالب بضخامة الحجم وتتميّز بنفس الخصائص، أو أعاد فحص هذه الطبقات.

وفي حوالى – ٥٥٥٠ حلّت فترة جافة يُستدل عليها بانخفاض مستوى بحيرة تشاد حينذاك وترسب الغرين في بعض الأودية. وابتداءً من – ٥٠٥٠ فصاعدًا توقّف نهر تبيستي تمامًا عن تغذية بحيرة تشاد، وأصبح منسوب المياه في المجاري المائية غير منتظم. ولم يعثر في هضبة عير أو في الرقعة المحيطة بها على أي موقع أثري يرجع تاريخه إلى هذه الفترة.

وفيما بين – ٤٠٥٠ و– ٣٠٥٠ (الألف الرابع قبل الميلاد) اتّسعت بحيرة تشاد مرة أخرى حتى بلغت مساحتها ٣٢٠ ألف كيلومتر مربع، في حوالى – ٣٥٥٠ (٤٠٠ ألف كيلومتر مربع في

حوالى – ٦٥٥٠ مقابل نحو ١٥ ألف كيلومتر مربع الآن). وكان في هذه الفترة أن بدأ «العصر الحجري الحديث الأوسط» أو «الحجري الحديث الرعوي» الذي يمثّله أكثر من أربعين موقعًا في تنيري وتلاك (أو «تنيري الغربية»). وفي هذه المواقع جميعًا، كان السكان يتكوّنون من جماعات تمارس القنص والجمع وصيد الأسماك والرعي وتستقرّ على شواطئ البحيرات في تنيري وعلى ضفاف الأنهار في تلاك. ويوجد حاليًا شريط نباتي يوضح موقع مجرى الأنهار القديمة (لوتي، ١٩٧٦). وقد عُثر على كميات كبيرة من أصداف «بلح البحر» التي تعيش في المياه العذبة وعظام الأسماك، بما فيها عظام السلسلة الفقرية، وألواح عظمية لتماسيح، وبقايا لأفراس نهر وفيلة وخراتيت وزرافات ووعول وغزلان وخنازير وحشية، كمَا عُثر على هياكل عظمية لثيران لا يزال بعضها متماسكًا. وأحدث التأريخات التي حُدِّدت في منطقة تنيري هو حوالى – ٢٢٥٠ (منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) وهي لمواقع عديدة حول أرليت في تلاك، وقد اقترح هـ. لوتي H. Lhote تأريخات مماثلة ولكنها أكثر تقاربًا من الناحية الزمنية من تأريخات تنيري، إذ تقع فيما بين – ٣٤٥٠ و– ٢٨٥٠. ولم يعثر في هضبة عير على أي موقع رعوي ينتمي للعصر الحجري الحديث.

وفيما بين – ١٥٥٠ و– ٩٥٠ اتّسعت بحيرة تشاد للمرة الثالثة وإن كان ذلك بمعدّل أكثر اعتدالاً. ففي حوالى – ١٢٥٠ وصلت الشواطئ إلى منسوب ٢٦٠ مترًا فوق سطح البحر (وكان ٣٠٠ متر حوالى – ٣٥٠٠، وهو اليوم ٢٤٠ مترًا). وهذه الفترة توازي «العصر الحجري الأحدث» الذي يمثّله موقع في أوروب جنوبي جرف تيجديت (جريبنار، ١٩٧٩)، حدد تاريخه بعام – ١٤٤٠، وموقع في تشن تافيديت، غربي تيجدان تِسِمْت (جريبنار، ١٩٨٣)، حُدِّد تاريخه بعام – ١٤٢٠. وتتميّز هذه المواقع بندرة الأدوات الحجرية كما أن فخارها من نوع فردي متميّز بالمقارنة مع فخار تنيري.

وهناك بضعة مواقع أخرى، حُدِّد تاريخها أيضًا بنهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وقد وصفها د. جريبنار، وهو الأثري الذي اكتشفها، بأنها «حجرية حديثة سهلية» Sahelian Neolithic. ويتراوح تاريخ أربعة مواقع، منها ثلاثة إلى جنوب جرف تيجديت، بين – ١٢١٠ و– ٩٤٥، وقد عُثر فيها على فخار من نوع يختلف اختلافًا بيّنًا عن الفخار الصحراوي في العصر الحجري الحديث. وهذا الإختلاف بين الحجري الحديث الصحراوي في شمال جرف تيجديت والحجري الحديث السهلي في جنوبه، يرجع، فيما يرى د. جريبنار، إلى قدوم جماعات سكانية مختلفة من الشمال (أو الغرب) ومن الجنوب. ويعتقد د. جريبنار أن الأولين هم الذين أدخلوا صناعة النحاس في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، وأن الجنوبيين هم الذين أدخلوا صناعة الحديد في منتصف الألف الأول قبل الميلاد.

ويبدو من المؤكّد أنه على حين تحوّلت تنيري خلال الألف الأول إلى صحراء، ظلّت المنطقة

الداخلية في هضبة عير وتلاك تتمتّع بدرجات من الرطوبة تزيد كثيرًا على درجات رطوبتها اليوم. وآية ذلك أن الرسوم الصخرية تضمّ صورًا لخيول والحيوانات «أثيوبية» ضخمة (فيلة وخراتيت وزراف وأسود) فضلاً عن صور «للمحارب الليبي». كما يؤيّده أيضًا وجود صناعة النحاس والحديد في جنوب الهضبة وغربها، وهي صناعة تحتاج إلى غطاء حراجي لإنتاج الفحم النباتي.

وفي أثناء الألف الأول قبل الميلاد، استقرّت في هضبة عير والرقعة المحيطة بها ثلاث مجموعات سكانية. فنحن نجد آثار أقوام العصر النحاسي وأقوام العصر الحجري الحديث الصحراويين في غربي أغاديس وجنوبها وفي شمال جرف تيجديت. وقد ظلّوا ابتداءً من الألف الثاني وحتى القرن الثامن قبل الميلاد، يقتصرون على استخدام عقيدات من النحاس المحلّي. وفيما بين القرن التاسع قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي، استطاعوا أن يستنبطوا صناعة تعدين حقيقية، وتمكّنوا من تنقية خام النحاس. وتشبه أفرانهم أفران أكجوجت في موريتانيا حيث كان يتمّ تصنيع خام النحاس في الفترة نفسها تقريبًا، ابتداءً من القرن الثامن إلى القرن الثالث قبل الميلاد (لامبير، ١٩٨٣). وتقع الأفران في النيجر، كما في موريتانيا، في أماكن بعيدة عن المساكن، وهو ما يشير إلى وجود حرفيين متنقلين يتتجون النحاس بين الحين والآخر وبكميات ضئيلة. ولكن مصنوعاتهم، التي تشمل الدبابيس والسكاكين ونصال السهام وأدوات الحفر على المعدن وما إلى ذلك، كانت متباينة الأشكال. وليس هناك ما يوحي بقيام صلة ما بين «إقليمي النحاس» هذين اللذين يفصل بينهما ٢٥٠٠ كيلومتر.

وفي جنوب جرف تيجديت، نجد «أقوام عصر الحديد» و«سكان منطقة السهل في العصر الحجري الحديث» الذين تحدّث عنهم جريبنار. وجريبنار يفترض، على هذا النحو، عصرًا مبكرًا للحديد فيما بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي (أربعة تواريخ تتراوح بين – ٤٩٠ ± ١٠٠ إلى – ٦٠ ± ٩٠). ووجود تبادلات بين «أقوام العصر النحاسي» و«أقوام العصر الحديدي» يثبته وجود أدوات حديدية صغيرة للاستخدام اليومي – دبابيس وأسياخ وصفائح صغيرة مثقوبة وشفرات – بالقرب من أفران النحاس المنتمية إلى الألف الأول، كما يبرهن عليه أيضًا وجود حلى مصنوعة من سبائك من النحاس الأحمر والبرونز والنحاس الأصفر. وكان حجر القصدير (القصدير الخام) يصنع في المكى، على بعد مائة كيلومتر شمالي أغاديس، الأمر الذي يدل عليه الاخضرار في لون كثير من الهياكل العظمية المنتمية للعصر الحجري الحديث التي عُثر عليها جنوبي الجرف.

ويدل على ظهور أقوام جدد في الأراضي الداخلية للهضبة وعلى تخومها الشرقية والغربية، وجود آلاف من النقوش التي رُسمت بأسلوب بادي التجانس (لوتي)، حيث يتبع في رسم الأشخاص أسلوب نمطي إذ يُرسَمون على هيئة مثلّثين متواجهين مع أغطية رأس يعلوها ريش بينما يلوحون بالرماح أو الدروع، ممّا يجعلهم قريبي الصلة «بالمحارب الليبي» التقليدي. وقد حدّد ج. ب. روزيه

تاريخين هما – ٧٣٠ و – ٢١٠ ، وهو ما يؤكّد التاريخ الذي اقترحه هـ. لوتي ، والذي يقع في حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد.

وفي الوقت الراهن ، لا نعلم شيئًا عن العلاقات التي قامت بين المحاربين البيض القادمين من الشمال وصنّاع الأدوات المعدنية السود المستقرّين في الجنوب. ولا سبيل هنا إلى الإستعانة بالمأثورات الشفاهية فهي تحدّد وصول قبائل الطوارق الأولى ورحيل الجوبير نحو الأراضي التي تقع الآن في نطاق نيجيريا ، بالقرن السابع الميلادي.

ومن المسائل الأخرى التي لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث ، مسألة نشأة صناعة الحديد في افريقيا جنوبي الصحراء. فإذا كان علينا أن ننتظر الإعلان عن تأريخات جديدة قبل استنباط النتائج الإجمالية ، فإن أقدم التأريخات التي أعلنت (كالفوكوريسّي ودافيد ، ١٩٧٩) لعصر الحديد في تاورغا في نيجيريا (– ٥٩١ ± ٧٤) ، والتأريخات التي أعلنها جريبنار في عام ١٩٨٣ بالنسبة لعصر الحديد في ايكن وان أترام ، بجنوب شرقي ماراندت (– ٤٩٠ ± ١٠٠) قد ألقت ظلالاً قوية من الشك على نظريات الإنتشار التي يطرحها معظم الباحثين.

إن قيام مراكز مستقلة لصناعة الحديد في الألف الأول قبل الميلاد في منطقة السهل السوداني (نيجيريا والكاميرون) وفي الصحراء النيجيرية ، هو احتمال يزداد رجحانًا مع تقدّم البحث الأثري.

المراجع

BARICH, B. E. 1982. Les missions paléoethnologiques italo-libyennes de l'Aouis. Records of the Franco-Italian symposium on the prehistory of the Sahara, *La Nouvelle Revue Anthropologique*, February.

BERNUS, S.; GOULETQUER, P. 1976. Du cuivre au sel. Recherches ethnoarchéologiques sur la région d'Azelik (1973-1975). *Journal des Africanistes*, Vol. 46, pp. 1-2, 7-68.

CALVOCORESSI, D.; DAVID, N. 1979. A New Survey of Radiocarbon and Thermoluminescence Dates for West Africa. *Journal of African History*, Vol. 20, No. 1, pp. 1-29.

DURAND, A. 1982. Oscillations of Lake Chad over the past 50,000 Years: New Data and New Hypothesis. *Palaeogeography, Palaeoclimatology, Palaeocology*, Vol. 39, pp. 37-53.

DURAND, A.; MATHIEU, P. 1980. Évolution paléogéographique et paléoclimatologique du Bassin Tchadien au Pleistocène supérieur. *Revue Géol., Géog. physique*, Vol. 22, Nos. 4-5, pp. 329-41

ECHARD, N. Textes réunis. *Métallurgies africaines, Mémoires de la société des Africanistes*, No. 9.

GREBENART, D. 1979. La préhistoire de la République du Niger, *Recherches sahariennes.* Aix-en-Provence/Paris, CNRS.

—. 1983. Les métallurgies du cuivre et du fer autour d'Agadez (Niger). In *Métallurgies africaines*, op. cit., pp. 109-25

LAMBERT, N. 1983. Nouvelles contributions à l'étude du Chalcolithique de Mauritanie. *Métallurgies africaines*, op. cit., pp. 63-77.
LHOTE, H. 1972. *Les gravures du nord-ouest de l'Aïr*. Arts et Métiers Graphiques.
—. 1976. *Vers d'autres Tassilis*. Arthaud.
—. 1979. *Les gravures de l'oued Mammanet*. Dakar, Nouvelles Éditions Africaines.
—. 1982. *Les chars rupestres sahariens. Des syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes*. Toulouse, Éditions des Hespérides.
MAITRE, J. P. 1976. Contribution à la préhistoire récente de l'Ahaggar dans son contexte saharien. *Bulletin de l'IFAN*, Séries B., Vol. 38, No. 4.
MALEY, J. 1981. Études palynologiques dans le bassin du Tchad et paléoclimatologie de l'Afrique nord-tropicale de 30,000 ans à l'époque actuelle. *Travaux et Documents de l'ORSTOM*, No. 129.
MUZZOLINI, A. 1982. Les climats sahariens durant l'Holocène et à la fin du Pleistocène. *Travaux du LAPMO*, pp. 1-31, Aix-en-Provence.
ROSET, J. P. 1982. Les plus vieilles céramiques du Sahara. *Archeologia*, No. 183, October, pp. 43-50.
—. 1983. Nouvelles données sur le problème de la néolithisation du Sahara méridional: Aïr et Ténéré au Niger. *Cahier de l'ORSTOM*, Vol. XIII, No. 2, pp. 119-42 (Géologie).
ROSET, J. P.; Paris, F. 1984. La nécropole d'Iwelen dans l'Aïr septentrional (Niger). *Travaux et Documents de l'ORSTOM*.

إيولين : موقع أثري لعصر العجلات في شمالي هضبة عير بالنيجر

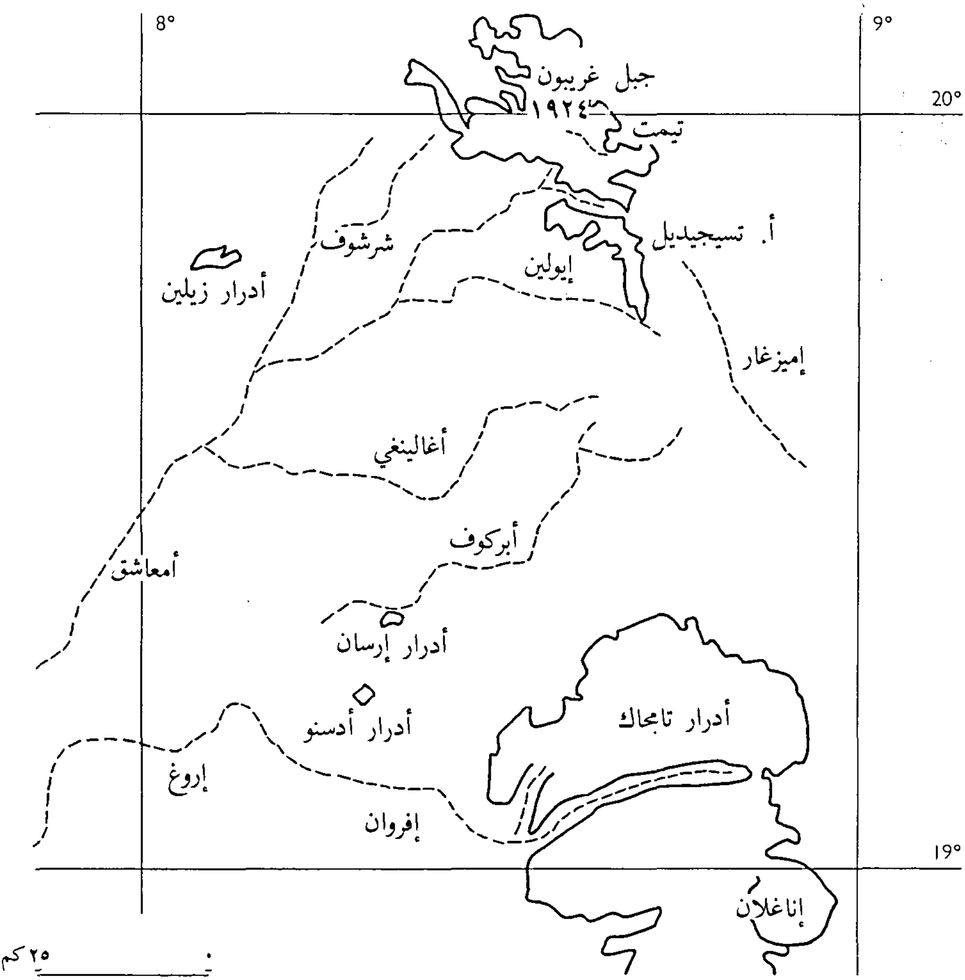
ج . ب . روزيه

يشكّل «كوري»[١] إيولين جزءًا من الشبكة الكثيفة للأودية الصغيرة التي تصرّف في اتجاه الجنوب الغربي بعض الأمطار التي تسقط على جبل جريبون ، وهو أعلى نقطة في شمالي هضبة عير ، خلال موسم الأمطار الذي يستمرّ من يوليو/تموز حتى سبتمبر/أيلول. وتغذّي هذا الوادي ، أساسًا ، المياه المنصرفة من المنحدرات الجنوبية للهضبة ، ولا سيّما منحدرات ادرار تسيجويديل. إلاّ أنه ، شأن معظم «الكوريات» الأخرى ، لا يجري فيه الماء إلاّ لمامًا ، في أعقاب هطول مطر غزير ، ولبضع ساعات على مدار العام ، وهو يندفع عندئذ كسيل جارف سرعان ما تمتصّه الرمال.

وقبل أن يلتقي «كوري» إيولين بـ «كوري» تاسوس في الغرب ، وهو أكثر اتّساعًا وينحدر مباشرةً من جبل جريبون ، ينعطف انعطافًا حادًّا نحو الجنوب لمسافة تقرب من كيلومترين ، وفي هذا المنعطف يقع للموقع الأثري عند نقطة خط ″٣٥ ′٤٦ °١٩ شمالاً ونقطة ′٢٦ °٨ شرقًا (انظر الشكل ١).

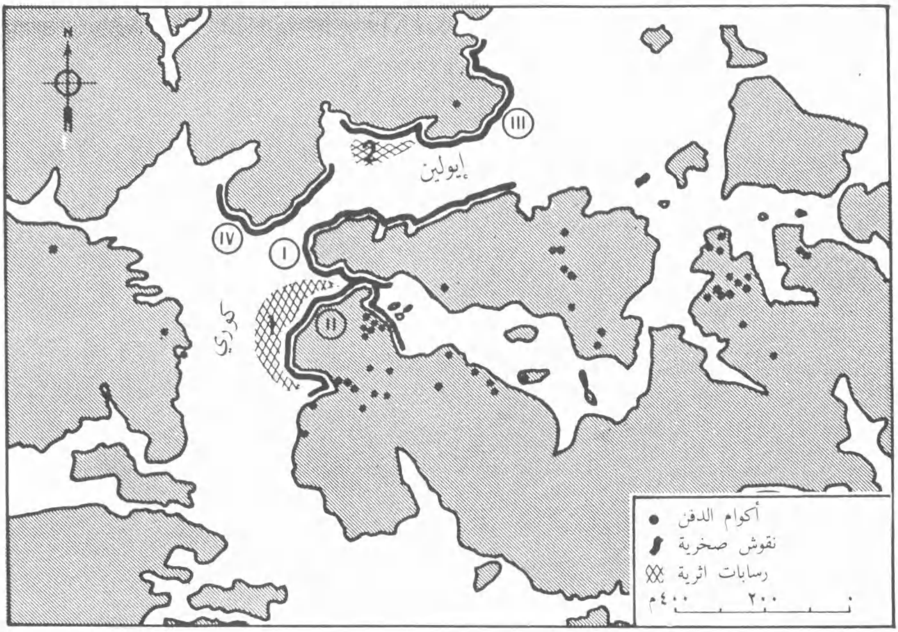
وهكذا ، يكمن قاع الوادي بين تلال منخفضة من الجرانيت الذي تعرّض لعوامل التعرية فتفتّت إلى أكوام من الحجارة المستديرة تتخلّلها كتل كبيرة ضخمة من الأبليت[٢] ، وهو صخر جرانيتي دقيق الحبيبات . ووسط هذا الركام المتناثر من الحجارة ، وهو مشهد غلي في هضبة عير حيث تغطي صفحة الأرض الصخور البللورية المتآكلة ، نجد مجموعة من النقوش[٣] البديعة تنتشر على امتداد بضع مئات من الأمتار ، على كلا جانبي الكوري ، ويتركّز معظمها على الضفة الغربية.

وقد بدأت في ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٩ عملية مسح طبوغرافي منظم للموقع ، بغية اكتشاف تصميمه الداخلي ودراسة اللوحات النقوشة . وقد تبيّنا أنها تشكّل أربع مجموعات متمايزة : اثنتان على أحد جوانب الكوري ، واثنتان على الجانب الآخر ، وأنه يوجد على كلا الجانبين مناطق للسكنى على قدر كاف من الإتّساع ، وتقع على امتداد المصطبة الواطئة التي تعلوها النقوش . وعلى الرغم من أن هاتين المنطقتين السكنيتين كانت تغطيهما الرمال ، فقد كان من السهل تمييزهما نتيجة للتعرّف على الآثار التي توجد عادة على سطح الرسابات الأثرية ، مثل بقايا الحبوب المطحونة وشظايا الفخار والتشكيلات المختلفة للصخور والكتل الحجرية (انظر الرسم التخطيطي للموقع ، الشكل ٢).



الشكل ١ : خريطة لمكان موقع إيولين الأثري في شمال – شرقي هضبة عير.

ومنذ البداية ، كان هذا الاكتشاف اكتشافًا بالغ الأهمية بالنسبة لهضبة عير. إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يعثر فيها على نقوش صخرية – أيًّا كانت الفترة التي تنتمي إليها هذه النقوش – في الموقع نفسه الذي توجد به أية آثار أخرى للاستيطان البشري. فالبحث الدقيق الذي استمرّ سنوات عديدة وشمل دراسة منتظمة للرقعة المحيطة بالنقوش الصخرية بالقرب من الحدود مع تنيري وفي داخل الهضبة ، لم يسفر عن اكتشاف أي أثر للاستيطان البشري ، بحيث تبدو هذه النقوش دائمًا



الشكل ٢ : التزتيب الطوبوغرافي للموقع في منعطف الكوري.

وكأنها منقطعة الصلة بأي سياق أثري. ويبدو الأمر كما لو كان السكان الذين عاشوا في أودية هضبة عير على امتداد القرون، لم يخلّفوا وراءهم سوى هذه النقوش على الصخور، هذه النقوش التي يطالعنا فيها فن ثري ينطوي على لغة خاصة وإن كان يتعذّر ربطه بأي شيء آخر أو العثور على جذور له في أي مكان.

ومن الواضح أن هذا الاختفاء الغريب لأية آثار مصاحبة، والذي يزيده غرابة أن النقوش الموجودة بالمواقع المذكورة تُعدّ بالآلاف، يطرح عددًا من الأسئلة عن نوع الحياة التي كان يعيشها الذين نقشوها، وعن الهدف من هذه الأعمال الموجودة في العراء والتي تمتدّ عادةً، كما هو الحال في إيولين، لمئات من الأمتار على الضفاف الصخرية للكوريات. وأهم الأشياء هنا هو أن هذا الإختفاء يحرم علماء الآثار من أية وسيلة لتأريخ النقوش الصخرية، إذ يتمّ ذلك عادةً بحفر الطبقات الأثرية التي يمكن ربطها بالجدران الحاملة للنقوش، وبالاعتماد على أية آثار متبقّية من المتاع، كما حدث بالنسبة للفن الفرنجي – الكانتابري، وعلى أية عناصر أخرى يمكن تأريخها في الطبقات الصخرية المحلية.

وكانت نتيجة ذلك أن تعذّر تأريخ نقوش عير، التي تمثّل بالقطع مجموعة من أبرز

المجموعات في الصحراء الكبرى ، إلاّ بصورة نسبية . ففي غياب المنطلقات الزمنية المحدّدة التي يمكن لبيانات القياس الإشعاعي أن توفّرها ، فإن تحديد المراحل المتعاقبة على أساس معايير الأسلوب يعتمد إلى حدٍّ ما على المفاهيم النظرية . ولا بدّ سن الإعتراف بأنه ما لم توجد دعائم وطيدة ، فإن البناء يكون مزعزعًا حتى وإن بدا أكثر تماسكًا سن التسلسل الزمني الذي يلجأ إليه بعض المؤلّفين متوهّمين أنه صالح لكافة الأغراض .

ووجود موقع أثري حقيقي في إيولين قد يوفّر الفرصة لإصلاح هذا الوضع ، فقد اكتشفنا أثناء الحفريات الأوّلية عددًا كبيرًا سن المقابر في نفس المكان الذي توجد فيه النقوش ، وهي مبنية فوق المنحدرات وتكون متاخمة في كثير من الأحيان للصخور المنقوشة ويوجد معظمها ، شأنها شأن هذه الصخور ، على الضفة اليسرى .

وقد اتّضح الآن أن موقع إيولين يمثّل كيانًا أثريًا كاملاً يشمل القرية والجبّانة والرسوم الصخرية . ويبقى الآن أن نبرهن على أن هذه العناصر جميعًا تنتمي لنفس الفترة .

القرية القديمة

كان هذا المنعطف من الكوري مكانًا جاء إليه الناس وأقاموا فيه ، ويبدو أن هذا حدث أساسًا على الضفة اليسرى المحمية الواقعة داخل المنحنى . وموقع القرية القديمة محدّد بوضوح عند هذه النقطة ، إذ ينحصر بين منحنى الكوري والصخور التي تحدّه في الجنوب الشرقي ، وتبلغ مساحتها نحو ثلاثة هكتارات . فإذا صعدنا قليلاً في الوادي ، وجدنا على ضفته اليمنى منطقة استيطان ثانية تبدو أكثر اتّساعًا ، وإن كانت الرمال التي تغطي جانبًا منها الآن تجعل من الصعب تقدير حدودها الحقيقية . ويتيح لنا التماسك بين البقايا الأثرية التي عُثر عليها في هذه المواقع ، أن نستنتج أنها متعاصرة .

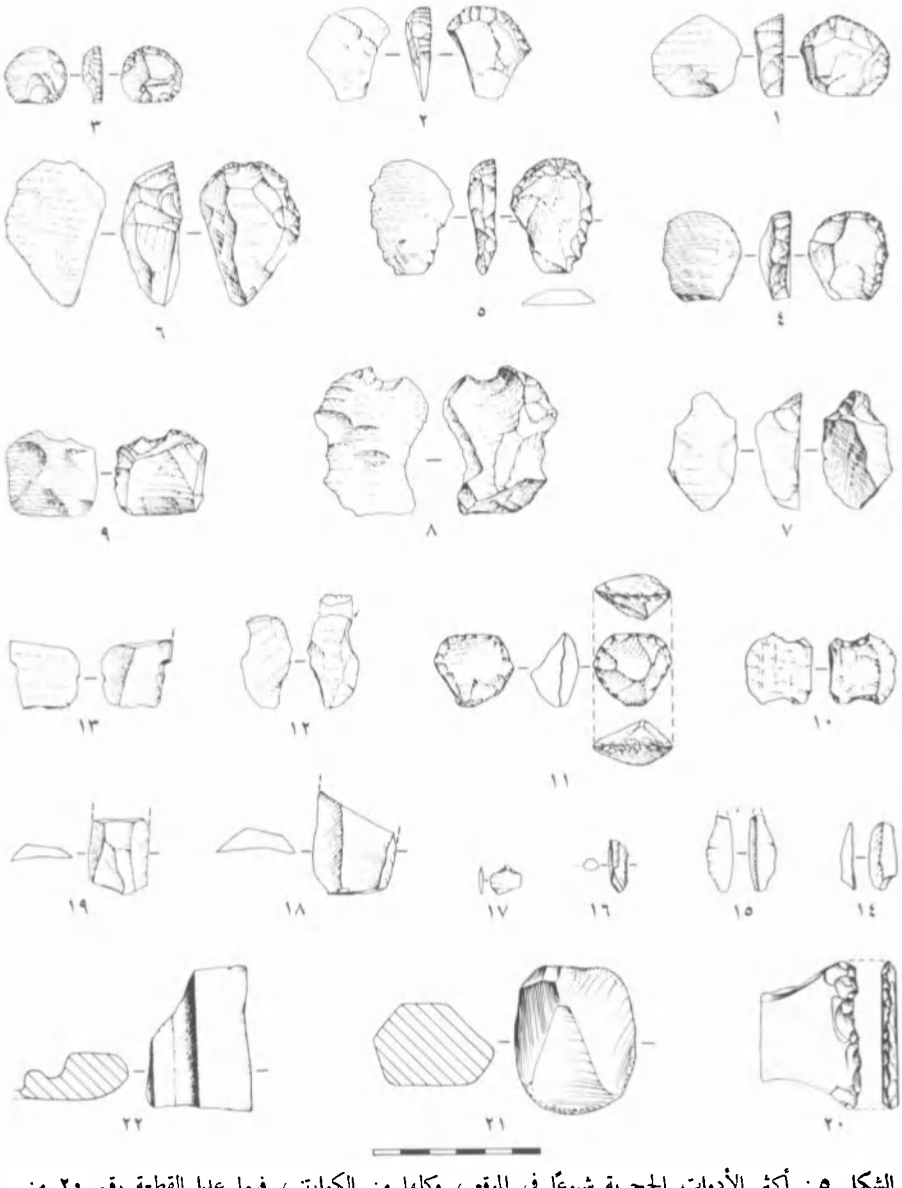
وكما سبق أن أوضحنا فإن وجود هاتين المنطقتين السكنيتين يتبيّن ، أول ما يتبيّن ، من وجود علامات طريق عديدة في أماكن مختلفة بالقرب من مجموعات الكتل الصخرية الصغيرة التي تتجمّع أحيانًا في صورة أكوام (الشكلان ٣ و ٤) . ولا تتّخذ هذه الكتل الصخرية فيما يبدو أي نسق واضح ، ولكن المؤكّد أن معظمها قد أُزيح من مكانه نتيجة لاندفاع المياه في هذه المصطبة الواطئة . ويمكن أن نفترض أن كثيرًا منها كان يحمل أبنية علوية اختفت بعد ذلك . وفي كثير من الأحيان تكون علامات الطريق عريضة وسميكة ، ذات شكل بيضي ومصنوعة من الجرانيت ، مثلها مثل المدقّات التي يُعثر عليها أحيانًا معها . ولمّا كانت كل مواقع الصحراء الكبرى تقريبًا قد استوطنت في وقت أو آخر منذ العصر الحجري الحديث ، فقد وجدت هذه الأدوات سليمة وصالحة للاستخدام أو مكسورة أو بالية نتيجة الاستعمال المستمرّ .



الشكل ٣ : منظر للقرية القديمة إلى جانب التل الذي عُثر فيه على النقوش على الضفة اليسرى للكوري ، الذي يمكن رؤيته في خلفية الصورة.



الشكل ٤ : وجود تشكيلات من هذا القبيل أمر شائع على سطح الموقع : مجموعة من الكتل الحجرية إلى جوار حجر رحى.



الشكل ٥ : أكثر الأدوات الحجرية شيوعًا في الموقع ، وكلها من الكوارتز ، فيما عدا القطعة رقم ٢٠ من اليشب الأخضر ، والقطعة رقم ٢٢ من الحجر الرملي. الأرقام من ١ إلى ٧ أنواع مختلفة من المقاشط المشظاة ؛ ٨ – ١٠ : الرقائق المسنونة ذات الحد الواحد أو الحدين ؛ رقم ١١ : أداة مشظاة ؛ ١٢ و١٣ : مناقيش طولية ؛ ١٤ و١٥ : أدوات مشظاة ، ١٦ : أداة حفر ؛ ١٧ : مثقاب دقيق ؛ ١٨ و١٩ : أجزاء من أدوات مشظاة ؛ ٢٠ : جزء من سكين ؛ ٢١ : رأس مطرقة ؛ ٢٢ : مقياس للأسطوانات المثقوبة.

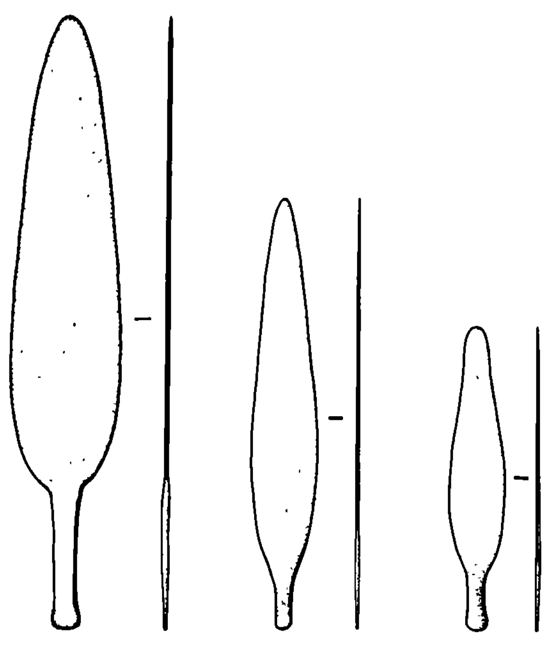
وهذه الأشياء الكبيرة الحجم التي استرعت انتباهنا خلال الفحص الأولي، تصحبها بقايا أثرية أصغر حجمًا، وهي أدوات حجرية وشظايا من الفخار، تمثّل هي الأخرى أركيولوجيا المنطقة تمثيلاً نمطيًا.

والأدوات الحجرية (الشكل ٥) قليلة العدد ومتناثرة على نطاق واسع، وتكاد كلها أن تكون من الكوارتز، وهو خامة صعبة التشكيل بحيث لا يتيسّر دائمًا تمييز الأدوات من الشظايا. إلاّ أن هناك طائفة من الأدوات يمكن التعرّف عليها على وجه اليقين: فهناك عدد كبير من المقاشط ممّا يحملنا على الاعتقاد بأنها كانت المنتج الرئيسي لهذه الصناعة. والواقع أن كثرة ما عُثر عليه منها تبيّن أن هذه الصناعة تخصّصت في المقاشط، وهي من نوع يكاد يكون فريدًا: فهي مقشطة بسيطة مصنوعة من شظية رقيقة غالبًا ما تكون قصيرة وسميكة، وتتّخذ أحيانًا شكل القرص أو الدائرة. كما نجد أيضًا بعض الشظايا الرقيقة التي لها أكثر من سن، وبعض القطع المشظاة وقليلاً جدًا من الشفرات الصغيرة والمناقيش الطويلة، وإن كانت هذه المناقيش واضحة المعالم، وبضع مثاقيب، وربّما بعض أدوات الحفر. إلاّ أنه من الواضح أن الشظايا غير المصقولة والأحجار التي لا تتّخذ شكلاً معيّنًا تزيد كثيرًا عن الأشياء المشكّلة. إلاّ أن سكان إيولين وجدوا تحت تصرّفهم عند صناعتهم لهذه الأدوات كافة أنواع حجر اليشب، وقد استُغلَّت نتوءات حجر اليشب في هذا الجزء من شرقي عير خلال فترات مختلفة في عصور ما قبل التاريخ، وفكرنا يتّجه هنا بوجه خاص إلى الروائع التقنية التي حقّقها الأثيريّون وسكان تنيري في العصر الحجري الحديث، الذين عرفوا كيف يستغلّون إمكانية هذا الحجر، والأمر الغريب أن سكان المنطقة موضع الدراسة لم يستغلّوه إلاّ في نطاق محدود. فلم يُعثر حتى الآن على أدوات مصنوعة من حجر اليشب يؤبَه لها سوى سكاكين مصنوعة من شظايا طبيعية من هذا الحجر، وصقلت من كلا الجانبين في ناحية واحدة بحيث تتحوّل هذه الناحية إلى حد قاطع. ولم يعثر إلاّ على نحو عشرة من هذه السكاكين. كما عُثر على عدد لا بأس به من أحجار المدقات، ومعظمها مصنوع من الكوارتز، وعلى بعض الحلى، منها أجزاء من أساور مختلفة وخواتم مصنوعة من السيبولين. كما أن وجود أدوات قيامس يوضح أنهم كانوا يصنعون أسطوانات مثقوبة من بيض النعام.

وكما نرى فإن قائمة هذه الأدوات الحجرية محدودة للغاية وتبرز ضآلتها بمزيد من الوضوح حين نأخذ في اعتبارنا أنها موزّعة على رقعة فسيحة. وهنا ينبغي أن نقول إن هذه الندرة البالغة ليست على الإطلاق بالأمر غير المألوف بالنسبة لموقع في داخل هضبة عير، وإنّما هي في واقع الأمر الشيء المألوف بالنسبة للصخور السطحية في العصر الحجري الحديث المتأخّر الكامنة في أودية الهضبة. وهو أمر خبرناه من قبل حين جئنا لفحص إيولين ووصلنا باستخدام طريقة القيامس الإشعاعي إلى تأريخ لها يقع في حوالى – ٢٠٠٠[٤]، وتأكّدت هذه النتيجة باطّراد. إلاّ أن تحديد عمر هذه الصخور سرعان

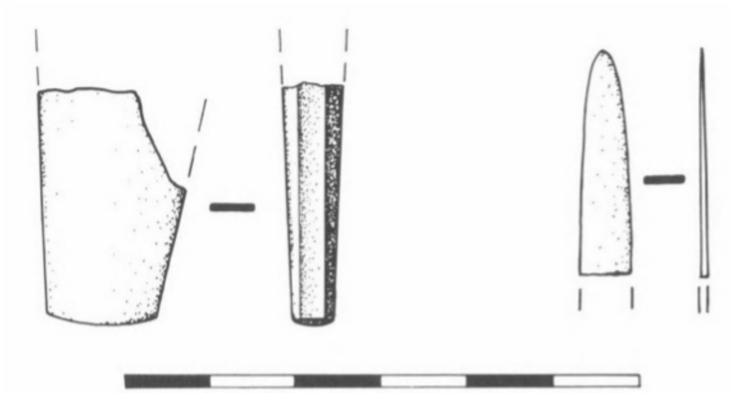
ما تعذّر بعد ذلك نتيجة لاكتشاف أشياء معدنية خلال عملية الحفر المنظّمة لهذه الطبقة عن طريق عدة حفريات، في الفترة فيما بين عام ١٩٧٩ وعام ١٩٨٣.

وقد وُجدت جميع هذه الأشياء المعدنية على عمق عدّة سنتيمترات من السطح. ولا شكّ أن أكثرها أهمية ثلاثة أسنة رماح على هيئة أوراق الشجر مصنوعة من رقائق رفيعة جدًا من النحاس المطروق°، ولكل منها بروز يدخل في مقبض الرمح (انظر الشكل ٦). وتنتهي جوانبها بنصل غير حاد شأنه شأن حوافها التي إما أن تكون مدوّرة أو مشكّلة تشكيلاً ساذجًا؛ ويبلغ أقصى اتّساع لها ثلث طرلها عند المغمد. وتتسم نقطة الإتصال بالمغمد والمغمد نفسه بسمك زائد حتى يستطيع الرمح



الشكل ٦: أسنة الرماح النحاسية الثلاثة التي عُثر عليها بالموقع.

	الأيسر	الأوسط	الأيمن
الطول	٢٤٣ ملليمترًا	١٧٠ ملليمترًا	١٢٠ ملليمترًا
أقصى اتساع للعرض	٤٤ ملليمترًا	٢٦ ملليمترًا	٢٢ ملليمترًا
أقصى سمك للسن	ملليمتر واحد	ملليمتر واحد	ملليمتر واحد
أقصى سمك للمغمد	٢,٥ ملليمتر	١,٥ ملليمتر	١,٥ ملليمتر



الشكل ٧ : الأشياء النحاسية الأخرى التي عُثر عليها بالموقع. يظهر في الجانب الأيسر عقب مكسور لفأس صغيرة؟ ويظهر في الجانب الأيمن الطرف الأقصى لسلاح.

أن يتحمّل أثر الصدمات دون أن ينكسر. وقد صُقلت الجوانب والحافة حتى تصبح حافة النصل حادة. ويبدو هذا من علامات الشحذ التي يمكن رؤيتها بوضوح تحت المجهر. وعلى هذا النحو، فهذه الأسلحة باترة، وهي تُعدّ أول أسلحة معدنية يُعثر عليها في عير.

وعُثر أثناء الحفريات على أثرين نحاسيين آخرين، ولكنهما لسوء الحظ غير كاملين: نصل لشيء يبدو أنه كان سلاحًا أيضًا، وهو أصغر كثيرًا من الآخرين، وشيء يبدو أنه عقب مكسور لفأس صغيرة، وإن كان هذا أيضًا أمرًا غير مقطوع به (الشكل ٧).

وأيًّا كانت طبيعة هذه الأشياء، فإن وجود المعدن في هذا الموقع رغم ندرته، لا شك أنه يساعد على تفسير ندرة الأدوات الحجرية التي ربّما تكون قد استُخدمت لمجرّد استكمال الأدوات المعدنية. بل إننا يمكن أن نستنتج أن الحجر لم يكن يُستخدم إلاّ لعمليات محدّدة. وقد يفسر هذا استخدام الكوارتز دائمًا في صناعة المقاشط، فالكوارتز يساعد على سرعة تشكيل أدوات تتسم بالكفاءة.

وهناك من ناحية أخرى فئة أخرى من الأشياء يقدّمها موقع إيولين بغزارة أكبر كثيرًا، وهي شظايا الفخار. وفضلاً عن ذلك فقد كان عددها الجم في هذا الموقع هو الذي أعطى لهذا الكوري اسمه. فكلمة ايولين هي جمع لكلمة إيويل، ومعناها هي شظية الإناء المكسور أو كسرة من الفخار بلغة التاماشيك، حسبما يذكر المعجم الفرنسي – الطوارقي للأب ج. م. كورتاد (ص ١٤٠). وقد أخبرنا أحد الطوارق المرافقين لنا بهذا المعنى للكلمة. والواقع أن مسحنا للكوري – الذي امتدّ في

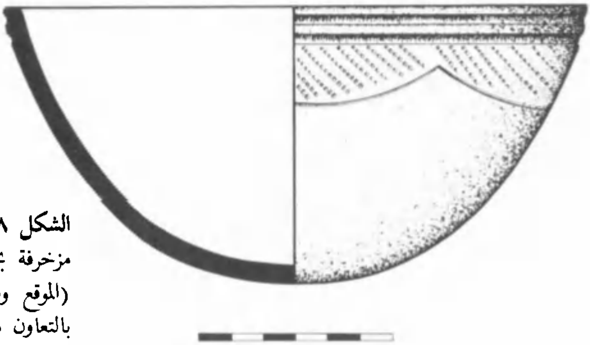
اسفل الوادي إلى نقطة التقائه بكوري تاسوس ، وفي أعلى الوادي إلى سفح أدرار تسيجويديل ، أي أنه شمل نحو أربعين كيلومترًا– لم يسفر عن اكتشاف أي موقع أثري آخر.

والفخار الذي استمدّ منه المكان اسمه يتسم بأسلوب يوحي بأن القرية الأصلية لا تنتمي للعصر الحجري الحديث. فهو منبت الصلة تمامًا بتقاليد العصر الحجري الحديث في صناعة الفخار. وكان من حسن حظنا أن عثرنا على آنية تكاد تكون سليمة تمامًا ، وأن استطعنا أن نجمع أواني أخرى من شظايا وُجدت مجتمعة في مكان واحد. وكان انطباعنا الأول أن هذه المجموعة الصغيرة ربّما صُنعت بعد العصر الحجري الحديث في المنطقة ، وهو ما أكّده بعد ذلك اكتشافنا لأشياء معدنية ؛ وأخذ هذا الانطباع يتأكّد بالتدريج مع معرفتنا بأحجام وأشكال وزخرفة مختلف الأواني.

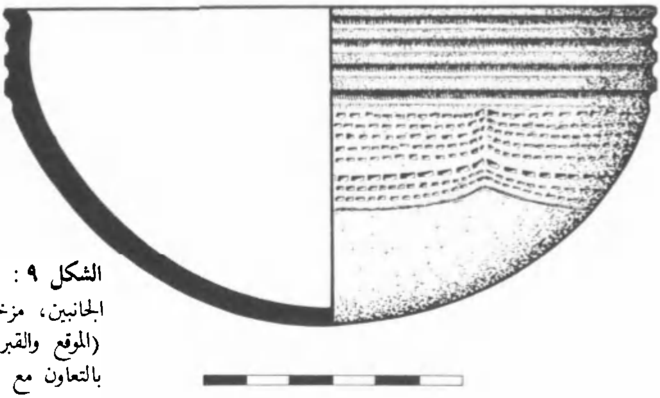
وقطع الفخار في إيولين صغيرة بوجه عام ، بل صغيرة جدًا بالمقارنة بالأواني الضخمة المصنوعة من الصلصال المحروق ، التي تركتها أقوام العصر الحجري الحديث التي عاشت في مكان لا يبعد كثيرًا عن إيولين ، وهو المنطقة المتاخمة لتنيري ، على امتداد كل الحافة الغربية لهضبة عير ، وخاصة في شمال ادرار شيرييت. ومعظمها آنية واسعة الفوهة ، ويماثل قطر حافتها أقصى اتّساع لها أو يزيد عنه. وأكثرها شيوعًا هي زبديات ذات شكل قبعي بسيط وحواف مستقيمة أو مثنية قليلاً إلى الداخل (الشكلان ٨ و ٩). وحين تتجه حافة مستقيمة إلى الداخل قليلاً تتّخذ الأواني صورة جؤجئية واضحة (الشكل ١٠) فنلحظ أبعادها المتناسقة ، إذ يعادل العمق في العادة نصف قطر الحافة. ويوجد الشكل الجؤجئي في أوان ذات فوهة أوسع بكثير حين تجمع مثلاً بين جوانب مقعرة وقاعدة قبعية (الشكل ١١). ويشيع في المجموعة أيضًا نمط آخر من أوان أعمق متسعة الفوهة ، ذات حافة تتسع تدريجيًا نحو الخارج ، ممّا يعطي الآنية شبهًا واضحًا بالناقوس (الشكل ١٢).

أما الأواني ذات الفوهات الضيقة (حين يقل قطر الفوهة عن أقصى اتّساع للآنية) فقد كان عددها أقل ، وكل ما عُثر عليه منها حتى الآن ذو خط منحن متّصل. وأكثرها شيوعًا هي الآنية البسيطة التي تتّخذ شكل القطع الناقص المفلطح (الشكل ١٣) ، وأقل من ذلك شيوعًا الأواني ذات الرقبة ، والتي تركب فيها الرقبة على جسم يتخذ شكل القطع الناقص ، فتصبح هيئتها كالدورق ذي الرقبة المتسعة نحو الخارج والتي تضيق عند اتصال الرقبة بالجسم (شكل ١٤). ونادرًا ما تكون حواف هذه الأواني سميكة ، وذلك باستثناء بضعة أوان كبيرة ذات حواف مزخرفة بعناية ، أما الشفة فستديرة في بعض الأحيان ومسطحة في أحيان أخرى.

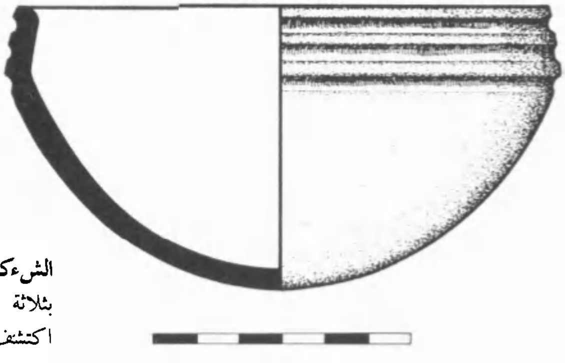
وليس لنا بطبيعة الحال أن نتناول في هذا المقال التمهيدي كل أنماط الأواني التي عثرنا عليها ، فسوف يشكّل ذلك جزءًا من العمل الذي ننشر فيه النتائج النهائية التي أسفرت عنها الحفريات. وحسبنا هنا أن نسترعي الاهتمام إلى أسلوب في الزخرفة ظهر في إيولين ، ولم يسبق ظهوره



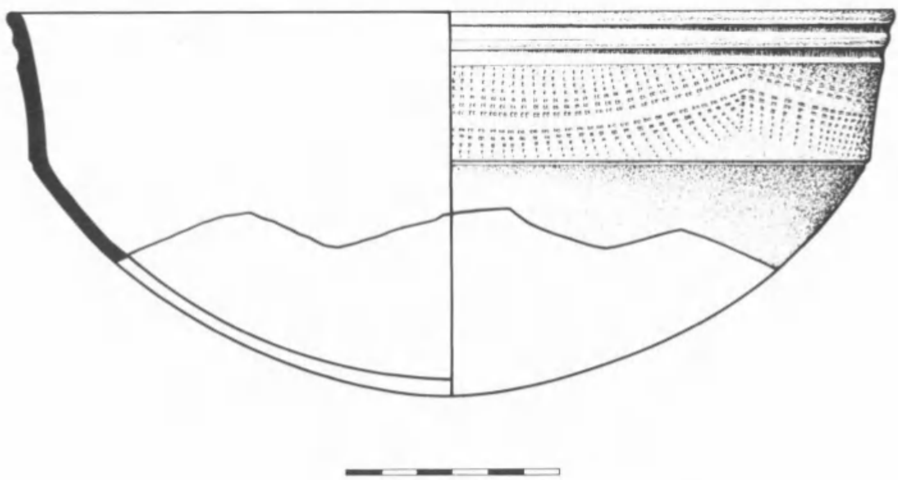
الشكل ٨ : آنية بسيطة قبعية الشكل، مزخرفة بحزوز مزدوجة وفستون (الموقع والقبر رقم ٥، الذي اكتُشف بالتعاون مع ف. باريس).



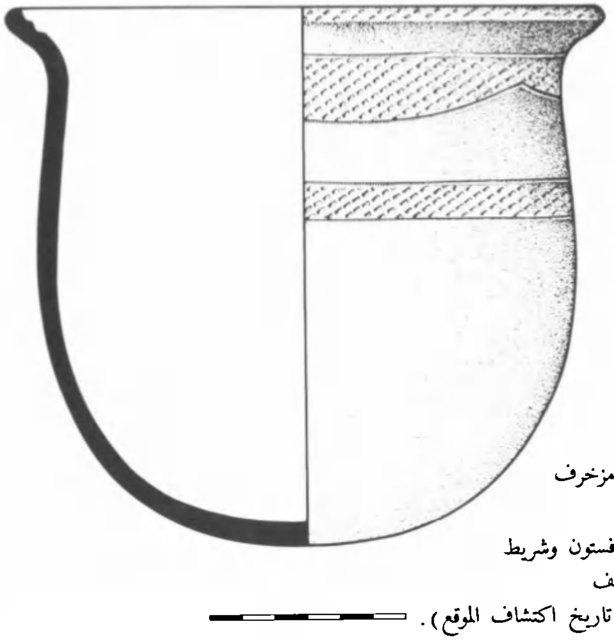
الشكل ٩ : وعاء ذو حافة مستوية من الجانبين، مزخرف بأربعة حزوزٍ وفستون. (الموقع والقبر رقم ٣ الذي اكتُشف بالتعاون مع ف. باريس).



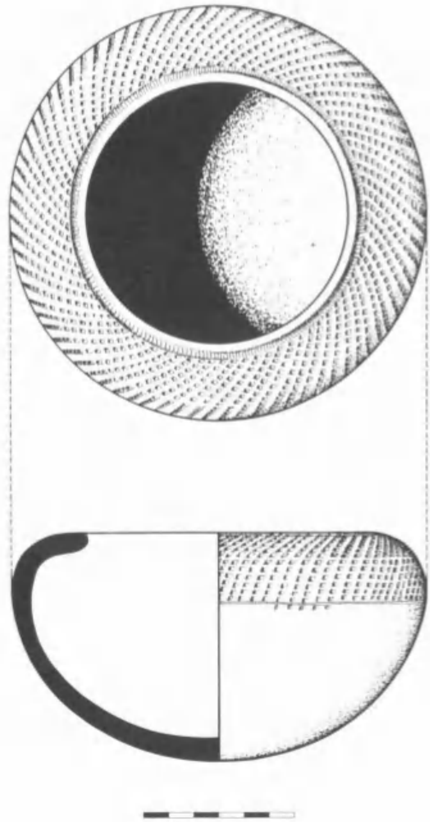
الشءكل ١٠ : آنية جؤجؤية مزخرفة بثلاثة حزوز (الموقع والقبر رقم ٣ الذي اكتشف بالتعاون مع ف. باريس).



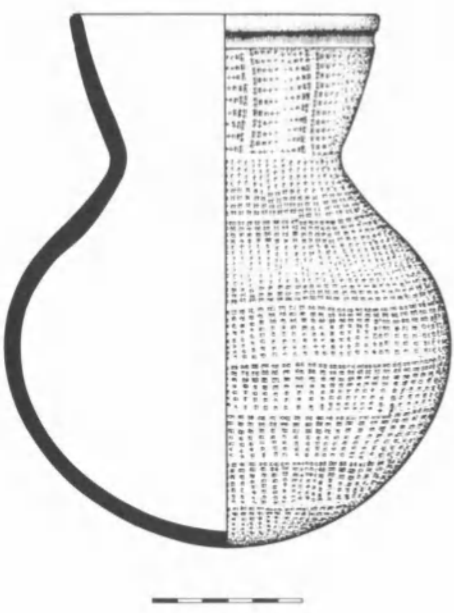
الشكل ١١ : طبق جؤجؤي كبير، مزخرف بحز مزدوج وفستون (الموقع والقبر رقم ٢٩ الذي اكتشف بالتعاون مع ف. باريس).



الشكل ١٢ : إناء جرسي الشكل مزخرف
من الداخل بحزوز مزدوجة،
ومن الخارج بزخارف على شكلٍ فستون وشريط
(الموقع والقبر رقم ٢١ الذي اكتشف
في ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٩، تاريخ اكتشاف الموقع).



الشكل ١٣ : إناء ضيق الفوهة ،
شديد الشبه بالسلطانية ،
ذو زخارف مائلة لامعة ،
وقد عُثر على الإناء الوحيد
من هذا النوع في القبر رقم ٣
الذي اكتُشف بالتعاون مع ف. باريس.



الشكل ١٤ : ابريق ذو عنق متسع نحو الخارج ،
مزخرف كله بحزوز مفردة
(الموقع والقبر رقم ٥٢ الذي اكتُشف
بالتعاون مع ف. باريس).

من قبل في منطقة عير كلها ، وهو يُعدّ بأصالته ووفرته ، سمة مميزة لكل الفخار الذي أنتجته إيولين وكأنه ، إن جاز القول ، علامة تجارية لها.

وهذا النوع الجديد من الزخرفة جزئي ، إذ يقتصر على الجزء العلوي للأواني ، بقرب الفتحة ، ويتضمّن تنويعات عديدة من التحزيزات والفستونات والأطواق المنقوشة.

وتوجد التحزيزات في أغلب الأحيان على الأواني المفتوحة ، وهي عادة خارجية وتُلصق على الحافة تحت الشفة مباشرة ، ويصل عددها إلى أربعة على كل إناء وتفصل بينها تقليمات ذات أطوال متساوية. وهذا غاية ما تبلغه بعض الأواني من زخرفة (الأشكال من ٨ إلى ١١). أما الأواني الجرسية الشكل فتتسم بتحزيز مزدوج ، يكون دائمًا على السطح الداخلي للحافة المتسعة نحو الخارج (شكل ١٢) ، وهذا هو النموذج الذي صادفناه للتحزيز الداخلي.

وكثيرًا ما يوجد تحت التحزيز السفلي للأواني والأطباق العميقة فستون زخرفي يحيط بالإناء كله. وفي كثير من الأحيان يكون الفستون على هيئة خطوط رفيعة متّصلة في الصلصال ، تملأ الفجوات بينها بطرق عديدة. ويستخدم دائمًا مشط لعمل النقوش بين الفجوات ، وتميل هذه النقوش نحو اليمين أو نحو اليسار ، ويتّخذ الميل اتّجاهًا متماثلاً على كل قطعة (الشكلان ٨ و١٢) ؛ أما الزخارف المنقطة فتتبع نفس منحنى الفستون في عدة خطوط متوازية (شكل ٩).

وهناك صورة أخرى بالغة الفعالية لنفس هذه الوحدة الزخرفية ، يستخدم فيها المشط أيضًا ، ولكن دون تنقيط هذه المرة ، ويتم الحصول على هذه الوحدة الزخرفية ، بتركيز المشط بخفة خلال استخدامه لإحداث العلامات ، بحيث يحدث أشكالاً على هيئة حرف V تتجمّع قواعدها معًا عند فستونين وعلى كلا الجانبين شريط ضيق بسيط يصبح هو مركز التأثير المنشود. وتتوقّف هذه الزخارف عند خط أفقي ، عند بداية منحنى الآنية (الشكل ١١). ولا يملك الإنسان إلاّ أن يُقرَّ بأن رشاقة هذا الزخرف تتناسق تناسقًا كاملاً مع أناقة هذه الأشكال التي لا تتخذ شكلاً جؤجئيًا مفرطًا.

وهذا الاهتمام بأسلوب في الزخرفة يمكن أن نصفه بالخفة والرشاقة وهو يشهد ، في نظرنا ، على الإحساس الجمالي لخزافي إيولين. فبساطة الزخرفة على الأواني ذات الشكل الناقوسي ، والتي يمكن أن نشاهدها على كل ما عثرنا عليه من أوان ، تؤكّد هذا الرأي : فهناك تحزيزات مزدوجة في داخل الإناء ، على حين ترتّب الزخرفة الخارجية في ثلاث مناطق أفقية ، يُنفَّذ كل منها بوخزات مباشرة يُستخدم فيها المشط بميل إلى اليمين ، وهذه المناطق الثلاث هي الشفة أولاً ثم الوحدة الكلاسيكية لزخرفة الفستون عند المستوى الذي تبدأ فيه الفوهة في الإتّساع ، وأخيرًا شريط ضيق يقع تحت هذا المستوى مباشرة (الشكل ١٢). وحين تغطي الزخرفة الإناء بأكمله ، نشهد رغبة في كسر الرتابة التي تنشأ بالضرورة من تكرار نفس الوحدة الزخرفية ، وذلك باللجوء إلى طرق عدّة يُذكر منها على سبيل المثال أن الزخارف التي تُنقش على شكل حرف V على ابريق بتركيز المشط تركيزًا خفيفًا

على محور بحيث ترتب في صفوف أفقية تتقابل فيها رؤوس الزخارف أو قواعدها، ويفصل بينها شريط بسيط غير مزخرف. على حين ترتب أعمدة الزخارف على العنق ترتيبًا عموديًا (الشكل ١٤). فما أبعد هذه الروح الإبتكارية عن مفاهيم العصر الحجري الحديث!

وهذه الأفكار التي يتسم بها تجديد زخرفة الخزف في المنطقة تجد أجمل تعبير عنها في آنية صغيرة هي آخر ما سوف نتعرّض له في هذا المسح السريع، والتي تعد في نظرنا مثالاً فذًّا في التكامل بين الشكل والزخرفة. وهذه الآنية تتخذ هيئة القطع الناقص المفلطح (الشكل ١٣)، وحافتها المنحنية للداخل مزخرفة بزخارف مائلة بالمشط تصدر عن الفوهة. وحين ينظر إليها من أعلى تعطي انطباعًا بحركة دائرية، وهو تأثير حركي باهر يعد، في حدود معرفتنا، فريدًا تمامًا بين الزخارف الخزفية في جنوبي الصحراء الكبرى. ويحف بالزخرفة خط أفقي عند أقصى اتساع للآنية تحت شفة الآنية مباشرة.

ويبدو أن كل هذه الأواني من لفات صلصال صُبَّت في قوالب، باستخدام دولاب دوّار. والفتحات والتحزيزات تشهد على ذلك. ويجري الآن تحليل لتركيب أنواع الصلصال المستخدمة.

وقد تمّ تأريخ جميع القطع التي وصفناها آنفًا، والتي عُثر عليها في الطبقة السطحية أو تحت السطحية للضفة اليسرى، باستخدام طريقة الكربون المشع، وتمّ التأريخ باستخدام قطع من الفحم النباتي من المواقد التي أكتُشفت خلال المسوح المختلفة لمعمل الهيدرولوجيا وجيو - كيمياء النظائر التابع لجامعة Paris-Sud. وكانت النتائج التي أسفرت عنها عملية التأريخ في مناسبتين مختلفتين هي - ٢١٦٠ ± ٥٠ عامًا و- ٢٦٨٠ ± ٤٠ عامًا. ولم يتم التوصّل حتى الآن إلى تفسير مرضٍ للفجوة بين التأريخين والتي تقرب من خمسمائة عام. ويجري في الوقت الحاضر بذل محاولة ثالثة للتأريخ.

الجبّانة

أسفر استكشاف أولى عمائر الدفن، وهو الاستكشاف الذي قمنا به كعملية تمهيدية عند اكتشاف الموقع في ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٩، عن تأكيد فكرة تعاصر الجبّانة والموقع الأثري. فقد كان من حسن حظنا أن اكتشفنا في هذا القبر آنية ناقوسية الشكل تطابق تمامًا الأواني التي عثرنا عليها سليمة - بقدر أو آخر - في موقع القرية القديمة. وهكذا تبيّن أن العلاقة التي كوّناها بين البقايا الأثرية تقوم على أساس وطيد، وتأكّدت العلاقة بين الرسابات القديمة والجبّانة بصورة لا تقبل الجدل.

وكما ذكرنا من قبل فإن عمائر الدفن توجد على مقربة من النقوش الصخرية، أو هذا على الأقل بالنسبة للمقابر التي عثرنا عليها خلال زيارتنا الأولى لايولين. ومعظمها عبارة عن أكوام كبيرة

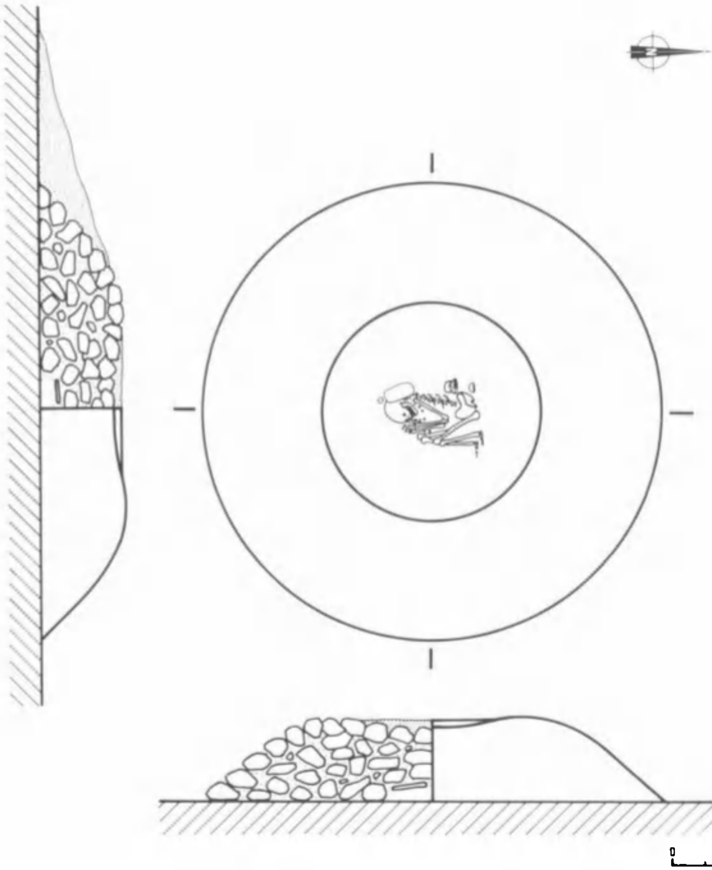
ذات فوهة كبيرة ، تُقام على الأجزاء المنبسطة من سفح التل أو في قيعان الأودية الصغيرة التي تمر بين التلال الجرانيتية وهي توجد منفردة أو في مجموعات تصل إلى ثلاث أو أربع ، إلاّ أنها لا تتجاوز هذا العدد قط.

وقد اخترنا القبر الذي قمنا باستكشافه والذي سنشير إليه بالقبر رقم ١ ، نظرًا لتواضع حجمه وسهولة الوصول إليه ، إذ يقع على سفح التل (الشكل ١٥). وهو عبارة عن كوم كلاسيكي النمط يتّخذ شكل المخروط متسع القاعدة ، ودائري تقريبًا في تصميمه. ويبلغ طول قطريه الشمالي - الجنوبي والشرقي - الغربي ٤,٩٠ متر ، وارتفاعه ٠,٩٠ متر. وجانبه الغربي المعرّض للريح مردوم بالرمال شأنه شأن الفجوة في منتصفه ، وهي أيضًا دائرية قطرها ٢,٣٠ متر تقريبًا ، وله قاع منبسط وضحل ، إذ لا يزيد عمقه على ١٥ سنتيمترًا (انظر الرسم التخطيطي للقبر - الشكل ١٦).

ولدى تفكيك مكوّناته ، اتضح أنه يتكوّن كله من أحجار غير منتظمة الشكل ، ذات أبعاد مختلفة ، جمعت فوق التل وكومت دون أي نظام ظاهر. وشأن كل أكوام الدفن الواقعة على خط العرض هذا في الصحراء الكبرى ، كانت الصخور مغطاة بطبقة ترابية نعتقد أنها ملاط حقيقي.



الشكل ١٥ : القبر رقم ١ ، الذي اكتُشف في ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٩ ، ويظهر في الصورة الشاهد الحجري النمطي ذو المخروط والفوهة المسطحين والذي أُقيم عند سفح التل مع المنحوتات.



الشكل ١٦ : رسم تخطيطي مع توضيح لاتجاهات الإرتفاعات القطاعية للقبر رقم ١.



الشكل ١٧ : تمثيل استعادي للوضع المحتمل للدفن، وتظهر الحلى والأثاث الجنائزي في نفس الموضع الذي اكتُشفت فيه وقد رُسم الإناء الناقوسي الشكل بهيئته الأصلية.

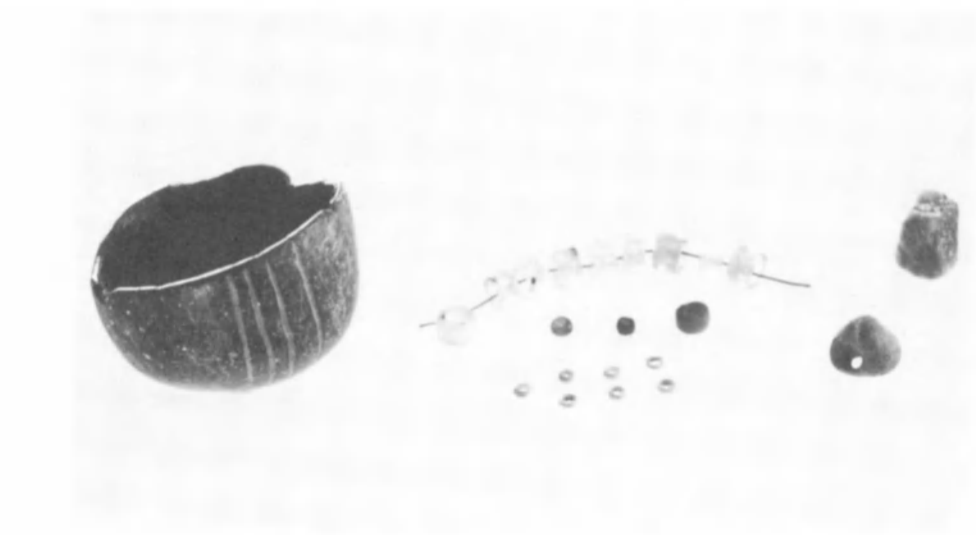
وليس هناك قبر مبني ، فبمجرّد رفع الحجر الأخير يمكن رؤية الجثة على الفور راقدة على الأرض ، عند نفس المستوى الذي يبدأ عنده رص الأحجار.

وكان الهيكل العظمي في حالة بالغة السوء. وهذا يرجع إلى أن الكوم الحجري يقع في قاع منحدر حيث تتجمّع كل المياه المنصرفة من المنحدر ، ومن هنا حدث التلف الذي لاحظناه. وفي الحدود التي نستطيع أن نحكم فيها نقول إن الجثة قد دُفنت في وضع القرفصاء (الشكل ١٧) راقدة على جانبها الأيمن مع وضع اليدين بين الرأس والركبتين وكانت الساقان مثنيتين واحدة فوق الأخرى. أما الرأس فتتجه نحو الجنوب. وتشير بقايا الفقرات وعظام الحوض إلى اتجاه شمالي – جنوبي للعمود الفقري.

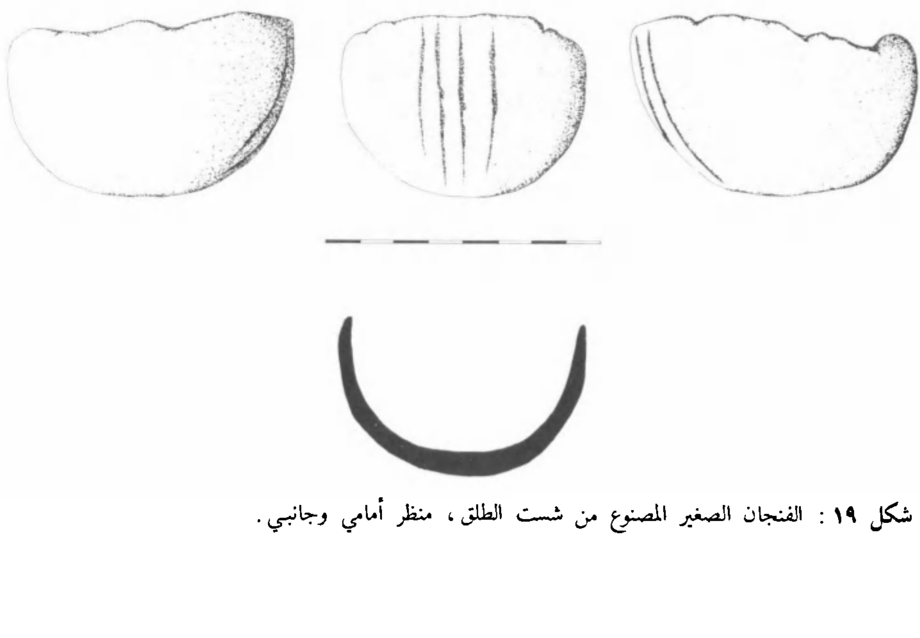
ومن الواضح أن هذه البقايا الضئيلة التي تعذّر تصويرها في الموقع ، ليست لها قيمة أنثروبولوجية. فأهمية موقع الدفن يمكن تفسيرها بالأحرى سن منظور إثنولوجي : فالحلى والأشياء التي عُثر عليها بجوار الهيكل العظمي تمدّنا بمعلومات هامة عن طقوس الدفن التي كانت تُمارَس في إيولين في القرون القليلة الأخيرة قبل الميلاد.

وتتكوّن الحلى (الشكل ١٨) من خرز وأقراص مثقوبة في مجموعتين متجاورتين، توجد إحداهما في المنطقة التي كان يشغلها بالضرورة الفك السفلي والفقرات العنقية ويحتمل أنها عناصر كان يتكوّن منها عقد (خرزة كبيرة من الخزف وخرزتان صغيرتان من العقيق الأحمر وسبع حبات أسطوانية مثقوبة مصنوعة من صدفة حيوان رخوي صغير). أما المجموعة الثانية فكانت في مواجهة اليدين وتتكوّن من سبع خرزات كبيرة أسطوانية مصنوعة من السيليكا الشفّافة وغير المتجانسة وخرزة من العقيق الأحمر ، لا بدّ أن تكون أسورة. وكل الخرز مثقوب من الناحيتين. وتحدونا بساطة هذه العناصر إلى الاعتقاد بأن الميت قد دُفن بالحلى التي كان يستخدمها في حياته اليومية.

وللأشياء التي وُجدت حول الجثة أهميتها أيضًا. بل لعلّنا نستطيع أن نقول إنه نادرًا ما اكتُشف مثيل لها في قبر من قبور الصحراء الكبرى. فهناك أولاً آنية ناقوسية الشكل (الشكلان ١٢ و١٧) التي عُثر عليها مكسورة ، وكانت أجزاؤها بكوّمة في نفس مستوى الحوض ، خلف العمود الفقري ، وهو ما يعني أن الآنية قد وُضعت عند الدفن خلف الجثمان. ولمّا كان من الممكن إعادة تجميع الآنية بصورة شبه كاملة ، إذ لم تتعرّض للتدمير سوى كسرات ضئيلة بفعل التآكل ، نستطيع أن نفترض أنها كانت سليمة حين وُضعت في القبر. وكان يلامس الهيكل العظمي أيضًا ، وبالقرب من الآنية ، فنجان بيضي صغير من شست الطلق ، مصقول بعناية ومزخرف بأربعة حزوز أفقية متوازية (الأشكال ١٧ و١٨ و١٩). وثمة مجموعة أخرى من الأشياء ، ترتبط بالجزء العلوي من الهيكل العظمي وهي حجر رحى طويل وضيق (٣٨ سم × ٢٣ سم ، ومتوسط السمك ثلاثة سنتيمترات) وموضوع مقلوبًا فوق ما كان يومًا رأس المتوفي وكتفه الأيسر (الشكلان ١٧ و ٢٠) ؛ وشظايا عظام الجمجمة وعظام الكتف



شكل ١٨ : حلي الميت ومتاعه ، وتظهر كتلة الأمازونيت الصغيرة إلى اليمين. ويظهر إلى اليسار الفنجان الصغير المصنوع من شست الطلق.



شكل ١٩ : الفنجان الصغير المصنوع من شست الطلق ، منظر أمامي وجانبي.

التي اكتُشفت تحت حجر الرحى لا تدع مجالاً للشك في ذلك. وتوجد يد هاون متاخمة للمكان الذي كانت تشغله الجمجمة بالقطع (الشكلان ١٧ و٢١).

كما وُجد، إلى جانب الهيكل العظمي، شيئان آخران نتردّد في تصنيفهما كحلى أو كمتاع، وهما قطعة صغيرة من الأمازونيت مصقولة صقلاً ساذجًا، وُجدت بالقرب من العمود الفقري أو الضلوع (الشكل ١٨). وقطعة غريبة من حجر الصوان المصقول يمكن تشبيهها برمانة عصا (الشكل ٢٢). أما الوظيفة التي كانت تؤدّيها فهي سر غامض، وقد عُثر عليها عند مستوى الركبتين.

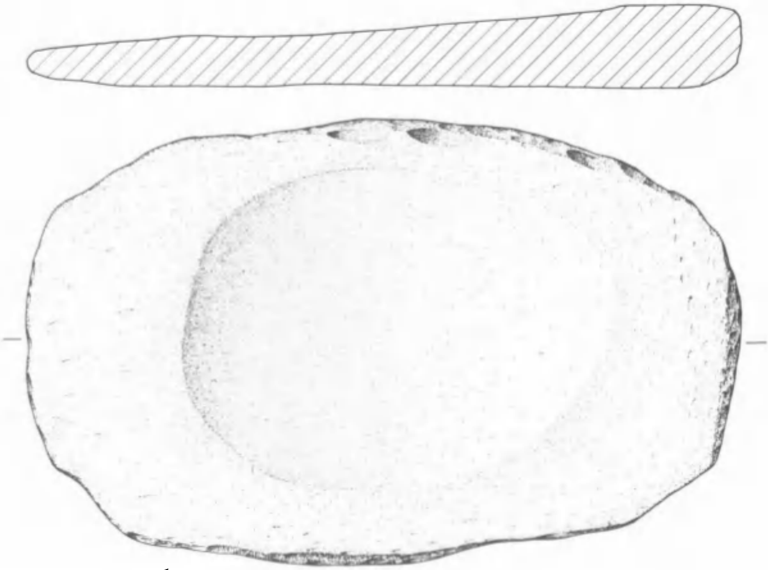
والملاحظات التي استقيناها عند تفكيك كومة الأحجار تسمح لنا في النهاية بتكوين فكرة دقيقة إلى حد ما عن عملية الدفن. فمن المرجح أن الجثمان الذي لا نعرف ما إذا كان ملفوفًا بكفن – قد أُسجي على جانبه الأيمن في اتجاه شمالي – جنوبي مع اتجاه الرأس نحو الجنوب. وقد وُضعت مع الميت أدوات الزينة وكانت الأشياء التي سبق أن أشرنا إليها موضوعة فوق جثمان الميت أو بجواره. ويبدو أنها كُوِّمت فوق الجثمان وأُضيف إليها ملاط يتكوّن أساسًا من الرمل والطين كي تتماسك. وتتخذ الكومة شكل مخروط منخفض مقطوع مع تجويف في القمة يتخذ شكل فوهة ضحلة شديدة الإتساع. وينبغي أن يكون مفهومًا أن لفظة فوهة هذه مناسبة تمامًا لوصفها، وهي جزء من معمار الأثر وليست نتيجة لسقوط في وسط الهيكل.

وقد دفعتنا أهمية هذا الاستكشاف الأول إلى وضع برنامج كامل لدراسة الجبّانة بالتعاون مع معهد بحوث العلوم الإنسانية في نيامي. وأفضى هذا البرنامج إلى إيفاد عدة بعثات فيما بين عام ١٩٨٠ وعام ١٩٨٣. وتمّ حتى الآن استكشاف أكثر من خمسين تلاً من تلال الدفن بالتعاون مع زميلنا ف. باريس، وهو باحث أنثروبولوجي من مكتب البحوث العلمية والتقنية لما وراء البحار. وأكّدت المواد التي عُثر عليها تعاصر القرية القديمة وجبّانتها، وهي تمثّل مصدرًا هامًا لمعلومات جديدة عن ممارسات الدفن والثقافة المادية للأقوام التي عاشت في شمالي عير في حوالى القرن الخامس قبل الميلاد. ويجري الآن إعداد كافة نتائج هذه الحفريات للنشر.

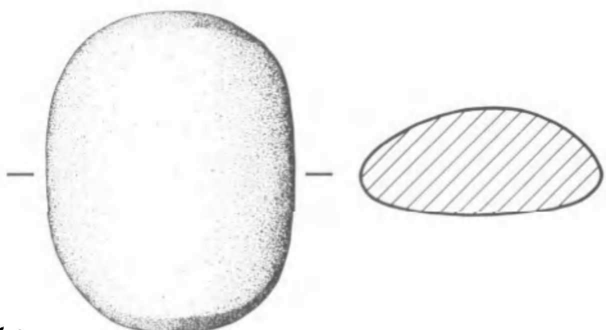
منطقة النقوش الصخرية

كان من الأهداف التي يتوخّاها بحثنا، كما ذكرنا آنفًا، أن نبرهن على وجود علاقة بين الموقع الأثري ومنطقة النقوش الصخرية. وقد أتاحت لنا مختلف البحوث التي سبق وصفها، أن ندخل إلى العالم الباهر لهذه الأعمال التي يوجد منها مئات في إيولين، وكانت جهودنا في هذا المضمار أيضًا ناجحة فيما نعتقد.

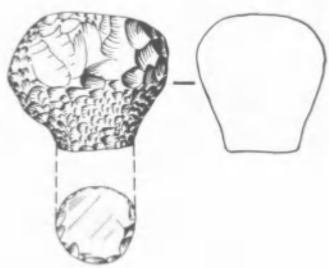
إن الانطباع الرئيسي الذي يخرج به الإنسان عن هذه النقوش حين يصعد فوق الصخور



الشكل ٢٠ : حجر الرحى
الذي كان موضوعًا فوق الجمجمة.



الشكل ٢١ : يد الهاون الصغيرة
التي عُثر عليها وراء الجمجمة.



الشكل ٢٢ : شيء غير محدّد الهوية ،
من حجر الصوان ، يشبه رمانة عصا.

لأول مرة لاكتشافها ، ربّما كان انطباعًا بما يتسم به الأسلوب من وحدة. فالتجانس في هذه الأعمال التصويرية يظهر على مستويين : المستوى الأول مستوى الموقع بكامله عند مسح هذه المناطق على كلا جانبي «الكوري» الذي يحتوي على كنز من النقوش ، وهي مناطق تفصل بينها مسافات أتاحت تقسيم الموقع إلى أربعة مواقع ثانوية ، إلاّ أنها تنمّ جميعًا عن نفس الإلهام ، والمستوى الثاني هو مستوى المجموعات المحدّدة حيث العناصر الخارجية نادرة جدًا ويمكن التعرّف عليها بسهولة.

ولم تسفر الدراسات المفصّلة للمسوح الشاملة للموقع عن تغيير هذا الانطباع الأول، بل إنها في الواقع أكّدته على أساس تحليل الأعمال نفسها والإنتقال من أشكال منفردة إلى مجموعات من الأشكال (مع تأمّل الأساليب المستخدمة وطريقة استخدام الصخر للنقش عليه ، ودراسة الأشكال والتكوينات والتراكيب) ، وفحص أوجه الارتباط ذات الدلالة والتي تؤدّي إلى تحديد الموضوعات. وهذه الطريقة المستلهمة مباشرة من الدروس التي كان يلقيها البروفسور أ. لوروا جوران في كوليج دي فرانس منذ عام ١٩٦٩ (لوروا – جوران ١٩٦٩ – ١٩٨٢) ، قد أمفرت عن نتائج سوف تعرف عند نشر جميع النتائج المتعلّقة بموقع إيولين (وهي قيد الإعداد الآن). وسوف نقتصر هنا على تلك الجوانب من البحث التي تتيح لنا أن نضع ايولين في السياق الزمني الذي اقترحناه للنقوش الصخرية في عير ، وأن نوضح السمات الرئيسية للمحتويات الفنية للموقع.

إن الإنسان يقع في مركز هذه الصور التي تنتظم حوله. والشكل تقليدي ، وهو شكل نمطي يتّسم بقوة بالغة ، إذ أن الأغلبية العظمى للصور التي عثرنا عليها للبشر تعطينا نفس المظهر ، فالشخص واقف دائمًا والصورة أمامية تمامًا (الشكل ٢٣) والرأس مضخمة تشبه زهرة الزنبق مع ثلاث نقاط ، لاثنين منها امتداد مثل هوائي رفيع يميل إلى أحد الجانبين. أما الذراعان فهما بعيدتان عن الجسم ومثنيتان ، على حين تتّخذ الساقان وضعًا مستقيمًا. وليس للأطراف أية كثافة ، فالأيدي تمثّلها بضعة أصابع ممدودة ، والأقدام تبدو من وضع جانبي وقد اتّجهت إلى الخارج. والشخص يرتدي جلبابًا قصيرًا يضيق عند الخصر ، ممّا يبرز أمامنا صورة لخطوط خارجية لا تعدو في كثير من الأحيان أن تكون شكلاً مكوّنًا من مثلثين. ويؤكّد محور أفقي للتساوق التطابق الكامل في شكل الجسم الذي يبدو في حالة مكون كامل. وهذا التصوير الهندسي ، المرسوم ببساطة فائقة ، ينفّذ عن طريق ثقب الصخر بدرجات متفاوتة من الكثافة والنمطية. ومن الغريب أننا نجد في الرؤوس ، التي تظهر أشكالها التجريدية كل الأسرار التي تنطوي عليها المواضعة الفنية ، أكبر قدر ممكن من التفنّن يلجأ إلى أساليب عديدة للحفر العادي والمعالجة الجزئية أو عدم المعالجة على الإطلاق ، ورسم المربّعات والتنقيط. ويبدو الأمر وكأن إلهام الفنان قد وجد قدرًا من الحرية (الشكل ٢٤).

ومعظم الأشخاص الذين يظهرون في النقوش محاربون يحملون درعًا مستديرًا أو مستطيلاً وهم دائمًا مسلّحون بحربة واحدة (الشكل ٢٣). ويبدو أن صورة الرمح الموجودة في كل مكان ، والتي

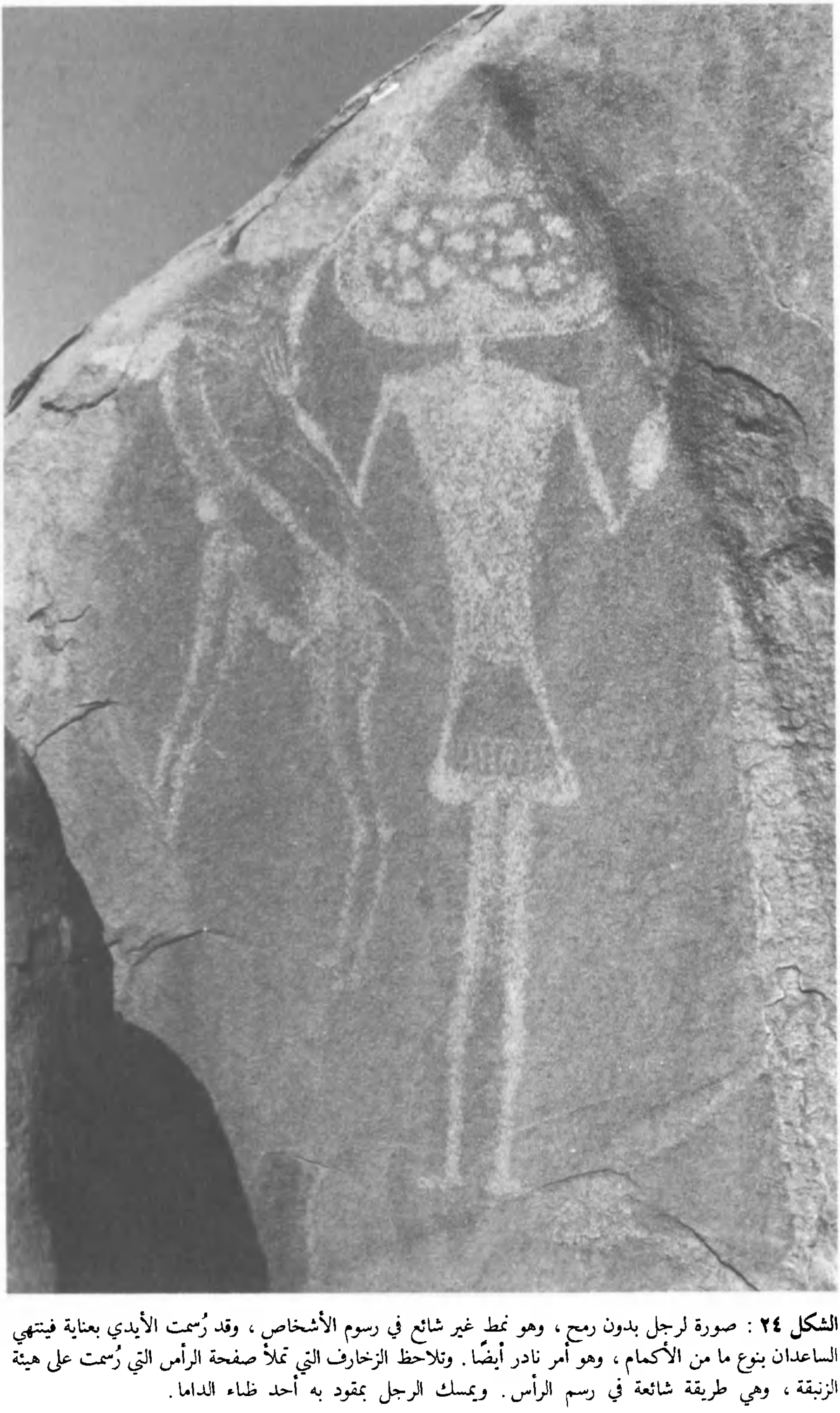
كثيرًا ما يرسم فيها بنسب مبالَغ فيها ، بل ويصوّر أحيانًا وحده على الصخور ، كانت تمثّل شاغلاً رئيسيًا لمبدعي النقوش الصخرية في إيولين. وقد نقلت أبعاد عدد كبير من هذه النقوش بغية مقارنة الرماح بالأسلحة النحاسية التي وُجدت بالموقع ، فاكتشفنا تطابقًا بين النقوش والأسلحة الحقيقية إذ تتسم كلتاهما بنفس الشكل الشبيه بورقة الشجرة. ومن الواضح أن هذا التناظر يمثّل حجّة قوية تؤيّد تعاصر القرية والنقوش. وخلال رحلاتنا الدراسية المتعاقبة إلى إيولين، انتهى بنا الأمر إلى استباق اكتشاف أسنة الرماح النحاسية التي لم تكن قد اكتُشفت بعد. فمع تقدّم مسحنا للنقوش ، أخذ يتراجع شيئًا فشيئًا احتمال أن تكون هذه الصور الموجودة في كل مكان تمثّل أسلحة حجرية فنحن لم نجد أية نماذج لأسلحة حجرية في موقع الصتوطنة حتى كدنا نوقن بأن هذه الأسلحة ليست مصنوعة من الحجر ، إذ لاحظنا أن عددًا من أسنة الرماح المثلّثة الشكل ذات القاعدة المتسعة ، التي تظهر كثيرًا في الرسوم ، لها حدبة تتوسّط رأس الرمح (الشكل ٢٥).

وتظهر مع المحاربين عجلات يوجد منها نقشان في الموقع (الشكل ٢٥). وثمة وجه شبه بين هذه العجلات ومعظم العجلات المعروفة لنا في شرقي عير ، يتمثّل في وجود النير. وقد اكتشفنا حتى الآن ستة من هذه النقوش ، ونشرنا تفاصيل الكشف الأول في كوري تاجوي في عام ١٩٧١. إلاّ أن النقش الذي تظهر فيه العجلة الأكثر احتواء على التفاصيل (الشكل ٢٦) لا يمدّنا للأسف بكل المعلومات التفصيلية التي نتطلّع إلى الحصول عليها بشأن طبيعة النير ، لأن الحيوانات التي تجرّ العربة صغيرة جدًا ومصمّمة بطريقة يصعب معها معرفة هويتها على وجه اليقين. ونستطيع أن نذكر على الأقل أنها ليس لها قرون وأن لها ذيولاً طويلة. ونحن نعتقد أنها جياد ، وخاصة حين نقارنها بنقش آخر للعربات عُثر عليها في منطقة ايفروان («كوري» إمورودو ، — النتائج قيد النشر) يقود العربة فيه شخص له نفس الرأس المميزة ويجرّها حصانان يمكن تمييز ملامحهما بوضوح تام. كذلك يمكن تمييز هيكل العربة نفسه بوضوح كامل ، فهي عربة ذات عجلتين تتكوّن كل منهما من قب ومكبح وحافة بسيطة ، ويربط بين العجلتين محور للعربة. ويبدأ عند هذا المحور عريش أو عمود ، وتوجد بين العجلتين ، أمام العريش ، منصة ضيقة ، بينما يوجد إلى الخلف هيكل مزدوج يشبه قضيبين حديديين. وليس هناك سائق أو لجام. كما أن طريقة ربط الخيول إلى العريش غير واضحة ، فهو يلمس فقط رأسيهما وتصوير كل هذه العناصر على مستوى واحد سمة مميّزة للمجموعة. فالجياد والعجلات مرسومة كما لو كانت تظهر في مرآة ، دون إظهار للبعد الثالث.

ولا تكاد تكون هناك أي صور في الموقع لجياد مرسومة وحدها ، وهو ما يؤكّد ملاحظة كثيرًا ما تُطرح بشأن عصر العجلات في الكتابات التي تتناول الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى. فليس هناك سوى عدد قليل من هذه الصور ولكنها مع ذلك يمكن التعرّف عليها على الفور لأن الرسّام قد استوعب كل ملامح الحصان وصوّرها تصويرًا متقنًا (الشكل ٢٧). ويمكن أن يُقال نفس الشيء



الشكل ٢٣ : تمثيل نمطي لرجل مسلح برمح له سن على هيئة ورقة الشجر.



الشكل ٢٤ : صورة لرجل بدون رمح ، وهو نمط غير شائع في رسوم الأشخاص ، وقد رُسمت الأيدي بعناية فينتهي الساعدان بنوع ما من الأكمام ، وهو أمر نادر أيضًا . وتلاحظ الزخارف التي تملأ صفحة الرأس التي رُسمت على هيئة الزنبقة ، وهي طريقة شائعة في رسم الرأس . ويمسك الرجل بمقود به أحد ظباء الداما .



الشكل ٢٥ : مشهد صيد تظهر فيه زرافة وعجلة. ويوصف المشهد، في تحليلاتنا للنقوش، بأنه مشهد صيد إذا ما كانت الرماح موجّهة نحو الحيوانات البرية كما هي في هذا المشهد. وربّما كانت الحدبة التي تتوسّط رأس الرمح تعني أن السلاح مصنوع من المعدن.



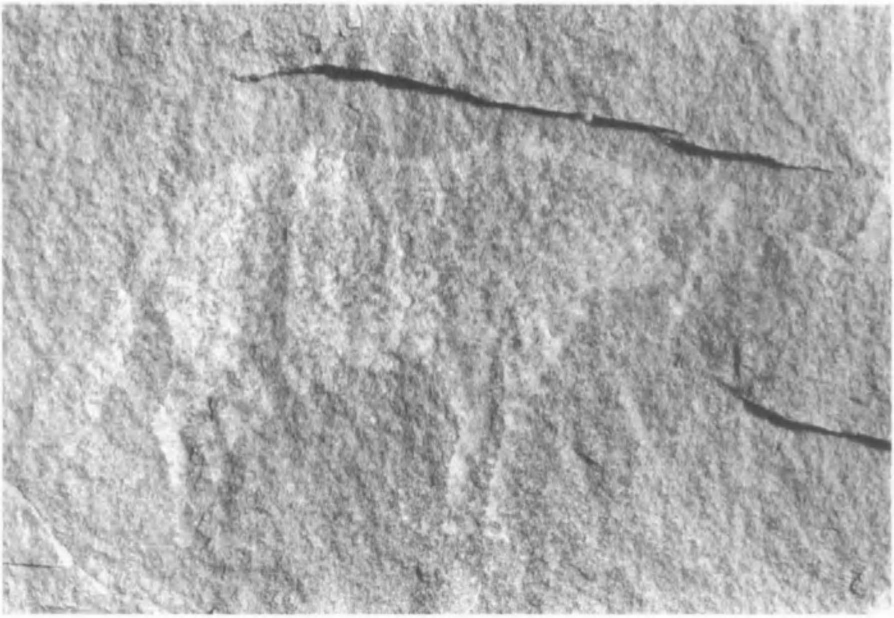
الشكل ٢٦ : العجلة، وتتفق الصورة المرسومة بها مع النموذج النمطي الشائع في شرقي هضبة عير.

بالنسبة لمعظم تصاوير الحيوانات في إيولين. فالطريقة التي تُرسم بها الخطوط الخارجية تتيح على الفور التعرّف على نوع الحيوان. فرسّامو هذه النقوش لم يقتصروا على الحد الأدنى من المعالم، والرسوم التي قدّموها للحيوان تكشف بوضوح عن رغبتهم في محاكاة الواقع المرئي وأشكال الحيوانات، كما تكشف أيضًا وربّما بدرجة أكبر عن رغبتهم في التعبير عن الطبيعة الجوهرية للحيوانات، عن طريق تبسيطات جسورة تصل في كثير من الأحيان إلى أقصى الحدود.

وهناك أمثلة وفيرة لأبقار صُوِّرت على هذا النحو، فموضوع الإنسان والثور هو موضوع يتكرّر باستمرار. كما أن هناك عددًا كبيرًا وتشكيلة متنوّعة من الحيوانات البرية: فتظهر الزرافات في صفوف أو في مشاهد تتعرّض فيها قطعًا للصيد بالسهام (الشكل ٢٥)، كما تظهر الفيلة الضخمة ووحيد القرن (الشكلان ٢٩ و ٣٠) والأسود القوية بمخالب مبالغ فيها (الشكل ٣١) والنعام الذي يتحوّل إلى مجرّد ساقين تجريان، والوعول ذات الخطم الرقيق وقد اشرأبّت على سوقها النحيلة. ومن هذه النقوش نقش يمكن التعرّف عليه بسهولة من اللون الأبيض الذي يكلّل الرأس والمؤخرة، هو رسم لغزال، وهذا الرسم يتكرّر كثيرًا، إلى حد أننا لا نستطيع أن نتجاهل دلالته. والغزالة إما أن تنقش وحدها أو وهي ترضع صغيرها (الشكل ٣٣)، ويعد هذا النقش الأخير واحدًا من أروع النقوش التي شهدناها في عير. وكثيرًا ما كان الحيوان يُرسم برفقة إنسان يمسكه بمقود يلتفّ حول رقبته. إن الاهتمام المزدوج الذي وجّه يد الفنان في إيولين لم يساعده دائمًا على تجنّب الأوضاع الجامدة في نقوشه التي كثيرًا ما تعجز عن إعطاء أي إيحاء بالراحة، بل ساعده بدرجة أقل على تجنّب استخدام الأشكال النمطية في تصوير عالم الحيوان. وقد أفضت بهم واقعيتهم المعتدلة والتعبيرية إلى إنتاج صور نمطية تقليدية للحيوان. كما كان من الطبيعي أن تؤدي ظاهرة إضفاء صيغة هندسية على الأشكال إلى تثبيت صورة الإنسان في وضع جامد بحكم التساوق. فهناك طريقة واحدة لرسم الزرافة أو الفيل أو الغزال يندر أن يشذ عنها نقش من النقوش وتتوالى إلى ما لا نهاية على الصخور واحدة بعد الأخرى. وقد أسفر ذلك عن تحوّل التلال المحيطة بالقرية القديمة إلى معرض هائل للصور يبدو معظمها كما لو كان نسخة طبق الأصل من الآخر.

تلك إذن هي الملامح الرئيسية التي ينبغي تسجيلها في وصف أولي للنقوش الصخرية لإيولين التي يجدر بنا أن نلاحظ أنها لا تحتوي على أية نقوش مكتوبة.

وهذه الطريقة النمطية للتعبير عن الأشكال، تناظر نسقًا فكريًا أصليًا ظهو في عير مع ظهور العجلات. فنحن لا نستشف أية علاقة بين أسلوب النقش الذي تستطيع إيولين أن تعد منذ الآن موقعًا مرجعيًا من مواقعه، وبين أسلوب آخر مختلف تمامًا لوحظ في عدد محدود جدًا من النقوش عُثر عليها في مكان واحد فقط خلال عشر منوات من البحث، وتنتمي في رأينا إلى فترة في التاريخ الفني لعير وتسبق دون جدال موقع إيولين. وقد استرعينا الاهتمام إلى وجوده في عام ١٩٧١: فهو



الشكل ٢٧ : حصان.



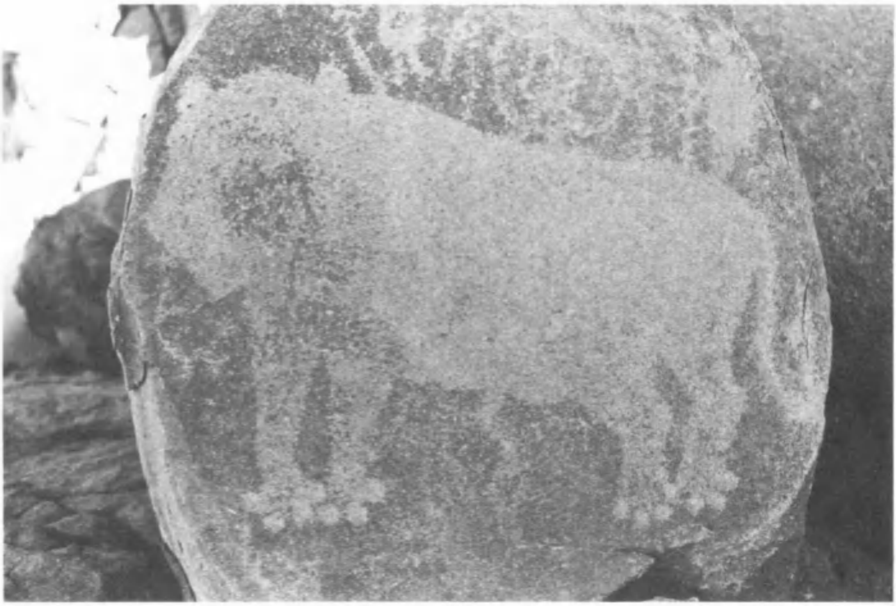
الشكل ٢٨ : رجل وثور، وهناك تشويه في منظور رسم الثور،
إذ لا يتفق وضع الرأس والقرنين مع وضع الجسم.



الشكل ٢٩ : فيل.



الشكل ٣٠ : وحيد القرن.



الشكل ٣١ : أسد.

يوجد في كوري صغير يسمّى كوري تاماكون ويقع على الجانب الشرقي لتاكو لوكوزت على مسافة قصيرة في جنوب إيولين. وهذه مجموعة جميلة من النقوش يتركّز أسلوبها ومحتواها حول شخصية راع يرتدي عباءة طويلة ويمكن أن يُقال إنهما ينتميان إلى الفترة الرعوية. ولم يعثر لهذه المجموعة على نظير في مكان آخر ولم يتم تأريخها بعد ولكنها موجودة ، ومن ثم فلا بد أن تكون هناك فجوة واضحة في التسلسل التاريخي. ومن المحتمل أيضًا أن يكون الفاصل الزمني بين الفترتين طويلاً.

ومن جهة أخرى فلن تكون هناك فجوة زمنية بعد إيولين ، ذلك أنه مع ظهور سائقي العربات ، بدأ نظام في التصوير حكم منذ ذلك الحين كل اتجاه النقوش الصخرية في الهضبة. وأخذ هذا الفن يكتسب منهاجًا تخطيطيًا متزايدًا ، كما تعرّض لأزمة من جراء الإختفاء التدريجي للحيوانات البرية مع تحوّل المنطقة إلى صحراء. ولكن الأشكال الأساسية التي يمكن أن نراها في إيولين ترتبط بكل الأعمال اللاحقة ، حتى أكثرها حداثة ، وتشكّل الأساس الدائم لإلهامها. وربّما كان الورثة الأخيرون لهذا التقليد هم الطوارق في وقت ما من الماضي لا نستطيع تحديده حتى الآن ولكنه لا يمكن أن يكون مفرطًا في بعده.

وأيًّا كان ما يخبئه المستقبل للبحوث في هذا المضمار ، فمن الواضح أننا نواجه في إيولين ،

حيث يبدأ الخط ، بظاهرتين متطابقتين في آن واحد : أسلوب جديد كل الجدّة في الخزف وأسلوب فني جديد كل الجدّة يمكن أن نعتبره ، إلى أن يثبت العكس ، بلا سابقة في المنطقة . ومن شأن وجودهما في الموقع نفسه والعلاقة التي ثبت قيامها بينهما والتي حققتها معرفة المعادن واستخدامها في الأسلحة ، وهي علاقة مقطوع بها في إحدى الحالات ومرجّحة في حالة أخرى ، أن يشجعنا على أن نرى فيهما وجهين متعاصرين لحقيقة أثرية واحدة هي : وصول سكان جدد إلى هضبة عير . وقد قمنا بتوسيع عمليات التنقيب باطّراد حتى شملت منطقة واسعة على امتداد الكوري يتوسّطها موقع إيولين. وتمتد ، كما ذكرنا من قبل ، إلى الأودية الصغيرة المؤدّية إلى سفح جبل جريبون ، وجنوبًا لمسافة مماثلة تبلغ نحو عشرين كيلومترًا . وكانت نتائج هذا الاستطلاع سلبية سواء فيما يتعلّق بالمواقع أو النقوش ، وذلك باستثناء بضعة نقوش جديدة مرسومة بنفس الأسلوب عُثر عليها في عدة مواضع من كوري تاسومس . وهذه العزلة الأثرية للموقع تمثّل في رأينا حجة جديدة تؤيّد تعاصر الموقع والنقوش . فالموقف يزداد صعوبة إذا تصوّرنا وجود فارق زمني بين الاثنين . ذلك أننا إذا افترضنا أن الموقع قد استوطن في فترتين مختلفتين فلا بدّ أن نضع في اعتبارنا أنه استوطنه أولاً سكان من نقّاشي الرسوم الصخرية المهرة الذين كانوا يعملون بعيدًا عن ديارهم والذين لم يخلّفوا أثرًا لعبورهم بالمكان سوى فنهم . ثم احتلّه بعد ذلك سكان لا علاقة لهم بالنقش على الصخر ، وإن كانوا قد أقاموا قرية ذات مساحة لا بأس بها ودفنوا موتاهم بين الصخور قانعين بأن يتأمّلوا في إعجاب ما خلّفه سابقوهم من أعمال فنية . وهذا الإفتراض ينطوي على قدر من الإفتعال ويفتقر إلى المصداقية الكافية ، وفضلاً عن ذلك فإن التتابع الزمني للإستيطان المزدوج لا يمكن أن يعكس ترتيبه ، فقد عثر في أحد المدافن التي استُكشفت بالتعاون مع ف. باريس على كتل صخرية عليها نقوش.

وأخيرًا فإن التأريخين الأولين اللذين حصل عليهما من الموقع باستخدام طريقة الكربون المشع ، وهما — ٢٦٨٠ ± ٤٠ و— ٢١٦٠ ± ٥٠ ، هما تأريخان مقبولان تمامًا بالنسبة للنقوش الصخرية ، إذ يضعاها مؤقتًا في إطار الفترة التي يمكن نسبتها إليها . وجدير بالملاحظة هنا أن هذين التأريخين يتفقان مع التأريخين اللذين اقترحهما ب. ج. وس. أ. مونسين (١٩٦٩) لتصاوير العربات التي تجرّها الثيران في قريتي بليد إنيتي وتاي درارت — ٢ ، في موريتانيا ، وهما — ٢٦٠٠ ± ١١٠ و— ٢٤٣٠ ± ١٠٥ ، على التوالي . وإذا نظرنا إلى هذه النتائج في ضوء التطوّر المناخي القديم في جنوبي الصحراء ، والذي نعرف مراحله الرئيسية في تشاد وشرقي حوض النيجر بفضل الدراسات التي أجراها م . سرفان (١٩٧٣) وج . مالي (١٩٨١) بوجه خاص ، سوف ندرك أن استيطان إيولين بدأ في وقت ما كان لنا أن نتوقّعه ، وهو فترة الإجداب التي يحدّد هذان المؤلّفان مكانها بمنطقة انحسار البحيرات في تنيري والتي لا تزال واضحة في تلك الرقعة ، والتي حدثت فيما بين — ٣٥٥٠ و— ٣٠٠٠ ، مع عودة أخيرة واهنة إلى الظروف المناخية المطيرة في حوالى — ٢٥٠٠ في هذه المنطقة .



الشكل ٣٢ : نعامة .



الشكل ٣٣ : غزالة داما ترضع صغيرها.

فما هو نوع المناخ الذي ساد هضبة عير في ذلك الوقت؟ إننا نستطيع أن نفترض انطلاقًا من مسوغات معقولة أن الهضبة لم تتأثر بالجفاف قدر تأثّر سهوب تنيري بها وأن حيوانات السافانا الكبيرة لم تجد مشقة كبيرة في البقاء في أودية عير فيما بين الفترتين المناخيتين المثليين الأخيرتين اللتين سبقتا التاريخ الميلادي.

تلك هي الحقائق التي تحملنا على الإعتقاد بأن موقع إيولين يشكّل كلاً واحدًا وأن الفصل بين عناصره الأثرية لا أساس له. ونحن لا نحاول هنا أن نخفي أن الحجج التي تدفعنا إلى ربط النقوش الصخرية بالقرية والجبّانة ليست في مثل قوة الشواهد التي تبرهن على تعاصر القرية والجبّانة. ولكن هذه هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا الآن للوصول إلى الحقيقة، وهي تشكّل في نظرنا أساسًا كافيًا لاعتقادنا المؤقّت. فإذا ظهرت حجج مضادة تقوم على أساس أوطد، فقد تحملنا على تغيير رأينا. ولكننا لا نجد الآن أية حجة من هذا القبيل.

ولعلّنا لا نشط كثيرًا حين نفترض أن أولئك الناس الذين استوطنوا منحدرات الكوري الصغير منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد، كانوا من قدامى البربر. فمن المتوقّع أن تتيح العظام التي جُمعت من المقابر لـ ف. باريس أن يحدّد سمات هٰؤلاء السكان. وفضلاً عن ذلك فإن الشواهد الأثرية المتنوّعة التي جمعناها حتى الآن في الهضبة وعلى حدودها مع تنيري يبدو أنها تقود أيضًا إلى نتيجة مؤداها أن هٰؤلاء السكان كانوا الموجة الأولى من موجات عديدة من مهاجري البربر جاءوا للإستقرار في هضبة عير خلال القرون الأولى بعد الميلاد، وكان الطوارق هم آخر موجات هٰؤلاء المهاجرين. وغني عن البيان في نظرنا أن مستخدمي العجلات هٰؤلاء والذين كانت لديهم أسلحة نحاسية قد استخدموا هذا المعدن في بناء عرباتهم؛ فالذين يعرفون مدى مشقة التوغّل إلى التلال السفحية الشرقية في هضبة عير، حيث تختفي السهول الصخرية وتبدأ الرمال الناعمة للكوريات، يستحيل عليهم أن يتصوّروا أن عجلات تفتقر إلى أية دعامات معدنية يمكن لها أن تواصل السير طويلاً في ذلك المكان مهما قيل في هذا الصدد.

بيد أن الدلالة العظمى لموقع إيولين تتمثّل في أنه الموقع الذي أصبح فيه ركاب العجلات يرتبطون أخيرًا بثقافة مادية، كانوا يفتقرون إليها تمامًا قبل هذا الإكتشاف. وثمة أمل أيضًا في أن نستقصي، ربّما من خلال الفخار، منشأ هٰؤلاء الناس.

الملاحظات

١. كوري: واد جاف.
٢. اكتشفه س. مورو من جامعة باوندي (الكاميرون)، والتزامًا للدقة نقول إنه من الأبليت المكلور الذي تتخلّله الميكا.
٣. أخبرني بوجود هذه النقوش ف. سوفاج، الذي كان حينذاك جيولوجيًا يعمل بشركة مناجم عير، وكان قد لاحظها أثناء نزهة له بالمنطقة.
٤. يجري الآن إعداد لهذه الطبقات والتحضير لنشر نتائجها.
٥. يمكن أن تكون سن النحاس أو البرونز، وهو ما سيكشف عنه التحليل المجهري.

المراجع

CAMPS, G. 1980. *Berbères. Aux marges de l'histoire.* Paris, Éditions des Hespérides. 358 pp. Les chars préhistoriques du Sahara. Archéologie et techniques d'attelage. In: G. Camps and M. Gast (eds.), *Actes du colloque de Sénanque.* Aix-en-Provence, Université de Provence, 1983. 200 pp.

LEROI-GOURHAN, A. 1969-82. Résumé des cours et travaux. *Annuaire du Collège de France.* Paris.

LHOTE, H. 1982. *Les chars rupestres sahariens des Syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes.* Paris, Éditions des Hespérides. 272 pp.

MALEY, J. 1981. Études palynologiques dans le bassin du Tchad et paléoclimatologie de l'Afrique nord-tropicale de 30.000 ans à l'époque actuelle. Paris. (Travaux et Documents de l'ORSTOM, No. 129.) (Thesis.)

MUNSON P. J. 1969. Nouveaux chars à bœufs rupestres du Dhar Tichitt (Mauritanie). *Notes Africaines,* No. 122, April, pp. 62-3.

ROSET, J. P. 1971. Art rupestre en Aïr. *Archeologia,* March-April, No. 39, pp. 24-31.

—. 1976. Nouvelles stations rupestres situées dans l'est de l'Aïr, massif de Takolokouzet, *Actes du VII[e] Congrès Panafricain de Préhistoire et d'Études du Quaternaire,* Addis Ababa (1971), pp. 301-7.

—. In press. *Iwelen: l'ancien village.*

—. *In press. Iwelen: la nécropole.* (In collaboration with F. Paris.)

SERVANT, M. 1973. Séquences continentales et variations climatiques: évolution du bassin du Tchad au cénozoïque supérieur. ORSTOM. (Thesis.)

الفن الصخري فيما قبل التاريخ في الصحراء الليبية : نتاج لعملية بيولوجية – ثقافية طويلة الأمد

ف. موري

تبدو أقدم التصاوير المرسومة على الصخور في الصحراء الليبية كما لو كانت تمثّل وثبة فجائية واسعة في آثار النشاط الثقافي للانسان. وإذا كان تأريخها لم يزل محل جدال حتى الآن، فإن ثمة مسوغات معقولة تدعونا للشك في نسبتها إلى «العصر الحجري الحديث». وفي اعتقادي أن أقدم هذه التصاوير، ومنها نقوش «الحيوانات البرية الكبيرة»، ينبغي أن تنسب إلى العهد الأخير سن البلايستوسين. وعلى الرغم سن وفرة عدد هذه النقوش وجمالها الأخّاذ، فقد تعذّر حتى الآن تحديد «مجموعة سن الأعمال» يمكن اعتبارها سابقة عليها. ولكن ما تنم عنه سن تمكّن في التصوّر والتنفيذ وما ينجم عن ذلك سن تناغم واتساق، يدلاّن بوضوح على أن ظهورها لا بد أن يُعتبر ثمرة لعملية تمهيدية طويلة اختفت كل آثارها. وقد اقترح البعض –على سبيل الإفتراض– تأريخها بنفس الفترة الزمنية التي حدّدت للأعمال العظيمة «للعصر الحجري القديم» في القارة الأوروبية، وثمة احتمال كبير في أن يكون هذا التأريخ صحيحًا إذا ثبتت صحة التأريخات التي حدّدت لشظيتين صخريتين عليهما رسوم لأشكال حيوانية عُثر عليهما «في موضعها الأصلي» في كهف «أبوللو– ٢» بجنوب أفريقيا. وقد استخدمت طريقة الكربون المشع لتحديد تاريخ هاتين الشظيتين، وحدّد تاريخهما بالفترة الواقعة بين – ٢٥٥٠٠ و – ٢٣٥٥٠. فإذا أسفرت عمليات تأريخ الصخور في «جبل تادرارات» على الحدود الجنوبية الغربية لليبيا، سواء باستخدام طريقة الكربون المشع أو طرق أخرى جديدة، عن تحديد تواريخ مماثلة تؤكّد التأريخات السابقة، بزغت أمامنا صورة غير متوقعة وحصلنا على رؤية أوضح لما يسمّى بـ «مولد الفن». فعندئذٍ ستكتسب هذه الظاهرة طابعًا متعدّد المراكز، وينظر اليها بوصفها نتيجة لتحوّلات بيولوجية – ثقافية متماثلة في «العالمين القديمين» اللذين اكتشفت فيهما آثارها. وعلى هذا النحو سوف نستطيع أن نسد كثيرًا سن الفجوات الموجودة، بعد أن أفسدتنا طرق التفكير المبتسرة التي تجعلنا نفسّر غياب الشواهد على وجود شيء ما بأنه دليل على عدم وجوده. والحق أني أسائل نفسي : أسن المعقول أن يُقال إن أقوام العصر الحجري المتأخّر في وسط افريقيا لم تعرف فن التصوير على الإطلاق، على حين قد لا يعدو الأمر ببساطة أنهم كانوا يرسمون على مواد قابلة للبلى وسن ثم لم

تبق أعمالهم. ويزيد بنفورد (١٩٧٠) هذه الحيرة حين يتساءل: أليس العثور على شواهد فنية في «المنطقة الخالية» بين الصحراء الكبرى وجنوب افريقيا كفيلاً بأن يقوض تماماً الإفتراض القائل بوجود فجوة «فنية» بين المنطقتين؟ وتلك عبارات تنم عن بعد النظر في وقت ألقى فيه تأريخ التصاوير التي اكتشفت في كهف أبوللو – ٢ ضوءًا جديدًا على بحوث الفن الصخري الافريقي في عصور ما قبل التاريخ.

ويمكن أن نلجأ إلى نفس هذا النهج في التدليل بالنسبة لمنطقة شرقي حوض البحر المتوسط حيث يوجد عدد ضئيل من نماذج الإنتاج الفني فيما قبل التاريخ. فالشواهد الكثيرة الموجودة في الصحراء الكبرى لا يمكن أن تكون ظاهرة منعزلة. وفيما يتعلّق بوادي النيل، تكفي نقوش كوم أمبو (بي. إي. ل. سميث) للبرهنة على أن الأعمال الفنية الموغلة في القدم تنتشر على نطاق أوسع مما قد يوحي به توزيعها على الخريطة. وبوسعنا أن نقول الشيء نفسه عن شاتال هويوك، حيث يمكن مقارنة أسلوب التصاوير الجدارية لعام – ٧٠٠٠ بأسلوب بعض الأعمال في الصحراء الكبرى. فلماذا نستبعد إذن إمكانية اشتراكِ مناطق واسعة من «الهلال الخصيب» في هذه الوسيلة الجديدة من وسائل الإتصال، التي يمكن أن يعزى تطورها في هضاب الصحراء الكبرى إلى وجود أودية عميقة وأماكن محمية ساعد على الاستيطان والممارسات الطقسية.

وهذا يقودنا إلى طرح اعتبارات أكثر عمومية، فربما كان لظاهرة الفن تاريخها في شعوب لم تخلّف لنا آثارًا فنية، فهي نتيجة معقولة لتطوّر بيولوجي وثقافي مرّ به معظم أسلافنا. ولعلّ ذلك حدث على نحو يشبه سن بعض الوجوه ما حدث خلال الولادة المضنية للكلام. فهنا أيضًا ينبغي لنا أن نكتشف مراحل التطوّر من خلال سلسلة التحوّلات البنيوية والوظيفية التي أفضت إلى ظهور الإنسان الحديث، والمرتبطة بتاريخ التكيّفات الفسيولوجية وتخصّص المعرفة. ومن المفيد أن نتذكّر هنا أن اللغة نفسها، التي لا تنفك تزداد تعقّدًا وإفصاحًا، يمكن أن تعتبر أداة نقل تلك المكتسبات التكنولوجية التي تحقّقت عبر التقدّم المستمر من خلال تبادل المعلومات وما واكبه من تطوّر مناظر في الجهاز العصبي والمخ (راجيانتي، ١٩٨١). وربما كان ذلك أثرًا ذهنيًا (theoretical effect) حدث لكثير من الجماعات البشرية – ان لم يكن لها كلّها – الموزّعة على وجه الأرض. وعندئذٍ سيتضح لنا أن جميع الشعوب لديها نفس الإستعداد البيولوجي لإنشاء ثقافة واكتساب الكلام. «ولا بدّ من الإعتراف إذن»، كما يقول لينبرج (١٩٧١)، «بأن الأحداث التطورية التي أدّت إلى نشوء الثقافة والكلام ترجع إلى الأسلاف المشتركين لكل المجموعات البشرية الحديثة. وبتعبير آخر، فإن ظهور الكلام يمكن أن يؤرّخ بفترة تتراوح بين ٣٠ ألف و ٥٠ ألف سنة مضت. واحتمال صحة هذا الإفتراض لا يستند فحسب إلى الشواهد المستمدة من الدراسات الأنثروبولوجية، ذلك أن الثقافات المرتبطة بأحافير تلك الفترة تكشف عن نشوء وسيلة اتصال رمزية بخلاف الكلام، وهي النقوش

التصويرية. وتكشف تصاوير الكهوف المنتمية لذلك العهد عن مقدرة فذة، وتتسم أيضًا، وذلك هو الأهم، بنزعة تنميطية واضحة بل وتجريدية على نحو ما. ومن هنا يرجح أن العمليات المعرفية لدى إنسان كرومانيون (Cro-Magnon اسم كهف في جنوب فرنسا عثر فيه على البقايا العظمية لذلك الإنسان) تشترك في خصائص معيّنة مع نظيرتها لدى الإنسان الحديث، كما لا يستبعد أن يكون الكلام أقدم كثيرًا مما نظن».

بيد أنه من الصعب جدًا أن نحدّد الأشكال التي ظهر فيها التخاطب الشفوي كنمط قائم بذاته مستقل عن التخاطب الإيمائي، والعلاقات التي ربطت بين الإتصال وبين تطور الأنشطة الإجتماعية على امتداد تاريخ أسلافنا ابتداءً من الإنسان المنتصب القامة *Homo erectus* فصاعدًا. والواقع أن التقنيات المتصلة بالأنشطة الإقتصادية المباشرة، تنم عن وجود شبكة اتصالات كثيفة. فقد أصبح القنص أكثر فعالية بعد اكتشاف النار، ونجم عن ذلك تنوّع أكبر في عادات الأكل، الأمر الذي كانت له دلالات بيولوجية وإجتماعية على السواء لم تقدر حق قدرها حتى الآن. وزادت الأنشطة الجماعية، مثل اقامة مستوطنات توفّر مزيدًا من سبل الراحة واحتلال مناطق أيكولوجية مختلفة، بحيث انتشر النوع الإنساني إلى مناطق لم يعرفها من قبل. أما الأنشطة الأخرى، التي ذكرناها آنفًا، فتشير إلى تطوّر واضح نحو التجريد، وتنم عن استخدام رشيد لهندسة الجوامد، وإن كان استخدامًا تجريبيًا (empiric) يفتقر إلى الأساس النظري اللازم. وربما كانت هذه مرحلة في تاريخ نشوء الفكر وتطوره سبقت ظهور الكلام ذي المقاطع الواضحة (فيجوتسكي، ١٩٦٦). ولكن من الواضح أن التنظيم المخي للأنواع التي سبقت الإنسان العاقل *(Homo sapiens)* كان قد تطوّر تطورًا كافيًا في المراحل التي سبقت مظاهر الفن الأولى، بحيث يمكن قبول فكرة الإكتساب البطيء للغة الرمزية التي تجلّت في نهاية المطاف في العلامات المرسومة على وجه الصخر. وهذه الآثار الباكرة، التي فقدناها نظرًا لتنفيذها على مواد قابلة للبلى مثل الخشب أو جلود الحيوانات أو الفخار غير المحروق، أو لأنها كانت مجرّد تزيين لأجسام البشر، لها أهميتها الكبرى بوصفها نقطة البداية للنشاط «الفني». ونحن نستخدم هذه الكلمة على الرغم من أنها قد تنطوي على أكثر من التباس. ويكفي أن نتذكّر التفسيرات الأولى التي قدّمت تحت اسم «الفن للفن» للتصاوير الصخرية المنتمية للعصر الحجري القديم، وهي أعمال كانت تؤدّي، في حقيقة الأمر، وظائف معقّدة فاختزلت بناها إلى مجرّد بنى جمالية. وعلينا أن نحذر مثل هذا التفسير في نظرنا للعلامات سالفة الذكر. وإذا كان اختفاؤها يحول بيننا وبين مناقشتها، فعلينا أن ندرس التصاوير الباقية حتى نستطيع أن نلم بجانب مما كان لهذه الأداة الجديدة من أهمية بالنسبة للانسان.

وينبغي أن ندرس أعمال الحفر والتصوير الأولى في ضوء ما كانت تمثّله بالضرورة من أهمية في حياة المجموعة أو المجموعات التي شهدت مولدها. فقد اكتشف الإنسان الرمزية تدريجيًا. كما

اكتشف – بالبطء نفسه – إمكانية نقل الأفكار إلى أعضاء آخرين عن طريق علامات «تنطوي» على فكرة أو عدد من الأفكار و «تنقلها» في الوقت نفسه، مما جعلها تكتسب أهمية ربما فاقت كل أنواع السلوك الأخرى التي كانت ترتبط – على نحو أوضح – بإشباع الإحتياجات البيولوجية. فمع الظهور التدريجي لإحتياجات تخرج عن نطاق الأكل والتناسل، وترتبط مع ذلك بعامل الأمان الذي يعتبره علماء النفس وعلماء البيولوجيا على الدرجة نفسها من الأهمية، أخذت تتطوّر شبكة من العلاقات الاجتماعية إذ كان من الضروري ان يصاحبها نظام مناسب للإتصال. وأقدم المظاهر الباقية للنشاط الرمزي هي ما نسميه «بالأعمال الفنية» التي كان لها مع ذلك – وبالضرورة – قيمة نفعية قوية. ولا شك أننا ندرك أن أخذنا بهذا التعريف يعني أننا نعتقد أن بوسعنا التمييز بين ما هو «فن» وما هو «ليس بفن». فهذا التفسير يعني أن المبدعين القدامى لهذه العلامات المصوّرة كانوا يدركون أنهم «ينتجون فنًا»، على حين أنهم في أغلب الظن لم يكونوا واعين بذلك. ففهوم الفن هو مفهوم تكوَّن تاريخيًا في مجتمع معيّن وخلال نمط معيّن من الإنتاج الثقافي. وغاية ما نستطيع قوله، بعيدًا عن قضية التعريفات دقيقة الدلالة، هو أن هذه المنتجات الفنية التي نصنّفها «كأعمال فنية»، هي شيء متميز يخرج عن كل النشاط الذي يرتبط مباشرة بالجوانب «العملية» للمعيشة والبقاء. ومن هنا فهي تشكّل «كيانًا» قائمًا بذاته، حتى وإن كان ينبغي النظر إلى هذا الكيان ودراسته في الاطار الأرحب للوقائع الأخرى التي طرحها التطور البيولوجي والثقافي كأدوات أكثر رقيًا وتنوّعًا للتكيّف مع البيئة. وإذا كان لنا أن ندرج هذا الكيان في نسق القيم والتصنيفات الذي قمنا بتنظيمه وغدا اليوم أداة لا غنى لنا عنها، فلابد أن نسلّم مع جراتسيوس (١٩٥٦) أن «فن الانسانية، في اللحظة التي نستطيع أن نلمح فيها مظاهره الأولى، له الحق تمامًا في أن يسمّى فنًا». على أنه ينبغي ألاّ يغيب عنا أن هذه الأعمال كانت لها – بالقطع – في سياقها التاريخي والثقافي وظائف وقدرات تتعدّى نطاق الفن. وفي اعتقادي أن أثرها على نقل الأفكار، الذي لم يعد عندئذٍ يعتمد على مجرّد الكلام والإشارات، لا يضاهيه في الأهمية سوى الخطوات العظيمة التي شهدها تقدّم الانسانية ابتداءً من الأدوات الأولى واستخدام النار إلى زراعة النباتات واستئناس الحيوان.

وتمثل أعمال الفن الصخري أولى وسائل التعبير التصويري وتسجيل الأفكار التي تجمّعت، من خلال سلسلة لا حصر لها من الملاحظات والإدراكات والتجارب، للجماعات التي كانت تدرك تمام الإدراك أهمية تعاملها مع الطبيعة. ودخلت إلى عالم اللغة كي تثريه بالمعاني المتعدّدة التي يمكن اعطاؤها لكل اشارة، وهي معاني «إعتباطية» دون ريب، ولكن «إعتباطيتها» ربما كانت نسبية فحسب، ذلك أن شكل أو بنية الشيء المنقوش أو المنحوت أو المصوّر، أي «النموذج»، لا بد أنها كان تضيّق – بالضرورة – مجال الخيارات الممكنة. ويمكن أن نلمس هذه الخيارات في مختلف قطاعات العمل الواحد، كما أنها يمكن أن تتأثّر بكل المكونات القابلة للتغيير وبكل مراحل الإنتاج:

تقنية الحفر وهل يكون الحفر ضحلاً أو عميقًا ، الألوان في الرسوم ، أبعاد الشكل وموقعه ومكانه من الأشياء المحيطة به ، وتداخله مع الأشكال الأخرى والعلاقات المختلفة.

وهذه طريقة تقليدية في القراءة والتفسير ، يمثل فيها الشكل المرسوم المكوِّن الثابت بل أكثر المكوّنات أهمية على الاطلاق ، إلاّ أننا لا نستطيع – قطعًا – أن نستبعد المكونات الأخرى التي سبق أن ذكرناها ويبدو أنها تمثل إطارًا من «المتغيرات» يستمد معاني عميقة من لغة شفرية مجهولة. كذلك ينبغي لنا أن نتوخّى الحيطة في نظرنا إلى العلاقة الظاهرة بين التقنية والموضوع ، وحسبنا أن نذكر ذلك تأكيدًا لكل ما كانت تنطوي عليه هذه الصور من قيمة وثراء بالنسبة لمبدعيها ، وبالنسبة للذين يرونها ويحاولون فك رموزها. وهي تمثّل بالنسبة لثقافة عصرنا ، دليلاً مؤكّدًا على مستوى التجريد الذي بلغته جماعات معيّنة في العهد الأخير للبلايستوسين. فقد أتاح هذا الشكل الجديد، على مدى أجيال متعاقبة ، تسجيل أشياء مختلفة موجودة في البيئة كما أتاح تسجيل أنواع شتى من التجارب والخبرات مثل العواطف والآمال ويبدو أنه يقدّم البرهان على أهمية «اللاعقلاني» بالنسبة لأولئك البشر : فقد استخدمت في هذا السياق كل صور التعبير الممكنة ابتداءً من التناقضات «السابقة على المنطق» إلى الدلالة الأسطورية للصورة وامكان تفسيرها تفسيرات عديدة ، وذلك على النحو الذي حلّله مؤلّفون آخرون (أوكو وروزنفلد ، ١٩٦٧). إلاّ أن هناك أمرًا يتجاوز مجرّد الاحتمال ، وهو أن هذه المجموعات قد بلغت مستوى راقيًا من التنظيم ، بحيث استطاعت أن تنتج هذه الصور التي يستحيل إنتاجها في أوضاع اجتماعية لا تستند إلى نظام واضح المعالم ، وأن هذه المجموعات لم تكن – بالقطع – بمنأى عن تحقيق ذلك التوازن «البيولوجي – الثقافي – البيئي» الذي يؤكّد كلارك (١٩٥٥) أهميته الحاسمة للتكيّف الإجتماعي الإقتصادي. ولا بدّ أن تكون هذه الأداة الثورية الجديدة ، التي ساعدت على تجميع المعلومات بوسائل أخرى غير الوسائل التقليدية ، قد أدّت إلى التعجيل بالتطوّر الثقافي لهذه المجموعات. ومن المؤكّد أن السموّ الذي تنمّ عنه «الأشكال الفنية» ، بما تنطوي عليه من أفكار لن يتأتى لنا أبدًا حل شفرتها ، هو شاهد على «العالم الروحي» الذي ألهمها ، ومن هنا نستطيع أن نقرّر أن أقوام الصحراء الكبرى فيما قبل التاريخ قد بلغت مستوى عاليًا من التطوّر الثقافي.

إن فن ما قبل التاريخ يعتبر بحق الإرهاص الأول للغة المكتوبة ، إذ يكاد يكون من المقطوع به أن الكتابة قد ولدت من خلال الأشكال العديدة المختلفة لتطوّره. ومن هنا كان أداة رئيسية لتطورنا ، ربما ترتبت على طفرات وراثية. فمن شأن هذا التفسير أن يقلّل دهشتنا لهذا الانفجار الفجائي الذي حدث في الفترة الوجيزة فيما بين أواخر البلايستوسين ومستهل الأولوسين ، والتي شهدت الإنتقال من اقتصاد يقوم على القنص وصيد الأسماك وجمع الغذاء إلى اقتصاد إنتاجي بكل ما انطوى عليه ذلك من آثار حاسمة.

فمن وجهة النظو الوراثية لا يمكن لعلماء البيولوجيا – كما يقول يونج (١٩٧٤) – أن يتوقّعوا

«حدوث مثل هذه التغيرات السريعة في مثل هذه الفترة الوجيزة ما لم يكن الانسان قد اكتسب آلية خاصة للإنتقاء والتطوّر. ومن الجائز أنه مع تطوّر وسيلة لنقل المعلومات، كاللغة، أصبح اختيار الأفراد الذين يتقنون استخدامها أمرًا صارمًا بدرجة غير مألوفة». وقد أخذت الإتصالات تتطوّر تطورًا متلاحقًا في سرعتها وكميتها، مما أدّى إلى نشوء أفكار جديدة أسهم تنظيمها في تحسين نوعية الحياة، أو على الأقل في تقليل الإعتماد على الطبيعة. فقد أصبح من الممكن في النهاية وصف الطبيعة إذ أتاحت الأداة الجديدة تحليلها وتسجيل العلاقات الجديدة التي تنشأ معها.

وليس من المستبعد أن يكون أساس الطفرات الثقافية التي أفضت شيئًا فشيئًا إلى «السيطرة» على الحيوان والنبات كامنًا في هذه الأعمال الباكرة للفن الصخري.

المراجع

BINFORD, LEWIS R. 1970. Archaeological Perspectives. In: L. R. Binford and S. R. Binford (eds.), *New Perspectives in Archaeology.* Chicago, Aldine.

CLARK, J. G. D. 1955. *Europa preistorica.* Turin, Einaudi.

GRAZIOSI, PAOLO. 1956. *L'Arte dell'antica età della pietra.* Florence, Sansoni.

LENNEBERG, ERIC H. 1971. *Fondamenti biologici del linguaggio.* Turin, Boringhieri.

RAGGHIANTI, CARLO L. 1981. *Luuomo cosciente.* Florence, Calderini.

SMITH, PHILIP E. L. 1982. The Late Palaeolithic and Epi-palaeolithic of Northern Africa. In: J. Desmond Clark (ed.), *The Cambridge History of Africa.* Vol. I. Cambridge, Cambridge University Press.

UCKO, Peter J.; ROSENFELD, Andrée. 1967. *Arte paleolitica.* Milan, Saggiatore.

VYGOTSKY, Lev S. 1966. *Pensiero e linguaggio.* Florence, Giunti.

YOUNG, John Z. 1974. *Biologia, evoluzione e cultura.* Turin, Boringhieri.

الوطنية الليبية والحكم الأجنبي في العصر اليوناني – الروماني

مصطفى كامل عبدالعليم

ربما ينطوي استخدام لفظة «الوطنية» – حين يتعلّق الحديث بالتاريخ القديم – على قدر من اللبس. والمقصود بها في هذا المقام هو المقاومة الليبية للإحتلال الأجنبي الذي أجبر قبائل وجماعات السكان الأصليين على الإنسحاب من السهول الساحلية الخصبة.

والقول بأن السهول الساحلية كانت مقفرة وغير مأهولة حين جاء إليها الفينيقيون في حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، لتأسيس أسواقهم في إقليم طرابلس، أو حين جاء الإغريق إلى إقليم برقة في القرن السابع لتأسيس مستعمرتهم الأولى «قورينة»، قول يجانبه قدر من الصواب.

لقد اكتشفت، في كل أرجاء ليبيا[١]، مواقع تنتمي لعصر ما قبل التاريخ. وظهرت أسماء الجماعات الليبية في النقوش الفرعونية، كما ظهرت رسوم تمثّلهم في النقوش المصرية البارزة منذ الألف الثاني قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك. ويمكن أن نذكر من بين هذه الأسماء «التحنو» و «التمحو» و «الليبو» و «المشوش». وكانت المجموعتان الأخيرتان تضغطان بشدّة على الحدود الغربية لمصر ساعية إلى إيجاد موئل لها فيها. وقد أشاعت هذه القبائل الرعب والدمار في مصر حين أخذت تواجه الضغط من «شعوب البحر». ونجح فراعنة الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في ردّها على أعقابها إلى ديارها داخل ليبيا[٢]. وإذا كانت البعثة التي أوفدتها جامعة بنسلفانيا في ربيع عام ١٩٦٣، قد حاولت أن تعثر في إقليم برقة على آثار لليبيين في عصر البرونز، فقد حفظت لنا الوثائق المصرية ذكرى أولئك الليبيين الذين كانوا يقومون بدور الوسطاء في التجارة فيما بين افريقيا ومصر وبحر إيجه[٣].

ونحن ندين بجانب كبير من معلوماتنا عن القبائل الليبية لما أورده هيرودوت تحت عنوان « *Libykoi Logoi* » في الكتاب الرابع من تاريخه. وعلى الرغم من أن بعض نقّاد هيرودوت لم يجانبهم الصواب فيما وجهوه إليه من انتقادات، فإن ما يقدّمه لنا من معلومات بشأن القبائل الليبية يظل في معظمه ثميناً ولا غنى عنه. فقد سجل أسماء القبائل وحدّد مواقعها الجغرافية وأورد كافة المعلومات التي تهم الأنتروبولوجيين الراغبين في دراسة ديانتها وعاداتها وحياتها الإجتماعية. ومن الأمور البالغة الأهمية – في حدود دراستنا هذه – أن نقف على العلاقات التي كانت تربط هذه القبائل بالأجانب الذين احتلوا أراضيها وحالوا بينها وبين الدنو من الشاطئ.

ويورد هيرودوت أسماء القبائل على النحو التالي. أديرماشيد Adrymachidae ، جيليجام (Gilligames) ، أسبيت (Asbytes) ، أوشيز (Auschises) ، بكال (Bakales) ، نسامون (Nasamonians) ، بسيل (Psylls) ، مكاي (Macae) ، جندان (Gindanes) ، لوتوفاج (Lotophagi ، ماشلي (Machlyes) ، وأوسى[٤] (Auses) .

وحين جاء الدوريون مع باطّوس لتأسيس مستعمرة في قورينة ساعدهم الليبيون القاطنون أزيريس Asiris فعرضوا عليهم أن يدلوهم على المكان الذي استطاعوا أن يؤسّسوا فيه مستعمرة قورينة (-٦٣٢)[٥]. وربما كان الليبيون القاطنون حينذاك أزيريس ينتمون إلى الجيليجام[٦] ، ومن المحتمل أيضًا أن الأرض التي أقام فيها اليونانيون كانت تابعة للأسبيت. ولم يكن المستعمرون قد أحضروا معهم عددًا كافيًا من النساء مما أدّى ، كما يقول هيرودوت ، إلى زواج بعضهم بنساء ليبيات ينتمين إلى إحدى القبائل الليبية المجاورة. ويحتمل أن تكون هذه القبيلة هي قبيلة الأسبيت التي اعتبرها اليونان من «أهل الجيرة» perioikoi . وقد ضم ديموناكس «أهل الجيرة» هؤلاء إلى مواطني جزيرة ثيرا لتتكون منهم القبيلة الأولى سن القبائل الثلاث التي قسم اليها مواطنو قورينة . وقام بتخطيط المدينة ، عملاً بالدستور ، ساعيًا إلى وضع حدّ للشقاق الداخلي الذي حدث في عهد الملك باطّوس الثالث نتيجة للصراع بين المستوطنين القدامى والجدد الذين كانوا يريدون أن يشاركوهم الامتيازات نفسها[٨].

ومن الواضح أن العلاقات بين العنصرين الوطني والأجنبي في سكان قورينة وضواحيها قد اتسمت بقدر من الود والتفاهم. ولكن الموقف تغيّر حين قام الملك باطّوس الثاني (من - ٥٨٣ إلى - ٥٧٠) بمصادرة أراضي الليبيين ليعطيها للمستوطنين الجدد الذين شجّعهم على المجيء لتعزيز العنصر اليوناني في قورينة[٩]. وشنّ الليبيون الحرب على اليونان ، إلاّ أنهم هزموا واضطروا إلى الإستسلام على الرغم مما أرسله إليهم ملك مصر ، أبريس ، من جنود لمساندتهم[١٠].

وقد نشب الخلاف بين الملك التالي ، أركسيلورس الثاني ، وبين أشقائه الذين التمسوا مساعدة قبيلة أوشيس. ولم تتردّد القبيلة الليبية في اغتنام هذه الفرصة للإنتقام مما لحق بها من هوان وهزيمة ، بل أنها سعت أيضًا إلى انتزاع السيطرة على تجارة السيلفيوم من ملوك قورينة[١١]. وهزم الليبيون الملك ، ولكن هيرودوت لا يذكر شيئًا عن استعدادتهم للأرض. وكانت هذه الحروب بداية لصراع ومشاحنات مريرة لم تتوقف حتى الفتح العربي لإقليم برقة في عام ٦٤٢ ميلادية.

وفي عام - ٥١٤ قدم المكاي العون إلى قرطاجة وهزما معًا الأمير الإسبرطي دوريوس Dorieus حين جاء إلى وادي كينبس Kinyps ليقيم فيه مستعمرة إسبرطية. وفي اعتقادنا أن المكاي خاضوا المعركة ضد دوريوس لحسابهم الخاص إذ كانوا يقيمون في ذلك الجزء من أراضي ليبيا[١٢].

وتتجلّى في هذا التعاون بين قرطاجة والمكاي السياسة الودية التي انتهجتها قرطاجة تجاه الليبيين ، والتي تختلف عن سياسة اليونانيين في قورينة . فقد كانت قرطاجة حريصة على ممتلكاتها في خليج سرت وعلى الإفادة من التجارة الأفريقية التي كان الجارامانت يجلبونها إلى أسواق ليبتوس ماجنا (لبدة الكبرى) وأويا وصبراطة . ولم تحاول قرطاجة أن تتغلغل في أراضي الجارامانت كما فعل الرومان من بعد ، أو أن تسيطر على الطرق الصحراوية التي كانت تسلكها القوافل الجارامنتية في طريقها إلى هذه الأسواق . ومن هنا انزعجت قرطاجة حين تقدّم الأمير الإسبرطي إلى وادي كينبس ، وهو ما يعيد إلى الأذهان القصة المعروفة لمعبد (أرايي فيلاينوروم) Arae Philaenorum الذي اعتبر خطًّا نهائيًا للحدود بين قرطاجة وقورينة قرب منتصف القرن الرابع قبل الميلاد[١٣] .

وفي حوالى عام – ٤٤٠ انتهى عهد أسرة باطّوس . فهاجم الليبيون عددًا من المدن الإغريقية في إقليم قورينة . وقام الناسامونيون بمحاصرة يوهسبريدس (بنغازي) في إقليم قورينة وأصبحت قورينة نهبًا للإضطراب ، إذ غدت مسرحًا للصراع بين شيع مختلفة كان بعضها يلقى المساعدة من الليبيين[١٤] .

وكانت قورينة والمدن اليونانية الأخرى في إقليم برقة على أعتاب تغيرات خطيرة حين وصل الإسكندر الأكبر ، بعد فتحه لمصر في عام – ٣٣١ ، إلى مدينة بارايتونيوم (مرسي مطروح) التي تقع غرب الإسكندرية على الساحل الشمالي لمصر ، واقترب من إقليم برقة . وظنّت قورينة أن الإسكندر يزمع تدمير الإقليم ، فسارعت بإيفاد سفراء إليه يعلنون طاعتها وخضوعها[١٥] . وبعد فترة قصيرة ، تمكّن بطليموس الأول ، وكان لا يزال واليًا على مصر ، من فرض سلطته على المدينة[١٦] .

ويمكن أن نتعرّف على أحوال الليبيين تحت حكم البطالسة في إقليم برقة من بعض المصادر الأدبية والنقوش . فحسبما يذكر سكيلاكس Scylax (الذي كتب في حوالى عام – ٣٢٠) كانت القبائل الليبية الموجودة هي الاديرماشيد والمارماريد والنسامون والمكاي واللوتوفاج[١٧] . ويبدو أن سكيلاكس قد اقتصر على ذكر أسماء المجموعات الكبرى إذ أغفل أسماء الجيليجاميين والأسبيتيين والأوشيزيين والبكاليين الذين سبق لهيرودوت أن تحدّث عنهم . ومن الواضح أنه أطلق على هذه القبائل اسمًا جماعيًا هو « المارماريد » ، إذ كانوا يقطنون منطقة مارماريكا التي سميت باسمهم[١٨] .

وقد نصّ أول أحكام الدستور البطلمي ، الذي منحه بطليموس الأول لقورينة[١٩] ، على معاملة الأشخاص الذين ولدتهم نساء ليبيات لآباء من قورينة معاملة المواطنين.

وهناك نقش[٢٠] من قورينة يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد يذكر أن خمسة من قادتها العسكريين قدّموا إلى « أبوللو » عشر ما حصلوا عليه من أسلاب بعد هزيمتهم للمكاي والناسامون ، وأنهم أقاموا الستراتجيوم *(Strategium)* احتفالاً بهذا النصر .

وحين أخذ ماجاس ، ملك قورينة ، في الزحف على الإسكندرية نجحت أرسينوي الثانية زوجة بطليموس الثاني (فيلاديلفوس) في تحريض المارماريد عليه فاضطر إلى الإنسحاب من مصر[٢١] .

ونحن نعرف من مصادر مصر البطلمية أن الفرسان الليبيين في جيش بطليموس الرابع (فيلوباتروس) اشتركوا في معركة رافيا في عام – ٢١٧ ، وأن جيش البطالمة كان يضم ثلاثة آلاف مقاتل ليبي مسلّح بقيادة أمونيوس. وهو يوناني من قورينة[٢٢].

وحين توجّه بطليموس الصغير، ملك قورينة، إلى روما في عام – ١٦٣ ليشكو أخاه بطليموس الثامن (يوراجيتس الثاني)، ترك في قورينة شخصًا ليبيًا يدعى سيمبتيسيس كنائب للملك. وقد تمرّد الليبيون بقيادة نائب الملك هذا وبالتحالف مع مواطني قورينة والمدن الأخرى، على بطليموس الصغير[٢٣].

وبوجّه عام عاش الليبيون حياتهم في عهد البطالمة دون تدخّل تقريبًا وإن لم يتمكنوا – على الأرجح – من الإفلات من تحكّم الحكومة البطلمية في النشاط الإقتصادي.

وفي عام – ٩٦ انتقل إقليم قورينة، بمقتضى وصية أبيون[٢٤]، إلى الشعب الروماني. وفي حوالى عام – ٤٧ هبطت مكانة ليبتس ماجنا (لبدة) المدينة الفينيقية في إقليم طرابلس، وربما أيضًا مدينتي أويا وصبراطه، الى منزلة المدن التابعة. وعلى هذا النحو سيطرت روما على إقليمي برقة وطرابلس[٢٥].

ونحن نعتمد على سترابون وديودور وبلينيوس الكبير وبطليموس في معلوماتنا عن القبائل الليبية حتى القرن الثاني الميلادي[٢٦].

وقد استمرت القبائل الرئيسية التي ذكرها هيرودوت وسكيلاكس موجودة، على حين ظهرت أسماء قبائل أخرى مثل الجاتيول والفازان.

وفيما يتعلّق بقورينة وإقليم برقة كلّه، لم تعتبرها روما ولاية حتى عام – ٧٤/٧٥. وفي الفترة من – ٩٦ إلى – ٧٥، ابتليت قورينة بحكم إستبدادي لطاغية ليبي يسمّى أنابو Anabo . وقد سمح هذا الطاغية لرجاله بالإقامة في المدينة حتى قرّر بنفسه الجلاء عنها حين أيقن أنه يستطيع العودة إلى احتلالها وقتما شاء[٢٧].

وفي عام – ٢٧ وزّع أغسطس حكم الأقاليم بينه وبين مجلس الشيوخ. فتولى المجلس حكم إقليم قورينة الذي شكّل مع كريت ولاية واحدة، على حين ضُمَّ إقليم طرابلس إلى ولاية افريقيا[٢٨].

ومنذ بداية الحكم الروماني كان من المستحيل تجاهل حركة القبائل أو حتى الحدّ منها، إذ كان الليبيون قد اعتادوا هذه التحركات سعيًا للوصول إلى الساحل. ويمكن اعتبار هذه التحركات نتيجة طبيعية للصراع بين سكان الأراضي الصحراوية القاحلة وسكان السهول الساحلية الخصبة التي حاول الإغريق، والرومان من بعدهم، أن يمنعوا عنها الليبيين[٢٩]. كذلك كان من الصعب على الرومان أن يحملوا القبائل الليبية على التحوّل من حياة البداوة إلى الإستقرار. فقد حاولت روما إقناع

الليبيين بالإستقرار وفلاحة المزارع بالقرب من المدن الساحلية حتى يسهل على جباة الضرائب الرومانيين ممارسة عملهم.

من هنا نستطيع أن نفهم فداحة العبء الذي كان على السلطات الرومانية أن تتحمّله في إقليمي قورينة وطرابلس. فقد كان على الحكام أن يواجهوا القبائل المتمرّدة في مارماريكا وغارات الناسامونيين الأقوياء القادمين من صحراء سرت.

ولم يكن أمام القوات الرومانية سوى حل واحد هو احتلال ليبيا بكاملها، ولم يكن ذلك بالأمر السهل. فإذا كانت روما قد استطاعت احتلال السهول الساحلية بسهولة، فقد كان من الصعب عليها الإيغال في الجنوب حتى فزّان لإخضاع قبيلة الجارامانت المحاربة صعبة المرامس.

ولم يحتمل الرومان الانتظار – كما فعل الفينيقيون من قبل – وهم يرون الجارامانت يحملون السلع الافريقية إلى الأسواق، كما لم يطق الجارامانت أن يسيطر الرومان على الأراضي التي ألفوا اجتيازها بحرية في طريقهم إلى الساحل.

ومن ثم كان من المستحيل على الرومان والجارامانت تجنّب الحرب التي أصبحت السبيل الوحيد لحسم أسباب النزاع بين الطرفين.

وفي عام – ٢٠ زحف البروقنصل لوسيوس كورنليوس بالبوس بقواته على الجارامانت، فغزا إقليم فزّان واستولى على بعض المدن الجارامنتية ومنها العاصمة جراما. وأثارت هذه الحملة الناجحة التي شنّها بالبوس انزعاج الجارامانت إذ بيّنت لهم قوة روما وجعلتهم أكثر حذرًا في التعامل مع الرومان. ويمكن أن تربط هذه الحرب ضد الجارامانت بحرب مع قبيلة ليبية أخرى هي قبيلة الجايتولي (*bellum Gaetulicum*) التي جاء ذكرها في نقش من نقوش ليبتس ماجنا. وكانت هذه القبيلة تعيش في منطقة تقع في الشمال الغربي من منطقة الجارامانت وتمتد حتى توميديا[٣٠].

ويتحدّث نقش من نقوش قورينة[٣١] عن نهاية حرب مارماريكا (*polemos Marmarikos*). ولايزال تاريخ نشوب هذه الحرب موضع جدال. فإذا قبلنا الرأي القائل بأنها وقعت في عام – ٢٠، فإن معنى ذلك أن المارماريد هاجموا قورينة بمساعدة الجارامانت. ومن المعروف أن قويرينيوس Quirinius حاكم ولاية كريت وقورينة هزم هذه القبائل، مما يعني أن السلطات الرومانية كانت تعتبر الدفاع عن روما مسؤوليتها في المقام الأول. فقد أرسلت بالبوس كي يقاتل الجارامانت وقويرينيوس ليقاتل المارماريد، كما أنقذت ليبتس ماجنا في إقليم طرابلس من هجوم الجايتوليين في العام نفسه[٣٢].

وفي عهد تبيريوس Tiberius تمرّدت في نوميديا قبيلة الموسولام وهي بطن من بطون الجايتولي، بقيادة تاسيفاريناس وهو جندي نوميدي هرب من خدمة القوات الرومانية الإحتياطية. وفي عام ٢٠ الميلادي أرسل دولابلا على رأس الفرقة التاسعة الإسبانية لمساندة الفرقة الثالثة الأوغسطية،

ويبدو أن المعارك الحربية قد امتدت إلى الأجزاء الغربية من ليبيا. فقد عسكرت القوات الرومانية بالقرب من ليبتس ماجنا حتى تقطع طرق المواصلات بين الموسولامي والجارامانت. ولم يقدّم الجارامانت إلى تاسيفاريناس سوى عدد قليل من المقاتلين خوفًا من بطش روما. وعندما قتل الثائر النوميدي في عام ٢٤ الميلادي، أوفد الجارامنت بعثة سفراء عنهم ليرافقوا دولابلا إلى روما طلبًا للسلام. واستجابت روما لرجائهم مؤثرة ألا تستثير حنق الجارامانت خشية إقدامهم على أعمال عدائية. وقد سجلت مدينة ليبتس ماجنا، في إقليم طرابلس، بالإمتنان نهاية «حرب الجايتول» التي أنقذت ليبتس ماجنا من تاسيفاريناس[٣٣].

وفي عام ٦٩ الميلادي واجه الجارامانت قوات روما مرة أخرى، حين تدخّلوا في نزاع بين مدينتي أويا وليبتس ماجنا التي استنجدت بحاكم نوميديا، فاليريوس فستوس، فهب إلى نجدتها وأجبر الجارامانت على الإنسحاب. ولم يلبث أن أوقع بهم الهزيمة وتوغّل في أراضيهم سالكًا طريقًا صحراويًا مختصرًا يعرف بطريق Iter Praetor Caput Saxi [٣٤]. وبعد هذا الانتصار الذي حقّقه فستوس أدرك الجارامانت أن الحكمة تقتضي التصالح مع الرومان، وبرهنوا على صدق نواياهم بالإشتراك في حملتين رومانيتين في عهد دوميتيانوس، إحداهما الى السودان والأخرى إلى تبيستي[٣٥]. ولم يشيد الرومان، سواء بعد انتصار بالبوس (عام-٢٠) أو انتصار فستوس، أي حصون للاحتفاظ بالحاميات الرومانية كقوات دائمة[٣٦]. ولكنهم حصلوا، دون شك، على أهم ما كانوا يطمعون في الحصول عليه من أراضي الجارامانت وهو العقيق الأبيض، ذلك الحجر الكريم الذي يحدّثنا عنه بلينيوس[٣٧] والذي يقول سترابون إنه كان يستخرج من فزّان. وكانت أهم النتائج التي أسفرت عنها الحروب مع الجارامانت أنهم تحوّلوا إلى قبيلة مسالمة وأقاموا علاقات سلمية مع الرومان[٣٨].

وهكذا كف الجارامانت عن أن يكونوا مصدر تهديد للرومان، غير أنه حلّت مكانهم قبيلة ليبية أخرى هي قبيلة الناسامونيين الذين أصبحوا مصدرًا للقلاقل والفتن. فقد تمرّدوا على روما في عهد الإمبراطور دوميتيانوس وجاهروا بسخطهم على جباة الضرائب الرومان وعلى السياسة الرومانية التي كانت تجبرهم على البقاء في أراضيهم. وعلى الرغم من انتصارهم على القوة الرومانية التي أرسلت لقمعهم، فقد ارتكبوا خطأً فادحًا اذ أفرطوا في شرب الخمر بحيث تمكّن الرومان من الإجهاز على كثير منهم وتشتيت الباقين في الصحراء. وكان دوميتيانوس فخورًا بهذا النصر الذي حقّقته روما، فأعلن أمام مجلس الشيوخ أنه قضى قضاءً مبرمًا على الناسامونيين. ولم يكن ذلك صحيحًا، إذ ظلّت المصادر الرومانية تورد اسم الناسامونيين[٣٩].

وكان القرن الثاني الميلادي قرن سلام ورخاء للإمبراطورية الرومانية ولليبيا على السواء. إلاّ أن المنطقة الساحلية من إقليم طرابلس. أخذت تواجه مرة أخرى، قرب نهاية ذلك القرن، غارات من الجارامانت والناسامون. ويُقال إن الامبراطور سبتيميوس سفيروس (١٩٣ - ٢١١) جاء بنفسه لينقذ

مسقط رأسه ليبتس ماجنا. ولكن سياسة الرومان الدفاعية تغيّرت هذه المرة. فعوضًا عن مقاتلة الليبيين وردهم إلى مواطنهم في الصحراء، قام سبتيميوس سفيروس وخلفاؤه ببناء حصون دائمة وسلسلة من الخطوط الدفاعية. وكان ذلك بمثابة نظام دفاعي جديد يكفل الأمن والحماية للأسواق والمنشآت الساحلية الأخرى ومزارع الزيتون في إقليم طرابلس. وقد أقيمت الحصون على الطرق الرئيسية الثلاثة المؤدية إلى أراضي الجارامانت، ورابطت فيها فصائل من الفرقة الأوغسطية الثالثة[٤٠]. وقد أقيمت خلف هذه الحصون مستوطنات لحراس الحدود Limitanei وكانوا جنودًا من أبناء ليبيا يمنحون قطعًا من الأرض عند نهاية خدمتهم في الجيش الروماني[٤١].

وفي عام ٢٣٨ قام الإمبراطور جورديان الثالث بتسريح الفرقة الأوغسطية الثالثة، وأنيطت حماية الحصون بقوات مجنّدة محليًا.

إلاّ أن كل هذه التدابير لم تحل بين القبائل الليبية وبين شن غارات جديدة في قورينة. فهاجم المارماريد قورينة في عهد كلوديوس جوتيكوس (٢٦٨ إلى ٢٧٠)، ونجح والي مصر تناجينو بروبس، وكان خبيرًا بالصحراء، في إنقاذ المدينة وأطلق عليها اسمًا جديدًا هو كلوديو – بوليس[٤٢].

وحين رأى الامبراطور ديوكلتيان (٢٨٤ الى ٣٠٥) ضرورة إعادة تنظيم الدفاع عن الإمبراطورية كلّها، قام بفصل إقليم قورينة عن كريت، وقسم ليبيا إلى قسمين ليبيا العليا، أو البنتابوليس (المدن الخمسة) وليبيا السفلى، وحوّل إقليم طرابلس إلى ولاية منفصلة.

وفي عام ٢٩٨ الميلادي شن الإمبراطور ماكسيميان حملة على الهيلاجوا أو الإيلاجوا، إحدى القبائل الليبية في صحراء سرت[٤٣].

وفي عهد قسطنطين اعتنق بعض الليبيين المسيحية، إلاّ أنهم أصبحوا من شيعة مذهب دوناتوس. وكان هذا تعبيرًا عن مشاعرهم الوطنية إذ كان مذهب دوناتوس مذهبًا منافسًا للكاثوليكية الرسمية؛ ولكن الأدهى من ذلك بالنسبة للسلطات الرومانية في إقليم طرابلس ان السيركومولين، وهم متطرفون دوناتيون ينتمون إلى مستعمرة فقيرة بائسة، ينهبون مزارع الكاثوليك والوثنيين على السواء[٤٤].

وبعد عدّة سنوات من السلام، اجتاحت قبيلة ليبية جديدة هي قبيلة «الأوستورياني» أراضي ليبتوس ماجنا في عام ٣٦٣، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة التي تحصّنت وراء أسوارها القوية. وعلّل «الأوستورياني» هجومهم على المدينة بأنه انتقام لمقتل واحد من أبناء قبيلتهم على أيدي سلطات إقليم طرابلس. ولكنه كان – كما يقول أميانوس مارسيللوس Ammianus Marcellus (٢٨، ٦) انتقامًا رهيبًا، فقد أعملوا القتل في الفلاحين وأحرقوا كل ما استطاعت أيديهم الوصول إليه. وطلب سكان ليبتس ماجنا المساعدة من رومانوس الياور الافريقي (فيما بين عامي ٣٦٣ و ٣٧٣ من عهد الإمبراطور فالنتيان الأول (٣٦٤ – ٣٧٥). ووعدهم رومانوس بالمساعدة بشرط أن تقدّم له المدينة أربعمائة من الإبل وقدرًا كبيرًا من المؤن. وشكت المدينة رومانوس إلى الإمبراطور. ولكن

رومانوس كان على حق ، إذ كان يتعذّر عليه بغير ذلك أن يحارب الليبيين الذين أتاح لهم استخدام الإبل سرعة الكر والفر. وعاد الأوستورياني إلى تخريب الأراضي المحيطة بليبتوس ماجنا وحاصروا المدينة ثمانية أيام ثم اضطروا إلى الإنسحاب. وكان الفضل في إنقاذ المدينة ، هذه المرة أيضًا ، لحصونها القوية. ويقول البعض إن حرس الحدود انضموا إلى الأوستورياني. وأيًا كان الأمر ، فقد أدّت هذه الغارات المتواصلة إلى انهيار اقتصاد المدن الساحلية في إقليم طرابلس كما قامت هذه القبائل المحاربة بالهجوم على مدينة أويا ، ويحتمل أن يكونوا قد هاجموا أيضًا صبراطة على الرغم من أن أميانوس لم يذكر شيئًا عن غارات ضد هذه المدينة[٤٥].

وكان على منطقة « المدن الخمسة » أن تواجه هي الأخرى هجوم الأوسترياني. وأفضل مرجع في هذا الصدد هو سينسيوس ، أسقف طولميته[٤٦]. فقد شنّ الأوسترياني في بداية عام ٤٠٤ هجومًا من كل الجهات ، ويبدو أن أسلوبهم المفضّل في الحرب ، الذي استخدموه أيضًا في إقليم طرابلس ، كان هو اجتياح المناطق الريفية وفرض حصار مستمرّ على المدن. وقد خاض سينسيوس غمار هذه الأزمة ساعيًا إلى انقاذ بلاده ، فقد كان يرغب ، حسبما يقول في إحدى رسائله ، أن يتعرّف على أولئك الذين واتتهم الجرأة على مهاجمة مواطنين رومان. ويقول في رسالة أخرى له إنه كان على رأس المدافعين عن حصون المدينة وإنه اخترع مقلاعًا قام بتركيبه بنفسه لقذف الحجارة على العدو. وفي رسالته رقم ٧٣ ، الموجّهة إلى صديقه ترويلوس ، يتحدّث سينسيوس بأسى عن سوء حظ بلاده التي تواجه مصيرًا مظلمًا من جرّاء الحرب والمجاعة. وقد حاول – بمساعدة ملاك الأراضي الأغنياء في الريف – أن يحشد قوات من المتطوعين المحليين وأن يحوّل المساكن الريفية إلى حصون صغيرة ، يعتلي الحراس سقوفها كي ينبّهوا الآخرين إلى مقدم العدو. ويثني سينسيوس على أنيسيوس ، قائد القوات الرومانية الذي عيّن قبل ذلك بفترة قصيرة ، لتمكنه من هزيمة عدد كبير من الأوسترياني بقوات لا تزيد على أربعين وحدة.

غير أن فرحة سينسيوس لم تلبث أن تبدّدت. ففي عام ٤١٢ ، حلّ محلّ انيسيوس قائد غير كفء هو اينوسنتيوس. وتردّى الوضع حسبما يتبيّن من بيانه الثاني ، ذلك الخطاب الذي ألقاه لرفع الروح المعنوية لرجاله.

وكانت غارات الأوسترياني وخيمة العواقب إذ شاركتهم فيها قبيلة المازيك (mazikes) ، وهي قبيلة ليبية أخرى شاركت أيضًا في تقويض الحياة في السهل الساحلي[٤٧].

كما نشأت علاقات ودية بين مواطني قورينة وبعض القبائل الليبية ، ولا سيّما قبيلة المكاي. وكان يصرّح لأبناء هذه القبيلة بدخول البنتابوليس شريطة أن يحصلوا على إذن مكتوب من حاكمهم الذي كان فيما يبدو ضابطًا رومانيًا ، مما يدلّ على أن المكاي كانوا يخضعون لحكم عسكري روماني[٤٨].

وتوضح مدونة ثيودوسياموس (Codex Theodosiamus) (٧، ١٥، ١) أن بعض قطع الأرض في إقليم طرابلس كانت تمنح لغير الرومانيين الذين أصبحوا حرسًا للحدود والخنادق ، والذين كانوا أبناء قبائل ليبية. ويذكر أوغسطين أن بعض القبائل القاطنة بالقرب سن الحدود والتي تم اخضاعها ، لم يعد يحكمها ملوك سن أبنائها بل حكام تعينهم الحكومة الرومانية ، وسن ثم فقد اعتنقت هذه القبائل المسيحية. وربما ينطبق ذلك على الأرزوج Arzuges الذين كانوا يعيشون في إقليم طرابلس ، والذين تعهدوا للسلطات الرومانية بضمان سلامة المسافرين وأصحاب الأرض. وأغلب الظن أن الأرزوج كانوا ليبين – فينيقيين ، اذ يظهر في لغتهم تأثير قوي للغة البونية. وكان الأرزوج وثنيين ، إلاّ أن كثيرًا منهم اعتنقوا المسيحية في نهاية القرن الرابع ، وعملوا كحراس في منطقة الحدود[٤٩].

وسن الشائق أن نعلم سن مرسوم أناستاسيوس أن حركة الرومان في أرض البرابرة (أي الليبيين) كانت تخضع لقيود صارمة في إقليم قورينة[٥٠].

وقد حصّنت الهضبة العليا المحيطة بقورينة وبعض المدن الواقعة أسفلها ، مثل درنيس ومرسى سوسة ، كتدبير عسكري وقائي في مواجهة الغارات الليبية التي كان يشنّها الأوستورياني والمازيس ، بحماية توفّرها لها الطبيعة كما يوفّرها نظام بالغ التعقيد يتكوّن سن حصون وكنائس محصّنة وأبراج مراقبة ، يعرف بعضها باسم القصور ، وقد انتشر هذا النظام على نطاق واسع في العصور البيزنطية[٥١].

وخلفت قبيلة لواته القوية القبائل الليبية الأخرى في تهديد إقليمي طرابلس وقورينة. وقد أقامت لواته علاقات ودية مع الوندال الذين كانوا قد احتلوا إقليم طرابلس في عام ٤٣٩ . الاّ أن نزاعًا نشب بين الطرفين في عام ٤٧٧ ، عقب وفاة الملك جنسيريك. وقاد كاباون (Cabaon) ، زعيم لواته ، تمردًا في إقليم طرابلس. ويورد بروكوبيوس وصفًا شائقًا للمعركة التي نشبت بين الطرفين. وكان الوندال يقاتلون على ظهور الخيل بينما استخدم الليبيون الإبل ، وهُزم الوندال. ثم ألحقت قبيلة لواته هزيمة أخرى بالوندال وقامت بنهب ليبتس ماجنا. ومن المرجح أن هذه المدينة قد سقطت في عام ٦٤٣ قبل أن يتوجّه عمرو بن العاص إلى طرابلس بعد فتح قورينة.

وقد اجتاحت قبيلة لواته ليبتس ماجنا واستولت عليها بعد أن عاد البيزنطيون إلى احتلال إقليم طرابلس ، وذلك لكي تنتقم لذبح ثمانية سن وجهائها في قصر الدوق سرجيوس في عام ٥٤٣[٥٢]. وهكذا شقّت قبيلة لواته طريقها إلى قورينة حيث استقرت بدورها في سهولها الخصبة ، واتخذت من برقة عاصمة لها[٥٣].

وأصبحت قبائل لواته تمثّل بحق القوة المسيطرة داخل ليبيا وظلّت على هذا الحال حتى جاء العرب في عام ٦٤٢. وكان عمرو بن العاص من الحكمة بحيث سلّم بهذه الحقيقة الواقعة وتعاون مع لواته فتمكّن من فتح قورينة في وقت قصير.

تلك هي باختصار قصة مقاومة الليبيين للقوى الأجنبية التي احتلت أراضيهم وفرضت قيودًا على حرية حركتهم وسعت إلى ابقائهم في منأى عن السهول الساحلية.

ملاحظات

١. C. B. McBurney and R. W. Hey, *Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaïcan Libya*, Cambridge University Press, 1955; C. B. McBurney, *The Stone Age of Africa*, Harmondsworth, Pelican Books, 1960; U. Paradisi, 'Prehistoric Art in Gebel el-Akhdar (Cyrenaica)', *Antiquity*, Vol. XXXIX, No. 154, June 1965, pp. 95-101.

٢. ترد دراسة استقصائية جيدة للرسوم التي تمثل الليبيين في النقوش الفرعونية والنقوش المصرية البارزة في O. Bates, *The Eastern Libyans*, London, Macmillan, 1914; J. H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, Chicago, University of Chicag ress, 1906; N. K. Sandars, *The Sea Peoples*, London, Thames & Hudson 1978; K. A. Kitchen, *The Third Intermediate Period in Egypt c. 1100-650 B. C.*, Warminster, Airs & Phillips, 1973

٣. 'Expedition of the University of Pennsylvania, Spring 1963', *Bulletin of the University Museum of the University of Pennsylvania*, Vol, 5, No. 5

٤. Herodotus, IV. 168-86; S. Gsell, *Herodotus, Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord*, pp. 66 ff., Algiers, Typographie A. Jourdan, 1915; W. W. How and J. Wells, *A Commentary on Herodotus*, pp. 356-62, Oxfor University Press, 1967.
كان هيرودوت يعتبر جميع سكان شمال افريقيا ليبيين انظر:
J. Desanges, *Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité à l'ouest du Nil*, Dakar, Université de Dakar: Section d'Histoire, 1962

٥. ترد قصة تأسيس قورينة بالتفصيل في الكتاب الرابع لهيرودوت. Herodotus, IV. 148 ff.

٦. هيرودوت، الكتاب الرابع، ١٦٩.

٧. Ibid., IV. 170; How and Wells, op. cit., pp. 355, 357

٨. A. H. M. Jones, *The Cities of the Eastern Roman Provinces*, p. 353, Oxford, Clarendon Press, 1937; cf. F. Chamoux, *Cyrène sous la Monarchie des Battiades*, p. 221, Paris, 1953 الذي يرى أن أهل الجيرة *perioikoi*، هم الوافدون الجدد من اليونان. ولاحظ روزنبوم E. Rosenbaum السمات الليبية في بعض تماثيل قورينة، E. Rosenbaum, *A Catalogue of Cyrenaican Portrait Sculpture*, pp. 8, 22, London, Oxford University Press, 1960.
وتظهر بعض الأسماء الليبية بين أسماء مواطني اليونان، الاّ أن شامو، المرجع سالف الذكر، يعتبر ذلك استثناء.

٩. هيرودوت، الكتاب الرابع، ص ١٥٩.

١٠. المرجع نفسه.

١١. المرجع سالف الذكر، الكتاب الرابع، ١٦٠. ساعدت هذه القبيلة أشقاء الملك في تأسيس برقة (المرج الحديثة).

١٢. *CAH*, Vol. III, pp. 684; cf. Chamoux, op. cit., pp. 162 ff

١٣. *Sallust, Jug.*, Vol. LXXIX; C. Dulière, 'Les Autels des Philènes dans le fond de la Grande Sytre', *Correspondance d'Orient*, 8-9, 1965-66, pp. 17-26; R. Goodchild, 'Arae Philaenorum and Automalax', in J. Reynolds (ed.). *Libyan Studies*, pp. 155-72, London, 1976

١٤. Diodurus Siculus, XIV, 34

١٥. Ibid., XVII, 49. M. Cary, *A History of the Greek World, 323-146 B.C.*, p. 12, London, Methuen, 1972

١٦. Diodorus Siculus, XVII, 21 انظر عن الحكم البطلمي : J. Machau, 'Cyrène à l'Époque Hellénistique', *Rev. Hist.*, 1951, pp. 41-55

١٧. O. Bates ، المرجع سالف الذكر ، ص ٥٥. وكان سكيلاكس Scylax هو اول من ذكر المارماريد ولكنه لم يذكر الجيليجاميين. فلم يذكر هذا الاسم سوى هيرودوت.

١٨. انظر : Bates, op. cit; Desañges, op. cit., p. 163; How and Wells,op. cit., p. 356

١٩. *SEG*, IX، تناول هذا الدستور بالبحث علماء كثيرون من بينهم ريناش : S. Reinach, 'La Charte Ptolémaïque de Cyrène', *Rev Arch.*, Vol. XXVI, 1927, pp. 1-30; M. Cary, 'A Constitutional Inscription from Cyrene', *JHS*, Vol. XLVIII, p.222-38. (وهو مقال جيد، إلاّ أن ترجمته لبعض أحكام الدستور تحتاج إلى اعادة نظر)، وأولفريو : G. Oliverio, 'Documenti di Cirene Antica', *Rivista di filogia classica*, Vol. VI, No. 2-3, 1928, pp. 1928, pp. 183-222; Jones, op. cit., No. 9, p. 485

٢٠. *SEC*, IX. 77

٢١. Cary, op. cit., p. 85

٢٢. Polybius, v. 65, 5; cf. G. T. Griffith, *The Mercenaries of the Hellenistic World*, pp. 188 f., Cambridge University Press, 1935

٢٣. A. Rowe, *A History of Ancient Cyrenaica*, supplement to *Annales du Service des Antiquités de l'Égypte*, No. 12, pp. 41 ff., Cairo, 1948

٢٤. *SEG*, IX. 7; M. N. Tod, 'Greek Inscription III', *Greece and Rome*, Vol. II, No. 4, October 1952, pp. 47-51

٢٥. D. E. L. Haynes, *An Archaeological and Historical Guide to the Pre-Islamic Antiquities of Tripolitania*, pp. 33 ff., Tripoli, 1959

٢٦. انظر Bates, op. cit., pp. 55-56 حيث ترد مقتطفات من كتابات هؤلاء المؤلفين.

٢٧. S. I. Oost, 'Cyrene 96-74 B.C.', *Classical Philology*, Vol. LVIII, No. 1, pp. 11-25. Cf. Plutarch

٢٨. P. Romanelli, *La Cirenaica Romana (96 a.c.-642 d.c.)*, p. 50, Verbania, 1935

٢٩. يذكر بلينيوس الكبير (التاريخ الطبيعي ١٩ – ٤٠) أنه في عام ٩٣ ق.م. «تمّ إرسال ثلاثين رطلاً من السيلفيوم من قورينة إلى روما باسم الدولة. وعثر قيصر على خمسين ألف رطل من هذا النبات في الخزانة العامة». ويحتمل أن يكون هذا المقدار أتاوة كما قد يكون هدية من حكومة قورينة فإذا كان أتاوه يحتمل أن تكون قد فرضت على السكان المحليين «انظر Oost ، المرجع سالف الذكر ، الصفحة ١٣.

٣٠. C. M. Daniels, 'The Garamantes of Fezzan' *Libya in History*, Historical Conference, Benghazi, 1968, pp. 261-71; M. I. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Roman Empire*, 2nd ed., p. 338, Oxford Univerrsity Press, 1963; J. M. Reynolds, *The Inscriptions of Roman Tripolitania*, No. 301, Rome 1952

٣١. *SEǦ*, IX, 63

٣٢. Rostovtzeff, op. cit; R. Syme, 'Tacifarinas, the Musulamii and the Thubursicu', in

Studies in Roman Economic and Social History, pp. 113-30, Princeton University Press, 1951

٣٣. تمثل احدى لوحات الفسيفساء في زليطن أسرى حرب من الجايتول بعد قتلهم بوحشية في المدرج. انظر: Rostovtzeff, op. cit.: Syme, op. cit.

٣٤. Tacitus, *Historia*, IV, 49-50, Pliny, *Natural History*, V. 38 يحتمل أن يكون فاليريوس فيستوس قد حقق انتصاره على الجارامانت بعد انقضاض مباغت استخدم فيه الابل، انظر: O. Brogan, 'The Camel in Roman Tripolitania', *PBSR*, Vol. XXII, 1954, pp. 126-31 (p. 128); R. Goodchild, 'Oasis of Legio III on the Routes to Fezzan', *PBSR*, Vol. XXII, 1954, p. 56

٣٥. انظر الحاشية ٣٤.

٣٦. Daniels, op. cit.

٣٧. Pliny, *Natural History*, V

٣٨. انظر: E. W. Bovill, *The Golden Trade of the Moors*, p.45, London, Oxford University Press, 1970

٣٩. Haynes, op. cit., p. 39

٤٠. انظر الدراسة المتميزة التي أجراها جودتشايلد ووارد بيركينز، والتي أعاد نشرها رينولدز في *Libyan Studies*, Nos, 2, 3, 4, 5, 13, 15, London, 1976

٤١. انظر الحاشية ٤٠.
تجدر الاشارة إلى أن حرس الحدود استخدموا أحرفًا لاتينية في كتابة نقوشهم البونية. انظر: R. Goodchild, «Roman Sites on the Tarhuna Plateau of Tripolitania», pp. 72-93.,
انظر المرفق الأول في الدراسة نفسها الذي كتبه S. Leir Della Vida

٤٢. *SEG*, IX. 9; cf. R. Goodchild, 'Deline of Cyrene and Rise of Ptolemais', in Reynolds (ed.), op. cit., p. 225.

٤٣. Haynes, op. cit., p. 57 ويقرن اسم هذه القبيلة، في المصادر البيزنطية، باسم قبيلة لواته.

٤٤. D. E. L. Haynes, op. cit., p. 55 f; R. H. Warmington, *The North African Provinces from Diocletian to the Vandal Conquest*, Cambridge, pp. 66 ff., Cambridge University Press, 19

٤٥. Warmington, op. cit., pp. 9 f., 19; Bates, op. cit., 237; A. H. M. Jones, 'Frontier Defense in Byzantine Libya', *Libya in History*, op. cit., pp. 289-97 (p. 290); J. M. Reynolds, The Austuriani and Tripolitania in the Early Fifth Century', *The Society of Libyan Studies, 8th Annual Report, 1976-1977*, p. 13

٤٦. لا بدّ من دراسة قورينة وسينسيوس معًا في هذه الفترة، وقراءة رسائله بتمعّن حتى يمكن الإلمام على نحو جيد بالفترات العصيبة التي عانت فيها قورينة وعانى فيها سينسيوس من وطأة ضغط الأوستورياني. ويمكنني الإشارة إلى رسائله التي ترجمها أ. فتزجيرالد وكذلك إلى مقالاته وأناشيده. انظر:
A. Fitzqerald, *The Letters of Synesius of Cyrene* Oxford University Press, 1926; *The Essays and Hymns of Synesius of Cyrene*, Oxford University Press, 1930; R. Goodchild, 'Synesius of Cyrene Bishop of Ptolemais', in Reynold (ed.). op. cit., pp. 239-54

٤٧. Jones, '*Frontiers Defence...*,' op. cit., p. 293

٤٨. R. Goodchild, 'The Limes tripolitanus II', in Reynolds (ed.), op. cit., pp. 36 f

٤٩. Jones, 'Frontier Defence'..., op cit.

٥٠. D. J. Smith, «The Centenaria of Tripolitania and their Antecedents», *Libya in History*, op. cit., p. 229 FF.

٥١. Bates, op. cit., pp. 67 ff.; Haynes, op. cit., pp. 62 f.; Procopius, *Wars*, IV, 21, pp. 1-22, 13-20; 28, pp. 48-57: *Buildings*, VI. 4, pp. 6-9; D. I. Mattingley. 'The Laguatan: A Libyan Tribal Confederation in the Late Roman Empire', *Libyan Studies*, Vol. 14, 1983, pp. 96-186

في هذا المقال ، يعبر ماتنجلي Mattingly بوضوح عن فكرته القائلة بأنه في أواخر العهد الروماني ظهر اتحاد قوي من القبائل الليبية يحمل اسم Laguatan أو Leuathae أو «لواته» ، وان هذا الإتحاد كان تحالفاً بمعنى الكلمة بين نوعين رئيسيين من القبائل : البربر الجدد الذين هاجروا من الشرق والسكان الأصليين للواحات الصحراوية في قورينة وإقليم طرابلس. ويفضل ماتنجلي استخدام اسم Laguatan وصيغة جمع ليبية للدلالة على اسم هذا الاتحاد المكوّن من قبائل ليبية ، رغم أن بروكوبيوس والمؤلّفين العرب قد استخدموا اسم لُواته (بضم اللام) أو لَواته (بفتح اللام). وتجدر الإشارة إلى ما أوضحه ماتنجلي من أن أداة الحرب الرئيسية التي استخدمتها هذه القبائل كانت الخيل وليس الإبل.

٥٢. R. Goodchild, *Cyrene and Apollonia*, p. 28

٥٣. R. Goodchild, 'Byzantines, Berbers and Arabs in Seventh Century Libya', in Reynolds (ed.), op. cit., pp. 255-267

الهجرات السامية إلى ليبيا وشمال إفريقيا

ب. هـ. وارمنجتون

كان استقرار الفينيقيين على امتداد معظم سواحل المنطقة التي تشغلها الآن دول ليبيا وتونس والجزائر والمغرب هو أكبر حركة للساميين نحو غربي البحر المتوسط قبل الفتح العربي. وعلى الرغم من أننا نعرف الشيء الكثير عن تاريخ فينيقيا وثقافتها خلال عصر البرونز، أي إلى حوالى عام – ١٢٠٠، فإن الوضع في بداية عصر الحديد أقل وضوحًا، بحيث لا نجد مناصًا من اللجوء إلى الإفتراضات لتفسير أسباب حركة الاستعمار التي اضطلعت فيها مدينتا صور وصيدا بدور بارز. فلن نجد شيئًا له قيمة تاريخية في الروايات الأسطورية الواردة في المصادر اليونانية والرومانية، التي تتركّز في المقام الأول على شخصية «ديدو» وتتجلّى فيها الأغراض التبريرية والشعرية الشائعة في كثير من التخمينات الهيلّنستية عن أصول المجتمعات غير اليونانية. ومن المحتمل أن ضغط السكان على الموارد المحدودة، بما استتبعه من توترات إجتماعية، كان له دور ما في هذه الحركة، ولكن الأمر الذي له دلالته هو أن حركة الإستعمار هذه قد عاصرت، أو ربما سبقت بقليل، حركة أخرى نعرفها معرفة أفضل وهي حركة انتقال اليونان إلى سواحل أخرى في البحر المتوسط والبحر الأسود. ولا بدّ أن الدافع وراء هاتين الحركتين كان هو البحث عن المواد الخام، ولا سيّما المعادن، اللازمة للمجتمعات المتنامية في بداية عصر الحديد بعد أن استنفدت المعادن الموجودة في الرقعة المحيطة بها. وكانت شبه جزيرة ايبيريا تحتوي على موارد هامة من الفضة والقصدير والحديد. ويكاد يكون من المؤكّد الآن أن رحلات الفينيقيين إلى جنوبي إسبانيا سبقت استقرارهم في المغرب الكبير.

وقد حدّد المؤرّخون القدامى تاريخ انشاء مدينة قادمس بعام – ١١١٠، ومدينة أوتيكا، التي تقع بالقرب من قرطاجة، بعام – ١١٠١، بل لقد قيل أيضًا أن ليكسوس (العرائس في المغرب الحالية) أقدم من قادمس. وليست هناك شواهد أثرية حاسمة تحدّد تاريخ هذه المنشآت الموغلة في القدم. أما التاريخ الذي حدّد لتأسيس قرطاجة، وهو عام – ٨١٤، فتؤكّد المواد التي عُثر عليها أثناء الحفريات في المقابر أنه قريب من الواقع إلى حدّ معقول، وذلك على الرغم سن عدم وضوح طبيعة ومركز ما يسمّى بـ «رسابات التأسيس» (foundation deposit) . وربما كانت المواد الاثرية التي عُثر عليها في أوتيكا تعود إلى الفترة المبكرة نفسها. أما بالنسبة للأماكن الأخرى فلم يعثر حتى الآن إلاّ على قليل جدًا من المواد التي يسبق تاريخها القرن السابع قبل الميلاد.

وقد اقتضت حركة الفينيقيين نحو غربي البحر المتوسط إقامة مستوطنات على الطريق البديل إلى اسبانيا ، وهو طريق صقلية وسردينيا وجزر الباليار ، ولكن موقع قرطاجة الذي ترجع أهميته إلى قربها من أضيق نقطة في البحر المتوسط ، ربما كان محدّدًا منذ البداية . وكان اسمها باللغة الفينيقية هو «قرت– حدشت» أي المدينة الحديثة . ومن المحتمل أن المجتمعات الفينيقية في الغرب ظلّت حتى القرن السادس قبل الميلاد مرتبطة بموطنها الأصلي ، على خلاف المستعمرات اليونانية التي حقّقت استقلالها الذاتي منذ وقت مبكر . وكان ظهور قرطاجة واحتلالها مكان الصدارة بين تلك المجتمعات ، ثم تحوّلها إلى قوة إمبراطورية مستقلة تقوم على التفوّق البحري في غربي البحر المتوسط ، راجعًا من ناحية إلى خضوع فينيقيا للبابليين ثم الفرس ، ومن ناحية أخرى إلى ضرورة التصدي لمنافسة المستعمرات اليونانية ولا سيّما الموجودة منها في صقلية . وتاريخ العلاقات الخارجية للقرطاجيين هو ، في المقام الأول ، تاريخ محاولاتهم إقامة نظام تجاري متماسك أو خاضع لسيطرتهم الصارمة في المنطقة الواقعة غربي خط يمتد بين عنابة وصقلية وجنوبي خط يمتد بين بالرمو وكاجلياري وجزر الباليار ، وذلك للتصدي – أول الأمر – للإغريق في صقلية ثم للرومان بعد ذلك . وحقّقت هذه السياسة ، بطابعها الذي يكاد يكون دفاعيًا بحتًا ، نجاحًا كبيرًا فيما بين القرن السادس والقرن الثالث قبل الميلاد . وقد تميّزت قرطاجة ، على خلاف ما عاصرته من المدن – الدول الإغريقية والإيطالية – باعتمادها في جيشها (وليس في أسطولها) على جنود مرتزقة . وكان هذا راجعًا إلى ثرائها فضلاً عن عدم وجود تهديد دائم لها من جيرانها في المغرب الكبير .

وكانت قرطاجة وإمبراطوريتها أهم مثال للمجتمعات القديمة التي استطاعت أن تستمد ثروتها من التجارة . وهذه التجارة ، التي كان قوامها المنسوجات والمعادن غير المشغولة والعبيد ثم المواد الغذائية ، لا يمكن تقدير حجمها نظرًا لطبيعتها القابلة للبلى . بيد أن إنتاج المصنوعات الصغيرة كان كبيرًا وهامًا ، لأن أكثر أنواع التجارة إدرارًا للربح كان يتمثّل في الحصول على مواد خام ثمينة ، من شعوب أقل تقدّمًا ، مقابل سلع قليلة القيمة . وفضلاً عن ذلك ، كانت التجارة القرطاجية مع العالم اليوناني والإيطالي واسعة على الرغم من الصراعات . وربما كان السبب في عدم العثور على مواد أثرية مقطوع بانتمائها إلى الفترة المبكرة يرجع إلى حالة الحفريات وصعوبة التعرّف على هوية المواد الفينيقية المبكرة . إلاّ أنه نظرًا لما درج عليه الملاّحون القدامى من الرسو ليلاً ، ولبطء سرعة السفن ، فإنه يحتمل أن الفينيقيين قد أقاموا منذ بداية حركتهم مراسي على امتداد ساحل الشمال الافريقي ، بفاصل يقرب من خمسين كيلومترًا بين المرسى والآخر ، وقد تحوّل كثير من هذه المراسي إلى مستعمرات دائمة . وكانت المواقع المفضّلة هي الجزر الصغيرة أو الشواطئ الرملية ذات النتوءات التي تساعد على حمايتها .

ومن المعروف جيدًا أن معظم المحلات الفينيقية كانت محدودة الرقعة إذا ما قورنت بالمحلات

اليونانية ، وإن كان لا ينبغي مع ذلك المبالغة في هذا التباين على الأقل في منطقة البحر الأسود حيث كان كثير من المؤسسات اليونانية بالغ الصغر في بداية عهده واستمرّ كذلك. ويقضي بنا هذا الصغر في مساحة المستوطنات الفينيقية إلى استنباط نتيجتين رئيسيتين : الأولى أن السكان الأصليين (ويطلق عليهم في هذا البحث اسم الليبيين) لم يبلغوا في هذا العهد من المنعة العسكرية ما يقتضي أن تكون المستعمرات كبيرة إلى حدّ يكفل لها الدفاع عن نفسها. والثانية ضرورة وجود قدر من التعايش بين المستعمرين الفينيقيين والسكان الأصليين ، اذ لا يبدو أن المستعمرين قد خصّصوا في الفترة الأولى جانبًا كبيرًا من مواردهم البشرية للزراعة ، وذلك إذا استثنينا قرطاجة التي سنتناولها فيما بعد. وهذه العلاقة الوثيقة بين السكان الاصليين وبين المستعمرين كانت ركيزة أساسية للتأثير الثقافي الذي أحدثه الفينيقيون في سكان المغرب.

وعلى الرغم من ضآلة عدد المستوطنات التي أقيمت في الأراضي التي أصبحت تُعرف الآن باسم ليبيا ، فقد كان لها أهمية خاصة في التاريخ العام للمنطقة. فقد بلغ التغلغل الثقافي حدًّا جعل المنطقة التي عُرفت فيما بعد باسم Arae Philaenorum، والتي كانت تمثّل حدًّا فاصلاً بين المنطقة الواقعة تحت السيطرة الفينيقية وبين الإغريق في قورينة ، تظلّ قائمة كفاصل يفصل بين ولاية افريقيا الرومانية وبين قورينة لعدّة قرون تالية. وكانت المستوطنة الرئيسية هي ليبتس ، التي أصبحت في العصر الروماني ليبتس ماجنا ، والتي كوّنت مع مدينتي «صبراطة» و «أويا» المدن الثلاثة (African Tripolis)لولاية افريقيا. وترجع أقدم المواد التي أمكن تحديد هويتها إلى القرن السادس قبل الميلاد. وأصبحت ليبتس المركز الإداري لمنطقة ساحلية فسيحة في خليج سرت. ونظرًا لضيق شريط الأرض الواقع بين البحر والصحراء ، ولقلّة عدد السكان الأصليين ، فإن من الطبيعي أن نربط أهمية ليبتس ، وكذلك صبراطة وأويا ، بموقعها على نهاية أقصر طريق من البحر المتوسط ، عبر الصحراء إلى فزان ووسط النيجر وأعاليه. وكانت نقطة انطلاق الحملات الرومانية إلى غدامس وما بعدها ، كما كانت فيما يُقال نقطة انطلاق لشخص قرطاجي يدعى ماجو قام بهذه الرحلة ثلاث مرات. ومن سوء الحظ أن الشواهد المتاحة لنا ، سواء كانت أدبية أم أثرية ، لا توضح طبيعة التجارة التي كانت فيما يعتقد في أيدي الجارامانت . وثمة إشارة إلى الأحجار الكريمة – العقيق الأبيض والفيروز والعقيق الأحمر – إلاّ أن من الممكن أن تكون هذه التجارة قد شملت الذهب أيضًا. فمن المعروف جيدًا أن الأشياء المجلوبة الغريبة والخفيفة الوزن كانت مصدرًا لأرباح وفيرة في التجارة القديمة ، وثمة دليل على ذلك في إقليم طرابلس يتمثّل في قيام السكان الفينيقيين بإعادة بناء ليبتس على الطراز الروماني في عهد أغسطس. وهي في ذلك تشبه تدمر (Palmyra) التي اعتمد ثراؤها إلى حدّ كبير على جلب السلع الغريبة من الشرق البعيد إلى عالم البحر المتوسط. وكان نطاق هذه التجارة كبيرًا برغم العوائق السياسية. وفيما يتعلّق بليبتس والمدن المرتبطة بها ، لم تكن هناك عوائق سياسية ، ولكن العوائق

الطبيعية كانت دون شك هائلة. ومما له دلالته أن القرطاجيين والليبيين اشتركوا معًا في إحباط محاولة قام بها اليونان للاستقرار بالمنطقة في عام ٥١٤ قبل الميلاد.

ويحدّثنا هيرودوت عن محاولتين للدوران حول افريقيا. أولاهما محاولة الملك المصري نخاو (حوالى عام – ٦١٠ الى عام – ٥٩٤) الذي أرسل بحارة فينيقيين في البحر الأحمر للقيام برحلة من الشرق إلى الغرب. ويقول هيرودوت، الذي يعتقد بصدق هذه القصة، إن الرحلة استغرقت عامين. وإذا كانت هذه الرحلة قد نجحت، فلا بدّ أن قرطاجة قد سمعت بها، مثلما عرفت بمحاولة فاشلة في الإتجاه العكسي في القرن الخامس قبل الميلاد قام بها – حسبما يقول هيرودوت أيضًا – أمير فارسي بسفينة وبحارة حصل عليهم من مصر وأبحر في مضيق جبل طارق، ثم جنوبًا على الساحل المغربي، واجتاز بالتأكيد الحدّ الجنوبي للصحراء الكبرى قبل أن يضطر إلى العودة. وفي هذا الإطار ينبغي ان تُدرج أيضًا رحلة قام بها شخص يدعى «هانّو» – ربما كان ينتمي إلى عائلة كبرى في قرطاجة – على امتداد الساحل الغربي لافريقيا. وحين نأخذ في الإعتبار كل النقد الذي وجّهه الباحثون (وواقع الأمر أن أخبار رحلته كانت موضع شك في العصر الروماني)، فليس في الإطار العام ما يصعب تصديقه وإن كان هناك الكثير مما يصعب تصديقه في التفاصيل. ومن المفترض بوجه عام، أن هدف الرحلة كان استكشاف موارد الذهب في غربي افريقيا، فقد وصف هيرودوت طريقة المقايضة التي كانت تستخدم في هذه التجارة والتي ظلّت مستخدمة أيضًا في الفترة العربية وفي أوائل العصر الحديث. إلاّ أنه من الصعب أن نفهم كيف يمكن أن تظل هذه التجارة مجهولة في العصر الروماني. ومن الوجهة الأثرية، كانت أهم إضافة إلى معارفنا هي اكتشاف مواد فينيقية في جزيرة الصويرة، وهي موقع لا غنى عنه في أي طريق بحري يواصل الإتجاه جنوبًا. كذلك من المؤكّد أن طنجة وليكسوس قد أقيمتا منذ عهد مبكر وأن التغلغل الثقافي الفينيقي في الأراضي الداخلية للمغرب الأقصى كان عميقًا حتى حدود فاس.

وفي حدود معرفتنا الحالية، يصعب في كثير من الأحيان أن نعرف على وجه اليقين ما إذا كانت مواقع محدّدة عرفت بأنها فينيقية الطابع – سواء للعثور على بضعة آثار بها أو لاستمرار الثقافة الفينيقية فيها حتى العصر الروماني – قد أنشئت إبّان فترة الهجرة الأولى من فينيقيا أم بعد تبوء قرطاجة للقيادة وقيامها بإنشاء مستوطنات أخرى خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. فقد قيل على سبيل المثال أن سوسه (Hadrumetum) كانت مؤسسة فينيقية منذ البداية، ولكننا لا نعرف شيئًا عن الفترات الأولى لأماكن أخرى مثل Gigthis أو قابس Tacapae أو Thaenae أو تبسة Thapsus، التي تقع في المنطقة نفسها. ومن المحتمل، قياسًا على العصر الروماني، أن جانبًا من ثروة بعض هذه المدن، كان مستمدًا من صيد الأسماك.

إن مركز القيادة الذي تبوأته مدينة قرطاجة لم يكن سياسيًا فحسب بل كان اقتصاديًا

وديموغرافيًا أيضًا. فحسبما يذكر سترابون كان مجموع سكان المدينة (باستثناء المنطقة المعروفة باسم الميجره) يبلغ ٧٠٠ ألف نسمة، وهو رقم قد لا يكون مقبولاً. فقياسًا على التقديرات التي وضعت لحجم الأسطول الذي كانت قرطاجة تستخدمه في معاركها في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، يرجّح أن سكانها كانوا يماثلون عدد سكان أثينا في الفترة نفسها، أي ما يتراوح بين ٤٠٠ ألف و ٥٠٠ ألف نسمة. ولم يصل إلى هذا التعداد سوى سراقوسه في صقلية، وهو يفوق عدة مرات عدد السكان في أية بلدة فينيقية أخرى قديمة كانت أم جديدة. وسن الشائق أن نلاحظ أن نفس التضخم في عدد سكان «العاصمة» بالمقارنة مع المدن الأخرى كان ملحوظًا في قرطاجة في العصر الروماني. وكان لا بد أن يؤدّي نموّ السكان، عبر مراحل لم يعد من الممكن تبيّنها، إلى الإستغلال المباشر لأراض واسعة، كان أولاها بلا شك عنابة. ومن المقطوع به أن السيطرة المباشرة قد امتدت خلال القرن الخامس قبل الميلاد، غربًا وجنوبًا، نحو خط يمتد تقريبًا بين طبرقه(Thabraca) و Thaenae وقد بهر الرخاء الذي تحقّق نتيجة لذلك أجاثوكليس السيراقوسي في القرن الرابع قبل الميلاد، وبعد تدمير قرطاجة ترجم إلى اللاتينية كتاب في الزراعة وضعه مؤلّف قرطاجي يدعى ماجو. وقد فقد هذا الكتاب، ثم ترجمت مقتطفات بيزنطية منه إلى العربية في اسبانيا في العصرر الوسطى. وكان أهم الأنشطة الزراعية زراعة الفواكه والحبوب وغرس أشجار الزيتون وتربية الماشية. وعلى حين كانت بعض المزارع التي أقامها القرطاجيون تعتمد على عمل الأرقاء، يبدو من المحتمل أن قدرًا كبيرًا من الأرض كان في أيدي الأقوام الأصليين والقرطاجيين أنفسهم. وكانت تقنيات الإستغلال ترتكز على التقنيات التي استقرت منذ أمد طويل في المناطق الخصبة في سوريا ولبنان.

وكان أثر الفينيقيين على ثقافة الشعوب الأصلية في الشمال الافريقي عميقًا وطويل الأمد. فعلى امتداد القرون، عمل آلاف لا حصر لهم من السكان في الجيوش المرتزقة التي كان يقودها ضباط من القرطاجيين، سواء كمجندين من المناطق الخاضعة لهم أو كمرتزقة. وتصاهر القادة القرطاجيون مع عائلات شيوخ القبائل الليبيين لأسباب سياسية، في القرن الثالث قبل الميلاد، وربما كان هذا التصاهر أكثر شيوعًا بين بقية السكان. والصروح الكبيرة للقرنين الرابع أو الثالث قبل الميلاد، فثل أضرحة مزورا Mzora ومدرسين Medracen، لا تبيّن لنا فحسب التأثير الفينيقي على العمارة المعاصرة، وإنما تنمّ أيضًا عن حدوث تغيرات إجتماعية وإقتصادية بين الشعوب الأصلية، أدّت إلى تكوين بنى قادرة على تعبئة موارد كافية لتنفيذ أعمال ضخمة. وفي النهاية ظهرت الدول المنظمة مع انهيار قرطاجة بعد الحرب البونية الثانية (– ٢١٨ / ٢٠٢). وشجّع ماسينيسا، الذي حكم جانبًا كبيرًا من المنطقة التي تحوّلت فيما بعد إلى ولاية نوميديا الرومانية، اتجاه رعاياه نحو الأخذ بحياة زراعية مستقرة، كما شجّعهم بوجه خاص على الإقبال على زراعة محاصيل الحبوب. وفي ذلك الحين، أصبحت الصورة المتأخرة للغة الفينيقية، أو ما يعرف باسم «البونية الحديثة»، لغة التعامل على

امتداد الشمال الأفريقي ، فاستخدمت على العملات المحلية وصروح المدافن ، وتغلغلت الديانة والفن الفينيقيان تغلغلاً عميقًا. واتخذت عاصمة ماسينيسا ، سرتا (قسنطينة في الجزائر الحالية) ، سمة المدينة الحقيقية ، كما أخذت البوادر الأولى للتحضّر تتبدّى في أماكن أخرى. وكان كثير من السكان قد فرّوا ، قبيل تدمير قرطاجة (– ١٤٦) وبعده مباشرة ، إلى أراضي نوميديا أو إلى موريتانيا في الغرب ، مما أدّى إلى تعميق أثر الثقافة الوافدة. كما ينبغي ألا يغيب عن الذهن أنه على الرغم من تدمير قرطاجة ، ظلّ عدد من المحلات الفينيقية ، ومنها أوتيكا ، قائمًا. ولما كان اهتمام روما المباشر في الشمال الافريقي قد انحصر ، بعد تدمير قرطاجة ، في الأجزاء الشمالية من تونس ، فقد أُتيح لمملكتي نوميديا وموريتانيا الأصليتين أن تتمتعا بوضع شبه مستقل ، على أقل تقدير ، كدول موالية لروما. وتتجلّى قوة المزيج الثقافي الفينيقي – الليبي في الطريقة التي شق بها الكثير من المراكز السكانية طريقه نحو التحضّر في استقلال عن المهاجرين الإيطاليين الذين توافدوا باعداد كبيرة في عهدي قيصر وأغسطس. وكان هناك أكثر من ثلاثين محلة – تمتد من فوليبيليس إلى ليبتس ماجنا – تستخدم اللفظ الفينيقي «سوفت» كلقب تطلقه على حكامها حتى نهاية القرن الأول الميلادي ، كما ظلّت التسميات الفينيقية قائمة إلى ذلك العهد. وإذا كانت الثقافة اللاتينية قد أخذت تسود بعد ذلك ، فمن المشكوك فيه أن تكون جملة المهاجرين من إيطاليا قد تجاوزت عدد الفينيقيين في الفترة السابقة ، على الأقل في أراضي تونس الحالية.

وقد أثارت الحمية الدينية القرطاجية عداء الإغريق والرومان نظرًا لاستمرارها طويلاً في تقديم القرابين البشرية ، وهو ما تشهد عليه مقابر «التوفيت» *(tophets)* التي عُثر عليها في قرطاجة وسوسه وسرتا ، حيث كان رماد الموتى يوضع في جرار تدفن تحت شواهد منقوشة. وكان الإله الرئيسي في الديانة الفينيقية ، التي تقوم على تعدّد الآلهة ، هو «بعل هامون» ، إلاّ أن الإلٰهة «نيت» ، التي يحتمل أنها ذات أصل ليبي ، كانت تعبد هي الأخرى على نطاق واسع. وقد انتشرت هذه العبادات كما انتشر استخدام «التوفيت» في كل أنحاء الشمال الافريقي. وفي العهد الروماني اقترن بعل هامون بساتورن ، لا بجوبيتر ، بينما ازدهرت عبادة تانيت تحت اسم سايلستيس. واستمرت ، منذ بداية العصر الروماني وحتى نهايته ، تسميات الآلهة السائدة في المحلات الفينيقية مع وضع صيغ لاتينية لكثير من الأسماء. وكثيرًا ما يُقال إن الحمية الدينية التي عرفها الشمال الافريقي ، سواء في مستهل العصر المسيحي أو بداية العصر الإسلامي ، تستمد أصولها من الحقبة الفينيقية ، أو تناظر – على أية حال – الحمية الدينية خلال تلك الحقبة.

وقد حدثت ، إبّان الحكم الروماني لشمال افريقيا ، زيادة طفيفة في العناصر السكانية الساميّة الأصل ، وجاءت هذه الزيادة من مصدرين : فكان جل الوافدين من المناطق السورية – أي من «ولاية سوريا» الرومانية في المقام الأول – وإن كانوا قد شملوا أيضًا عناصر من «ولاية بلاد العرب»

التي ضمّها الإمبراطور تراجان. وإذا كانت الشواهد على وجود السوريين مستمدة من مادة النقوش وحدها، اذ تظهرهم كأكبر مجموعة بين الوافدين إلى الشمال الافريقي باستثناء الإيطاليين، فإن غلبتهم تبدو حقيقية وإن كانت راجعة – جزئيًا – لسهولة التعرّف عليهم نتيجة لانفرادهم بتسميات خاصة. ونحن نجدهم في المناطق الرومانية في الشمال الافريقي، بما فيها فوليبيليس ومواقع أخرى في موريتانيا الطنجية. ومن الطبيعي أن يعزى قدوم عدد كبير من المهاجرين من المنطقة السورية إلى الفرص التجارية التي كانت متاحة في الشمال الافريقي ولا سيّما ابتداءً من القرن الثاني الميلادي فصاعدًا. ولكن ليس هناك من الشواهد ما يبيّن أنهم شكّلوا عنصرًا ظاهرًا في الطبقات المالكة للأرض. على أنه ينبغي أن يُضاف إلى هؤلاء التجار، الجنود السوريو الأصل في عدد من الوحدات المتخصّصة للخيالة والقوّاسين التي عرفتها الولاية في القرن الثالث الميلادي. وكان من الطبيعي أن توجد هذه الوحدات، التي اختيرت اختيارًا موفقًا لتولي واجبات الحراسة على بعض الخطوط الافريقية في جنوبي نوميديا، في Lambaesis و Calceus herculis و Castellum dimmidi، أي في أقصى نقطة بلغتها السيطرة الرومانية.

أما المعلومات عن العناصر اليهودية، فهي مستقاة من الأدب (والتكهنات) أكثر مما هي مستقاة من النقوش. وقد اورد تاسيت رواية مجهولة المصدر تقول إن اليهود الذين طردوا من كريت استقرّوا في ليبيا، ولكننا نجد هذه الرواية ضمن مجموعة من الروايات المماثلة عن التاريخ المبكر لليهود والقائمة على التخمين والشائعة لدى بعض من أدعياء العلم في العالم القديم، وهي رواية تفتقر إلى السند التاريخي. فالمؤلّفون اليونان واللاتين لم يقرأوا الترجمة السبعينية للكتاب المقدّس، بل أنهم كانوا يجهلون أيضًا مؤلّفات فلافيوس يوسفيوس. ونحن لا نعرف أي شيء عن عناصر يهودية في سكان قرطاجة الفينيقية، وإن كان هذا لا ينفي بطبيعة الحال وجود مثل هذه العناصر. وفي العصر الروماني، يورد التلمود أسماء حاخامات في قرطاجة يمكن إرجاعها على وجه اليقين إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين. وثمة إشارات في أعمال كثيرة لتوتليان (القرن الثالث) يمكن أن يستشف منها وجود عدد غير قليل من السكان اليهود في قرطاجة، ويشير كتاب لاحقون (أوغسطين وجيروم) إلى وجود يهود في Oea و Simitthus و Uzalis و Hippo Regius. وكانت هناك مقابر لليهود في جامرت، خارج مدينة قرطاجة، وربما أيضًا معابد يهودية صغيرة في حمام – ليف وليبتس ماجنا. أما مادة النقوش، ولا سيّما في جامرت، فتظهر غلبة واضحة للغة اللاتينية والتسميات اللاتينية، على الرغم من أن هناك بعض الأسماء المعروفة مثل هارون ويوسف ويهودا. وتشير الشواهد إلى أن العنصر اليهودي في شمال افريقيا خلال العصر الروماني قد جاء من يهود الشتات، ولا سيّما من إيطاليا (بما فيها روما نفسها)، ولم يأت من أرض يهودا. وقد تركّز هؤلاء في شمالي تونس، ولعلّنا لا نعدو الصواب إذا قلنا أن كثيرين منهم كانوا يمارسون أنشطة تجارية، شأنهم شأن السوريين.

ومنذ ما يقرب من أربعين عامًا ، استشهد م. سيمون في كتابه *Le Judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne* (اليهودية البربرية في افريقيا القديمة) بنص مشهور لابن خلدون تحدّث فيه عن بعض البربر ، لا سيّما في أورمس والمغرب الحديثة، الذين اعتنقوا اليهودية على أيدي يهود سوريا. وقد ارتبط هذا الزعم بسلسلة نسب تقول بانحدار البربر من كنعان بن حام بن نوح. ويقول سيمون إن هذه القصة نشأت بين اليهود المتمردين الذين هربوا في أعقاب حركة العصيان اليهودي الكبير في برقة ، في عهد هادريان ، متجهين نحو المناطق الداخلية في الشمال الافريقي ، وقد ساعدهم انطباع السكان بالطابع الفينيقي على نشر دينهم بين الأقوام الأصليين. ولو صحّ ذلك لكان هؤلاء البربر المتهودون صلة الوصل بين العصرين الفينيقي والإسلامي . إلاّ أنه ليست هناك أية شواهد أخرى تؤيّد هذا الإفتراض ، فليس ثمة ما يدل على وجود أي مستوطنات يهودية خارج المنطقة الساحلية. ويمكن القول ، بوجه عام ، إن ما نعرفه عن ديانة البربر لا يؤهّلنا للحكم على مدى دقة ما أورده ابن خلدون. والواقع أنه إذا كانت ثمة صلة بين العصرين الفينيقي والإسلامي ، فإن هذه الصلة ينبغي أن تلتمس في مجتمعات السكان المختلطين للمراكز الحضرية ، ولا سيّما في تونس ، ذلك أن هذه المجتمعات ظلّت قائمة حتى القرن الحادي عشر الميلادي.

أضواء جديدة على التمييز بين آمون ليبيا وزيوس قورينة

أحمد حسن غزال

يذهب الباحثون المحدّثون مذاهب شتى في تفسير المصادر الأدبية اليونانية التي تتناول عبادتي «آمون» و «زيوس» في ليبيا. فبندار يربط، في مستهل النشيد الأول من أناشيده البيبية، بين أصل قورينة (برقه) وبين جزيرة ثيرا، وهو ما يتّضح من كلمات «ميديا» التي تقول[١]:

Φαμὶ γὰρ τᾶσδ' ἐξ ἁλιπλάκτου
ποτὲ γᾶς 'Επάφοιο κόραν
ἀστέων ῥίζαν φυτεύσεσθαι μελησίμβροτον
Διὸς ἐν Ἄμμωνος θεμέθλοις.[1]

ويترجم سانديز هذا النص على النحو التالي:

'For I aver that, from this wave-washed land of Thera, the daughter of Epaphos — Libya — will, in days to come, find planted in her a root of cities that shall be fostered of men near the foundations of Zeus Ammon'.

«ذلك أني أجزم أنه من أرض ثيرا هذه التي تغسلها الأمواج، سوف تلقى ابنة ايبافوس — ليبيا — نفسها في مقبل الأيام وقد انغرست فيها شجرة من المدن يقوم على رعايتها الرجال بالقرب من الأراضي الموقوفة على زيوس آمون»[٢].

وفي ضوء هذه الترجمة يقرّر بارك أن ما يعنيه الشاعر بـ «زيوس آمون» هو زيوس المعبد الدوري العظيم في قورينة[٣]. على حين يقرّر فينّيل في تفسيره لهذه الجملة أن ما يعنيه بندار بـ «زيوس آمون» هو آمون الذي كان له معبد في سيوه[٤]. ويقول بنفس الرأي كونواي الذي يعتقد أن الإله المقصود هو «زيوس آمون» إله المعبد الذي كان موجودًا بشرقي ليبيا[٥].

ومن الواضح أن هذين التفسيرين المتباينين ناجمان عن تفسير الجملة الأخيرة في عبارة الشاعر: 'Διὸς ἐν Ἄμμωνος θεμέθλοις' والتي تترجم إلى «بالقرب من الأراضي الموقوفة على زيوس آمون». ولكننا نجد أنفسنا أمام احتمالات لا حصر لها. فإن أخذت هذه الجملة على حدة لكان معناها «لزيوس بالقرب من الأراضي الموقوفة على آمون» وعلى ذلك تكون الترجمة الحرفية

المقترحة لهذه الفقرة «ذلك أني أجزم بأنه من أرض ثيرا هذه التي تغسلها الأمواج ، سوف تجد ابنة ابافوس – ليبيا – نفسها في مقبل الأيام وقد انغرست فيها شجرة من المدن تلقى حب زيوس بالقرب من الأراضي الموقوفة على آمون»[٦] . وعندئذٍ يصبح من الواضح أن الشاعر يعني هنا زيومس الذي بُني له معبد في برقة بالقرب من أراضي آمون. فكلمة 'θεμέθλοις' هي لفظة عامة يقصد بها أراضي آمون المقدّسة في شمال افريقيا[٧] ، حيث كانت تعبده القبائل الليبية. ومن هنا يتبيّن أن بندار يميّز بين الإلٰهين[٨] .

وكان التمييز بين آمون ليبيا (في سيوه) وزيومس قورينة واضحًا للكتاب الكلاسيكيين. فهم لا يستخدمون العبارة اليونانية 'Ζεύς "Αμμων' التي ينسبها بعض الباحثين المحدّثين خطأً إلى بندار وهيرودوت نتيجة لشيوع الترجمة التقليدية[٩] .

ونظم بندار أيضًا نشيدًا في مدح آمون ليبيا وأرسله إلى كهنة آمون[١٠] . ومطلع هذه القصيدة هو '"Αμμων 'Ολύμπου δέσποτα' ومعناه : «أي آمون سيد الأوليمب»[١١] . وقد نقش هذا النشيد على لوح مثلّث الأضلاع وضع بجانب المذبح الذي أهداه بطليموس الثاني[١٢] الى آمون في معبده بسيوه[١٣] . والجدير بالملاحظة هنا أن الشاعر أرسل النشيد إلى كهنة آمون في معبد سيوه ولم يرسله إلى معبد زيوس في قورينة[١٤]. ومن الواضح أن بندار كان يجل آمون وينزله نفس منزلة زيومس رب الأوليمب. بل أنه أقام معبدًا لآمون في مدينة طيبة ووضع فيه تمثالاً نحته المثال كالاميس[١٥] .

لقد حظي آمون سيوه بمكانة عظيمة نتيجة لأهميته في المستعمرات اليونانية في ليبيا خلال القرن الخامس قبل الميلاد. وعبارة 'νή τὸν ἡμέτερον θεὸν τὸν "Αμμωνα' التي يضعها أفلاطون في إحدى محاوراته على لسان تيودورس القوريني ، ومعناها «إلٰهنا آمون»[١٦] ، تؤكّد أن آمون كان هو الإلٰه الرئيسي في المنطقة[١٧] .

وحين أراد سكان قورينة أن يقدّموا هدية لمعبد دلف ، اختاروا تمثالاً لآمون وهو يركب العجلة الحربية[١٨] . وكان هذا التمثال هدية من أركسيلاوس الرابع بمناسبة فوز فريق قورينة ببطولة سباق العجلات في الألعاب البيثية التي أُقيمت في دلف عام – ٤٦٢[١٩] ، والذي تبعه نصر آخر في الألعاب الأوليمبية عام – ٤٦٠[٢٠] .

وكان عرّاف معبد آمون يستشار رسميًا في قورينة كما كان سكانها يستشيرونه في أمورهم الخاصة[٢١] . وقد أنبأ عرّاف المعبد ايوبوتاس القوريني بنصره المقبل في الألعاب الأوليمبية ، فقام بناءً على تلك النبوءة بإعداد تمثال لنفسه مقدّمًا ، وحين أعلن فوزه أهدى التمثال في اليوم نفسه في أوليمبيا عام – ٤٠٨[٢٢] .

وكان اعتناق عبادة آمون ثمرة من أوائل ثمار السياسة الجديدة التي انتهجها المستعمرون اليونانيون في عهد باطّوس الرابع ، ومن هنا ظهرت رأسه الملتحية يعلوها قرنا الكبش على عملات

قورينة ثم على عملات المستعمرات الأخرى[٢٣]. وترجع النماذج الأولى لهذه العملات القورينية إلى قرابة عام – ٥٠٠[٢٤]. وهو ما يبيّن أساسًا استقرار العلاقات بين اليونانيين والقبائل الليبية التي نهضت بدور رئيسي في تنمية اقتصاد المستعمرات اليونانية في عهد باطّوس الرابع.

وكان الليبيون من عبدة آمون يشكّلون قبائل قوية، ظلّت لفترة طويلة[٢٥] تنتشر في رقعة شاسعة من الصحراء الغربية تمتد من النوبة إلى ساحل افريقيا الشمالية. وكانت هذه القبائل تسيطر على طريق القوافل الذي يربط بين دارفور والواحات المختلفة[٢٦]، وهو ما يعني أنهم نهضوا بدور هام في نقل التجارة من الجنوب إلى الشمال عبر الواحات الغربية، في الوقت الذي تردّى فيه وضع مصر كمركز للتجارة أثناء الفتح الأشوري.

وقد دفع هذا النشاط الذي اتسمت به طرق القوافل العابرة للواحات الغربية ميلن Milne إلى الإعتقاد بأن هذا النشاط هو الذي اقتضى إقامة المستعمرات اليونانية على الجانب الشرقي لليبيا بالقرب سن الساحل الجنوبي للبحر المتوسط حيث أقيمت قورينة في عام – ٦٣١[٢٧].

وتتجلّى المكانة المرموقة التي حظي بها آمون في امتداد نفوذه إلى بلاد اليونان ذاتها. وقد تحقّق ذلك بطبيعة الحال نتيجة لنشاط الملكين الأخيرين من أسرة باطّوس، اللذين بذلا جهودًا كبيرة لتعزيز العلاقات مع بلاد اليونان، ولا سيّما من خلال التجارة والمشاركة في المهرجانات اليونانية، حيث أصبح الإله يعرف باسم «آمون ليبيا».

ومن المعروف أن اللاكيدايمونيين كانوا أكثر اليونانيين التماسًا لنبوءة آمون في سيوه، ويوجد في لاكونيا معبدان للإله آمون، الأول في اسبرطة والثاني في جيثيون[٢٨]. وكان أهالي أفيتيس لا يقلّون في إجلالهم لآمون عن عبدة آمون في ليبيا، ويُقال إن آمون تجلّى لليساندر، الجنرال الإسبرطي، أثناء الليل وطلب منه وقف القتال ضد أهالي أفيتيس[٢٩].

وكان الايليون يستخدمون العرّاف في ليبيا ولا يسكبون النبيذ لآلهة اليونان فحسب بل ولآمون أيضًا. كما كانوا يهدون مذابح إلى معبد الإله[٣٠]. وقد نُقشت أسئلتهم وردود الإله وأسماء الرجال الذين زاروا المعبد من ايليس، على هذه المذابح الموجودة في معبد آمون[٣١].

ويقول بلوتارخ إن أول من استشار آمون في أثينا هو كيمون، وكان ذلك في عام – ٤٥١ خلال حملته على قبرص[٣٢]، إلاّ أن هذه الإستشارة قد أحيطت بالسرية ولم يعرف أحد الغرض من ايفاد رجال كيمون إلى آمون. وقد توفي كيمون بينما كان رجاله يؤدون مهمتهم المقدّسة. ويحتمل أن يكون كيمون قد حاول الحصول على نبوءة مؤاتية من آمون[٣٣].

وتتواتر شواهد كثيرة في النقوش ابتداءً سن القرن الرابع قبل الميلاد، تبرهن على الولاء المتزايد لعبادة آمون في أثينا[٣٤]. وتوجد رأس برونزية في متحف اللوفر[٣٥]. وهي تتميّز بقرون الكبش التقليدية التي كانت السمة المميزة لآمون. ويبلغ ارتفاعها نحو ثلاث بوصات وتنتهي بحلقة مما يبيّن بوضوح أن

هذه الرأس كانت زخرفًا يتدلّى من شيء آخر أكبر حجمًا. وثمة اعتقاد بأن هذه الرأس جاءت من دودونا، ويوحي طرازها بأنها ترجع إلى وقت يناهز منتصف القرن الخامس قبل الميلاد[٣٦]. ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أن الصورة التقليدية للإله ذي الرأس البشرية التي تعلوها قرون الكبش تعد فكرة قورينية[٣٧]. ومن ثم يتبيّن أن هذه الرأس قد صنعت في ظلّ التأثير القوريني وأغلب الظن أنها أهديت الى معبد آمون في دودونا.

وإذا انتقلنا من أراضي اليونان إلى المستعمرات اليونانية في ليبيا، وجدنا أن المستوطنين استمروا في عبادة آمون في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. واتخذت العملات صورة ثابتة بوجه عام، فأصبحت تحمل على أحد وجهيها نبات السيلفيوم ورأس آمون الملتحية يعلوها قرنا الكبش على الوجه الآخر[٣٨].

وكانت الصورة الإغريقية لآمون هي التي اختيرت لكي تظهر على العملات. وقد ظلّت صورة آمون تظهر على العملات بوصفه الإله الرئيسي للمنطقة[٣٩]، حتى عندما ظهرت صورة زيوس ليكايوس على عملات قورينة بعد منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

وامتدت عبادة زيوس إلى قورينة وشيّد معبد مهيب على الطراز الدوري فوق ربوة زيوس ليكايوس في شمال شرقي قورينة[٤٠] وأهدي إلى الإله. ويبدو أن تشييد هذا المعبد كان جزءًا من برنامج باطّوس الرابع، وأنه أقامه لأسباب سياسية حين قرّر، بعد فترة طويلة من الصراعات الداخلية المدمّرة، إحياء تقاليد المجتمع اليوناني بالنسبة لجميع المستوطنين في المنطقة سعيًا إلى إعادة العلاقات الوثيقة مع اليونان[٤١].

ومع ذلك فانه حتى ما بعد منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، لم يتم اختيار زيوس لكي تظهر صورته على عملات قورينة، وحين وقع عليه الاختيار ظهر بصورته كإله يوناني وليس كإله ليبي.

ولا شك أن أعظم حدث في تاريخ آمون وعرافه في سيوه هو زيارة الإسكندر الأكبر لسيوه في بداية عام – ٣٣١. ويمكن الإعتقاد أنه لشدة انبهار الإسكندر بالخلفية التاريخية العظيمة لآمون وبالهيبة التي ظلّ عرّافه يتمتّع بها في عالم البحر المتوسط، قرّر أن يزور معبده الشهير.

ملاحظات

١. Pindar, *Pythian* IV, 14, 15

٢. Pindar, *Pythian*, IV. 14, 15 ، ترجمة J. E. Sandys, *Works*, London, Heinemann, 1968. (Loeb Classic Library.) (أعيدت طباعته في عام ١٩٦٨).

٣. H. W. Parke, *The Oracles of Zeus, Dodon, Olympia, Ammon,* p. 207, 1967

٤. C. A. M. Fennel, *Pindar, The Olympian and Pythian Odes,* p. 171, 1897

٥. G. S. Conway, *The Odes of Pindar*, p. 107, London, Dent, 1972

٦. من المعروف أن كثيرًا من أسر الأمراء في اليونان أعلنت أنها سليلة زيوس، «أب الآلهة والبشر»، انظر: L. Whibley. *A Companion to Greek Studies*, p. 304, 1906

٧. انظر: Fennel, op. cit., p. 171, and Conway, op. cit., p.107

٨. بالنسبة لهذه الدراسة، انظر أيضًا أحمد غزال، «الخلفية التاريخية لآمون وعبادته في الوحدات الغربية والمستعمرات اليونانية في ليبيا قبل الإسكندر الأكبر»، **نشرة كلية الآداب**، جامعة الإسكندرية، الجزء ١٦ (١٩٧٨)، الصفحات ١٠٣ – ١٢٦.

٩. انظر O. Bates, *The Eastern Libyans*, p. 190, London, Macmillan, 1914 (أعيدت طباعته في عام ١٩٧٠). انظر أيضًا: W.W. Tarn, *Alexander the Great*, Vol. II, *Sources and Studies*, p. 349, 1948

١٠. W. J. Slater, *Lexicon to Pindar*, p. 39, 1969

١١. المرجع سالف الذكر.

١٢. المرجع سالف الذكر.

١٣. Pausanias, IX. 16.1، من الواضح ان بوسانياس زار واحة سيوة بالفعل. (انظر ايضًا: Parke، المرجع سالف الذكر، الصفحا ٢١١).

١٤. انظر غزال، المرجع سالف الذكر، الصفحا ١٢٠.

١٥. Pausanias, IX. 16.1

١٦. Plato, *Politics*, 2576

١٧. أ. غزال، المرجع سالف الذكر، الصفحا ١٢١.

١٨. Pausanias, X. 13.5

١٩. B. M. Mitchell, 'Cyrene and Persia'. **مجلة المجتمع التاريخي**، العدد ٦٨ (١٩٦٦)، الصفحة ١٠٨.

٢٠. المرجع السابق نفسه، الصفحتان ١٠٩ – ١١٠.

٢١. Strabo, I. 49.56

٢٢. Xenophon, Hellenica, I. 2, 1; Diodorus Siculus, XIII. 68, 1 انظر أيضًا: Parke، المرجع سالف الذكر، الصفحة ٢١٢.

٢٣. انظر: E. S. G. Robinson, *A Catalogue of Greek Coins in the British Museum, Cyrenaica*, 1927, pp XXIII XXXV, CCXXXIII, Pl. III. 1, 2.

٢٤. انظر المرجع السابق.

٢٥. المرجع سالف الذكر، Bates, op. cit., pp. 101-2

٢٦. A. Fakhry, *Bahria Oasis*, Vol. 1, p. 27, 1942

٢٧. G. Milne, 'Trade between Greece and Egypte before Alexander the Great, *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. 25, 1939, pp. 177fff. وتلقى نظرية ميلس قبولاً من فخري (المرجع سالف الذكر، الصفحا ٢٧)، على حين يرفضها شامو، انظر: F. Chamoux, *Cyrène sous la monarchie des Battiades*, pp. 60 ff., Paris, De Boccard, 1953.

٢٨. Pausanias, III. 18.3, 21.8

٢٩. Pausanias, III. 18.3

٣٠. Pausanias, V. 15.2

٣١. Pausanias, V 1..11

٣٢. Plutarch, *Kimon*, 18.7

٣٣. انظر : Parke المرجع سالف الذكر، ص ٢١٥.

٣٤. *IG*, 112, 1415, 1.617; A. M. Woodward, *BSA*, Vol. 27, 1962, pp. 5-6; Parke, op. cit., p. 217

٣٥. متحف اللوفر، رقم ٤٢٣٥.

٣٦. انظر : Parke ، المرجع سالف الذكر، ص ٢٠٧.

٣٧. Robinson, op. cit., p. CCXXXIV

٣٨. Cf. C. Seltman, *Greek Coins*, p. 183, London, Spink & Son, 1977

٣٩. انظر : Robinson, op. cit., p. CCXXXIV, Pl. XIII, 31, 18, 25 ؛ انظر ايضًا : C. M. Kraay and M. Hirmer, *Greek Coins*, p. 380, Pls. 215-16

٤٠. أشار هيرودوت إلى ربوة زيوس ليكايوس الواقعة في شمال شرقي قورينة (الجزء ٤ ، ٢٠٣). فقد زعم أن الفرس عسكروا في هذا المكان لدى عودتهم من برقة.

٤١. انظر : Mitchell ، المرجع سالف الذكر، ص ١١٣ ؛ Parke ، المرجع سالف الذكر، ص ٢٠٤.

الاتصالات المحتملة بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر من القرن الأول إلى القرن السابع الميلاديين

ج. أ. إليفبار

تنصبّ هذه الدراسة على جزء من افريقيا يقع بين الحوض الأوسط لنهر النيجر والوادي الأوسط لنهر النيل، ويمتد من سنسندنج Sansanding غربًا إلى الخرطوم شرقًا، ويشمل من أقاليم الدول الحديثة مالي والنيجر وتشاد والسودان والأجزاء الشمالية من فولتا العليا ونيجيريا. وهذه المنطقة قليلة الأمطار في أيامنا هذه، فلا تغشاها سوى السافانا السودانية في الجنوب على حين تقع أجزاؤها الشمالية في منطقة السهل والصحراء الكبرى. ولكن هناك من الشواهد ما يبيّن أنها كانت أغزر مطرًا في أوائل الألف الأول بعد الميلاد، وأن مواقع مثل كومبي، عاصمة مملكة غانا القديمة، وتمبكتو وحوض بحيرة تشاد، كانت تدخل في نطاق السافانا السودانية، وأن الغطاء النباتي في الشمال، عند هضبة تبستي، كان من الوفرة بحيث يكفي لتربية الإبل بل وأنواع أخرى من الماشية الكبيرة الحجم كالحمير والخيول والأبقار[١]. وعلى هذا النحو، كان الجزء الواقع في الصحراء الكبرى، حتى الخط الذي يمرّ بتبستي وتنيري وعير، تسوده الظروف التي تسود منطقة السهل الآن. وسوف تتناول الدراسة التالية هذه المنطقة في وقت كان يغشاها فيه العشب والشجيرات مما جعل الإتصال أيسر منه في أيامنا هذه.

وفي منابت العشب الفسيحة هذه ظهرت الممالك القديمة لغانا ومالي والسنغال وكانم. ومن المرجّح أن مملكتي غانا وكانم قد ظهرتا بين القرنين الأول والسابع الميلاديين، وكان لغانا علاقات تجارية – وربما بعض النفوذ السياسي أيضًا – امتدت حتى ساحل الأطلسي[٢]. أما كانم، التي كانت تقع في حوض تشاد، فقد وصلت علاقاتها التجارية حتى دارفور في السودان. وفي السودان نفسها قامت مملكة كوش التي كانت مروى (ونباته أحيانًا) عاصمة لها. وظلّت مملكة كوش قائمة ألف عام (من – ٦٥٠ الى +٣٥٠) تتمتع بدرجات متفاوتة من الإزدهار، وارتبطت طيلة فترة وجودها بعلاقات تجارية وثقافية مع كردفان ودارفور غربًا، ومع مملكة أكسوم (وموقعها أكسوم الحالية في أثيوبيا) شرقًا والتي انتهى بها الأمر الى تدمير مملكة كوش في عام ٣٥٠.

ولم يكن عبور السافانا السودانية ميسورًا فحسب، بل كانت هناك أيضًا خطوط اتصال طبيعية على امتداد مجاري المياه الدائمة والموسمية، لا سيّما في القطاع الشرقي بين نهر النيل وبحيرة تشاد.

فوادي الملك يجري من منطقة زنقور في كردفان ليلتقي بالنيل عند الدبا بالقرب من دنقله. ومن الميسور الوصول إلى زنقور من الفاشر في دارفور. ويبدأ وادي هور في طاما (تمح القديمة)[٣] في دارفور، ويسير بحذاء درب الأربعين، الذي يصل ما بين أسيوط في مصر وعين فرح في دارفور من خلال واحة الخارجة، ثم يتّجه نحو وادي الغاب ليختفي بعد ذلك في الصحراء. ويصبّ وادي الغاب في النيل عند كرمه على مقربة من دنقله أيضًا. وترتبط اينيدي في شمال – غربي دارفور بتبستي عبر طرق تمرّ بواحتي سليمه والمرجا[٤]. كما كانت توجد خطوط مماثلة للاتصال بين دارفور وتشاد، وكانت لا تزال مستخدمة في عام ١٢٤٠ م حين ادّعى الملك «دوناما» ملك كانم أنه يسيطر على جميع الطرق التجارية بين مملكته وبين دوي (أدو في جزيرة ساي بالنيل).

ومن المعروف – كما سبقت الإشارة – أن الخيل والحمير والإبل كانت تستخدم في كانم وتبستي وأجزاء أخرى من الصحراء الكبرى في القرن الأول الميلادي. وقد أثبت شو أن الحمار – مثله مثل الجمل – يمكن أن يتكيّف مع البيئة الصحراوية[٥]. وهكذا كان الإتصال ممكنًا، حتى لو افترضنا أن المنطقة كانت صحراوية.

وتوخيًا للوضوح واليسر، سوف نقسّم بقية المناقشة إلى ثلاثة أجزاء، نتناولها منطقة بعد أخرى: أدوليس – أكسوم – كوش، ثم كوش – دارفور، ودارفور تشاد – جنى / جنو / غانا. ونظرًا لضآلة الشواهد المتاحة، سوف يصعب أن نلتزم حدود القرون السبعة الأولى سن التاريخ الميلادي. فلا بد في بعض الأحيان من القاء نظرة عامة تشرف على رقعة فسيحة من الزمان والمكان، حتى نستطيع أن نتبيّن العلاقات التي قامت داخل الأقاليم وفيما بينها خلال تلك الفترة.

أدوليس – أكسوم – كوش

كانت مدينة أكسوم، عاصمة المملكة الإثيوبية القديمة، تقع في شمال هضبة الحبشة فيمَا يعرف الآن بإقليم تجره، على بعد مائة وعشرين ميلاً سن ميناء أدوليس على البحر الأحمر. وعلى الرغم من أن المصادر الإغريقية – الرومانية لا تورد شيئًا عن أكسوم قبل القرن الأول الميلادي، فقد بدأ المكتشفون والتجار المصريون واليونان، بعد فترة قصيرة من موت الاسكندر الأكبر، في زيارة المملكة من خلال ميناء أدوليس الجديد، وذلك في عهد بطليموس الثاني والثالث[٦]. وحسبما يروي المؤلف المجهول لكتاب «دليل الملاحة في البحر الأحمر» *Periplus of the Erythraean (Red) Sea* كان كل العاج المجلوب سن الأراضي الواقعة وراء النيل، يأتي في ذلك الوقت من سنار إلى أدوليس، عبر كوهايتو وأكسوم، ومن أدوليس كان يصدَّر إلى أنحاء الإمبراطورية الرومانية[٧]. وأصبحت أدوليس مركزًا تجاريًا هامًّا مع اتّساع تجارة الرقيق والذهب والعاج وصدف السلاحف وجلود الحيوان وقرون الخرتيت

ومنتجات أخرى لإثيوبيا وكوش ووسط افريقيا. وفي مقابل ذلك كانت أكسوم وكوش تحصلان على سلع فاخرة مثل الملابس المصرية وأزياء النساء والعباءات الملوّنة والعباءات الكتانية ذات الكنار المزدوج والمصنوعات الزجاجية والمرّ والنحاس الأصفر والأحمر الذي كان يستخدمه الصنّاع المحليون لصناعة الحلى وأواني الطهْي والأساور والرماح والفؤوس والسيوف والأكواب والعملات. ومن الهند كان يجيء الحديد والمصنوعات القطنية الراقية وأصباغ الملابس وحلى أخرى[٨]. وكانت الأطباق الذهبية والفضية والعباءات العسكرية والمعاطف المصنوعة من الفراء ترمل خصيصًا إلى البلاطات الملكية. ومن الطبيعي أن تستتبع هذه الروابط التجارية إقامة علاقات دبلوماسية بين أكسوم ومروي.

لكن العلاقات بين أكسوم وكوش لم تكن دائمًا ودية. فقد أخذت أكسوم، ابتداءً من القرن الثاني، في التوسّع غربًا على حساب كوش. وهناك أربعة نقوش أكسومية تروي قصة هذا التوسّع من القرن الثاني إلى القرن الرابع. ويصوّر أحد هذه النقوش، وهو يعود إلى القرن الثالث، مراحل توسّع أكسوم في الأراضي الواقعة بين أكسوم ومروي بما فيها النوبا السوداء في منطقة سنار والجهات المنتجة للذهب في جنوب غربي أكسوم. ومن الواضح أن هدف هذا التوسّع كان هو السيطرة على مناجم الذهب وطرق القوافل إلى مروى وما بعدها. وتزامن هذا التوسّع الأكسومي مع الفتن والمنازعات الأهلية التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية في ذلك القرن وأدّت إلى انفصال مملكة تدمر الصغيرة. وقبضت القوات الرومانية في مصر في عام ٢٧٤ على مرتزقة تدمريين من أكسوم. وجاء هذا التوسّع، في أعقاب تدهور كوش التي كانت قد فقدت «جزيرة مروى» إلى النوبا السوداء[٩]. وفي أوائل القرن الرابع أرمل ملك أكسوم حملة ضد النوبا[١٠]. وكان الهدف النهائي هو الإستيلاء على كوش. وفي عام ٣٥٠ حقّق الملك ايزانا هدفه المنشود، واستطاع أن يعلن سيادته، لا على «جزيرة مروى» وحدها، بل على مملكة كوش بكاملها[١١]. واضطرّ الأمراء المخلوعون إلى الفرار غربًا إلى دارفور.

كوش – كردفان – دارفور – اينّيدي

إن الرسوم الصخرية المتماثلة التي عُثر عليها في وادي النيل واينّيدي وتيبستي وفزان تشير إلى قيام صلات مبكرة تعود إلى العصر الحجري الأوسط، فيما بين جماعات الصيد والقنص في النصف الشرقي لما يُعرف الآن بالصحراء الكبرى[١٢]. وقد أسفر التحليل البتروجرافي لشظايا الأواني المكسورة، التي عُثر عليها في مواقع شديدة التباعد مثل خشم القربة، على الحدود السودانية الأثيوبية، والخرطوم والدبة ووادي حلفا ووانيانجا في تشاد وأمكني ومنية في هضبة الهجار، عن تماثل يوحي باستمرار هذه التفاعلات خلال العصر الحجري الحديث[١٣].

وربما كان أقدم الشواهد المكتوبة على التجارة بين كوش ودارفور هو ما نجده في النقوش[١٤]

الموجودة في مقابر ملوك الأسرة السادسة المصرية (– ٢٤٢٣ / – ٢٢٤٢). وفي عهد هؤلاء الملوك، وبخاصة مرنرع الثاني وبيبي الثاني، قام قادة القوافل بعدة رحلات في اتجاه الجنوب الغربي إلى مملكة يام وأرض التمحو، اللتين يحدّد أركل (١٩٦١، ص ٤٣) مواقعهما الحالية بدارفور وتاما على التوالي[١٥]. وكان حرخوف أحد أولئك القادة، وقد أمضى ثمانية شهور في رحلة من الرحلات العديدة التي قام بها. ويبدو أنه سار على درب الأربعين، من أسيوط إلى الواحات الخارجة ثم إلى الفاشر. ولكن رحلة العودة أكثر أهمية بالنسبة لنا. ففي إحدى رحلاته سلك حرخوف في طريق عودته طريق إرتت ومخر وتيريروس، وفي رحلة أخرى عاد بصحبة دليل من يام عبر أراضي إرتت وستو وواوات. ولا بدّ أنه اصطحبه عبر وادي هور ووادي الغاب إلى كرمه، ثم إلى أراضي النوبيين، الواوات، بين الجندلين الثاني والثالث، ومنها إلى الفنتين حيث يستطيع أن يبحر في النيل عائدًا إلى بلاده. وهذا الدليل الذي اصطحبه من يام، يوضح وجود صلات منتظمة بين طاما ودارفور واينّيدي من ناحية وكوش من ناحية أخرى، من خلال طريق ربما كان واحدًا من طرق الإتصال الطبيعية العديدة التي لا بدّ وأنها ظلّت مستخدمة حتى عصر السيارات والسكك الحديدية. وبعد ذلك بسبعمائة عام، أغار ملك مصري آخر هو تحتمس الرابع (– ١٤٢٥ / ١٤٠٥) على أراضي الإرم والجورس والترك، وهي أسماء ترتبط بدارفور[١٦]. ولا بدّ أن ملوك الأسرة المصرية الخامسة والعشرين (–٧٢٥/–٦٦٠) الكوشية الأصل، قد دعموا التجارة مع تلك المنطقة التي يحتمل أنهم ضموها الى كوش.

وعاد حرخوف ومعه ثلاثمائة حمار محمّلة بالبخور والأبنوس وجلود النمور والعبيد والذهب والعاج. وتشبه هذه السلع بدرجة تسترعي الإنتباه السلع التي كانت تشكّل الجانب الأكبر سن التجارة بين كوش وأكسوم أثناء الفترة من – ٣٠٠ إلى +٣٥٠ على نحو ما ورد فيما تقدّم. ومن المغري استنادًا إلى هذا الدليل، القول بأن تجار كوش وأكسوم لم يزد نشاطهم على مواصلة التجارة التي ظلّت جارية مع وسط افريقيا حتى دارفور واينّيدي طوال أكثر سن ألفي سنة. ولسنا نعرف ما أعطاه حرخوف مقابل هذه السلع، غير أنه يلكن أن نفترض، بناءً على ما كان يتلقاه ملوك أكسوم وكوش بل والأمراء الأفارقة في القرون من الخامس عشر إلى التاسع عشر في مواقف مماثلة، أنه كان يقدّم سلعًا كمالية مكلّفة كالسلع المذكورة أعلاه.

ولعلّ أخطر حدث وقع في تلك المنطقة كان هزيمة مملكة كوش عام – ٣٥٠ على يد الملك إزنا ملك أكسوم. فقد اضطرّ أمراء كوش آنذاك إلى الفرار غربًا إلى كردفان ودارفور. وقد بيّن آركل أن الاسم «كوش» قد توقّف استعماله إلاّ في هاتين المنطقتين[١٧]. ويبدو أن الأقوام التي تتحدّث النوبية في كاجدّي أو شلكوتا بجنوب ميدوب، والكاج في شمال كردفان، والكاجّار أو البرجيد في وسط دارفور، مهاجرون من كوش؛ كما يبدو أن أسماءهم (كاش أو كاج) هي صيغ باقية من لفظة كوش. وتدلّنا نقوش جدارية بالحروف اليونانية واللغة النوبية القديمة من أودوم في شمال كردفان أن

اسم كوش ظلّ يُستعمل هناك في الفترة بين القرنين الخامس والثامن. ومن الروايات المتداولة بين الكاجدّي رواية مؤدّاها أنهم هاجروا من الشرق بقيادة ملكة دفنت فيما بعد في ربوة كبيرة على مقربة من جبل كابويجا في الركن الجنوبي الشرقي من جبل ميدوب[١٨]. كما يذهب ميك وآركل وأوليفر وفاجان – ويعارضهم بوسنانسكي في هذا الرأي – إلى أن «التوماجيرا» الذين أسّسوا عدة ممالك في تبيستي وكانم في الأراضي الواقعة غربي دارفور، ينحدرون من نسل الأسرة المالكة في مروى، وأنهم هم الذين أنشأوا الممالك المقدّسة على امتداد الطريق العظيم العابر لافريقيا من الشرق الى الغرب[١٩].

دارفور – تشاد – جني – جينو – غانا

إن المأثورات الشفهية التي تتحدّث عن أصل شرقي لباياجدّة، الذي فتح مملكة كانم في عام ٧٠٠ – ثم أخضع بلاد الهوسا، تؤيّد فيما يبدو ما ذكوناه عن وجود علاقات بين دارفور وبين حوض تشاد والمنطقة الواقعة إلى غربه. وتقول إحدى هذه الروايات إن «باياجدّه» قد استقرّ زمنًا ما في كانم حيث تزوّج من ابنة «الماي» أي الحاكم. ثم اضطر إلى الفرار خوفًا من غدر حميه، فاتجه غربًا إلى جايا حيث صنعت له جماعة من الحدادين سيفًا ومضى ليقتل به الحية «ساركي» التي كانت تمنع الناس من ورود الماء إلاّ في أيام الجمعة[٢٠]. ومن المروف أن الكانوري الذين يعيشون حول بحيرة تشاد هم خليط من «الزغاوي»، ومن أسلافهم السو. والزغاوي، حسبما يقول أورفوي وترمنجهام وليفتزيون، بدو جاءوا إلى كانم من الصحراء[٢١]، ربما من منطقة دارفور – إينّيدي حيث كان يعيش بعض منهم حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. وقد هزموا «السو» الذين كانوا قد أخضعوا الأقوام التي وجدوها هناك. ويبدو أن كلمة «سو» مشتقة من «شو» اسم إله الشمس المصري الذي كان ينعت أحيانًا بأنه «رب بلا حدود» والذي كان ملك كوش يقرن به[٢٢]. فهل كان الذي تقدّم من دارفور ليخضع سكان حوض تشاد أميرًا كوشيًا لاجئًا يحمل لقب «شو» أو «سو»؟ إن هذا الافتراض ما زال يفتقر إلى الدليل القاطع، وإن كان شديد الاغراء. وأيًا كان الأمر فقد فرض «الزغاوي» حكمهم على «السو» في حوالى عام ٧٠٠ الميلادي، وكان على رأس الحكومة حاكم مقدّس مثلما كان الأمر في كوش.

ونترك مجال «التخمين» الذي تتسم به المأثورات الشفهية، لننظر في الشواهد التي يمكن أن يمدنا بها علم الآثار. وسوف يتركّز اهتمامنا هنا على مملكة غانا والمنطقة المغمورة من دلتا نهر النيجر الواقعة فوق تمبكتو. وكانت توجد في أراضي دلتا النيجر مستوطنة عند جني – جنو. وقد أوضحت الحفريات التي قام بها ماكنتوش في الموقع أن هذه المستوطنة استقبلت أول سكانها حوالى القرن الثالث قبل الميلاد[٢٣]. ويُشير اكتشاف الحديد في المستوى القاعدي للموقع إلى أن تقنية صنع الحديد وصلت

إلى هذه البلدة ، فيما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد . ويحتمل أن يكون ذلك عبر طريق غربي يبدأ من دار طشيت في موريتانيا حيث ظهر – فيما يعتقد – أقدم مستخدمي الحديد من الليبيين – البربر فيما بين القرن السابع والقرن الرابع قبل الميلاد[٢٤] . فإذا كان أقرب مصدر لخام الحديد ، كما يرى ماكنتوش[٢٥] ، هو بندوجو (بونكوكو) فإن من المرجّح أن تكون تجارة الحديد بين المنطقتين قد بدأت بعد تأسيس جني – جنو بفترة قصيرة . والنحاس الذي وجد في أقدم رسابات الموقع (المرحلة الثالثة) يعود إلى القرن الخامس الميلادي . وأقرب ثلاثة مصادر معروفة لخام النحاس هي أكدوجدت في موريتانيا ، ونيورد في مالي وهضبة عير[٢٦] ، وحتى لو افترضنا أن النحاس لم يكن يصهر في جني – جنو في القرن الخامس الميلادي ، فان هناك من الشواهد ما يؤكّد وجود صناعة للنحاس في مرادت بهضبة عير[٢٧] قبل العصر الاسلامي . كما كانت توجد في القرن السادس أفران أخرى لصهر النحاس في ناحية سيكرت قرب أزليج بالنيجر[٢٨] . ومما سبق يتبيّن أن ثمّة شواهد قوية على وجود تجارة في الحديد والنحاس في داخل المنطقة الممتدة من موريتانيا في الغرب إلى النيجر في الشرق . ولا بد أن تجارة مماثلة في الحديد قد وُجدت بين تشاد ومروي ، التي يعتقد أن صناعة صهر الحديد في أفران مقببة أو قائمة قد انتقلت منها إلى أجزاء من غربي افريقيا ووسطها[٢٩] .

ونهضت مملكة غانا القديمة بدور هام في تجارة المعادن ولا سيّما الذهب . وقد حدّد تاريخ قيام مملكة غانا بالقرن الثالث الميلادي ، وبحلول القرن الثامن كانت عاصمتها ، كومبي ، قد أصبحت مركزًا تجاريًا مزدهرًا . فقد أتاح لها موقعها في مفرق نهري السنغال والنيجر ، أن تفيد بتيارات التجارة بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب ، وأن تفيد كذلك من الأفكار الجديدة والوشائج الثقافية النابعة من الحضارات الكبيرة في الشمال والشرق . ويبدو أن كومبي قد اكتسبت أهميتها المبكرة من سيطرتها على تجارة الذهب الذي كان يأتي من مناجم وانجارا في أعالي نهر النيجر في غينيا وربما أيضًا من أسانتي في غانا الحديثة . ومن المعتقد أن كومبي قد توسّعت في أنشطتها التجارية حتى وصلت إلى ساحل الأطلسي في الغرب[٣٠] وإلى ما بعد تمبكتو في الشرق .

ولم تكن كومبي – كما سبق أن أشرنا – جافة في ذلك الحين كما هي اليوم . فقد كانت تتلقّى من الأمطار ما يمكنها من زراعة المحاصيل التي تكفي شعبها وجماعات التجار التي كانت تعيش بين ظهرانيهم . أما بالنسبة لجني – جنو فقد كانت خصوبة أرضها الناجمة عن الفيضان السنوي ، شبيهة بخصوبة الأرض في حوضي دجلة والفرات ووادي النيل . ولا شك أنها كانت قادرة مثلها على أن تنتج من الغذاء ما يكفي للاستهلاك المحلي وللتصدير . وتربط بين أجزاء المنطقة مجار مائية دائمة ، كما ينعطف نهر النيجر ليفصل بين تمبكتو وجاو التي كانت (ولا تزال) ملتقى التجار القادمين من الشمال عبر الصحراء الكبرى ، ومن الشرق والغرب عبر الطريق البري الرئيسي .

ويكاد يكون من المؤكّد أن قيام ممالك غانا وكانم وكوش وأكسوم ، فضلاً عن المجتمعات

الأصغر في الصحراء الكبرى وتبستي وعير واينّيدي ودارفور ، وهي مجتمعات محاربة جيدة التنظيم ، قد أدّى إلى تعاظم الطلب على الحديد والنحاس والقصدير والذهب. ومن هنا انتشرت تقنيات صهر المعادن في كل أنحاء المنطقة. ولا يعنينا هنا أن نستقصي مصدر هذه المعرفة ، وهل جاءت تقنيات صهر الحديد من الشرق من خلال مصر أو أكسوم ثم انتقلت من خلال كوش إلى السودان ، أم جاءت من الشمال والشمال الغربي عبر الصحراء الكبرى ، أو جاءت حتى من الغرب عبر البحر. وحسبنا أن نذكر هنا أن تقنيات الحديد أوجدت مصالح مشتركة عبر السودان وأصبحت قوة دافعة للإتصال.

خلاصة

وخلاصة القول أن هناك شواهد قوية تشير إلى قيام علاقات تجارية على امتداد الطريق من ساحل الأطلسي إلى ميناء أدوليس (مصوع) على البحر الأحمر. ولسنا نعرف ما اذا كان هناك أشخاص قد قطعوا الرحلة بكاملها من الشرق إلى الغرب. إلاّ أنه سن الواضح أن التجارة كانت تتم على مراحل عبر افريقيا. وعلى امتداد هذا الطريق كان يجري تبادل سلع بعينها مطلوبة في كل مكان ، ومنها العاج والحديد والذهب والنحاس. وقد عمل أمراء ممالك أكسوم وكوش وكانم وغانا على ترويج التجارة في هذه السلع.

ملاحظات

١. عن الغطاء النباتي لمنطقة تمبكتو في حوالى الفترة من – ٤٢٥ إلى – ٤٠٠ ، والذي من الواضح أنه كان السافانا السودانية ، انظر المؤرّخ اليوناني هيرودوت – الكتاب الثاني ٣٢ ، ٦–٧. وبالنسبة لكومبي انظر :
G.T. Stride and C. Ifeka, *Peoples and Empires of West Africa*, p. 40, London, Nelson, 1969; and on Tibesti, B. D. Shaw, 'The Camel in Ancient North Africa and the Sahara: History, Biology, and Human Economy' *Bulletin de l'Institut Fondamental d'Afrique Noire* (IFAN) (Gakar), Series B, Vol. 41, No. 4, p. 706, 1979: وانظر بوجه خاص: A. E. Close, 'Radiocarbon Dates from Northern Africa', *Journal of African History (JAH)*, Vol. 21. No. 2, 1980, p. 152.

٢. Carthaginian trade in gold (تجارة الذهب في قرطاجة ، هيروديت ، المجلّد الرابع ، ١٩٦) ربما عند مصب نهر السنغال.

٣. A. J. Arkell, *A History of the Sudan from the Earlist Times to 1821*. pp. 43, 81, 175, 178, London, London University/Athlone Press, 1961

٤. المرجع السابق، ص ١٩٢.

٥. Shaw, op. cit., p. 706

٦. L.A. Thompson, 'East Africa and the Graeco-Roman World (to A.D. 641)' (شرقي افريقيا والعالم اليوناني – الروماني) in L.A. Thompson and J. Ferguson (eds.), *Africa in Classical Antiquity*, p. 56, Ibadan University Press, 1969.

٧. C. Müller, *Geographi Graeci Minores*, Vol. I, p. 261

٨. المرجع السابق، ص ٢٦١ – ٢٦٣.

٩. L. A. Thompson (١٩٦٩)، ص ٥٧ وما بعدها.

W. Dittenberger, *Orientis Graeci Inscriptiones Selectae*, p. 199

١١. المرجع السابق، ص ٢٠٠.

١٢. P. Huard and Petit, 'Les chasseurs-graveurs du Hoggar', *Libyca*, Vol. XXIII, 1975, p. 165

١٣. T. R. Hays and F. A. Hassan, 'Mineralogical Analysis of "Sudanese Neolithic" Ceramics', *Lbyca*, Vol. XXII, 1974, pp. 157-64

١٤. J. H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, pp. 316-8, 333-5, Chicago, University of Chicago Press, 1906

١٥. Arkell، المرجع السابق. ص ٤٣.

١٦. المرجع السابق، ص ٦١.

١٧. A. J. Arkell, 'An Old Nubian Inscription from Kordofan', *American Journal of Archaeology* (Boston), Vol. LV, 1951, pp. 353-4

١٨. مع الالتزام التزامًا وثيقًا بما أورده Arkell، المرجع سالف الذكر، ص ١٧٤.

١٩. C. K. Meek, A Sudanese Kingdom, London, Kegan Paul, 1931; Arkell, *History of the Sudan...*, op. cit., pp. 177, 192; R. Oliver and B. M. Fagan, *Africa in the Iron Age*, London, Oxford University Press, 1975; M. Posnansky's review of Oliver and Fagan, op. cit., in *JAH*, Vol. 21, No. 2, 1980, p. 629

٢٠. Ifeka, Stride (١٩٦٩)، ص ٨٦.

٢١. N. Levtzion, *Ancin Ghana and Mali*, pp. 7-8, London Methuen, 1971; Y. Urvoy, *Histoire de l'Empire du Bornou*, pp. 17 ff., Dakar, 1949; J. S. Trimingham, *A History of Islam in West Africa*, pp. 106, 110-11, London Oxford University Press, 1962

٢٢. Arkell، المرجع سالف الذكر، ص ١٧٦.

٢٣. R. J. McIntosh and S. K. McIntosh. 'The Inlandt Niger Delta Before the Empire of Mali: Evidence from Jenne Jeno', *JAH*, Vol. 22, No. 1, 1981, p. 1

٢٤. P. J. Munson and C. A. Munson, 'Nouveaux chars à bœufs rupestres du Dahr Tichit', *Notes Africaines*, Vol. CCXXII, 1969, pp. 62-3

٢٥. McIntosh and McIntosh، المرجع سالف الذكر، ص ١٩.

٢٦. A. Mauny, 'Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen Age', *Mémoire de l'Institut Fondamental d'Afrique Noire*, Vol. 61, 1961, p. 307

٢٧ M. Posmansky and R. J. McIntosh, 'New Radio-carbon Dates for Northern and Western Africa, *JAH*, Vol. 17, 1976, p. 183

٢٨. D. Calvocoressi and N. David, 'Radiocarbon and Thermoluminescence Dates for West Africa', *JAH*, Vol. 20, No. 1, 1979, p. 9

٢٩. D. Williams, 'African Iron and the Classical World', in Thompson and Ferguson (eds.). op. cit., pp. 74 f.

٣٠. انظر الملاحظة رقم ٢ أعلاه.

الاتّصالات المحتملة بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر

بوبيه جادو

لا ننوي أن نقدّم هنا دراسة شاملة للاتصالات المحتملة بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر ، بل حسبنا أن ننعم النظر في مأثورات وأساطير وحكايات منشأ الكون لدى بعض شعوب منطقة نهر النيجر ، كي نرى – من خلال ذلك – كيف يمكن أن نخرج منها بافتراضات من شأنها أن تلقي أضواء جديدة على تكوين شعوبها وأن تساعدنا على عقد مقارنات وإدراك أوجه التماثل وإلقاء أسئلة قد تطرح على المؤرّخ إتجاهات جديدة للبحث من خلال قراءة جديدة ، أكثر غناء ، لبعض سير البطولة الشرقية ، يمنية كانت أم مصرية أم إثيوبية.

لذلك سوف نبدأ بالنظر في المأثورات التاريخية للسوننكي في إمبراطورية واجادو ، المعروفة على نطاق أوسع باسم إمبراطورية غانا. فنحن نعتبر تاريخ السوننكي «التاريخ الأساسي» ، أي التاريخ الذي أثّر على كل «التاريخ الشفاهي» في كافة أنحاء السودان الغربي والأوسط ، سواء بحكم أسبقيته الحقيقية أو المفترضة أو بحكم اللغة التي يستخدمها «الجسيري» (الرواة) في «رواية هذا التاريخ» ممّا جعل منهم حفّاظًا للكلمة وحرّاسًا للغة تعهد إليهم شعوب كثيرة في المنطقة بمهمة «رواية تاريخها» ، بل – وهو الأمر الغريب – سرده أولاً بلغة السوننكي ثم ترجمته إلى لغة المستمعين ، كما يحدث بين الصنغاي والزارما في وادي النيجر الأوسط.

وخلال هذه السياحة في شعاب التاريخ والأسطورة من ضفاف النيجر إلى ضفاف النيل ، سوف ينحصر اهتمامنا ، على وجه التحديد ، في روايات النشأة وأساطير منشأ الكون لدى الصنغاي وسائر الشعوب التي لا تزال تعيش معهم حتى اليوم في منطقة وادي النيجر الأوسط ، آملين أن يكون في هذا العمل بعض الفائدة للباحثين في التاريخ.

روايات المنشأ في «التاريخ المروي»

من أمهات المأثورات – سيرة دنجا كوري الكبير، الجد الأكبر للسوننكي

يخبرنا **الجسيري** دياري سيللا اليريري[1]، أن دنجا كوري، «**دنجا الكبير**»، وهو الجد الأكبر **للسوننكي** وُلد في **هندي** (الهند؟) وتربّى في **يماني** (اليمن؟)، وعاش في **كيريديو** وفي **سيدن** (الجزيرة العربية)، وفي دياجانا **ولوتي** (مصر) حيث تزوّج امرأة شقراء تُدعى **فاتون جانيسي**.

كان **دنجا كوري** صيادًا محاربًا أسود البشرة. وترك مصر متجهًا إلى الغرب، مصطحبًا معه عبيده وراويته (*gessere*) ورجاله المسلحين بالأقواس والسهام وسحرته، وكانوا خليطًا من السود والبيض. واقتحم دنجا كوري القرى عنوةً وسبى النساء فحملن منه وانتشرت ذريته على امتداد طريقه.

واستقرّ به المقام في دلانجومبي (وتبعد ١٥ كيلومترًا عن نيورو في مالي الحالية) حيث أقام مذبحًا لتقديم القرابين يتكوّن من ثلاث جرار. ثم رحل إلى ديافونو، ومنها إلى يوروجومبي (٤٠ كيلومترًا من نيورو) حيث هزم احدى «الجنيات» وتزوّج بناتها الثلاث. وولدت له أكبرهن ابنًا يدعى تريكينيي سخونا، وأنجبت الثانية تريمبيللا خالا والثالثة جابي سيسي.

ثم عاد دنجا كوري إلى مصر وأقام في **سونا** ومات فيها. ولهذا يسمى أحفاده باسم «سونانكي» أي «أبناء سونا» أو السوننكي. ولكنه تعاهد قبل موته مع الضبع والنسر على إرشاد أبنائه إلى موقع كومبي حيث يمكنهم أن ينعموا بالرخاء.

إلاّ أنه قبل موت الأب، قام ابنه الأصغر جابا سيسي، بسرقة أسرار أبيه من أخيه الأكبر تريكينيي، بمساعدة خادم يدعى سودورو، وبرضاء دنجا كوري نفسه الذي كان يحب جابي سيسي لنبل أخلاقه.

واستطاع جابي سيسي، بمساعدة الضبع أولاً ثم النسر، أن يصل إلى الأرض الموعودة وأقام في كومبي حيث وجد وجادو بيدا، وهو جنّي من نسل دنجا كوري اتخذ هيئة الأصلة، وتعاهد معه على تحقيق الرخاء لكومبي، مقابل تقديم فتاة عذراء من أجمل فتيات واجادو مرة كل سنة الى الأصلة بيدا، على ألاّ تكون هذه الفتاة من نسل دنجا كوري.

وأعطى واجادو بيدا إلى جابي سيسي أربعة طبول، واحد من الذهب وواحد من الفضة وواحد من النحاس وواحد من الحديد، كانت تظهر عند قرعها أربعة جيوش من الفرسان من الجهات الأصلية الأربع، وأصبح قادة هذه الجيوش رؤساء (فادو) لأقاليم المنطقة ومساعدين لجابي سيسي.

وكان واجادو بيدا عند تقديم القربان إليه كل سنة يرسل «وابلاً من الذهب» على وجادو.

وكانت العشائر الأربعة والأربعون للسوننكي في واجادو تضم في البداية ست «عشائر نبيلة» (wage)، وهي عشائر السيسي والخاما والديا والبريت والتوري والسوجونا، ولكن وراثة عرش واجادو كانت محصورة في عشيرة السيسي أي في أبناء جابي سيسي.

وكان ملك واجادو هو «الكايا ماغان» (لأن الجسيري يسمي جابي سيسي «كايا» ويسمي أباه «ماغان») أي «القائد الحربي الجسور». وكان يسمي أيضًا «التونكا» (أي الرئيس) و«السيسي تونكارا» (لأن سيسي كان هو «التونكا» الأول) أي الرئيس الأول أو الملك الأول.

وبعد تقديم القربان السنوي، وهطول وابل الذهب، كان الكاجورو، وهم من الخوسا، يتولّون مهمة جمع الذهب للكايا ماغان. وكان هؤلاء الكاجورو، الذين يُذكر من بين سلالتهم الكامارا والفولانا والسوماري والجاريسو، هم سكان واجادو قبل وصول جابي سيسي الذي أخضعهم وجعلهم في منزلة عشائر العبيد التي اصطحبها عند مجيئه.

أما تريكينيي، الأخ الأكبر العاثر الحظ لجابي سيسي، فقد أقام في ترينجا، بالقرب من يليمان، وانحدر منه الاسكافيون الجرانكي أو الجراسا.

وظلّت واجادو تنعم بالرخاء حتى جاءت السنة التي وقع الإختيار فيها على سيا ياتاباري كي تقدّم قربانًا للواجادو بيدا. وكان يحبها محامدو الصامت، الذي قام يوم الإحتفال بتقديم القربان وقطع رأس الأصلة بيدا فنبتت رؤوس جديدة سبع مرات، ثم طارت الرأس وهي تصيح:

«سبع نجوم، سبع نجوم متألّقة،
سبع مجاعات، سبع مجاعات رهيبة،
سبعة فصول للشتاء، سبعة فصول بكاملها،
لن يسقط المطر على أرض واجادو
ولن يسقط الذهب أيضًا»

وحينئذٍ سقطت الرأس في إقليم بوري الذي أصبح منطقة منتجة للذهب منذ ذلك اليوم.

واستطاع محامدو الصامت، بفضل مساعدة خاله أوكاني سافو، أن ينجو من غضب واجي واجادو. وحين لحق الخراب بواجادو بعد موت الواجادو بيدا، هاجر السكان في ثلاثة اتجاهات: فاتجه فريق منهم نحو بحيرة دبو وتمبكتو وجني؛ واتجه فريق آخر نحو السهل ومنطقة كيفا؛ واتجه آخرون نحو الجنوب حيث أسّسوا مدينة كوري، وهي مدينة كبيرة تبعد مائتي كيلومتر عن كومبي، ثم هجروها بعد ذلك حين هدّدها القحط.

وهكذا فإن أسطورة واجادو، التي تروي المأثورات الشفاهية عن منشأ وأصول جماعات السوننكي وإمبراطورية واجادو، على حين تصمت عن ذكر أيام مجد واجادو، تصف بالتفصيل

الخراب الذي ألمّ بكومبي وواجادو وأدّى إلى انهيارهما ، وتتحدّث طويلاً عن الأماكن التي عاش فيها الجد الأكبر دينجا كوري خلال هجراته ، وعن الظروف الإجتماعية والإقتصادية التي أفضت إلى إقامة الإمبراطورية .

الهجرات على امتداد النهر الكبير

بعد هذه « الهجرة الأولى » التي قام بها دينجا كوري الكبير من « بلاد العرب » وسن مصر ، ننتقل إلى المأثورات الشفهية التي تتناول أصول السكان في منطقة وادي النيجر الأوسط .

تعاقب الصنغاي في أعالي النهر الكبير

أصل السوركو (الديينكي والكورجوي ، أو التومبو والكورنكوي) وفقًا لما جاء في تاريخ الفتاش[٢]

ذات يوم احتلم اوج ابن نأناك ، وهو مارد كان يعيش أيام النبي نوح ، فتوهّمت زوجات نوح الخمس ، وكلهن بنات سيري ، السائل الذي تدفّق منه نهرًا ونزلن للاستحمام فيه فحملن جميعًا : فأنجبت **ماسي** ابنًا يُدعى ديينكي وابنة تُدعى ميبونون ؛ وأنجبت **سورا** ابنًا يُدعى بوبو وابنة تُدعى سيري ؛ وأنجبت **كاتو** ابنًا يُدعى تومبو وابنة تُدعى هوبو ؛ وأنجبت **ديارا** ولدًا يُدعى كورونكوي وابنة تُدعى سارا ؛ وأنجبت **سباتا** ابنًا يُدعى موركو وابنة تُدعى نارا .

وتزوّج أبناء وبنات الخالات : فأصبح ديينكي وسيري أسلافًا للديينكي ؛ وأصبح بوبو وميبونون أسلافًا للبوبو ؛ وتومبو ونارا أسلافًا للكورجوي ؛ وكورونكوي وهوبو أسلافًا للكورونكوي ؛ وموركو وسارا أسلافًا للسوركو .

ولكن حين استطاع بوبو وكورجوي الوصول مع أبنائهم إلى الغابة ، ذهب ديينكي وكورنكوي وسوركو إلى « إحدى جزر النهر » حيث قام ديينكي وكورنكوي ، تحت تهديد أحد طوك بني إسرائيل ، بخديعة سوركو وأجبراه وكل ذريته تقريبًا على الإستسلام للعدو ، على حين نجحا هما في الإختفاء ثم تبعثروا « في كل اتجاه حتى وصلوا إلى هنا » مع « عدد قليل » من أبناء سوركو نجحوا في الفرار معهم .

ويقول هوداس وديلافوس[٣] ، أنه ورد في لسان العرب أن

« عودي بن عوق كان رجلاً اشتهر بقامته الفارعة ووجهه القبيح . ويُقال إنه وُلد زمن خروج آدم من الجنة وأنه عاش حتى زمن موسى ومات في حياة موسى . وقيل إن عودي بن عوق كان مع فرعون مصر ، وأنه أراد أن يسحق جيش موسى تحت صخرة فقتله موسى » .

أصل الصنغاي (الواكوري والوانجارا والميينجا) حسبما جاء في تاريخ الفتاش[٤]

ترك ثلاثة من أبناء تراس بن هارون، ملك اليمن، بلادهم وهاجروا إلى التكرور خشية التعرّض للإبتزاز من جانب خالهم ياسري بن هارون الذي خلف أباهم في الملك.

وتزوّج أكبرهم، وهو واكوري بن تاراس، من أمينة بنت بخت، فكان أبًا للواكوري أو السوننكي الذين كان أبوهم واكوري ملكًا عليهم فأطلقوا عليه لقب كاياماجا.

وتزوّج الابن الثاني، صنغاي بن تراس، من سارة بنت وهب. فأصبح سلفًا للصنغاي.

أما أصغرهم وهو وانجارا بن تراس، فلم يتزوّج وإنّما اتّخذ له خليلة تُسمى سوكورا، وهي أمة من اثنتين من الإماء كانتا معهم، وأصبح سلفًا للوانجارا أو الماندي («الماندنجو»).

وتزوّج عبدهم ميينجا من كوسوا، وهي الأمة الثانية، وأصبح سلفًا لميينجا أو ماييجا الصنغاي.

أصل ملوك الصنغاي حسبما يورده تاريخ الفتاش[٥]

كان لإحدى حفيدات جابر بن عبد الله الأنصاري ابنتان في المدينة (يثرب). وذات يوم غادرت الشقيقتان المدينة إلى بستان لهما، وهناك أحستا بالعطش. فأرسلت الأخت الكبرى ابنها ليأتي بالماء، وقابل الابن، عند عودته، خالته أولاً فرفض أن يعطيها من الماء.

وغضبت أمه من فعلته «فعنّفته وأبت أن تأخذ منه الماء».

وفرّ الصبي إلى الصحراء فأسرعت خالته وراءه إذ أحسّت أنها السبب فيما حدث.

ووقعت الخالة في يد النصارى، فعاشت مع أحدهم، وكان حدادًا، وأنجبت منه ابنة غير شرعية. ثم تزوّجها الحداد وأنجب منها ابنًا آخر. وكبرت الإبنة غير الشرعية وأنجبت ولدًا هي الأخرى. وحين علم الخال وابن اخته بما حدث للأم والجدّة، خرجا ليبحثا عن قريبهما الذي فرّ من أمه، وظلاّ سائرين حتى وصلا إلى «السودان فوجداه في «جاو».

«ولم يكن لسكان جاو يومئذ حاكم سوى سمكة عظيمة كانت تظهر لهم من الصباح حتى الظهيرة. وعندئذ يعود السكان إلى بيوتهم».

وحين التقى الشابان بقريبهما، قال له ابن خالته «سأصنع لك شيئًا تستطيع أن تقتل به السمكة وأن تملك هذه البلاد». وصنع له «داما» (حربة) استطاع أن يقتل بها السمكة وأصبح ملكًا للبلاد يلقى الإحترام والطاعة من الجميع.

«ثم صنع له ابن ابنة خالته طبلة ليقرعها، فقد كان الجد الأكبر لأبناء قبيلة الدان، إحدى قبائل الصنغاي...

«وأصبح الآخر سلفًا لكل الحدّادين المرتبطين بالديام – كيريا».

ويُقال إن جابر بن عبد الله الأنصاري

كان أحد سكان المدينة (يثرب) الذين التقوا بالرسول في مكة عام ٦٢١ وأصبحوا أنصارًا له. ومن المعروف أنه كان من رواة الحديث، ومن الأحاديث التي رواها حديث يدعو الأبناء ألاّ يسقوا أحدًا قبل الأب والأم. وفي هذا الحديث بعض الشبه بقصة الصبي الذي أصبح أول ملوك الصنغاي[٦].

أصل أسرة ديابر – باندا حسبما أوردها تاريخ الفتاش

«يقول بعض العلماء إن أربعة من جنود عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) تركوا اليمن وتوقّفوا في بورنو فقتلوا حكامها، واستقرّ واحد منهم يُدعى إدريس، فيها.

وواصل الآخرون السير حتى وصلوا إلى كوكيا، وهناك استقرّ المقام بديابر – اليمن وتزوّج من ويزا – كوكيا، ومن نسلهما خرج الديابر – باندا.

واستمرّ الآخران في السير حتى وصلا إلى بيرو Biru حيث تزوّج أحدهما، وهو سليمان الفارس، ابنة كايا ماجا وأنجب منها أطفالاً، ومن ذريته خرج فرع أسكيا. أما الرابع، واسمه سعيد الأنصاري فقد بلغ باجانا وتزوّج امرأة من الفولاني وأنجب منها أطفالاً، ومن ذريته خرج شعب الماسينا. وممّا يُقال أيضًا إن أول مدينة في السودان كانت كوكيا، وكانت الثانية أرهام، والثالثة بيرو والرابعة ميزا، وبعدها أُنشئت كابارا وتمبكتو والمدن الأخرى»[٧].

أصل أسرة «ديوآ» أو «ديوا» أو «ديا»
حسبما يورده تاريخ الفتاش

«كان حكام التكرور، فيما قبل، تغلب عليهم عبادة الأصنام إذ كانوا على دين الكهنة الذين يعيشون في جاو. وكانت جاو في ذلك الحين، أي في منتصف القرن الرابع (نهاية القرن العاشر الميلادي) على ضفة نهر يقع بالقرب من جورما. وكان لقب أولئك الملوك ديوآ أو ديوا أو ديا، وهو صيغة محرّفة للفعل «جاء»... وفي ذلك الحين كان أهل جاو لا يزالون يقطنون الضفة الأخرى من النهر، ويعبرونه بالقوارب ثم يهبطون إلى البقعة التي تقوم عليها المدينة الآن على ضفة الهاوسا...

وذات يوم هبط سكان المدينة إلى ذلك المكان فوجدوا آثار أقدام رجل، يبلغ طول القدم منها ثلاثة أذرع ويبلغ عرضها ذراعين. وكان طول كل إصبع من أصابع القدم شبرين. فذُعروا ممّا رأوا وولّوا إلى مدينتهم فرارًا وقد مُلئوا رعبًا، دون أن يروا الرجل، وأخبروا أبناء المدينة بما رأوا.

ثم اجتمع وجهاء المدينة ومعهم بعض رعاياهم وعبروا النهر واتّجهوا إلى البقعة التي بدأت فيها آثار الأقدام، وتعقّبوها إلى أن وصلوا إلى شجرة وجدوا تحتها رجلاً لم يسبق لهم أن رأوا مثيلاً له في طول القامة واكتمال الهيئة. وكان الرجل فارع الطول، أسود البشرة أكرش عظيم الرأس، وكان يحمل عصا لها مقبض من حديد.

وحين بادر أهل المدينة المارد بالسلام، ردّ عليهم بالعربية وهي لغة لا يفهمونها. فسألوه «من أين جئت؟» فقال وهو يشير بيده إلى مكان «جئت من اليمن». فتوهّموا - لجهلهم العربية - أنه قال إن اسمه ديا. وسرعان ما هشّ لهم، وحين أومأوا إليه أن يتبعهم إلى مدينتهم، سار معهم إلى أن وصلوا إلى النهر وإلى قواربهم.

وما أن همّ المارد بركوب القارب حتى اعترته الدهشة والحيرة، فأبى أن يذهب معهم لخشيته من النهر، وعاد إلى المكان الذي وجدوه فيه من قبل، بينما عاد أهل المدينة إلى دورهم.

ولكنهم أخذوا يزورونه بين الحين والحين، حاملين إليه الطعام وكل ما يحتاج إليه. وعاش الرجل على صيد الحيوانات البرية، يسابق بسرعته الزراف بل ويطارد النعام في بعض الأحيان. ثم انعقد الود بينه وبين أهل القرية الذين كانوا يزورونه ليشهدوا طول قامته، وبنوا له بيتًا في تلك الرقعة. وذات يوم ضاجع إحدى إمائهم فحملت منه، فأهداه صاحبها إليه وعاشت معه وأنجبت له ابنًا يشبهه في الطول وكمال الهيئة. وحين شبّ الصبي عن الطوق تعلّم لسان أمه ولسان أبيه، وأخذ يخالط أهل المكان ويخالطونه. ولم يلبث سكان القرية أن هجروها، فريقًا إثر فريق، ليقيموا إلى جانب الأب. حتى تكوّنت منهم بلدة واتّخذ الصبي زوجة منهم. ثم ترأسهم وأصبح حاكمهم المسموع الأمر. وكان يقاتل الأعراب من البدو المقيمين في الجبال المتاخمة بيديه العاريتين إذ كان الحديد لا يخترق جسمه[٨].

أصل أسرة «زا» حسبما يورده تاريخ السودان

يرجع أصل اسم أول هؤلاء الأمراء، «ذا - ال - ايامان»، إلى عبارة «جاء من اليمن». إذ يُروى أن هذا الشخص غادر اليمن بصحبة أخيه لكي يطوف العالم. وقاد القدر خطاهما إلى مدينة كوكيا، وهي مدينة بالغة القدم بُنيت على حافة النهر في أرض الصنغاي. وكانت هذه المدينة موجودة أيام فرعون ويُقال إنه جاء منها بالسحرة الذين استعان بهم على موسى (عليه السلام).

ووصل الأخوان إلى كوكيا في حال يُرثى له، فقد حالت هيئتهما البشرية، بعد أن نال منهما الإعياء ووعثاء الطريق، ولم يكن هناك ما يستر عورتهما سوى أسمال من جلد الحيوان تنسدل عليهما. وحين سُئلا من أين جاءا، ردّ أكبرهما «جاء من اليمن». ومنذ ذلك الحين نطقها الناس ذا - ال - ايامان، فقد غير أهل المدينة نطق العبارة إلى هذا النحو إذ شقّ عليهم نطقها لأن لهجتهم البربرية كانت تثقل ألسنتهم.

وبقي ذا - ال - أيامان في كوكيا. وأدرك أن الناس الذين كان يعيش معهم وثنيون لا يعبدون سوى الأصنام. وكان الشيطان يظهر لهم على هيئة سمكة لها خاتم في أنفها تشرئب برأسها من فوق ماء النهر في أوقات معينة. وعندئذ يحتشد الناس ويذهبون إليها لعبادتها فتصدر لهم أوامرها ونواهيها، فيتفرّق الناس ويصدعون لمَا أمرتهم به أو نهتهم عنه.

وبعد أن شهد ذا - ال - أيامان هذا المشهد وأدرك ضلال أولئك الناس، عزم على قتل السمكة وشرع في تنفيذ خطته.

وذات يوم ظهرت السمكة فقذفها بحربة فقتلها بعون الله. وعندئذ بايع الناس ذا - ال - أيامان وولّوه ملكًا عليهم.

ويُقال إن هذا الأمير كان مسلمًا ويُستدل بفعلته هذه على إسلامه؛ كما يُقال إن خلفاءه ارتدّوا إلى الكفر، ولكننا لا نعرف من الذي شرع منهم في سبيل الكفران. كما أننا لا نعرف متى غادر ذا - ال - أيامان اليمن، ومتى وصل إلى كوكيا، ولا الإسم الحقيقي الذي كان يتسمّى به»[٩].

أصل الصنغاي في المأثورات الشفهية للتيرا

«حين غادر الصنغاي السهل، ذهبوا إلى تنديرما حيث وجدوا المالانتشيه. وكان رئيس المالانتشيه يُدعى في ذلك الحين **كايا ماجا**، ولكن الوانجارا والموصّى كانوا يسمونه كايا مانجا. وكان الرئيس الذي وجده الصنغاي في تنديرما ينتمي إلى السوركو. وكان يسمى تيندا، وزوجته مروى وأكبر أبنائه هاسي... وهكذا عاش الصنغاي والمالانتشيه معًا، وزادت قوة الصنغاي بانضمام كثير من محاربي الموصّى والوانجارا إليهم. وزاد عددهم حتى كونوا في النهاية إثنتي عشرة وحدة. ثم تقاتل الصنغاي والمَالانتشيه، وانتصر الصنغاي وأخضعوا بلاد المالانتشيه، فعاد المالانتشيه إلى ماليه مرة أخرى»[١٠].

زابار كان وهجرات الزارما

جاء زابار كان، أصلاً، من سيني. وحين أقام النبي محمد (صلعم) دعائم الإسلام، ذهب زابار كان إلى مكة وأسلم. وحين عاد إلى بلاده حاول دون طائل أن يدخل الناس إلى الإسلام. ثم أنشأ جيشًا وظلّ يحارب أربعين عامًا. واستعان أعداؤه بالتورو، واستطاعوا أن يأسروا ابنته. وطلب منه النبي محمد (صلعم) أن يذهب إلى مكة ليعيش فيها.

ولكن زابار كان لم يهدأ له بال حتى خرج أومارو (عمر) وأوسمان (عثمان) وأبو بكر وأليهو (علي) للقتال وأعادوا إليه ابنته. وظلّ زابار كان في مكة سبعة شهور ينتظر أن يتقدّم أحد لخطبة ابنته. ولمّا نفذ صبره طلب من محمد أن يأذن له بالرحيل ووعده بأن يظلّ على إخلاصه للإسلام.

وشقّ طريقه محاربًا حتى وصل إلى ماليه فحطّ فيها رحاله. وكان الزارما عند مجيئهم إلى ماليه يسمون **مالنكي كانيني** أي «السلالة الذهبية» أو «السلالة النقية» وكانت الجانجي أو التورو، وهي الروح التي تسيطر على بحيرة ماليه، تسمى «زارما». وقد أطلق الطوارق والفولاني، الذين كانوا سادة المنطقة، اسم الزارما على هؤلاء الأجانب، إذ اعتبروا اسم «مالنكي كانيني» أكرم من أن يُطلق عليهم.

وكان سادة المنطقة هؤلاء من التعسّف إلى الحدّ الذي جعل سامبو، ابن زابار كان، يأمر بقتل أطفال الطوارق والفولاني الذين كانوا يجفّفون أجسامهم بعد الإستحمام في البحيرة، بثياب أطفال الزارما.

وكان للزارما سبع طبول: سمبون كان توبال، وبونكانو توبال، وبونكانوبلبيلو توبال، وألفاتوبال، وبلبيلو توبال، وكاتيا توبال، وناسورو توبال. وكانت «سمبون كان توبال» هي الطبلة الأولى لأنها كانت من الذهب، فقد كان الخشب الذي صُنعت منه ذهبيًا وكان الجلد المغطاة به ذهبيًا، وكانت العصا التي تُقرع بها من الذهب وكان الحبل الذي تُعلّق به من الذهب أيضًا».

أما الطبول الأخرى فكانت طبولاً عادية صُنعت من أوان خشبية مغطاة بالجلد.

وحين كانت تُقرع طبلة «السمبون كان توبال» كان الزارما، الذين لا يزيد عدد فرسانهم على ثلاثة عشر فارسًا، يهبّون جميعًا بسلاحهم ملبّين النداء. وهكذا دعا سامبو زاباركان الزارما جميعًا ليخبرهم بما حدث، فقرّروا الهجرة خشية الإنتقام منهم. وكان لهم مولى يُدعى ألمين، وكان سيدًا للكورتي، فجعلهم يصنعون عربة من عربات نقل الماشية، **دابا**، اختبأ في باطنها الزارما جميعًا. وتحرّكت «**الدابا**» الطائرة وهي لا تحمل سوى ثور ألمين وحده.

وأمضى الزارما ليلة في سيري باباني، وليلة في سيكالدو سيكال بونجيري، وليلة في نافاديزي، وليلة في بونزي، وليلة في تمبكتو كويو، وليلة في تمبكتو توكونيا، وليلة في صافانا. ثم ألقوا الرحال في أدراسوكاني. وهناك خان بولونبوتي، أحد أخوة سامبو، أبناء عشيرته وانضمّ إلى الطوارق. ومن ذريته خرج الداوساني الذين يقطنون أزاوك.

وحملت «الدابا» الطائرة الزارما إلى كوبي وسابتاكا ثم إلى سارجان حيث توقّفت.

وأنجب سامبو زابار كان ولدًا يُدعى تاتو، وأنجب تاتو ابنًا هو زارمال، وأنجب زارمال مالي كاماندوجسا، وأنجب مالي كاماندوجسا تاجورو. وفي عهد مالي كاماندوجسا تفرّق الزارما، وكان أبناء تاجورو هم الذين أنشأوا الزارماتاري وهي المستوطنات التاريخية للزارما.

مجموعة روايات البورجو – هاوسا في منطقة مصب النهر الكبير

هجرات كسرى

تبدأ المأثورات الشفهية لبعض الجماعات الإثنية، ومنها باريبا بورجو واليوروبا والبادي، بـ«كسرى» أو «كشرى»، وهو رجل من أصل مصري أو عربي قاوم جهاد النبي محمد، وقاد خليطًا من الشعوب في سلسلة من الإنتصارات ابتداءً من بدر، بالقرب من مكة، إلى بورنو، في أرض الهوسا، وإلى بورجو.

المأثورات الشفهية للبورجو[١١]. تصر معظم الروايات عن هجرات كسرى على أن الذين أسّسوا سلطة الواسنجاري في أيلو وبوسا ونيكّي، كانوا ثلاثة أخوة من أبناء كسرى.

وأقام أكبرهم، وورو باتي، في بوسّا، وأقام الثاني، وورو مانسا، في نيكّي، وأقام أصغرهم، أجوسا، في إيلو. وكان وورو مانسا يعرف أيضًا باسم سيرو سيكيا، وسُمي بعد تولّيه السلطة سونون سيرو (ويعني لقب **سونون** في لغة البوتونو: الرئيس، السيد، الملك)، كما كان يُطلق عليه اسم سيرو تمتوريه (ولقب **تمتوريه** هو إحدى صيغ كلمة **تونتوريه** ومعناها «مؤسّس») وسيرو دواباجا وسيرو جيدجي وسابي ووريه.

وكان وورو مانسا صيادًا عظيمًا للفيلة سخيًا في تقديم اللحوم. وقد ترك بوشا تصحبه أخواته، وكانت إحداهن تُدعى ديو سيكيا، وابناه وارو جينّين، وسيمي بانكبيو الذي أطلق عليه فيمَا بعد اسم دوبيديا.

وبعد إقامة فترة في جباوكي، استطاع وورو مانسا بفضل مهارة جماعته في الصيد وكرمهم، أن يفرض سلطانه على مضيفيه من الباتونبا والوابا والبوكو والنوبي تاكبا في منطقة نيكّي – ون، على الرغم من أنهم كانوا قد اختاروا رئيسًا لهم يُدعى سونون باروسونجا. وأيًا كان الأمر فلا بدّ أن هذا الرئيس قد تصدّى بعنف للوافدين الجدد، إذ تذكر بعض الروايات أن سونون سيرو، المعروف باسم وورو مانسا، وأختيه يون دافي وبويون، دفنوا أنفسهم أحياء حتى لا يعيشوا وضعًا مهينًا تصدّى له فيما بعد ابنه سيمي بانكبيو، الذي أُطلق عليه اسم سونون دوبديا، وهو اسم مستعار مشتق من عبارة «سيكو دو بي تني دوا»، (سوف نأكل هذا الدخن) وهي صيحة الظفر التي أطلقها بانكبيو بعد معركة تاسيبوري أمام الحقول والأهراء التي تركها سونون باروسونجا.

وكان الأمير سابي سيمي هو الذي أنشأ الخيّالة في نيكّي إذ أن كنيته «بانكبيو» يفسّرها ولعه الشديد بركوب الخيل حتى شبه «بالبانكبيو» وهو الطائر الذي يتبع قطعان الماشية ويحط على ظهورها[١٢].

المأثورات الشفاهية لليوروبا. تميّز بعض المأثورات الشفاهية[١٣] لليوروبا بين موجتين أساسيتين للهجرة كانت أولاهما جزءًا من هجرات كسرى وحملت اليوروبا إلى المنطقة الشمالية من أراضي نيجيريا الحالية، حيث عبروا نقطة التقاء نهر البنيو بنهر النيجر، مخلّفين وراءهم فريقًا من «الإيجارا» بالقرب من ايداه. وواصلت المجموعة الرئيسية المسير حتى وصلت إلى إيكيتي، على حين أوغل البعض في اتجاه الجنوب وأسّسوا فرع «الأيدوكا».

وتُسمّى الموجة الكبيرة الثانية لهجرة اليوروبا «الأودودوا»، وهي الموجة التي يتركّز عليها الجانب الأكبر من الإهتمام في المأثورات الشفاهية. وتظهر فيها شخصية «أودودوا» كبطل يجسّد مقاومة اليوروبا للإسلام.

وتذكر روايات أخرى مكمّلة[١٤] أن «اليوروبا كانوا يشكّلون يومًا ما مجموعة إثنية واحدة مع الباريبا والتينجا والجورما، إذ حملتهم جميعًا موجة هجرة عظيمة من منطقة مكة. وتقول هذه الروايات إن ملكهم «كيشيرا»، ملك بدر، الذي كان يحارب قوات النبي محمد، ظلّ ينتظر دون طائل تعزيزات تصله من ملك بورنو.

وحاقت به الهزيمة ولقي مصرعه، فقاد ابنه قومه إلى الجنوب عبر السودان. وانفصل جزء من الموجة ليستقرّ في «بوسّا»، على حين استقرّ فريق ثان في «نيكّي»، وثالث في «ايلّو». وكان كل

فريق من هؤلاء بقيادة واحد من الأخوة الثلاثة أبناء «كيشيرا». وهبط فريق رابع إلى أسافل نهر النيجر حتى وصل إلى «إيللورين» والأراضي الجنوبية، وكان هذا الفريق نواة اليوروبا.

المأثورات الشفاهية للجوبير

يتناقل «الجوبيراوا» سكان جوبير رواية شديدة الشبه بالرواية التي تتحدّث عن كسرى. فتقول إنه في عشية معركة بدر، طلب النبي محمد من بنا تورمي، ملك جوبور، أن يساعده في قتال هايبورا ملك كيشرى. فقام ساركي جوبير بنا تورمي المخادع بتقسيم رجاله إلى فرقتين من المحاربين، وضع كل منهما تحت إمرة أحد الفريقين المحاربين حتى يضمن أن يعامله المنتصر منهما معاملة كريمة أيًا كانت النتيجة التي تسفر عنها المعركة. وحين انتصر النبي محمد في المعركة، دُهش إذ رأى فريقًا من الجوبيراوا، المفترض أنهم حلفاؤه، يفرّ هاربًا مع المهزومين. وهكذا اكتشفت خديعة ساركين جوبير بنا تورمي.

وعندئذٍ لعنهم النبي ودعا عليهم بأن يظلّوا إلى الأبد نهبًا للفرقة، حتى وإن لم يُقضَ عليهم في الحرب. وبعد أن انكشف أمر ساركين جوبير بنا تورمي، رحل بقومه إلى الجنوب حتى وصل إلى ملاّحات بليما، ومات هناك. وخلفه ابنه باشيرا، ثم خلف باشيرا ابنه دالا. وهاجر دالا مع قومه إلى أبزين، فردّهم الأبزيناوا، فذهبوا إلى سوراكال ثم إلى برنين – لاليه.

وهناك قائمة بأسماء ملوك جوبير تحتوي على ٣٤٥ إسمًا، وتبدأ بكنانا، ولامارودو، وماكاجياركيا، وأبانوا زبدا (ابن ملك مسرا)، وباوو ناتورمي، وسانا كافو، وجوبيرو.

وتذهب الرواية إلى أن بنا تورمي، وهو نفسه الذي كان يُطلق عليه اسم باوو ناتورمي، كان ابنًا لباوو. وفي هذا تتمثّل نقطة الإلتقاء بين هذه الرواية وروايات الداورا المختلفة كل الإختلاف والتي تحاول تفسير تأسيس دول الهاوسا.

مأثورات البابايجدّا أو الداورا

يخبرنا جيرجام الداوري أن:

«القوم جاءوا من كنعان واستقرّوا في فلسطين. ثم رحل واحد منهم يُدعى نجيب الكنعاني، من فلسطين متجهًا بعائلته إلى الغرب حتى وصل إلى ليبيا، وهي من أقاليم مصر، وبقي فيها عدة سنوات. ثم هاجر رجل منهم يُدعى عبد الدار، وهو أحد أبناء نجيب، من ليبيا ليسكن في إقليم طرابلس. وبقي هناك بعض الوقت محاولاً أن ينصب نفسه ملكًا على طرابلس، ولكن الناس هناك رفضوه. فترك طرابلس واتجه نحو الجنوب حتى وصل إلى واحة تسمى كوسوجو وأقام

فيها. ولم ينجب عبد الدار سوى إناث أنجبهن جميعًا قبل مجيئه إلى داورا: وهن بوكانيه وجامبو وكافاي وويزامو وداورا وهي صغراهن.

وحدث أن رجلاً يُدعى أبو يزيدو، وهو ابن عبد الله ملك بغداد، تشاجر مع أبيه ومع أهل المدينة. وكان هؤلاء مقسّمين إلى أربعين فريقًا. فأخذ أبو يزيدو عشرين فريقًا منهم ورحل إلى بورنو وأقام فيها. ولكن ملك بورنو أحس أن أبو يزيدو أقوى منه وأعز جاهًا ونسبًا. فشاور قومه في الأمر فنصحوه بأن يصهر إلى أبو يزيدو ويزوّجه ابنته. فأخذ بنصيحتهم وزوّجه ابنته ماجيرا. وبعد ذلك أخبر ملك بورنو أبو يزيدو أنه ينوي خوض الحرب وطلب منه أن يعيره فرسانه وجنوده ليستعين بهم على أعدائه. وأعار أبو يزيدو الملك ثلاثة آلاف جواد وجندي وسبعة عشر أميرًا. وقال الملك «حين نعود من الحرب، سأجعل منهم أمراء في بلادي». ثم ذهبوا إلى الحرب وظلّوا غائبين ستة شهور.

وعندئذ بدأ ملك بورنو يتآمر لقتل أبو يزيدو، ولكن زوجته، ماجيرا، سمعت بالمؤامرة وأبلغت زوجها على الفور. وحين علم أبو يزيدو بالأمر أدرك، وقد جرّد من فرسانه وأمرائه، أنها مؤامرة للقضاء عليه. فلجأ إلى قومه وطلب منهم أن يهربوا إلى الشمال أثناء الليل. فانصاعوا لأمره وانصرفوا، فنهض أبو يزيدو وزوجته واتّجها إلى الغرب. وحين وصلا إلى مكان يُسمّى جابامس – تا – بورام وضعت زوجته ابنًا، فتركها هناك وواصل السير مع خليلته وكانت حاملاً هي الأخرى. وظلاّ سائرين حتى وصلا ليلاً إلى داورا. فطرقا باب عجوز تسمى وايبرا. وطلب منها بعض الماء فردّت بأنهم لا يحصلون على الماء إلاّ في أيام الجمع. وحين سألها عن السبب قالت إن في البئر حية تمنعهم الماء. فأخذ الدلو الذي أعطته له وذهب إلى البئر ودلّى الدلو في الماء. وحين سمعت الحية صوت الدلو اشرأبّت برأسها واستعدّت للانقضاض. ولكن أبو يزيدو احتلّ سيفه وأطار رأس الحية. وكانت رأسها في ضخامة رأس الحصان. حدث هذا في ليلة الجمعة، وفي الصباح احتشد الناس حول البئر وأخذوا يتساءلون عمن فعل ذلك بالحية التي كانت تُسمّى ساركي، ويتعجّبون من ضخامة الجزء الظاهر من جسمها خارج البئر والجزء الذي تبقّى داخلها. وحين بلغ النبأ الملكة داورا، ذهبت إلى البئر ومعها كل الأميرات وسألت عمّن فعل هذه الفعلة. وتباهى كثيرون كذبًا بأنهم هم الذين قتلوا الحية. ولكن حين طلبت الملكة أن ترى رأس الحية لزم الجميع الصمت. وعندئذ قالت المرأة التي كان أبو يزيدو قد طرق بابها، إن رجلاً جاء إلى بيتها بالليل يحمل رأس حيوان يشبه الحصان وإن كان ليس بحصان، وأنه طلب منها دلوًا فأعطته، ثم جاء بالماء وسقى حصانه، وأعطاها ما تبقّى من الماء، وربّما كان هو الذي قتل الحية. وحين سألوه قال إنه هو الذي قتل الحية وأراهم رأسها. وقالت الملكة «لقد نذرت أن أعطي نصف مدينتي لمن يفعل ذلك». ولكن أبو يزيدو قال إنه لا يريد أكثر من الزواج منها. ووافقت الملكة، وعاش في بيتها مع خليلته الحبلى.

وكانت الملكة تقول للناس كلما جاءوا لها بانباء اذهبوا إلى بيت «ماكاس – ساركي» (قاتل الحية).

وأنجبت الخليلة غلامًا أسمته موكاربيجاري. ثم أنجبت الملكة ابنًا أسمته باوو – جاري. ومات أبو يزيدو وخلفه على عرشه ابنه باوو.

وأنجب باوو ستة أبناء، هم: جازاورا الذي أصبح ملكًا لداورا؛ باجوادا الذي أصبح ملكًا لكانو، وكان من نفس الأم؛ جونجوما، الذي أصبح ملكًا لزازاو (زكزك)؛ ودوما، الذي أصبح ملكًا لجوبير، وكان من نفس الأم؛ وكومايو، الذي أصبح ملكًا لكاتسينا؛ وسامنا كوجي، الذي أصبح ملكًا لكانو، وكان من نفس الأم.

وتذكر نفس هذه المأثورات الشفاهية للداورا، أن الملكة داوراما، التي تزوّج منها أبو يزيدو

بعد انتصاره على الحية ساركي ، كانت تاسع حاكم للبلاد ، فقد سبقها إيناجاري ، وجدير – جدير ، وأووايلو ، وكاتسينتا ، وأويرامو ، وياكاينيا ، وياكانوا ، وكافارا.

«التاريخ الذي يُروى» في «التاريخ الذي صُنع»

تنصبّ العناصر المشتركة في كل روايات المنشأ هذه على أربع وسائل أساسية تنقلها أو تستهدف نقلها :

- هجرة يُفترض أنها كانت من الشرق إلى الغرب أو ، بصفة أعمّ ، من الشمال أو الشمال الشرقي إلى الجنوب أو الجنوب الغربي ؛
- نقطة انطلاق في الشرق الأدنى ، ولا سيّما اليمن وشمال شرقي افريقيا وبخاصة مسرا (مصر) وهبشا (اثيوبيا) ؛
- زمن للنشأة يرتبط بظهور الإسلام ؛
- أصل عرقي أو إثني عربي/إسلامي ، يرتبط بوجه خاص بالنبي محمد والخلفاء.

وتتمايز شتى روايات المنشأ فيما بينها بالأهمية التي توليها لرسالة أو أخرى من هذه الرسائل. فإذا كانت سيرة دينجا كوري الكبير ، الجد الأكبر للسوننكي ، لا تظهر توقيرًا للإسلام وتستمدّ جانبها الديني من الثقافة الافريقية التقليدية أساسًا ، فإن روايات المنشأ للجماعات الاثنية لوادي النيجر الأوسط ، ولأسرة زا في مملكة الصنغاي ، والتي يسودها «تاريخ الفتاش» و«تاريخ السودان» ، تهتم في المقام الأول بالبحث عن أسلاف عرب ، بل قد تذهب في سبيل ذلك إلى البحث عنهم في الميثولوجيا العربية الإسلامية (عوج مثلاً) ، أو نسبتهم إلى جذور محلية تُربط أو تُدرج في أسر عربية إسلامية حقيقة مثل ترامس بن هارون وجابر بن عبد الله الأنصاري.

من هنا تأتي أهمية دراسة أنواع أخرى من النصوص ، وبصفة خاصة النصوص التي تتناول نشأة الكون ووصف العالم والنصوص الطقسية لدى بعض أقوام الوادي الأوسط لنهر النيجر ، كي نرى إلى أي مدى يمكن مقارنة نصوص الأساطير وروايات النشأة في هذه الأديان التقليدية التي صمدت للتغيير ، ولم تعان أية أزمة في مواجهة الإسلام أو المسيحية ، بالروايات التاريخية الشفاهية أو المكتوبة ، وإلى أي حد يمكن للنصوص أن تلقي الضوء على هذه الروايات ، ولا سيّما فيما تشير إليه من أسماء للأشخاص والآلهة. وترتبط أساطير نشأة الكون لدى الصنغاي برقصات التقمّص التي تؤدّى في عبادة الهولّي Holleys ، وهي تمثّل فيما يبدو أكثر النظرات الكونية في وادي النيجر الأوسط اهتمامًا بوضع الإنسان في مركز الكون ، من حيث أنها تحرص على دمج آلهة المنطقة وسكانها في كيان واحد. ولهذا السبب سوف نستخدم هذه الأساطير كمنطلق لدراسة هذه الإحالات.

روايات المنشأ في أساطير نشأة الكون

النشأة الأولى في أساطير نشأة الكون لدى الصنغاي المقيمين على امتداد النهر[١٥]

تميّز أساطير نشأة الكون لدى الصنغاي بين عدة عائلات من المعبودات الأسطورية والأسلاف المعبودين، فهناك معبودات الزن (Ziin) السابقين على البشر، وهم سادة الأرض والماء، وهناك آلهة، مثل الهولّي، شبيهة بالبشر تحرس الطبيعة، وهناك أسلاف مؤلّهون مثل فاران ماكا بوتيه، الجد الأكبر لصيادي الأسماك من السوركو.

وتمثّل أرواح الهولّي البنية الأساسية للديانة ولعبادات التقمص لدى الصنغاي، ويمكن تقسيم هذه الأرواح إلى عدّة مجموعات ميثولوجية تناظر الشعوب المختلفة:

التورو، أرواح النهر والسماء، وهم الآلهة الرئيسيون، والأسلاف الأسطوريون الذين كفلوا للصنغاي الإقامة في الوادي الأوسط للنيجر والسيطرة عليه؛
الجانجي كواري: «الأرواح البيضاء»، وهي أرواح الطوارق أو غيرهم من البدو؛
الجانجي بي، «الأرواح السوداء»، وهي أرواح «متقلّبة»، أسيرة ولكنها «سادة الأرض»؛
الهاوسا جانجي، «أرواح الهاوسا»؛
الهارجي، «الأرواح الباردة»؛ السَحَرَةُ الشريرون؛
الآتاكورما، «أرواح أقزام» الغابة، ويحتمل أنها تمثّل السكان الأوائل؛
الهاوكا، «أرواح القوة» التي تمثّل الإقتحام المفاجئ للإستعمار والحضارة الأوروبية.
وتمثّل عائلة الهولّي الكبيرة هذه، أحد مكوّنات التمثيل الأسطوري للعناصر السكانية:
فالصنغاي يمثلهم التورو؛
والطوارق ومن بعدهم العرب الذين جاءوا بالإسلام، يمثّلهم الجانجي كواري؛
والجورما والموسى يمثلهم الجانجي – بي؛
والهاوسا يمثلهم الهاوسا – جانجي؛
والأقوام المنعزلة جميعًا يمثّلها الآتاكورما؛
والأقوام الأسبق التي كانت تعيش على ضفة النهر، تمثّلها «الأرواح الباردة» أو الهارجي؛
والأوروبيون وحضارتهم يمثّلهم الهاوكا.

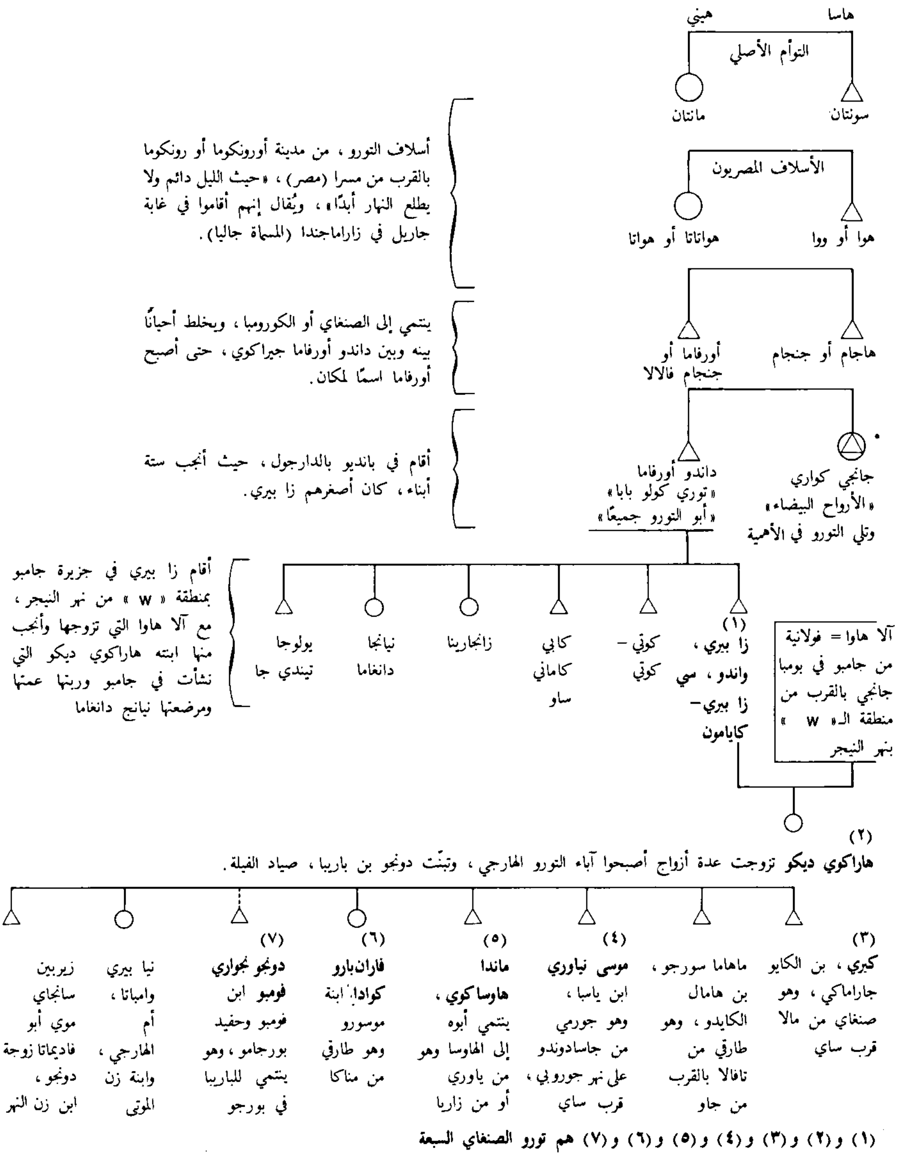
ولا ينبغي لهذا التصنيف أن ينسينا أن هذه المعبودات تخالط – منذ البداية – البشر وتتحدّث معهم،

وأن طبيعتها الإنسانية المركز anthropocentrism ، أو بالأحرى التشبيهية بالإنسان anthropomorphism ، تؤدّي في بعض الأحيان إلى طمس الخط الفاصل بين الوقائع الإلّهية والوقائع الإنسانية ، بحيث يصعب فهم أساطير نشأة الكون وأصل الآلهة ، أو الأصول الإثنية إذا شئنا الدقة ، في معبودات الصنغاي . وسوف تساعدنا الأنساب التالية لمختلف الأرواح ، على تتبّع شتى المراحل التي مرّ بها الآلهة والأسلاف من خلال ما تورده أساطير الحركات السكانية عن رحلات المجموعات أو المجموعات الفرعية ولقاءاتها ومعاركها (الشكلان ١ و ٢).

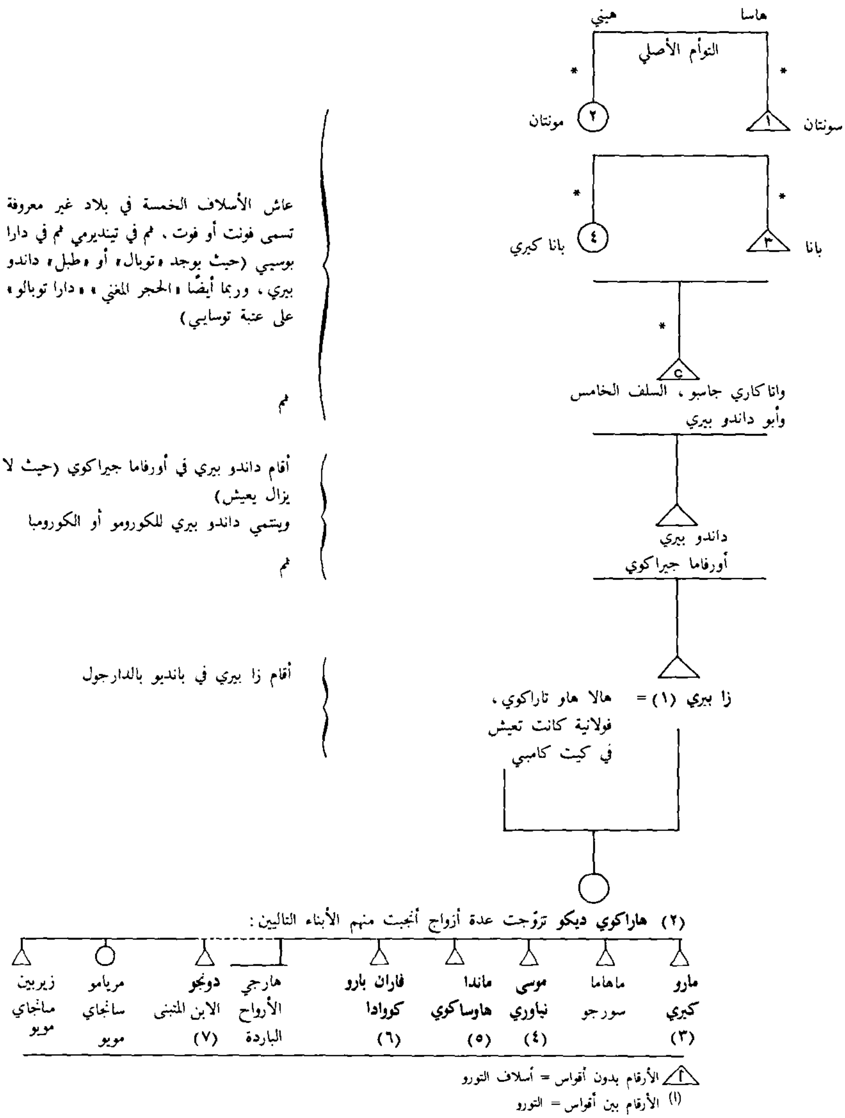
وُلد **سونتان ومانتان** ، أسلاف التورو ، الآلهة الرئيسية للصنغاي ، من «التوأمين الأصليين» هاسا وهيني ، وعاشا أولاً – كما عاش أبناؤهما من بعدهما ، في أورومكوما أو رومكوما بمنطقة فوت أو فونت بالقرب من مسرا (مصر) ، وهي مدينة «تخيّم عليها دائمًا ظلمة الليل ولا تعرف النهار» ، ثم هاجروا إلى الغرب وأقاموا في غابة جاريل أو جاليا بالقرب من قرية موجاديوجو في الزارماجاندا ، حيث وجدوا الجانجي – بي (وهم الجورما والموسى الذين انحدروا من هانجو زانجو بورزانجو ، وأصبحوا «أصحاب الأرض وسادتها» بعد طردهم الآتاكورما «سكان الأرض الأوائل»). وفي مجرى المواجهات اللاحقة بين الجانجي – بي وأوائل التورو (وهم الصنغاي والكورومي أو الكرومبا) ، كان الوافدون الجدد ينقسمون إلى تورو وجانجي – كواري أو «الأرواح البيضاء» (الشكل ٥) ، وهم الطوارق والمسلمون.

وعلى ذلك فنحن نعتقد أنه من الأهمية بمكان أن ندرس التكوين الإثني للجانجي – بي ، الذين كانوا يتكوّنون أصلاً من الموسى والجورما ومن بعض «الشعوب الفولتائية» الوسيطة (الشكل ٦). وكان أولئك الجانجي – بي يعيشون في زاراماجاندا ، حيث ارتبطوا بالأسرى الفولانيين (زاتو) ، وبالهاوسا (جوبا – سيكي) ، وبالبارجانسي أو الباريبا (فاديماتا دونجو ايزيه) ، الذين دعوهم جميعًا للإنضمام إليهم. وهذه الميثولوجيا التي تبين تصوير الصنغاي للجغرافية البشرية الأصلية لوادي النهر قبل مجيئهم ، تتحدّث عن خليط يضم «مجموعات من الأقوام الفولتائية» يسيطر ، أو يغلب ، عليها الموسى – جورما مع عناصر قليلة من الفولاني والهاوسا والباريبا.

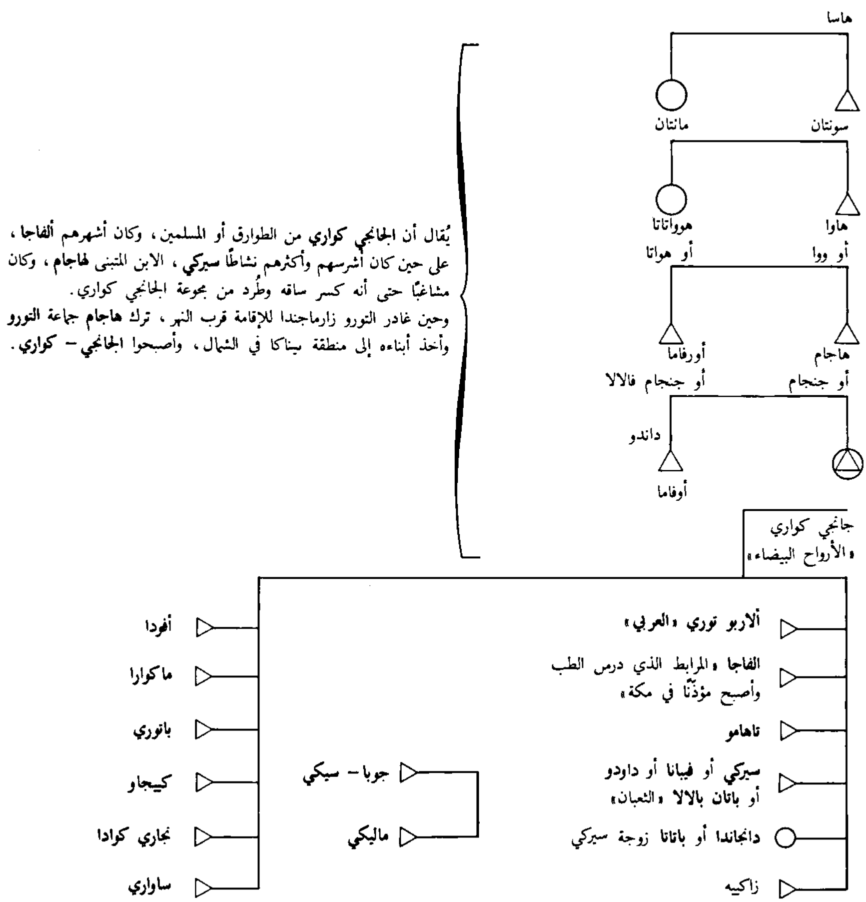
كان هذا هو الوضع الذي واجه التورو الأصليين حين جاءوا من فونت بالقرب من مسرا ، تحت قيادة الصنغاي – كورمبا أورفاما المعروف أيضًا باسم جنجام فالالا أو الصنغاي – كورمبا داندو أورفاما جيراكوي ، الذي واجهت مجموعته الجانجي – بي المنتمين إلى مجموعة «الموسي – جورما الفولتائية» في زاراماجاندا. وكانت نتيجة المعركة الضارية المريرة أن دمّر الصنغاي الموجي – جورما وسلبوهم ممتلكاتهم وأخذوا منهم كل تابعيهم وحلفائهم ليكوّنوا تجمّعًا جديدًا ذا تنظيم جديد ، انقسم إلى مجموعتين في زاراماجاندا ، اتّجهت إحداهما نحو النهر ، تحت قيادة فينجام فالالا (أورفاما) أو راندو أورفاما جيراكوي ، واتّجهت الأخرى شمالاً نحو مناكا تحت قيادة هاجام هوا المعروف أيضًا



الشكل ١ : أنساب تورو الصنغاي، الأرواح الرئيسية في أساطير نشأة الكون عند الصنغاي.



الشكل ٢ : أنساب تورو الصنغاي حسبما يذكرها داودا سوركو ، من بلدة سيميري في زارماجندا.

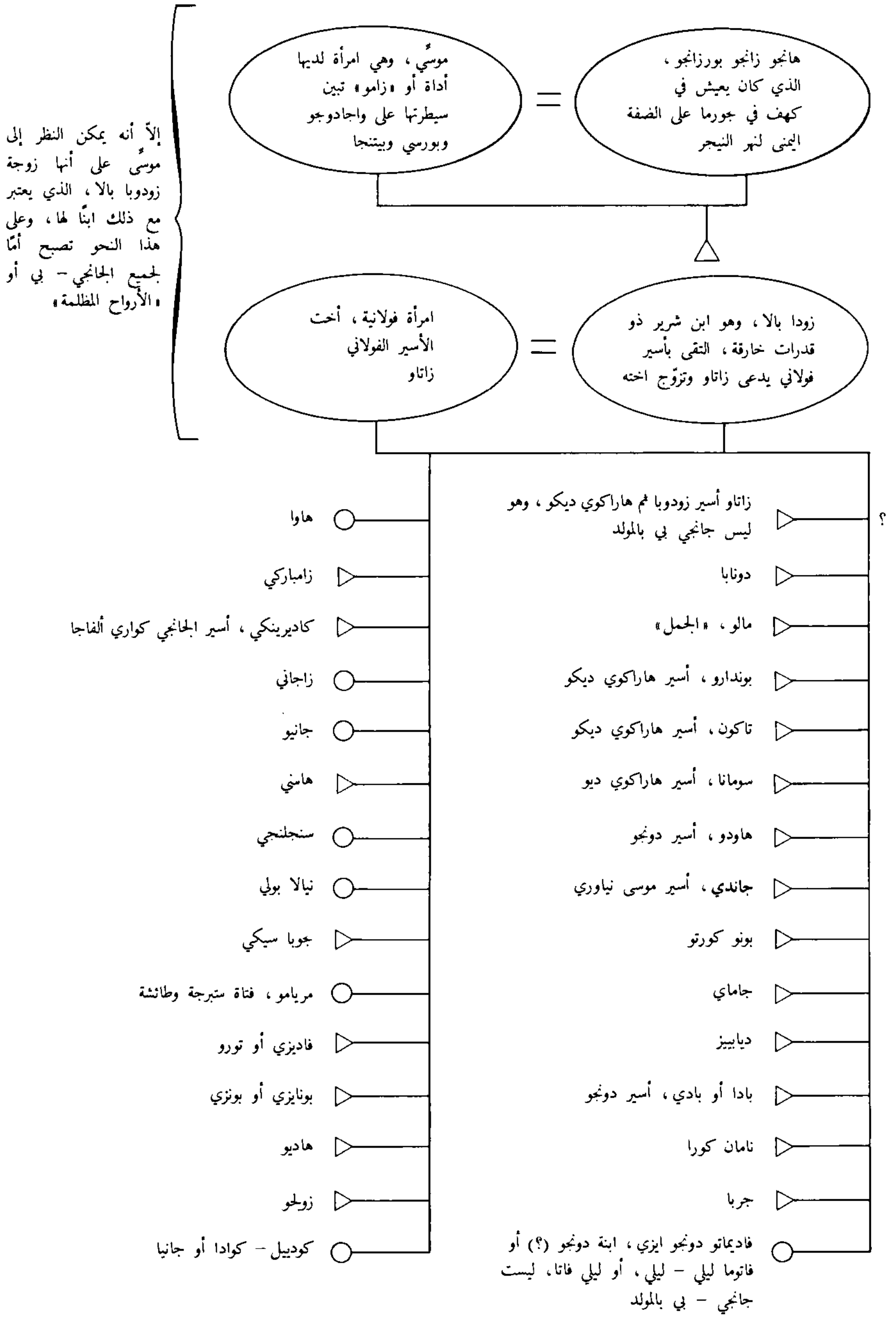


الشكل ٣ : أنساب الجانجي – كواري.

باسم جنجام هوا. وأصبحت المجموعة الأولى آلهة التورو الرئيسية على حين أصبحت الثانية آلهة الجانجي – كواري.

وأقام داندو أورفاما جيراكوي، وهو إمّا أن يكون ابنًا لجنجام فالالا أو لواتاكاري جامبو، في بانديو بمنطقة دارجول التي سميت باسم رافد موسمي صغير، وأنجب هناك ستة أبناء كان أصغرهم زابيري.

وإذا كان داندو بيري هو الجد الأكبر الموقر، الذي يحظى بمنزلة «أبي التورو جميعًا» («توري كولو بابا»)، فإن ابنه، زابيري، كان له من النفوذ ما جعل اسمه يسيطر على جانب كبير



الشكل ٤ : أنساب الجانجي بي أو «الأرواح المظلمة».

من تاريخ الصنغاي يمتدّ حتى عهد سُنِّي عَلي بر في نهاية القرن السادس عشر الميلادي. فهو الإله الذي أصبح يحتلّ المرتبة الأولى بين التورو الرئيسيين والذي كان لذريته الفضل في توطيد مكانة آلهة الصنغاي بحيث أصبحت صاحبة الكلمة العليا في منطقة نهر النيجر. وترك زا بيري منطقة دارجول على الضفة اليمنى للنيجر، ليقيم في جزيرة جامبو، حيث يتّخذ النهر شكل حرف « W »، في موطن زوجته هالا هاوا، وهي امرأة سن بونبا جانجي أو «غابة بومبا». وقد أنجبت له ابنة فاتنة الجمال، هي هاراكوي ديكّو التي أسفرت زيجاتها العديدة عن توسيع نطاق مجموعة الهولّي، ولا سيّما التورو الرئيسيين، وأكّدت التحالف بين البشر والآلهة.

تزوّجت هاراكوي ديكو أولاً سن الكايدو جاراماكي، وهو من مالا بالقرب من ساي، وينتمي مثلها إلى الصنغاي - كورمبا، وأنجبت منه ولدًا يسمى كيري. وهكذا أصبح الجد، زا بيري، والأم، هاراكوي ديكو، وابنها، كيري، الآلهة الثلاثة الأول في معبودات التورو الرئيسية. ثم انفصلت عن زوجها، وتزوّجت هامال الكايدو، وهو طارقي من تافالا بالقرب من جاو، وأنجبت منه ابنًا ثانيًا هو ماهاما سورجو، أي «ماهاما الطارقي»، الذي رحل إلى مناكا في الشمال ليلحق بهاجان هوا، جده الأكبر من ناحية الأم، وبالجانجي - كواري. ثم انفصلت عن زوجها الثاني، وتزوّجت رجلاً من الجورما، وهو يامبا، سن جاسادوندو بالقرب من ساي، وأنجبت منه ابنًا ثالثًا هو «موسى نياوري» الذي احتلّ المركز الرابع بين التورو الرئيسيين.

وانفصلت هاراكوي ديكو عن زوجها، وتزوّجت رجلاً من الهاوسا، من ياوري أو من زاريا، وأنجبت منه ابنًا هو ماندا هاوساكوي «ماندا ملك الهوسا»، الذي أصبح خامس التورو الرئيسيين. ثم طلقت مرة أخرى.

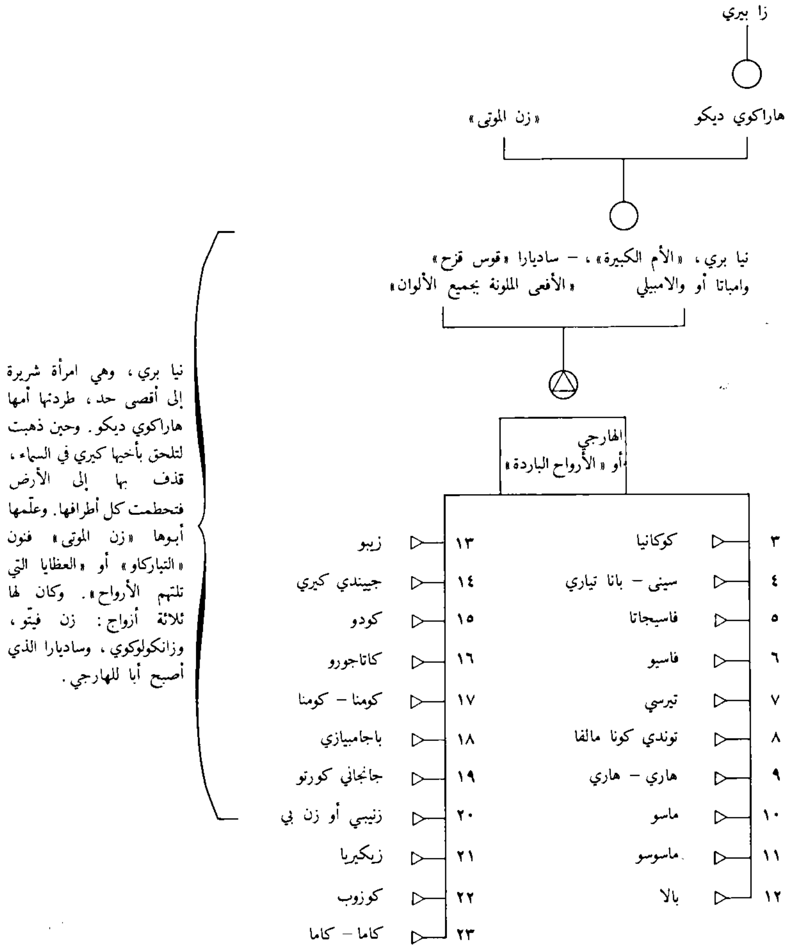
وتزوّجت هاراكوي ديكو بعد ذلك من رجل يُدعى موسورو، وأنجبت منه ابنة (ويقول البعض ابنًا) هي فاران بارو كوادا التي أصبحت سادس التورو الرئيسيين. ثم انفصلت عن زوجها.

ويبدو أن هاراكوي ديكو كانت أكثر شغفًا بالأطفال منها بالأزواج، وهكذا تبنّت بخواري فومبو أو دونجو، وهو الابن الأكبر من خمسة أطفال أنجبهم شخص يُدعى جومبو أو فومبو، ينتمي لبارجانسية أو باريبا بورجو، كما تبنّت امرأة من البلاّ تسمى لومبو كامبينا (أي «لومبو البرصاء»). وهناك رواية للزارماجندا من داورا سوركو تشير إلى أن فومبو كان ابنًا لبارجامو الذي ينتمي لبارجانسية بورجو.

وحقيقة الأمر أن التورو من أبناء هاراكوي ديكو هم الذين اجتذبوا دونجو أو نجواري فونجو، لما كان يتمتّع به من قوة وطلعة مهيبة، فأغروه بأن قدّموا له زوجة أحدهم، وهي الفاتنة فاديماتا زيربين سانجاي مويو. وكان دونجو وأخوته الأربعة جميعًا، ديجي فومبو وديجيال فومبو وماجيري فومبو وتورو فومبو، من صيادي الفيلة.

وتزوّجت هاراكوي ديكو بعد ذلك من روح النهر ، الزن سانجاي مويو ابن ايبادا ، وأنجبت منه غلامًا ، هو الزن زيربين سانجاي مويو ، وابنة هي مريامو سانجاي. وأنجبت زيربين ابنة هي فاديماتا زيربين سانجاي مويو ، التي تزوّجت من نجواري فومبو أو دونجو ، عند اجتذابه. ثم انفصلت هاراكوي ديكو من زوجها مرة أخرى.

وتزوّجت هذه المرة من زن الأموات ، فأنجبت منه ابنة تسمى نيا بيري ، وهي « الأم الكبيرة » (وامباتا أو والامبليه) التي أسفرت زيجاتها الثلاثة (بثلاثة من الجن هم فيتو وزانكولوكوي وساديارا أي « قوس قزح » أو « الثعبان الملون بجميع الألوان ») عن مولد « الأرواح الباردة » ، أي الهارجي ، الذين



الشكل ٥ : أنساب الهارجي.

أنجبت معظمهم من زواجها الأخير. وملّت هاراكوي ديكو مرة أخرى الحياة الزوجية، ولكنها قرّرت أخيرًا أن تركن إلى الراحة في النهر. وهكذا انتهى التاريخ الأول للآلهة الذي يظهر فيه أناس عاديون مثل السوركو.

وتبين الجداول الثلاثة التالية التورو من أبناء هاراكوي ديكو وصفات كل منهم.

وقد تزوّجت هاراكوي ديكو أولاً من خمسة أزواج على التوالي: أنجبت منهم خمسة أولاد نُشئوا في جامبو على مقربة من جورما. وبيانهم على النحو التالي:

الزوج الأول	الزوج الثاني	الزوج الثالث	الزوج الرابع	الزوج الخامس
الكايدو جاراماكي ينتمي للصنغاي، من مالا بالقرب من ساي	هامال الكايدو، طارقي من تافالا بالقرب من جاو	يامبا، وينتمي للجورما، من جاسادوندو بالقرب من ساي في جوروبي	هاوسا من زاريا أو ياداري	موسّورو، طارقي من منكا

الابن الأول	الابن الثاني	الابن الثالث	الابن الرابع	الابن الخامس
كيري، من صنغاي مالا، «الأحمر»، «روح البرق»	ماهاما سورجو، طارقي من تافالا «زانجانا» أصبح من الجانجي – كواري «روح الصيد»	موسى نياوري، جورمي من جوروبي،	مانداها وساكوي، ينتمي للهاوسا، من زاريا أو من ياوري، «روح كير الحداد»	فاران بارو كوادا، طارقي من منكا، وهو رجل أحيانًا وامرأة أحيانًا أخرى

الابن الأول	الابن الثاني	الابن الثالث	الابن الرابع	الابن الخامس
رجل حكيم، «يعرف كل طرق السماء»	راع من البدو	صياد	صانع أدوات معدنية وحداد	بطل في بعض الأحيان وخنثى في أحيان أخرى

وبعد تبني نجواري فومبو أو دونجو، أصبح التورو السبعة الرئيسيون، أي المعبودات الرئيسية للصنغاي، على النحو الآتي:

١. زا بيري، أبو هاراكوي ديكو، وهو من الصنغاي أو الكورومبا.
٢. هاراكوي، ديكو، الابنة التي أنجبتها امرأة فولانية لزا بيري.
٣. كيري ابن هاراكوي ديكو، وهو من الصنغاي.
٤. موسى نياوري، ابن هاراكوي ديكو، وهو من الجورما.
٥. ماندا هاوساكوي، ابن هاراكوي ديكو، وهو من الهاوسا.
٦. فاران بارو كوادا، ابنة هاراكوي ديكو، أو ابنها كما يُقال أحيانًا، وهي من الطوارق.
٧. دونجو، الابن المتبنى لهاراكوي ديكو، وهو من الباريبا وأمه من البِلّا.

وتمثّل هذه المعبودات السبع الأولى سبع مجموعات إثنية أولية: (١) الصنغاي؛ (٢) الكورومبا أو الكورومي؛ (٣) الفولاني أو البيول؛ (٤) الطوارق أو السورجو؛ (٥) الجورما أو الجورمانسي؛ (٦) الهاوسا؛ (٧) الباريبا أو البارجو أو البارجانسي.

وهكذا لم تلبث آلهة الصنغاي أن تعرّضت – بعد انتصارها على الجانجي بي في زاراماجندا واستقرارها على ضفة النهر – لنكسات طويلة الأمد ممّا اضطرها إلى مصالحة المجموعات الأخرى التي كانت تتصارع للسيطرة على نهر النيجر «نيل كاو-كاو» الشهير الذي تحدّث عنه المؤرّخون والرحّالة العرب. ويوجز جان روش العلاقة بين التاريخ الميثولوجي وبين بداية تاريخ الصنغاي إيجازًا بليغًا فيقول:

هكذا انتشر الهولّي ليملأوا العالم: وانفصل الآن الهولّي القادمون من مصر، الهولّي سادة الأرض، عن هولّي الهاوسا مزهقي الأرواح. وفي ذلك الحين كان الزن لا يزالون يتمتّعون بسلطان شامل. وكان التنافس بين زن النهر والتورو هو الذي أدّى إلى نشوء أول حكاية يدخل فيها إنسان، هو فاران ماكا بوتيه السوركو، في هذا «الحوار» بين الآلهة[١٦].

وحين وصل التورو إلى النهر، تحت قيادة داندو أورفاما، وأقاموا في بانديو، بالدارجول، اتجه زا بيري، ابن دانو أورفاما، جنوبًا إلى «بومبه جانجي»، أي «غابة بمبه»، في منطقة الـ« W » الحالية، حيث وُلدت هاراكوي ديكو. واستطاع زا بيري أن يوسّع نطاق الجماعة من خلال الزيجات المتتالية لابنته «ديكو». غير أن جماعة صيادي الأسماك من السوركو كانت تنمو حينذاك على ضفاف النهر، وكانت مقسّمة إلى أربع عائلات حول فاران ماكا بوتيه، وفاتا كا فاران، ومايدا كا فاران، وزنكيبارو، وتربطها تحالفات متفاوتة بالزن أي بـ«جن النهر» الذين كانوا هم السادة الحقيقيين، «تماسيح» أو «أفاعي» النهر الكبير.

ويبرز شخصان من جماعة السوركو ويلتحمان في صراع حتى الموت، وهي مشاهد ما زلنا نلقاها في المأثورات الشعبية من بحيرة دبو في مالي إلى ياوري في نيجيريا.

واستخدم زنكيبارو التعاويذ السحرية التي تعلّمها بحكم مولده كجني (زن) لإخضاع التورو ، فسحرهم بصوت طبلته **دون دون**. وكمانه **جوديي**. ولم يلبث فاران ماكا بوتيه ، الذي كان جنيًا (زن) من خلال أمه ماكا[١٧] ، والذي كان يقيم حينذاك في جاو ، أن دخل في صراع مع زنكيبارو للسيطرة على جماعته الفرعية على نهر النيجر. وبعد انتصاره في هذه المعركة ، قام بتحرير التورو ، ولكنه احتفظ بالآلات الموسيقية التي كان يستخدمها زنكيبارو ليسحر التورو. ثم شدّ الرحال مرة أخرى ليلحق بأمه في بمبه. وسوف نفحص الآن بمزيد من التفصيل مغامرة الآلهة هذه التي طلبوا خلالها تدخّل البشر.

في أول قصة عن النهر ، يدخل التورو الرئيسيون في صراع مع «جن النهر» ولا سيّما رئيسهم سانجاي مويو. فقد أرادت هاراكوي ديكو بعد زواجها السابع ، أي زواجها من «زن الأموات» ، أن تستريح في النهر ولكن زوجها السابق «زن النهر» سانجاي مويو اعترض على ذلك ، فنشبت الحرب بين التورو والجن. وجاء الأبناء التورو لهاراكوي ديكو فهزموا جميعًا باستثناء موسى نياوري الذي كان مع أبيه في جورما ، والذي علم بالمعارك الدائرة من الكركي المتوَّج الذي أرسلته إليه هاراكوي ديكو.

وجاء موسى نواري بالمساحيق السحرية التي أعطاها له جده وهزم «الزن العُلْويين» و«الزن السُّفْليين» ، حتى تتمكّن أمه من العودة إلى النهر. ولكنها أرادت ، قبل عودتها إلى النهر ، أن يحصل ابنها موسى نياوري على ما يستحقه من مديح بشجاعته وانتصاره. ولهذا ناشدت البشر وبخاصة صيادي الأسماك السوركو.

كان هذا أول ظهور للبشر. فقد جاء السوركو ، وكانت أروع خطبة مديح هي الخطبة التي ألقاها زنكيبارو الذي أعطته هاراكوي ديكو فأسًا مكافأة له.

وهذا النصر الفني الأول جعل من زنكيبارو «سيدًا للكلمات» ، إذ أدرك بسرعة مدى تأثّر التورو بالكلمات وبدأ يصاحب الكلمات بالعزف على الجيتار.

وذات يوم ، وجد فاران ماكا بوتيه زنكيبارو على جزيرة عند ملتقى الأنهار السبعة. وكان زنكيبارو يعزف على جيتار بينما كان بعض «زن النهر» يقرعون الطبل **دون دون** والكمان **جوديي** والتورو يرقصون. فقرّ عزمه على تحرير التورو من سحر موسيقى زنكيبارو وأشياعه من الزن. وكانت هذه أول مغامرة بشرية عظيمة في تاريخ آلهة الصنغاي ، مغامرة كان من شأنها أن قام التحالف بين الآلهة والبشر.

وكان فاران ماكا بوتيه ، أو نابو كانتابو ، ابنًا لصياد فقير من السوركو ، يصيد السمك بيديه ، ويدعى ناسيلي بيته. وقد توقّف عند كاريكوبتو ليبني لنفسه مسكنًا على رابية صغيرة تغطيها كثيبات النمل ، فوجد أثناء حفره جنية تُدعى ماكا أو مها تمسك بيدها قضيبًا من الحديد له حلقات من النحاس ، وهو **الجورو جوبو** الذي يتميّز بخصائص سحرية عجيبة. وكانت جاتي ، أم ماكا ،

جنية أيضًا تعيش في جورزانكي في الماندا أو الماندي.

ولمّا كان أبوه صيّادًا وأمه جنية، فقد تعلّم فاران ماكا بوتيه الصيد كما تعلّم فنون السحر. وأعطته أمه **الزوجو**، وهي أول حربة يستخدمها لصيد السمك، بأن حوّلت إلى حديد الجني الشرير زن زربين سنجاي مويو (ابن هاراكوي ديكو من زوجها الأخير، سانجاي مويو، جن النهر) الذي كان قد قتل كثيرًا من الصيادين السوركو. وفضلاً عن هذه الحربة التي كانت تسمى **زيربين**، أعطت ماكا لابنها حربة أخرى، هي **الزوجو** الأنثى، المسماة **بابنجاي**.

وهكذا أصبح فاران ماكا بوتيه مستعدًا للمغامرات العظيمة التي كان مقدّرًا له أن يخوضها. فهزم أولاً زنكيبارو (الجن؟) الذي كان قد أخضع التورو في جامبو. وترك، في سبيل ذلك، كاري كوبتو وأقام في جاو. وقادت حلقات هذا الصراع فاران ماكا وزنكيبارو إلى رومكوما ودوسكونجي وإلى نهر جوروبي ثم إلى أعماق جورما في جاسادوندو، حيث ظفر فاران ماكا بالنصر واستولى على الهارجيبي، وهو رمح له ثلاثة نصال مسنّنة كان في حوزة زنكيبارو، والآلات الموسيقية، الجيتار **والدون دون** (الطبلة) **والجوديي** (الكمان)، التي كان زنكيبارو يستخدمها لإخضاع التورو.

وبعد ذلك قام فاران ماكا بتحرير التورو وأعادهم مرة أخرى إلى نهر النيجر، ثم رجع إلى جاو. وهكذا زادت قوة فاران ماكا زيادة كبيرة، إذ أصبح قادرًا الآن على ترقيص التورو بالآلات الموسيقية التي كان تأثيرها على التورو بالغ القوة إذ كانت هي الآلات التي استخدمها «زنكيبارو»، فضلاً عن امتلاكه للحربتين **زيربين** و «**بابنجاي**»، والرمح الثلاثي الشعب **هارجيبي**. إلاّ أنه لا يبدو أنه أساء استخدام سحر الموسيقى في الكيد للتورو. وأقاموا على مقربة من جاو في دارا (خانق توساي)، وفي مركنديه (باركاينا الحالية بالقرب من توساي). ثم شدّ فاران ماكا الرحال مرة أخرى ليلحق بأمه في بمباتيبي (بالقرب من بمبه). ويبدو أن ائتلافًا قد تكون حول زنكيبارو المهزوم، إذ تحالف الجانجي بي، بعد تركهم لغابة جاريل وعبورهم النهر للإقامة في جورما، مع الكورومي لمهاجمة التورو.

وأخذ الكورومي يسرقون روح الدخن الذي يملكه التورو. فتحرك التورو بحذاء النهر ولاحقهم الجانجي بي حتى رونكوما، «البلدة التي لا تعرف النهار»، حيث استطاعوا مع ذلك أن يروا طريقهم باستخدام مرآة سحرية. ولكن «فاران بارو كوادا» أخذ المرآة وأعطاها للجانجي بي أيضًا، ممّا قوّى عزيمة المقاومة لدى التورو فأغرقوا مائة من الجانجي بي، خمسين في كل مرة. وعندئذ اشتعلت الحرب ضارية بينهما. وشكت هاراكوي إلى داندو أورفاما وهاجام العجوز ضعف روح القتال لدى «التورو»، فقاما بحشد جميع أبناء التورو والجانجي كواري. وعندئذ دخل الجانجي بي النهر، على حين عاد الهاوسا جانجي، الذين لم يكونوا طرفًا في المعركة، إلى هاوسا. واستمرّت الحرب عامًا كاملاً.

ولمّا كان الجانجي بي يلجأون إلى الاختباء في النهر في كثير من الأحيان، ويطيلون بذلك أمد النزاع، فقد أثار ذلك غضب التورو من أبناء هاراكوي ديكو، وهم موسى ودونجو وكيري وهاوسا كوي، فقرّروا أن يقضوا عليهم قضاءً مبرمًا بمهاجمة قريتهم من السماء. وهبّ ذات ليلة إعصار، فقام ماندا هاوسا كوي، الحداد، بقدح الشرار المنذر بالعاصفة. واستخدم كيري، «الذي كان يعرف كل دروب السماء»، رمحه الطويل، لولو، ليضيء الأرض بوميض عظيم ومستمر. وأخذ دونجو يرعد ليبث الرعب وألقى بفأس البرق التي كان ماندا هاوسا كوي قد صنعها له، على حين انقضّ موسى نياوري ليقتل بالسهام المشتعلة من «قوسه الحديدي السحري»، أولئك الجانجي بي الذين لم يصعقهم البرق.

وعندئذٍ انضمّ التورو جميعًا إلى المعركة: داندو أورفاما العجوز الذي يريد «أن يقتل الجميع»، و«تورو» ابن زانجينا سورجو الذي لم يقتل سوى سبعة وأربعين (لأن أمه لم تكن من التورو)، ودونجو الذي كان قد قتل خمسين فقتل خمسين آخرين، وفاران بارو الذي كان قد قتل مائة منذ بدأت الحرب في رومكوما.

وفي خضمّ المطاردة وقع موسى نياوري في الأسر في جورما ولكن كيري استطاع أن يحرّره.

وهكذا لحقت الهزيمة بالجانجي بي، ووقع كثير منهم أسرى وقام الأب، داندو أورفاما، بتوزيعهم بين التورو والجانجي كواري.

وبهذا النصر تحقّقت للتورو السيادة على سائر الهولّي. وبعدئذ عاد جميع التورو إلى دارا، ولكن دونجو ذهب ليعيش مع الجانجي كواري، وحين ذهب أخواه كيري وماندا هاوسا كوي ليبحثا عنه طلب من كيري أن يصنع له عباءة سوداء حتى يستطيع أن يتخلّص من ملابسه الجلدية وطلب من ماندا هاوسا كوي أن يصنع له فأسًا بجرس صغير ليستخدمها كسلاح يدافع به عن نفسه.

ومنذ ذلك الحين أصبح كيري، «الذي يملك وميض البرق الذي يسبق الرعد»، ودونجو «الذي يصنع الرعد ويثير البرق»، يملكان أسلحة رهيبة راحا يستخدمانها برعونة، ويلعبان بها في سماء قرية مركندي، التي كان يعيش فيها السوركو وهم أهل فاران ماكا بوتيه، الذي حرّر – كما نعرف – التورو من ربقة زنكيبارو. وسقطت الصاعقة على القرية فأحرقتها عن آخرها. وهنا خجل دونجو من فعلته وأراد أن يصلح خطأه. فأفضى بذلك إلى أمه، هاراكوي ديكو، التي أخذته معها إلى جدها داندو أورفاما. وعندئذ أعطى داندو إلى دونجو إناءً نصف كروي من الفخار هو **الهامبي**. ولكن كانت ثمة حاجة إلى رجل من البشر ليطري دونجو حتى يهدأ غضبه. ونصحت هاراكوي ديكو باستدعاء فاران ماكا بوتيه السوركو. وهكذا لقّن داندو أورفاما **الزامو** وهي كلمة سر التورو، لفاران ماكا بوتيه. وتجمّع التورو حول الإناء الطقسي، **الهامبي**، الذي ملأه فاران ماكا بالماء. ثم غمس دونجو رأسه فيه وأخذ في فمه بعض الماء ثم نفثه على جثث الذين صعقهم الرعد فعادت إليها الحياة.

وكان ذلك هو «اليننذي»، أي «الإنعاش» الأول أو «الاسترضاء»، الأول، و«الماركندي ينيه» أي طقس التنشئة الأول الذي تعلّم فيه السوركو فاران ماكا بوتيه كيف يستحضر التورو حول الإناء الطقسي، **الهامبي**، وكيف يشفي الذين صعقهم الرعد وينشد تعويذة التورو، **الزامو**، وكيف يستخدم نداءهم، **الكيين**، الطقس الأول الذي أكّد التحالف بين السوركو والتورو. كما كان أيضًا الطقس الأول والأخير الذي تجلّى فيه التورو للبشر، فقد أصبح لهم بعد ذلك «جياد» أو **باري**، أي «جياد بشرية»، يظهرون عليها ملبين دعوة فاران ماكا بوتيه، ولا يزالون يظهرون عليها حتى اليوم استجابة لدعوة ذريته خلال رقصات التقمص.

الجغرافيا الأسطورية للنهر الكبير والتكوين الإثني للصنغاي

تبدو قصة آلهة الصنغاي كما لو كانت قد حدثت كلها، أو كرّرت نفسها، بين خانق توساي بأعلى النهر ومنطقة الـ« W » بأسفل النهر، وهو ما يكاد ينطبق تمامًا مع نقطتي التقاء وادي تلمسي ووادي أزواك أو دلول بوسّو بالنهر الكبير.

فالمغامرات الأرضية التي سبقتها حدثت أو تكرّرت بين هذين الواديين الجافين، اللذين يبدو أنهما حدّدا تاريخ الهجرات.

فالمعارك الأولى بين التورو، القادمين من أرومكوما بالقرب من مصر، والذين كانوا من الكورومبا (والصنغاي؟)، وبين الجانجي بي سكان زارماجاندا، الذين كانوا من الموسى (والجورما؟)، كانت معارك بين معبودات زراعية تستهدف امتلاك الأرض. وكان الجانجي بي أنفسهم قد طردوا الأتاكورما، وهم جماعة صغيرة تفرّقت في الغابة. وعلى حين كان الجانجي بي، فيما يبدو، على صلة بالفولاني (من خلال زاتاو) وربّما أيضًا بالهاوسا من خلال جوبا – سيكي)، كان التورو من الكورومبا أساسًا حين وصلوا إلى زارماجندا (فحتى داندو أورفاما، الجد الأكبر «أبو التورو الرئيسيين جميعًا» يُعتبر واحدًا من الكورومبا)، بحيث لم تكن هناك أصلاً أية عناصر أجنبية بين التورو.

ولكن لا بدّ أن يكون التورو، بعد استقرار داندو أورفاما في بانديو بالدارجول وإقامته في الأراضي الداخلية، كما يليق بزعيم شعب يعمل بالفلاحة، قد ضمّوا إليهم، أو أصهروا إلى عناصر من الجانجي بي، أي الموسى (الجورما؟)، وذلك على الرغم من أن الأسطورة لا تقول لنا شيئًا عن هوية أم أبناء داندو أورفاما الستة، ولا تشير إلى أي صراع مع قادمين جدد أو إلى أي اتفاق عُقد في ذلك الحين. إلاّ أن ذلك لا ينبغي له أن يضلّلنا، فنحن أمام مغامرة أسطورية معقّدة لا تنفكّ ترتدّ، منذ بداياتها الأولى التي يكتنفها الإضطراب والغموض، إلى نقطة البداية من جديد وكأنها قوة ذات أبعاد ثلاثة يتقاطع فيها المكان والزمان والأمد ويتبادلون الأدوار، ولكنها تسير مع ذلك في خط

تاريخي مرسوم وتخضع لتطوّر جدلي خاص بها ، يتجلّى في الإضافات الخارجية وفي التكرارات التي تبدو في ظاهرها وكأنها لا لزوم لها ، لكنها في حقيقة الأمر ليست تكرارات بل تكيفات مع أوضاع مادية أو اجتماعية ثقافية جديدة.

إن أي تحالف أو صراع بين مجموعتين من المعبودات ومجموعتين من البشر ، يمكن أن ينسب في أية لحظة إلى أحد الأسلاف القدامى أو حتى إلى الجد الأكبر نفسه ، سعيًا إلى إضفاء مزيد من المهابة على القَسَم ، **الكاولو** ، الذي أقسم ، أو بهدف الإرتفاع بمنزلة شخص أو حدث أو تأكيد قوة صراع معين وإعطائه مزيدًا من الكثافة الدرامية.

فعندما استقرّ داندو أورفاما في الأراضي الداخلية للدارجول بجانب رافد موسمي صغير ، كان النهر الكبير نفسه يشهد تزايدًا في أعداد زن النهر ، أي أرواح النهر ، وزن الموتى ، أي أرواح الموتى.

وإذا كانت الأسطورة لا تخبرنا كيف عبر داندو أورفاما النهر ، فلا بدّ أن ذلك كان بإذن من زن النهر. والأسطورة لا تخبرنا عن المجموعة الإثنية التي ينتمي إليها أولئك الزن ، ولكنها تخبرنا أنه فضلاً عن زن النهر الذين كانوا **كارا** أو «تماسيح» أساسًا مثل سانجاي مويو ، كان هناك زن الأموات وهم أساسًا **جوندي** أو «أفاعي» مثل سادیارا ، «قوس قزح» ، وكان هناك أيضًا الزن الإناث اللواتي أوتين قوى رهيبة ، مثل ماكا ، أم فاران ماكا بوتيه ، التي كانت تملك أسرار صيد الأسماك ومعداته. وكان هؤلاء الزن الإناث قد بدأن فعلاً في التزاوج مع صيادي أسماك من البشر ، ينتمون إلى السوركو ، مثل ناسيلي بوتيه أبو فاران ماكا بوتيه أو أبو زنكيبارو. ويبدو أن الزن كانوا مجموعة من العائلات تعيش على ضفتي النهر مع «حرامس للنهر» و«حراس للأموات» كانت أهم أنشطتهم تتمثّل ، فيما يبدو ، في القنص وصيد الأسماك ، وهو ما يمكن أن نستنتجه من القدرات التي أورثتها الزن الإناث لأبنائهن من البشر مثل زنكيبارو السوركو وفاران ماكا بوتيه اللذين شملت مهاراتهما البراعة في صيد الفيلة. وعلى الرغم ممّا كان يتمتّع به هؤلاء الزن من قوة ، فإن الأسطورة لا تكاد تذكر منهم سوى سانجاي مايو ، زن النهر ، والزن الأنثى جيت وابنتها ماكا ، ناهيك عن عائلة الهارجي ذات الوضع الخاص.

وحين استقى زا بيري ، ابن داندو أورفاما ، في جزيرة جاسبو في منطقة الـ« W » بأسفل النهر ، مع المرأة الفولانية «هالا هاوا» ، وهي أول معبود أجنبي ينضمّ إلى التورو وتذكر الأسطورة اسمه ، فربّما كان ذلك بموافقة الزن. وقد كانت إقامتهما في أقسى وأمنع جزء من وادي النيجر الأوسط ، إذا ما حكمنا بمظهره اليوم فهو يقع على حافة المحمية الطبيعية الأقاليمية المسماة بالـ «Park» W .

ومن المحتمل أن منطقة الـ« W » كانت تقع على حافة ذلك الجزء من النهر الذي كان تحت سيطرة الزن. وسواء كانت منطقة الـ« W » منفىً أو ملاذًا أو مكانًا أقام فيه زا بيري بمحض

اختياره ، فقد كانت هي المكان الذي استقرّ فيه مع زوجته الفولانية هالا هاوا ، وهي أول إلهة يذكر اسمها وقبيلتها بصورة واضحة وتلحق بالتورو . ومن هذا المكان المنيع والمحمي طبيعيًا ، بدأت هاراكري ديكو ، باكررة إنجابهما ، مبارياتها السياسية التي أسفرت عن زيادة عدد جماعة التورو وعن حصول زا بيري على لقب « زا » أي العظيم.

وعندئذ بدأ أشخاص الأسطورة ، الذين ظلّوا حتى الآن مجهولين شأنهم شأن الزن ، يتّخذون أسماء إثنية ، فقد كان التورو الرئيسيون يمثّلون في حقيقة الأمر تحالفًا بين معبودات تنتمي لمجموعات إثنية مختلفة ، وقد اتّخذ هذا التحالف صيغته النهائية بطقس « ييني الماركندي » الذي وضع نهاية للملحمة البطولات الأرضية للهولي على ضفاف النهر.

لقد كان أبو التورو كيري صنغاويًا من بلدة مالا بالقرب من ساي ؛ وأبو التورو موسى نياوري جورمانسيًا ، من جاسادوندو على نهر جورونبي ؛ وأبو التورو ماندا هاوساكوي من الهاوسا ، من ياوري أو من زاريا ؛ وكان أبو التورو فاران بارو كرادا طارقيًا من ميناكا ؛ وكان أبو التورو « دونجو » ، الابن المتبنى ، من البارجنسية ، من بلدة بورجو . وهذا التنوّع في آباء التورو ، فضلاً عن أن « زا بيري » نفسه ، ، أول التورو ، كان يُعتبر من الكورومبا ، ومولد هاراكوي ديكو نفسها من أم فولانية ، يعني أن التورو كانوا يضمّون عناصر إثنية متباينة تشمل الكورومبا (الكورومو) والفولاني والصنغاي والجورما (ابجورمانسي) والطوارق والهاوسا والباريبا ، وتستبعد الجانجي بي والزن والهارجي . والجد الأكبر للجانجي – بي ، هانجو زانجو بورزانجو ، أبو سودوبا بالا ، الذي يوصف بأنه أب أو زوج أم موسيٍّ ، له اسم ينم عن أصل ينتمي إلى الكورومبا ، أو الكورومف[١٨] ، شأنه شأن عدد من أسلافه ومنهم سودوبا بالا نفسه ، وربّما نامان – كورا (وهذا على الرغم من إمكان نسبتهم إلى الهاوسا) . فإذا كان الجانجي بي ينتمون إلى الكورومبا من ناحية الأب وإلى الموسي من ناحية الأم ، فإن هذا يجعلنا نفهم بيسر السبب الذي جعل الأسطورة لا تسهب في الحديث عن الصراع الأول الذي نشب في زارماجندا بين الجانجي بي وبين التورو عند وصولهم ، بينما تتحدّث بمزيد من الإسهاب عن انتصار فاران ماكا بوتيه على زنكيبارو ، وهو الصراع الذي انفصل الكورومبا أثناءه عن التورو ، وانضمّوا إلى الجانجي بي ، وسرقوا « روح الدخن » المملوكة للتورو . وسلكوا بذلك سلوكًا يتفق مع إحدى القواعد الذهبية للأسطورة ، وهي القاعدة التي تقضي بأن يقوم التورو من ضل هاراكوي ديكو بتوسيع بيت أمهم بوصفهم ينتسبون إليها ، أو يلتزمون على الأقل بالإقامة في موطن أمهم.

إن أول إله للصنغاي تورده الأسطورة هو للكايدو جاراماكي ، أبو التورو كيري ، ذلك أنه قبل المجيء إلى زرماجندا أو بانديو ، كان الأسلاف مثل داندو أورفاما أو داندو بيري أو زا بيري ينسبون إلى الكيرومو أو الكورومي أو الكورومبا.

كذلك تختفي أسماء الزن هي الأخرى من هذه البانوراما الإثنية ، وذلك على الرغم من أن

الأسطورة تخبرنا بزواج هاراكوي ديكو من زن النهر سانجاي مويو الذي أنجبت له طفلين، كما تخبرنا بزواجها من زن الموتى الذي أنجبت له نيا بيري «الأم الكبيرة» للهارجي. وهناك إشارة وحيدة إلى إسم واحد من الهارجي، وهو باجامبايزي، تجعل تفكيرنا يتجه إلى داجومبا وبالتالي إلى شعب داجومبا.

غير أن هناك اسمًا من بين أسماء أنصاف الآلهة من أبناء الزن الأنثى التي تزوّجت من صياد سوركو، وهو اسم زنكيبارو الذي يشير فيما يبدو إلى اسم جماعة إثنية تسمى «السي» أو «الكي» كانت تعيش في زارماجندا قبل الصنغاي والزارما.

وفي لغة الصنغاي يمكن تقسيم اسم زنكيبارو إلى «زن – كي – بارو»، حيث تعني كلمة «زن» «جني» وتعني كلمة «بارو» «كبير» أي نفس معنى كلمة **بيري**. وهكذا يكون معنى اسم زنكيبارو «الزن الكي الكبير». وعلى هذا النحو يكون زنكيبارو «زن» أكثر منه «سوركو»، وهو ما يفسر تحالفه مع الزن حين كان التورو مفتونين بسحر الموسيقى والكلمات، كما يفسّر التحالف بين الجانجي بي والزن في الحرب الكبيرة التي ختمت ملحمة التورو وكرّست سيادتهم على وادي النيجر الأوسط.

وإذا قمنا بإعداد رسم إيضاحي نقارن فيه ملحمة التورو في أساطير الكون بالمعلومات المستمدّة من المصادر الشفاهية والمكتوبة عن بدايات مملكة الصنغاي في كوكيا وامبراطورية الصنغاي، اتضحت أمامنا التعارضات التي نوردها في الفقرات التالية:

فهناك من ناحية تورو الصنغاي/كورومبا الذين جاءوا من أورنكوما في فونت بالقرب من مسرا (مصر)، وهناك من ناحية أخرى الصنغاي من نسل صنغاي – بن – ترامس، ابن ترامس بن هارون، ملك اليمن، حسبما جاء في تاريخ الفتاش.

وهناك من ناحية داندو أورفاما، **توري كولو بابا** أي «أبو التورو جميعًا»، الذي ترك زارماجندا وأقام في بانديو بالدارجول، وابنه زا بيري، الذي عُرف أيضًا بأسماء «سي» و«مالي» و«واندو» و«سي كايامون»[١٩]، الذي ذهب إلى جزيرة جامبو في النهر، حيث استطاعت ابنته هاراكوي ديكو، أن تحقّق التفوّق لمجموعتها من خلال زيجاتها العديدة بأزواج من المجموعات المجاورة. وهناك من ناحية أخرى جابر بن عبد الله الأنصاري، من المدينة، الذي أصبح حفيد له من ابنته ملكًا للصنغاي حسبما جاء في تاريخ الفتاش. وهناك ديابر – اليمن (تاريخ الفتاش) أو زا – ال – أيامان (تاريخ السودان)، الذي جاء من اليمن وقتل السمكة الإلٰهة كوكيا وأصبح أول ملوك الأسرة الأولى للصنغاي المسماة بأسرة زا أو ديا أو ديوا.

ولدينا من ناحية التورو بما لديهم من تحالفات عديدة بين الجماعات الإثنية تقوم على الإنتساب للأم، وتتركّز على هاراكوي ديكو «روح الماء» وأبيها (الأب الأكبر) زا بيري كايامون، الذي كان سلفاه سونتان ومانتان قد جاءا من أورومكوما في فونت، بالقرب من مسرا (مصر).

وهناك من ناحية أخرى حفيد من ناحية الإبنة – لجابر بن عبد الله الأنصاري ، الذي كان معاصرًا للنبي محمد . وقد قتل هذا الحفيد السمكة – الإلهة وأصبح ملكًا للبلاد . وهناك أيضًا ديابر – اليمن ، من اليمن ، الذي تزوّج وييزاكوكيا ، ملكة كوكيا وأصبح ملكًا للصنغاي . وهناك – من ناحية أخرى – رجل « عظيم الجثة » جاء من اليمن وبهر الناس « بقامته الفارعة وكمال هيئته » ، و« كان يمسك بيده عصا تنتهي برمانة حديدية » ، أصبح ملكًا لمدينة جاو على الضفة اليمنى (ضفة الجورما) . كما أن هناك أيضًا زا – ال – أيامان ، الذي جاء من اليمن وقتل السمكة – الإلهة في كوكيا بحربة وأصبح ملكًا .

وهناك من ناحية التورو موسى نياوري ، الذي هزم زن النهر كي يتيح لأمه ، هاراكوي ديكو ، أن تستريح في النهر ، وفاران ماكا بوتيه ، السوركو ، الذي هزم زنكيبارو « الزن الكي العظيم » كي ينقذ التورو ؛ وهناك أيضًا تورو كيري ، « روح البرق » ، الذي يعرف كل دروب السماء ، وموسى نياوري « روح الصيد » الذي كان لديه « قوس معدني سحري » ، وماندا هاوساكوي « روح الكير » الذي صنع فؤوسًا من الصواعق ، ودونجو « سيد السماء » و« روح الرعد » الذي ألقى بفؤوس الصواعق ، وهؤلاء جميعًا أبناء هاراكوي ديكو وقد طاردوا جميعًا وهزموا تحالف الجانجي – بي ، المكوّن من الزن والكورومبا ، الذين استخدموا تكتيكات « الكر والفر » واختبأوا في النهر وفي الضفة البعيدة ؛ وهناك أيضًا حفيد لجابر بن عبد الله الأنصاري ، وزا – ال – أيامان ، اللذان قتلا السمكة – إلهة الكوكيا وأنقذوا المدينة ؛ وهناك أخيرًا ابن لديابر اليمن الذي قاتل « الأعراب البدو دون عون من أحد إذ كان الحديد لا يخترق جسمه » .

وهناك من ناحية زن النهر الذين كانوا **كارا** أو « تماسيح » يتحكّمون في النهر مثل الزن ايبادا وابنه الزن سانجاي مويو ، وحفيده الزن زيربين سانجاي مويو ، وهناك أيضًا الزن الذي أصبحوا هارجي ، مثل سادیارا ، « قوس قزح » ، الذي كان « ثعبانًا ملوّنًا بكل الألوان » . وهناك من ناحية أخرى السمكة – الإلهة التي كان يعبدها « أهل جاو ، (الذين) لم يعرفوا لهم حكمًا سوى السمكة العظيمة » .

وهناك من ناحية ماكا ، أم فاران ماكا بوتيه السوركو ، التي كان لديها **الجورو جوبو** ، وهو قضيب من الحديد تحيط به حلقات من النحاس ، والزن زيبرين سانجاي مويو ، الذي كان كارا أو « تمساحًا » روّع الأسماك وقتل كثيرًا من صيادي السوركو ، وقد حوّلته ماكا إلى **الزجو** الأول أي الحربة الأولى . وأعطت ماكا إلى ابنها فاران ماكا بوتيه الحربة التي كان اسمها « زيربين » . ثم صنعت بذلك حربة أنثى « بابنجاي » كي يستخدمها في المعركة ضد زنكيبارو . ومن ناحية أخرى هناك ابنة لجابر بن عبد الله الأنصاري (وهو رجل من المدينة ، ومن صحابة النبي محمد) وقعت في الأسر وتزوّجها حداد مسيحي حين كانت تبحث عن ابن اختها الذي فرّ منها . وعثر ابنها على ابن خالته الفار في جاو

وصنع له **داميه**، أي حربة، كي يستطيع أن يقتل السمكة – الإلهة ويصبح ملكًا. وهناك أيضًا ديابر اليمن الذي يحدّثنا عنه تاريخ الفتاش، و«الذي كان يمسك في يده بعصا ذات رمانة حديدية»، وزا – ال – أيامان الذي يحدّثنا عنه تاريخ السودان «والذي قذف السمكة – الآلهة في كوكيا «بالحربة وقتلها» وأصبح ملكًا.

ولدينا من ناحية، التورو موسى نياوري، «روح الصيد»، والتورو دونجو الذي كان اخوته ديجي فومبو وديجيال فومبو وميجري فومبو وتورو فومبو، أبناء برجامو، –وهو من الباريبا في بورجو– جاو، أي «صيادي فيلة». وهناك الجانجي بي، الذين هزمهم التورو وأخضعوهم، والزن، السادة السابقين للنهر، الذين هزمهم التورو مع حلفائهم السوركو: الزن زيربين سانجاي مويو، الذي حولته زوجو إلى حربة، والزن زنكيبارو (وإن كان يقدم كواحد من السوركو). وهناك أيضًا السوركو، فاران، صيادو الأسماك المحنّكين، سادة العبادة. ومن ناحية أخرى هناك **جاو**، أي صيادون، وجابيبي أو جابي، أو «أناس داكنو البشرة»، وهم مزارعون مستقرون. وهناك أيضًا الـ«دو»، السادة السابقون للنهر، الذين أصبحوا سادة للأراضي المنبسطة حول النهر؛ وصيادو السمك السوركو «هاري سوركو»، والسوركو الذين كانوا خبراء في عبادة الهولّي، ولا سيّما عبادة التورو دونجو سوركو.

وهناك من ناحية **توري كولو بابا**، «أبو التورو جميعًا»، داندو أورفاما جيراكوي، الذي جاء ليعيش في بانديو بالدارجول على الضفة اليمنى، «ضفة الجورما»؛ وهناك ابنة زا بيري، الذي ذهب إلى جزيرة جامبو في منطقة الـ« W » من النهر. ومن ناحية أخرى، هناك ملوك الصنغاي من أسرات زا الذين حكموا في «جاو، على ضفة الجورما من النهر»، أو في «كوكيا» أو «جونجيا» ومعناها «جزيرة».

ولدينا من ناحية، التورو أبناء هاراكوي ديكو، الذين حاولوا اجتذاب نجواري فومبو أو دونجو لما كان يتمتّع به صياد الفيلة هذا من قوة ومتانة بدنية، فأغروه بامرأة هي الفاتنة فاديماتا زيربين سانجاي مويو. ولدينا من ناحية أخرى ديابر – ال – يمن، الذي ورد ذكره في تاريخ الفتاش، وهو رجل عملاق أعطاه سكان جاو امرأة، «إعجابًا ببهاء طلعته واكتمال هيئة أطرافه»، والذي لقي ابنه فيما بعد نفس الإعجاب وأصبح في نهاية المطاف ملكًا لجاو.

وهناك من ناحية هاراكوي ديكو، «روح الماء»، وأم التورو الحاكمين، كيري وموسى ومنداها وساكوي وفرنبارو كوادا، التي عاشت أولاً في جزيرة جامبو، والتي وسعت، من خلال زيجاتها العديدة، من نطاق المجموعة التي كان يرأسها أبوها زا بيري. ومن ناحية أخرى هناك ديابر – ال – يمن، اليمني الذي تزوّج أويزا – كوكيبا، ومعناها الزوجة الزا القاطنة كوكيبا، وعاش في جزيرة كوكيبا وكان الأبناء الذين أسفر عنهم هذا الزواج بداية «الديابر باندا» أو الزابر باندا، وهم الزا بيري

باندا ، أحفاد زابار أو زا بيري.

ولدينا من ناحية زا بيري أو مالي[٢٠] أول التورو الحاكمين ، الذي أجبر ابنته هاراكوي ديكو «على الزواج عدة مرات» كي يزيد عدد مجموعته. ومن ناحية أخرى هناك زاباركان الجد الأكبر للزارما ، الذي كان من صحابة النبي محمد ، وكان من التلهف والتعجل على تزويج ابنته بحيث أنه لم يصبر على تركها لتتم شهور العدة التي يفرض الإسلام على المرأة أن تقضيها بين الطلاق والزواج الجديد. وهناك أيضًا زابار كان الذي سمّى أحد أحفاده باسم مالي بيرو أو مالي كاماندوجسا.

إن الفقرات السابقة تعطينا فكرة ما عن التوازي بين حكايات نشأة الكون لدى الصنغاي وسائر المأثورات التاريخية المكتوبة أو الشفاهية بشأن أصول الصنغاي ومملكة الصنغاي. وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نورد تفاصيل أخرى كمرتكزات للمقارنة ، فإن الشواهد التي سقناها تكفي لتأكيد ما نريد تأكيده. ومن هنا نستطيع أن نستخلص أن كل الأفكار الواردة في الفئة الثانية من المأثورات التاريخية ، واردة أيضًا في الفئة الأولى. ذلك أن الأمر الذي لا شكّ فيه أن حكايات نشأة الكون تعبّر تعبيرًا نموذجيًا عن البيئة المادية والبشرية والثقافية وأن الرواية التي نقدّمها هي أصدق الروايات على الرغم ممّا تعرّضت له على امتداد الزمن من حذف أو تحريف. ومع ذلك فنحن لا نرى أن الحكاية الأسطورية ينبغي أن يُنظَر إليها على أنها رؤية كاملة وشاملة للتاريخ.

ومن الممكن أن نعقد مقارنات بين مأثورات الصنغاي والمأثورات التاريخية لأقوام مجاورة مثل الهاوسا. فإحدى الروايات تتحدّث عن هاراكوي ديكو التي تزوّجت عدة أزواج كي تتجنب التورو ؛ على حين تتحدّث رواية أخرى عن داوراما ملكة داورا التي تزوّجت قاتل «الإله الأفعى» أو «الإله الحصان» لداورا وولدت باوو – جاري الذي كان أبناؤه العديدون أول ملوك دول الهاوسا. وهناك رواية تتحدّث عن سيركي ، الإبن المتبنى لهاجام الذي أصبح جانجي – كواري ، والذي كان يُعرف أيضًا باسم فيبانا أو داودو أو باتان بالالا. وتذكر الرواية أنه كان ثعبانًا في بعض الأحيان وأنه كان مشاغبًا إلى الحد الذي حمل المجموعة على طرده. وتتحدّث رواية أخرى عن ساركي ، وهو إله ثعبان أو إله حصان ، أو إله ثعبان له رأس حصان ، كان يعيش في داورا ويروّع أهل المدينة. وقد قتله بايادجدًا ، ابن ملك بغداد.

ولا حاجة بنا إلى مناقشة الهاوسا جانجي ، إذ أن قائمة أسمائهم لا تأتينا بجديد عن طبيعة العلاقات بين الهاوسا والصنغاي. إلاّ أنه يجدر بنا من ناحية أخرى أن نتوقّف عند ماندا – هاوساكوي ، وهو أحد التورو الحاكمين ، وقد ولدته هاراكوي ديكو لأب من الهاوسا ، وهو الحداد والحرفي الوحيد بين التورو. فاسمه ، ماندا ، يذكّرنا باسم ماندي ، ولقب **هاوساكوي** يعني رئيس الهاوسا ، حيث يمكن أن تشير كلمة هاوسا ، إما إلى «أرض الهاوسا» أو إلى «جانب أو ناحية أو ضفة

الهاوسا»، التي تقع إلى الشمال أو إلى الشمال الشرقي، أو على الضفة اليسرى للنهر، في مواجهة الجنوب أو الجنوب الغربي، أو الضفة اليمنى للنهر، وهي ضفة الجورما.

ويتواتر استخدام كلمة «ماندا» أو «ماندي» أو «مالي» في المأثورات التاريخية للزارما والكورومبا[٢١]، كنقطة انطلاق لاحدى هجرات الأسلاف. وتستخدم مأثورات الزارما كلمتي ماندا ومالي في معظم الأحيان، وتحدّد مكانها في الغرب على حين أن بعض مأثورات الكورومبا التي تستخدم كلمة ماندي في المقام الأول، تحدّد موقعها في الشرق بالقرب من وادي النيجر الأوسط، في المنطقة المعروفة الآن باسم نيامي.

ونحن نعرف أن بوبو هاما قد أشار، في عدد من أعماله، شأنه شأن بوكار سيس[٢٢]، إلى أوجه تشابه بين أرجونجو وويزاجونجو، وهي بلد تقع على جولبين - كابي «نهر كابي»، تُعتبر مرحلة استيطان الصنغاي تالية لاستيطانهم في عير أو أبزين وكاتوكا، في منطقة داورا، حيث تزوّجت أويزا كوكيبا، التي يذكرها تاريخ الفتاش، من ديابر - ال - يمن، والتي رحل منها أمراء الصنغاي المنشقون ليؤسّسوا أرجونجو. ومن هنا يقيم هذان المؤلّفان توازيًا بين «أرجونجو»، التي يمكن ترجمتها من لغة الصنغاي بـ«جزيرة الرجل» أو «جزيرة الرجال» أو حتى الجزيرة الذكر، وبين «ويزاجونجو» أو ويزاكوكيا، والتي ترجماها إلى «جزيرة النساء»، أو الجزيرة الأنثى، وهي كلمة يمكن أن تكون صيغتها في لغة الصنغاي «ويجونجو» أو «جونجوي» بعد حذف المقطع الأوسط «زا»، الذي يمكن أن يكون معناه «يأخذ» أو قد يكون ببساطة اسم علم «زا»، مثل أول إسم لأسرة الصنغاي. ومن هنا فإن الترجمات الممكنة لكلمة «ويزاجونجو» يمكن أن تكون «الجزيرة التي تُؤخَذ فيها امرأة»، أو «الجزيرة التي تؤسر فيها امرأة»، أو «المرأة تأخذ الجزيرة»، أو ببساطة «جزيرة الأنثى زا»، أو «جزيرة المرأة الزا»، وهو ما يعود بنا إلى امرأة أخرى تعيش على جزيرة، وهي هاراكوي ديكو ابنة زا بيري، التي كانت تعيش في جزيرة جامبو، في منطقة الـ« W » من النهر، وهي امرأة سليلة زا «أُخذت» أو «أُسرت» أو «تزوّجت» عدة مرات وتحقّقت لأبنائها التورو السيطرة على الجزيرة وعلى وادي النيجر الأوسط بأكمله.

وعلى الرغم من أن مأثورات الباريبا واليوروبا، ولا سيّما الروايات التي تتحدّث عن كيشيرا أو كيسرا تشير فيما يبدو إلى هذا الجزء من وادي النيجر الأوسط كنقطة توقّفوا عندها خلال هجراتهم، فإن هناك عددًا من أوجه الشبه البارزة بين الإخوة الثلاثة وورو باتيه ووورو مانسا وأجوسا وكلهم أبناء كيسرا الذي تقول مأثورات البورجو إنه أقام سلطة الواسنجاري في بوسا ونِكّي وايللو، على التوالي، والذين يُقال إنهم كانوا صيادين مهرة للفيلة أسخياء في تقديم لحوم الصيد، وبين دونجو أو نجواري فومبو وإخوته ديجي فومبو وديجيال فومبو وماجيري فومبو وتوورو فومبو، وكلهم أبناء لفومبو وأحفاد لبورجامو، ينتسبون جميعًا للبرجانسيه أو الباريبا وهم صيادون مهرة للفيلة أو **جاو**.

«التاريخ المروي»
وأساطير نشأة الكون والصلات المحتملة
بين وادي النيل ووادي النيجر

تساعدنا دراسة روايات نشأة الأعراق وأساطير نشأة الكون، ولا سيّما عند الصنغاي، على استخلاص أوجه للتناظر وعقد بعض المقارنات بين الأسطورة الدينية والمأثورات التاريخية، أي بين ديانة التقمّص عند الصنغاي وتاريخ الصنغاي. كما تتيح لنا في الوقت نفسه أن نتبيّن، في ديانة التقمص هذه، نوعًا من الحدث الأول في التاريخ الأصلي للصنغاي، وهي «طريقة أخرى في سرد التاريخ» يرسم الإطار الأساسي فيها حول ظهور الصنغاي وإقامة سلطتهم في سياق جغرافي وبشري أولي يقوم أحيانًا على الترحال وأحيانًا أخرى على الاستقرار، ويؤكّد بوجه عام المأثورات التاريخية لأقوام أخرى متاخمة لمنطقة الزارما – صنغاي. ومع ذلك فإن الأساطير والروايات تشير في معظم الأحيان إلى الشرق والشمال، وإلى الشمال الشرقي بوجه خاص، وتظهر فيها مناطق جغرافية محدّدة مثل اليمن ومكة ومصر (مسرا) أو منطقة أكثر إيغالاً في الجنوب يمكن أن تكون النوبة أو إثيوبيا. ومن هنا ينبغي لنا أن نتساءل عن مدى قدرة هذه الإشارات الجغرافية على أن تقدّم لنا العون في فهم وتحليل، أو ربّما تفسير أو إعادة تفسير روايات نشأة الأعراق التي تتضمّن إشارات إلى الأماكن التي تكوّنت فيها هذه الأعراق أو تطوّرت. ذلك هو السبب في أننا نرى من الضروري دراسة هذه الإشارات فيما يتصل بمركزين: بنقطة انطلاق هي الشرق الأوسط وشمال شرقي افريقيا، ونقطة وصول هي وادي النيجر، وأن نبذل هذه المحاولة على الرغم من أنها قد تبدو للوهلة الأولى محاولة لا غناء فيها ومهمة شاقة.

وسوف نطوح جانبًا – بادئ ذي بدء – الإفتراضات والمقارنات التي قدّمناها بين حركات الهجرة القديمة في غرب افريقيا وفي مصر القديمة، لنقتصر هنا على الإشارات التي تتضمّنها المصادر المتاحة لنا والتي تتصل، بقدر أو بآخر، بالمأثورات التاريخية لشعوب وادي النيجر الأوسط وتتصل بوجه خاص بالأساطير التقليدية للنشأة وأساطير نشأة الكون لدى الصنغاي.

روايات النشأة ووادي النيل

روايات النشأة والصلات المحتملة

ما أن تُطرح إمكانية الإتصال، حتى يتيح لنا الرجوع إلى روايات النشأة لمعظم الشعوب في وادي النيجر الأوسط، أسطورية كانت هذه الروايات أم تاريخية، أن نخرج بأوجه تناظر باهرة،

ولا سيّما إذا درسنا الأسماء الإثنية وأسماء الأماكن التي تشكّل القاعدة التي ينهض عليها علم نشوء الأعراق.

وعلى هذا النحو نستطيع أن نضع، بالاستعانة بكتاب أ. أ. واليس بدج، (E. A. Wallis Budge) («اللغة المصرية: دروس سهلة في الرموز الهيروغليفية للغة المصرية»)[٢٣]، عدة جداول لأوجه التناظر بين كلمات مصرية قديمة وبين بعض أسماء الأماكن والأسماء الاثنية وأسماء الآلهة أو الأسلاف أو الألقاب التي ترد في روايات النشأة لدى شعوب وادي النيجر الأوسط (الجدول ١).

الجدول (١)

أرقام الصفحات في كتاب واليس بدج	الكلمة المصرية القديمة	الترجمة العربية	الأسماء المناظرة في منطقة النيجر
ص ٣٦، ص ١٠٦	*Hap, Hapi, Hapui*	إله النيل	**هامبي**: إناء طقسي لأرواح التورو للصنغاي
ص ٤٥، ص ٤٧		عظيم، رجل عظيم،	**أورفاما**: اسم إله أو سلف للروح
	Ur	أمير، رئيس	تورو لدى الصنغاي، داندو بيري أو داندو أورفاما
ص ٤٥	*Ser*	عظيم، رجل عظيم، أمير، رئيس	**سور (كو)**: صيادو الأسماك من الصنغاي؛ **سر (كي)**: رئيس من الهاوسا؛ **كي (سرا) أو كي (شرا)**: قائد هجرات الباريبا
ص ٣٦، ص ٦٢	*Heq*	أمير، ملك، صولجان	**سور (كو)**: صيادو الأسماك من الصنغاي؛ **سر (كي)**: رئيس من الهاوسا **كي (سرا) أو كي (شرا)**: قائد هجرات الباريبا
ص ٤٧، ص ٦٨	*Aoi (athi,azi) henti, Ahi*	أمير، ملك	
ص ٦٣	*Uà, Auà, Asù*	عظم ولحم، وريث، ذرية، نسل، أحفاد، خلف	**هو، هووا، هوواتا، هواتانا.** أسلاف التورو، الأرواح الحاكمة لدى الصنغاي
ص ٦٩	*atur*	مذبح لإلهة أفعى	**تورو**: روح لها مذبح عند الصنغاي؛ **تورو**: أحد الأرواح الحاكمة في أساطير نشأة الكون عند الصنغاي

أرقام الصفحات في كتاب واليس بدج	الكلمة المصرية القديمة	الترجمة العربية	الأسماء الماظرة في منطقة النيجر
ص ٧٠، ص ٧١	*Suten net*	«ملك الجنوب والشمال»	**سونتان**: أسلاف أرواح تورو الصنغاي
ص ٧٩	*Uâa, Khet*	قارب، يبحر في اتجاه أسفل النهر	**هوا، هووا، هواتا، هوواتاتا**: أسلاف الأرواح الحاكمة عند الصنغاي
ص ٨٧	*Uă*	واحد (١)	**هوا، هووا، هوواتا، هوواتاتا**: أسلاف الأرواح الحاكمة عند الصنغاي
ص ٨٩	*ua*	عقدة سحرية (؟)	
ص ٩١	*ba*	سبخرة	**باتا**: صندوق يحتوي على مواد معطرة ومساحيق طقسية تُقدَّم إلى بعض الأرواح لأغراض طقسية أو سحرية، عند الهاوسا والصنغاي – زارما
ص ١٠٦	*Hau*	قوم كانوا يعيشون في الدلتا	
ص ١٠٧	*uat*	دروب، طرق	
ص ١٢٥ وص ١٦٤	*Su, suten*	ملك (الجنوب)، – ملكي،	**سونتان ومانتان**: أسلاف تورو الصنغاي
	Suten an	كاتب ملكي	
	Suten uaa	موكب ملكي للاحتفالات	

غير ان قائمة التناظرات هذه تبدو محدودة ، كما أن التناظرات نفسها قد لا تبدو شديدة الإقناع. ومع ذلك يمكن إضافة المقارنات التالية[٢٤] :

الجدول (٢)

الكلمة المصرية القديمة	الترجمة العربية	الأسماء المناظرة في منطقة النيجر
Aha	الملك الأول للأسرة الأولى ، الذي تولى العرش في حوالى – ٣٢٠٠ ، واسمه يعني «المحارب»	**هوا** ، **هووا** ، **هواتا** ، **هوواتاتا** : أسلاف أرواح التورو عند الصنغاي
Wawat	النوبة السفلى	**هوا** ، **هووا** ، **هواتا** ، **هوواتاتا** : أسلاف أرواح التورو عند الصنغاي
Wahankh	ثاني ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ويتكوّن اسمه من *Wah* و *Ankh* (صليب ذو أنشوطة يعني «الحياة»)	**هوا** ، **هووا** ، **هواتا** ، **هوواتاتا** : أسلاف أرواح التورو عند الصنغاي
Khentamentiu	«سيد سكان الغرب» *Amenti* معناها «غرب» ، و *Khent(a)* معناها «سيد»	**نابو كانتا بو** ، اسم آخر يُطلق على **فاران ماكا بوتيه**
Per-âa أو *Pir-ô* أو *Per-âa, ankh, udia, senb, neb.*	«البيت الكبير» أو «القصر»	**أسماء لدى السوننكي والماندنج** : فاما ، فران ، فرا **أسماء لدى الصنغاي** : فاران ، فاري
Mâat	إلهة العدل والصدق والنظام العام	**مانتان وسونتان** : أسلاف التورو الحاكمين لدى الصنغاي

وقد يجدر بنا هنا أن نحاول أن نحدّد بمزيد من الدقة محتوى ومعنى بعض المصطلحات والأسماء المتصلة بالأسلاف والألقاب السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية الواردة في أساطير نشأة الكون لدى الصنغاي ، ومنها على سبيل المثال : «**زنكيبارو**» («الزن كي الكبير») ؛ **فاران ماكا بوتيه** (**فاران** بن ماكا وبوتيه) ؛ **ناكو كانتا بو** (نابو كانتا بو) ؛ **مايدا كا فاران** (مايدا كا **فاران**) ؛ **فاتا كا فاران** (فاتا كا **فاران**) ؛ **سوركو** (**سور و كو**) ؛ **سيركي** (**سر و كي**) ؛ ومصطلحات أو أسماء في المأثورات التاريخية للصنغاي والزارما ، مثل : **سوركو** (**سور و كو**) ؛ **كي** أو **سي** الزارماجندا ؛ ومصطلحات

أو أسماء في المأثورات التاريخية للهاوسا، مثل: **ساركي (سار و كي)**؛ **ماكاساركي** (ماكاس – **سار** – كي)؛ ومصطلحات مأثورات الباريبا والبادي واليوروبا، مثل: كسرا، أو كيشيرا (**كي و سرا** أو **شيرا**).

وهكذا فإننا نرجع إلى اللغة المصرية القديمة حيث تعني كلمة *Ser* «**عظيم – رجل عظيم – أمير – رئيس**»، وحيث تعني كلمة *Heq* «أمير، ملك». فالكلمات الموجودة في مأثورات وادي النيجر مثل **كي** أو **سي**، التي تدل على شعب قديم من زاراماجندا، كما في **زنكيبارو** أو «الروح كي الكبير»، أي رئيس «أرواح نهر النيجر» قبل وصول تورو الصنغاي، يمكن أن تكون ذكريات متبقية من عهد أولئك الـ *Heq*، على حين أن كلمات مثل **سوركو**، **وسيركي**، أو كيسرا أو كيشيرا، قد تكون ببساطة صيغًا مشتقة من الكلمتين المصريتين *Ser*. و *Heq* اللتين تؤدّيان نفس المعنى (**سوركو** مشتقة من *Ser* و *Heq*) فأصبحت سرهق، ومنها سيركي وساركي، مشتقة من *Ser* و *Heq* فأصبحتا سر – هق (؟) وكيسرا أو كيشيرا، مشتقة من *Heq* و *Ser* فاصبحتا هق – سر (؟)، على حين يمكن أن تكون أسماء السوركو التي ترد في كلمة **فاران**، مثل فاران ماكا بوتيه، ومائيدا كا فاران، مشتقة من الكلمات المصرية القديمة *per-ăa* أو *pi-rō* أو «فرعون». ويؤيّد ذلك الإسم الثاني لفاران ماكا بوتيه، وهو نابو كانتا بو، إذ يحتمل جدًا أن تكون كلمة كانتا مشتقّة من الكلمة المصرية القديمة *Khent(a)* التي توجد في اسم الإله المصري خنتامنتيو، وتعني «رب» أو «الأول».

وعلى هذا النحو، فإن ثمة احتمالاً كبيرًا بأن يكون سكان وادي النيجر الأوسط، أو على الأقل تنظيمهم الإجتماعي – الإقتصادي الأول، من أصل مصري أساسًا، وأنهم يشملون:

طبقة قديمة من السكان أسهم في ثقافتها أقوام الكي أو السي من زارماجندا، أي «أرواح النهر» أو «زن النهر»، مثل «الكاري كي سنجاي مويو» أو ابنه زربين سنجاي مويو، أو حتى زنكيبارو، الذي يحتمل أن يكون من «زن النهر»، نظرًا لتحالفه معه، وذلك على الرغم من أنه يدرج بين صيادي الأسماك من السوركو، الذين يعتبرون جميعًا «**كارا**» أو «**كاري**»، أي «تماسيح» أو بالأحرى «**تماسيح ذكور**» أو «**كاري – كي**»[٢٥]، والذين كانوا «سادة النهر» قبل وصول أرواح تورو الصنغاي، كما كانوا «أرواح الموتى» أو «زن الموتى» مثل الزن زوج هاراكوي ديكو، أو الأزواج **الزن** لنيا بيري، الذين كانوا يعتبرون جميعًا **جوندي** أي «أفاعي».

وهناك طبقة ثانية من السكان أو الإسهامات الثقافية تمتدّ بامتداد الرقعة التي يسيطر عليها السوركو في أعالي وادي النيجر الأوسط، وهي الساركي، بلاد الهاوسا، والرقعة التي يسيطر عليها الكسرا أو الكيشيرا في أسافل وادي النيجر الأوسط ناحية البورجو والبادي وبلاد اليوروا. وقد شهدت هذه الطبقة الثانية توحّد موجتي السكان أو موجتي الإسهامات الثقافية اللتين تربط بينهما

بالقطع صلات قربى وإن كانت بينهما اختلافات طفيفة. فقد أُضيفت إلى الطبقة القديمة ذات التقاليد أو السلطة التي تنتمي إلى **الهيق أو الهق**، أو الكي أو السي، والتي تعبد التمساح **كارا أو كاري والجوندو** أو أفعى **الجوندي**، طبقة جديدة ذات سلطة أو تقاليد[٢٦] تنتمي **للسور أو السر أو السار أو السرا**، والتي لا تختلف سماتها المميزة اختلافًا كبيرًا فيما عدا أنها تتكوّن من صيادين صغار «صغر اليدين» مثل «ناسيلي بوتيه» قبل زواجه بالمرأة الزن أو المرأة الزن كي، مها، أو ماكا، أم البطل فاران ماكا بوتيه الذي زوّدته بقواها السحرية والتقنية حسبما تذكر أساطير نشأة الكون لدى الصنغاي. وهذا التحالف بين السر والهق، يبدو أنه حصل من خلال الروابط الأموية، كما في حالة ناسيلي بوتيه، الصياد المعدم الذي ينتمي للسر، ومها أو ماكا، «المرأة الزن»، وربّما أيضًا في حالة زنكيبارو، «الزن كي الكبير»، الذي كانت أمه تنتمي للسر، ومن هنا كانت علاقته بالسوركو. ومن المحتمل إذن أن تكون الجماعة الجديدة التي تمخّض عنها هذا الإندماج بين الهق والسر، قد تكوّنت من مجموعتين فرعيتين رئيسيتين، هما السر – هق والهق – سر. ويبدو أن السر – هق، الذين كان يغلب عليهم عنصر السر قد تعلّموا التنظيم السياسي – وبوجه خاص تكنولوجيا الأسلحة وصيد الأسماك – من الهق، كما يحتمل أن يكونوا قد تعلّموا منهم أيضًا الموسيقى والرقص الطقسي، على حين أخذ الهق – سر، الذين يغلب عليهم عنصر الهق، التنظيم السياسي وتكنولوجيا الأسلحة بوجه خاص عن الهق.

وربّما انقسمت مجموعة السر – هق الفرعية إلى جزءَين أولهما السوركو، صيادي الأسماك المحنّكين، وعبدة تماسيح **الكارا أو الكاري**، أو الجوندي، ثعابين الماء، ذوات خواتم الأنوف[٢٧]، والذين كانوا مع ذلك، لا يزالون يقاتلون سر – هق آخرين ينتمون إلى الزن كي من ناحية الأب، مثل زنكيبارو، الذي يُعتبر من السوركو، ولكنه تحالف مع الزن والجانجي بي في المركة التي جعلته يواجه فاران ماكا بوتيه والتورو، حسبما تذكر أساطير نشأة الكون عند الصنغاي، أما الجزء الثاني فهو «السيركي» أو «الساركي»، المهرة في قنص الحيوان وفي أشغال الحدادة والمعادن، وعبدة **الجوندي**، «ثعبان الماء»، «الذي له رأس حصان» ويسمى الساركي هو الآخر، والذين فرضوا أنفسهم على الداورا أو الداو – را. وربّما كان هؤلاء الآخرون على صلة بالدو، في وادي النهر، الذين يبدو أنهم خضعوا للهق، والذين اضطر **السوركو** للتصالح مع أحفادهم نظرًا لسيطرتهم الطقسية على النهر، حتى يومنا هذا. ومن الواضح أن مجموعة هق – سر الفرعية قد اكتسبت هوية مستقلة إذ أصبحت صيادي ومحاربي «كيسرا» أو «كي – شيرا» وتركت السوركو بأعلى النهر والساركي، في الشمال الشرقي، لتتحرّك نحو أسافل النهر إلى الجنوب الشرقي.

وثمة طبقة ثالثة للسكان أو الإسهامات الثقافية، تتمثّل في تطوّر سلطة السوركو في أعالي نهر سوركو الكبير، واتخذت لقب فاران أو نابو كانتا بو أو مايدا كا فاران وفاتا كا فاران، ربّما على أثر

انضمام عناصر إثنية أو اجتماعية ثقافية جديدة يحتمل أن تكون هي الأسلاف الأسطوريين للتورو في أساطير نشأة الكون لدى الصنغاي.

ويحتمل أن تكون قد أُضيفت طبقة رابعة من السكان أو الإسهامات الثقافية مع وصول الأسلاف الأسطوريين لتورو الصنغاي مثل داندو أورفاما، أو **داندو بيري**، **زا بيري**، أو سي زا بيري كايامون، أبو هاراكوي ديكو، التي ربّما كانت هي «الويزا – جونجو» للمأثورات التاريخية التي قام أبناؤها – بعد أن قبلوا لفترة وجيزة سيطرة أو نفوذ الهق أو الكي أو السي – بتكوين تحالف مع السوركو، ثم قضوا على عبادتي تمساح **كارا** أو **كاري** والثعبان **جوندي** وفرضوا على الكي والسوركو عبادة أسلافهم، ولا سيّما داندو أورفاما، أو داندو بيري الذي قد يكون الجزء الأول من اسمه مشتقًا من كلمة «**ددون**»، الاسم المقدس لإله نوبي[٢٨]. كما يمكن أيضًا أن يكون «أورفاما» صيغة فريدة مشتقة من كلمة **أور** التي تحمل في اللغة المصرية القديمة نفس معنى كلمة سر، وأن تكون كلمة **فاما**، مثلها مثل كلمة «**فاران**» و«**فاري**»، مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «**بي – را**» أو «**بي – رو**»، أي فرعون، كما يمكن أن تكون كلمة «سي» في اسم «سي زا بيري كايامون» مشتقّة من كلمة **سيه أو سه**[٢٩]، في المصرية القديمة، وهي صيغة أخرى لكلمة **سر** التي تعني «نبيل»، والذي يظهر اسمه في المأثورات التاريخية في صورة ديابر اليمن أو زا – الأيامن، قاتل الإله التمساح أو الثعبان أو الإله السمكة الذي كان يعبده من قبل سكان كوكيه. ومن الممكن أيضًا أن نربط الروايات المتصلة بزا بيري سي كايامون واسمه، بالروايات المتّصلة بزاباركان، الذي تعدّه المأثورات التاريخية للزارما السلف الأول ولا بدّ أن يكون هو نفسه «زا – بار – كان» أو «زا – بيري – كان» الذي يحتوي على كلمة «كان» الموجودة في لغة السوننكي («**كانا**»، **نيا – نيا**) بمعنى «رئيس». وقد تكون مشتقة من الكلمة المصرية القديمة **ك. ن**[٣٠] وعندئذ، يكون معناها «شجاع» فيصبح معنى «زابركان» «زا بيري الشجاع»، أو «زا العظيم والشجاع»، أو ببساطة «الملك زا العظيم».

وفي منطقة أكثر إيغالاً ناحية الشرق، كانت عناصر «**الهاو**» «**والسه** » أو «**السيه**» أو «**السا** »[٣١] قد اتحدت بقدر أو بآخر لتكون الـ«**هاو – سيه**» أو «**الهاو – سه**» أو «**الهاو – سا**»، وهم الهاوسا الأوائل لبيادجدّة، وفرضوا أنفسهم على «السر – هق» أو «**الساركي**» وقضوا على عبادة ثعبان الساركي (**ماكاسي – ساركي**)، واستعادوا التنظيم السياسي ولقب الساركي وكوّنوا تحالفًا مع الداورا القدامى، ساعين بذلك إلى إضفاء الشرعية على سلطتهم من خلال نسبهم من ناحية الأم.

وفي هذا الإطار الجديد، كان من شأن مختلف الطبقات المتتابعة للإستيطان والإسهامات الثقافية أن جعلت التطوّر العام لنشأة الأعراق في الوادي الأوسط لنهر النيجر أكثر اتّساقًا، سواء كان هذا التطوّر قد تحقّق محليًا أم بلغ نقطة تطوّره الراهنة من نقطة انطلاق منفصلة.

ويمكن أن تتأكّد صحة هذا التفسير الجديد لحكايات نشأة الكون والمأثورات التاريخية من

خلال عناصر أخرى من هذه الطبقات السكانية المختلفة. وهكذا فعند الطبقة الرابعة التي أدخلت أفكار **أور** و**فاما** و**سيه**، مع أسلاف التورو أو الأرواح الحاكمة في حكايات منشأ الكون لدى الصنغاي، مثل داندو أورفاما أو زا بيري سي كا يامون، تتضمّن سلالة الإلٓهة التوأم الأصلي حاسا وحيتي الذي أنجب سونتان ومانتان. ولا تختلف هذه الأسماء أو الأفكار عن **سوتن** المصري القديم الذي يعني «ملك الجنوب» أو **سوتن نت** الذي يعني «ملك الجنوب والشمال»، ولا عن «**معت**»، «أصل أو تجسيد العدالة والحقيقة والنظام العالمي»، الذي يعتبر أصل القدرة الكلية للإلٓه «**رع**» في عبارة **رع** – **أوسر** – **معت**، كما يعتبر «**الأم**» الوصية على العرش والناصحة «**لفرعون**»، أي «ملك الجنوب والشمال».

ومن ثم فإن الثنائي سونتان/مانتان قد يمثّل أصل أو فكرة قوة التوحيد الأولية للفرعون. ويعزّز هذا الإحتمال أنه أعقب هذا الثنائي، في حكايات منشأ الكون لدى الصنغاي، ثنائي آخر هو هوا/هواتا أو هوا/ هواتاتا، الذي ربّما كانت كلمة **هوا** فيه مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «أوا» أو «أووا»، التي قد تعني، في هذه الحالة، «وريث» أو «ذرية» أو «سليل» لأصل أو فكرة «سونتان/مانتان».

كما يُطلق على زا بيري سي كايامان أيضًا اسم ماليه أو مالي – (في اسم **كيري**)، وهو لقب ربّما يكون مأخوذًا من الجرمانش، حيث تعني كلمة «مالي»[٣٢] «رئيس» أو «ملك». ويوجد هذا اللقب في المأثورات التاريخية للزارما في اسمي مالي بيرو ومالي كاماندوجسا، اللذين قد يعنيان، على التوالي، «الرئيس العظيم» و«الرئيس كاماندوجسا». وعلى ذلك فإن إسمَيْ مالي بيرو ومالي كاماندوجسا قد يدلاّن على شخص واحد هو الرئيس العظيم كاماندوجسا، الذي يمكن عندئذ مقارنته بسهولة مع زابركان، السلف الأصلي للزارما، والذي قد يعني اسمه الملك العظيم زا الذي سبقت الإشارة إليه وهو من عُرف باسم زا بيري سي كايامون في حكايات منشأ الكون لدى الصنغاي، أو ورد ذكره باسم ديابر اليمن أو ذا الأيامن في تاريخ الفتاش وتاريخ السودان، تميل نسبته إلى جنوب شبه الجزيرة العربية. ويسمى زا بيري كايامون باسم واندو، وهي كلمة يمكننا ربطها أيضًا بالكلمة المصرية ود wd أو ودت wdt، ومعناها «يقود» أو «يقرّر»، أو كلمة ودن wdn ومعناها «ينصب كإله أو ملك»[٣٣]، وتلك أفكار تبدو متوائمة مع امتيازات زا بيري سي كايامون ومركزه.

وإذا نحن أضفنا إلى جميع النقاط السابق طرحها، أن الصنغاي أطلقوا اسم **تورو** على جميع الآلهة التي كانت لها مكانة جماعية أو منفصلة تجعلها محل عبادة أو تبجيل – على الرغم سن أن التورو يعتبرون بالنسبة لهم أساسًا آلهة أسلافهم الذين نشير إليهم بكلمة تورو على أنها اسم علم، وأن كلمة **أتور** لدى قدماء المصريين تعني «مذبح الآلهة الأفاعي»، وأنه يوجد أيضًا – كي نستكمل الصورة –

في حكايات منشأ الكون لدى الصنغاي تركيز على أن أسلاف **التورو** جاءوا من **هورنوكوم** و**أورونكوما** أو **رونكوما** ، من مناطق فوت أو فونت أو فوتّي أو فودّي في مسرا (أو مصر) ، سوف نجد أنه لا بدّ لأي تفسير ، أو بالأحرى إعادة تفسير ، لحكايات منشأ الكون وللمأثورات التاريخية لأقوام الوادي الأوسط لنهر النيجر ، أن يشير ، من الآن فصاعدًا ، إلى وادي النيل وشمال شرقي افريقيا ، فإنه ينبغي أن يحاول أيضًا تمحيص عدد كبير من قصص البطولة التي تُروى في الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط ، ولا سيّما في اليمن ومكة.

وتتمثّل الأهمية الأساسية لأوجه الشبه التي استرعينا الإنتباه إليها – حتى بدون أن نشرع في البحث عن علاقة لغوية بين الفراعنة المصريين واللغات الحالية لسكان الوادي الأوسط لنهر النيجر – في أنه في معظم الأحيان لا يكون للأسماء في حكايات منشأ الكون والمأثورات التاريخية معنى واضح بالقدر الكافي في اللغات الحالية ، حتى وإن كانت مصطلحات مثل كي وسوركو وسيركي أو ساركي وكيسرا أو كيشيرا (وإن كان ب . ي. موسي[٣٤] قد خلص إلى أن **كي** – **شيرا** – تعني ، في لغات البوكو ، «ملكًا أسود» ، مستندًا في ذلك إلى أن **شيرا** يعد لقبًا شرفيًا في نيكّي على حين أنه يعني «أسود» في بوكو) وصنغاي وهاوسا وداندو ووباندو وسي ، وكثير غيرها . ويمكننا إجراء عمليات تمثيل إستعادي أكثر وضوحًا ومنطقية بالإشارة إلى مصر الفرعونية ، دون أن نحاول استكشاف ما إذا كان الأساس الذي نستند إليه إثنيًا أو ثقافيًا ، وبخاصة فيما يتّصل بنصوص عدة لحكايات منشأ الكون لدى الصنغاي باعتبارها حكايات طقسية لم تتعرّض إلاّ لقدر قليل نسبيًا من التحريف.

قصص البطولة اليمنية والملكية والاثيوبية[٣٥]

هناك عدد من المشاكل مختلفة الأنواع تطرحها مأثورات كثيرة نمطية تقيم صلات بين الشعوب والأسرات الزنجية – الأفريقية والشعوب والأسرات العربية – الإسلامية ، التي كانت تُعدّ بوجه عام جزءًا من أسرة أو صحابة النبي محمد أو الخلفاء الذين اعتنقوا الإسلام في وقت لاحق.

وتنشأ المشكلة الأولى من أن جميع هذه المأثورات تقريبًا يقوم على طبقات من الروايات عن منشأ الكون أو مأثورات تاريخية زنجية – افريقية نتجت عنها الروايات الجديدة التي تقدّم «رؤية جديدة» أو «شكلاً منقحًا» أو «شكلاً نمطيًا» . ومن ثم تكون المشكلة الأولى في تعقّب أثر هذه الطبقات الزنجية – الافريقية.

وفضلاً عن ذلك فإن جميع هذه المأثورات تقريبًا «مغلّف» بعناصر من حكايات عن منشأ الكون ومأثورات تاريخية أصلها من الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط ، ولا سيّما المأثورات الواردة في الكتاب المقدس والمأثورات العربية – الإسلامية . ومن ثم تتمثّل المشكلة الثانية في اقتفاء أثر هذه

العناصر المضافة للتعرّف على إطارها الأصلي، سواء كان الكتاب المقدس أو الإطار العربي – الإسلامي.

ويتّصل النوع الثاني من المشاكل بطريقة فهم هذا التاريخ من جانب أرستقراطية وصفوة أفريقية سوداء اعتنقت الإسلام وترغب في الشعور بأن لها ماضيًا يتفق ودينها الجديد، ويتفق بوجه خاص ووعيها الحاد بمسألة الأصول. وهنا تتمثّل المشكلة في اقتفاء أثر الرواية «غير الرسمية» أو «غير المحرّفة» للتاريخ الشعبي للإستيطان.

فهناك من جهة تاريخ صفوة المثقفين المسلمين الذي يضيف إلى العالم الذي اعتنق الإسلام التاريخ العربي لشبه الجزيرة العربية بكامله أو جزءًا منه، ولا سيّما مسألة الأصول، وفي هذه الحالة تكون المشكلة هي معرفة تاريخ العرب وشبه الجزيرة العربية في عهد ما قبل الإسلام.

وهناك من جهة أخرى التاريخ المكتوب أو الذي يرويه رجل دين لم يتعلّمه ولم يتعلّم كيفية سرده، أو لا يستطيع استخدام اللغة التي تتعين روايته بها. وتكون المشكلة في هذه الحالة هي التمييز بين «كلمة» «المرابط» لأنه «لا بدّ أنه يعرف» وبين «كلمة» المتمسّك بالتقاليد الذي تعلم «الكلمة» لكي «يقول»، و«كلمة» الكاهن الذي تعلم «كلمة» قديمة لا «ترد» دائمًا في «الحديث».

إن قصص البطولة اليمنية والمكية وأحيانًا الإثيوبية تشكّل جزءًا لا يتجزأ من هذه السلسلة من المشاكل التي يبدو فيها اليمن بماضيه المجيد بصورة البلد الأسطوري للملكة سبأ (سبأ، قَطَبان، معين، حضرموت، أي سبأ وريدان أو حمير)، الذي ازدهر منذ القرن الخامس قبل الميلاد، والذي يُعتبر دائمًا بمثابة «التاريخ الأول» لشبه الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه، ينظر إلى إثيوبيا على أنها جسر امتدّ بين العالم الأسود وجنوب العالم العربي مع غزو ملك أكسوم «لبلاد سبأ وريدان» في عام ٣٣٠، على حين تكوس مكة دخول النبي محمد والخلفاء والعرب المسلمين في عداد القديسين.

قصص البطولة المصرية والنوبية والإثيوبية

إن الإشارات إلى مصر أو النوبة أو إثيوبيا، التي تجمع تحت اسم «مصر» أو «بلاد مصر»، توجد بوجه خاص بين الشعوب ذات التكوين والتنظيم الأطول أمدًا مثل **السوننكي والصونغاي**. ولا شكّ أن تفسير هذه القصص يثير أكبر المشاكل. إذ تنطوي على إضافات وتداخلات كثيرة من قصص النمط الأول. ولكي تميّز هذه القصص نفسها عن القصص العربية النمط، لم تستلهم المأثورات الواردة في الكتاب المقدّس أو اليهودية، كما هو الحال في القصة الشعرية التي تروي حياة دينجا كوريه الكبير، سلف السوننكي، أو مأثورات الداروا والجوبير لدى الهاوسا حيث يبدو أن ذكرى صلات بعيدة بين مصر الفرعونية والشرقين الأدنى والأوسط قد شكّلت أساسًا لتهويد بعض المأثورات. وقد تعزّز هذا التهويد فيما بعد، ولا سيّما بين الأقوام المجاورة للوادي الأوسط لنهر النيجر والتي دخلت الإسلام.

من خلال ما ورد في القرآن من إشارات إلى تاريخ اليهود. وفضلاً عن ذلك فإنه علاوة على المضمون الحالي لحكايات نشأة الكون والمأثورات التاريخية، تكشف بعض الطقوس والممارسات الدينية أحيانًا عن سمات مشتركة مع الممارسات المعروفة للعالم النيلي القديم.

حكايات نشأة الكون وأصل الكون وأساطير على امتداد النهرين العظيمين

إذا نحن اقتصرنا على حكايات نشأة الكون لدى الصنغاي وعلى الديانة القائمة على رقصات التقمص التي انبثقت منها، فليس بإمكاننا أن نتجنّب عقد بعض المقارنات الباهرة مع مصر القديمة.

المعابد والأقنعة المصرية، ديانة التقمص لدى التورو والصنغاي

سبقت الإشارة إلى التشابه بين الكلمة المصرية القديمة **اتور** أو «ضريح **الإله الثعبان**»، وكلمة **تورو** التي كان معناها الأول لدى الصنغاي «**الإله المبجّل في ضريح**». وإذا كنا لا نستطيع أن نعثر في مصر القديمة على أمثلة لرقصات تقمّص أو أمثلة للتقمّص عامة، فإنه يمكننا مع ذلك أن نلاحظ أنه كان على الكاهن المصري أن يردّد، لدى دخوله المقدس، تعزيمات حتى يمكن للإله أن يتجسّد وأن يعود إلى الحياة في التمثال. وعلى نفس المنوال، كان آله الصنغاي يتجسّد في معظم الأحيان على «جواده» خلال طقوس تتألف من عزف موسيقى وتعزيمات ورقصات تقمّص.

منشأ الأساطير أو المعارك على امتداد النهرين العظيمين

ان المنازعات والمعارك التي دارت على ضفاف النيل، بين ايزيس وسيت أولاً، ثم بين حورس وست بعد ذلك، من أجل الإستيلاء على عرش وسلطة الجد الأكبر – الإله أوزوريس، لا تختلف عن المعارك التي جرت على ضفاف نهر النيجر بين أبناء هاراكوي ديكو، «إلأهة الماء» وبين زن النهر وزن الموتى، ثم بين السوركو فاران ماكا بوتيه وزنكيبارو، من أجل السيطرة على نهر النيجر، والتحالف مع الإلٰهة الرئيسية أو **تورو** الصنغاي.

أساطير المنشأ

أعطت ايزيس، **أم** حورس، ابنها حورس رمحًا لكي يقاتل به **ست** الذي بدّل شكله ليصبح على هيئة فرس النهر. وأعطى **فاران ماكا بوتيه** رمحيه، **زوجو وبابنجاي** لكي يقاتل زن النهر أو التماسيح وحليفها **زنكيبارو**، وأصبح «سيد الصيد في نهر النيجر». ونجد في الوقت نفسه، في مصر القديمة وعلى ضفاف نهر النيجر على السواء، طريقة مماثلة اتّبعت في قنص فرس النهر، باستخدام نفس

الأنواع من الرماح. ومن ثم فإننا نرى أنه يمكن في الواقع العثور في الأساطير على أوجه تناظر أخرى تتصل بمنشأ وابتكار الأدوات وبعض أنواع الأنشطة.

وفي إطار مختلف تمامًا، كانت «بلاد بونت»، التي استجلب منها قدماء المصريين إمدادات من التوابل والبخور وغير ذلك من الأغذية المدارية، تعتبر «أرض الالهة». وحين يقول آلهة الصنغاي الرئيسيون إن أسلافهم جاءوا من «فوت» في «فونت» أو «فوتّي» أو «فودي» في مسرا، أو مصر، وحين نجد من بين أولئك الأسلاف سونتان ومانتان وهواس وداندو وأورفاماس وزا بيري سي كايامون، وكلها أسماء يمكن أن تكون قد جاءت من مصر القديمة، فإننا نخلص إلى أنه حدثت عملية نقل وأن ثمة احتمالاً كبيرًا أن تكون «فونت» هي «بلاد بونت» «أرض الآلهة».

الطقوس والآلهة

ينبئنا **كتاب البقرة المقدسة** أن الإله رع كان غاضبًا على الجنس البشري.

وقد عهد إلى الإلهة هاتور، المسلحة بعين رع، بمهمة معاقبة القوم الذين ينتهكون المقدّسات. وكانت مذبحة هائلة إلى حد جعل الإله رع يشفق على البشر. وكانت لديه جعة حمراء اللون أُعدَّت له، فلما رأتها هاتور المتعطّشة للدماء، والتي سميت أيضًا سيخمت «الجبارة»، ظنت أنها دم فشربتها وسكرت مما أفقدها تمامًا ولعها بقتل البشر. وكان يُقام منذ ذلك الحين مهرجان سنوي للإلهة هاتور تُراق فيه الخمر. وأصبحت هاتور إلٰهة النبيذ. وهذه القصة تذكرنا إلى حدّ ما بقصة غضب دونجو والـ«يينيه أوف ماركينديه» (Yéné of markendé) الأول، أو «الإنعاش الأول» الذي علم دونجو الناس خلاله كيف يعالجون الأشخاص المصابين بالصاعقة. وأصبح هذا الإحتفال «بالييـنيه»، في بداية كل موسم مطير، دعاءً عامًا للتورو أن ينعم على الناس بموسم زراعي طيب. وأصبح تورو ودونجو بوجه خاص، الإلهين اللذين يحقّقان مواسم مطيرة طيبة ومحاصيل وفيرة.

وهناك مظهر آخر من مظاهر الطقوس المصرية القديمة يذكّرنا بظاهرة التقمص لدى الصنغاي، وهو فتح فم الميت لتمكينه من الإستمرار في تناول الطعام ومباشرة أعماله في العالم الآخر، والذي يقابله فتح فم الصنغاي المتقمّص حتى يمكن للروح الساعية إلى تجسيد نفسها على «جوادها» أن تتكلّم وتباشر أعمالها المعتادة:

حكايات منشأ الكون والتاريخ على امتداد النهرين العظيمين

رأينا أنواع الصلات الموجودة بين حكايات نشأة الكون لدى الصنغاي وتاريخ الصنغاي وشعوب

الوادي الأوسط لنهر النيجر ، لا سيّما وأن هذه الحكايات تلقي الضوء فيما يبدو على «حدث أولي عظيم» في تاريخ الاستيطان.

السحرة المصريون والسحرة الصنغاي :
المؤرّخون لأزمة البداية والمؤرّخون لأزمة الإنفصال

تصوّر أسطورة أوزوريس وحكايات نشأة الكون لدى الصنغاي حتى الفترة التي أصبح فيها التورو الصنغاي سادة النهر ، «الأحداث الأولية لأزمة البداية» التي كان يتعذّر خلالها بدرجة أو بأخرى تمييز الآلهة والأسلاف والبشر المصريين عن بعضهم البعض ، أو تمييز الآلهة والأسلاف والبشر الصنغاي عن بعضهم البعض. ثم أضحى تاريخ مصر عبارة عن تاريخ ملك يعقبه مباشرة تاريخ ملك آخر ، إلاّ أن هذا الملك المصري كان – إن أجاز التعبير – خلاصة جميع الآلهة المصريين ، على حين لا يورد تاريخ الصنغاي ، فيما يحتويه من حكايات عن نشأة الكون ، سوى «أزمة الانفصال» وحدها.

عبادة الموتى أو «إبقاء الأسلاف في التاريخ»

يجوز القول إن أسطورة أوزوريس وأسطورة زا بيري وهاراكوي ديكو تتشابهان في بعض جوانبهما ، من حيث أنهما تمثّلان «التاريخ الأولي للأسلاف المتقمّصين». ولكن على حين قام خلفاء أوزوريس ببناء الأهرامات ، لكي تضمن لهم الدخول إلى عالم الخلود ، أصبح التورو خلفاء زا بيري مجسّدين فوق «جياد بشرية» ، وأعقبهم خلفاء التورو الذين تجسّدوا فقط «كجياد متقمّصة» أثناء رقصات التقمّص.

وقد وظفت حكايات نشأة الكون لدى الصنغاي هذه الظاهرة ، ظاهرة الإنفصال ، لكي تضم إلى البانثيون الخاص بها بعض الآلهة التي يذكر منها أسلاف الشعوب الوافدة حديثًا.

مقدّمة لتاريخ الإستيطان في الوادي الأوسط لنهر النيجر في ضوء الإفتراضات الجديدة بشأن الاتصالات بوادي النيل

إذا كانت قد وُجدت اتصالات مع وادي النيل ، فإن تاريخ الإستيطان في الوادي الأوسط لنهر النيجر يُعدّ متفرّدًا من حيث أنه يشمل العديد من الأقوام مختلفة اللغات. ويمكن لهذا التاريخ أن يقدّم أمثلة لمأثورات أسطورية ومأثورات عن نشأة الكون ومأثورات تاريخية تتفق في نقاط عديدة لا شكّ

أن علم الآثار القديمة كفيل بإيضاحها من خلال دراسة الآثار المادية ، ولا سيّما التماثيل الطينية الصغيرة الموجودة في كاريجورو وبورا ، بالقرب من تيرا.

موضوع تتبّع الأحداث في المأثورات عن أصول البشر والآلهة

إن الحالات التي يمكن فيها تتبع الأحداث حتى مصدرها ، حالات قليلة جدًا. ومع ذلك فربّما تسنّى مستقبلاً حل هذه المشكلة نظرًا للعدد المتزايد من أعمال الحفر للتنقيب عن الآثار ولتشكيل أفرقة من الباحثين.

مسألة نشأة الأعراق في تاريخ الإستيطان
في الوادي الأوسط لنهر النيجر

يضطلع موضوع نشأة الأعراق بدور رئيسي في حكايات نشأة الكون لدى الصنغاي ، ويقدّم علم الآثار بعض الإجابات بشأن الإستيطان كما ترويه الأسطورة ، بفضل التماثيل النصفية التي اكتُشفت في كاريجورو وبورا. وقد عاش صنّاع هذه التماثيل في كاريجورو في الفترة ما بين ٥٠٠ ± ٩٠ و ١٠٧٠ ± ٩٠ بعد الميلاد ، إلاّ أن الرسوم الحيوانية الشكل التي تصوّر «ثعبانًا» و «عصفورًا» تلقي الضوء فيما يبدو على طبقات زن النهر الذين عبدوا التماسيح. أما صنّاع تماثيل بورا ، الذين يُعتقد أنهم عاشوا فيما بين القرنين الثالث والثاني عشر الميلاديين ، والذين علّقوا أهمية كبيرة على الدفن الثانوي داخل جرار دفن وتحتها ، فيمكن أن يمثّلوا زن الموتى.

«التاريخ المروي» و «التاريخ المعاش»
و «تاريخ المؤرّخين» بين نهر النيجر والنيل

لا بدّ للمؤرّخين من اللجوء إلى جميع الموارد التي توفّرها علوم الماضي والإنتفاع بها. وتشمل هذه المصادر أقدم أو أثبت أشكال المأثورات التي تتمثّل في «روايات يستمع إليها» (روايات تاريخية يقدّمها رواة المأثورات) و «روايات تُخبَر أو تُعاش» (صيغ طقسية لعبادة رقصات التقمص) ، وهي مفيدة وضرورية في كتابة «تاريخ للاستيطان» يضع في الاعتبار المعلومات المستقاة من آثار مصر الفرعونية وتاريخها وأيقوناتها ورسومها.

الملاحظات

١. Diare Sylla de Yerère, *La légende du Wagadu.* SCOA Foundation for Research in Africa. Third International Symposium, Niamey, 30 November-6 December 1977
٢. محمود كعتي، **تاريخ الفتاش**، ص ٤٣ – ٤٧ Adrien-Maisonneuve, Paris, 1964
٣. المرجع السابق، ص ٤٣.
٤. المرجع السابق، ص ٤٠ – ٤٢.
٥. المرجع السابق، ص ٤٩ – ٥١.
٦. المرجع السابق، ص ٤٩.
٧. المرجع السابق، ص ٣٢٦ – ٣٢٧، المرفق ٢، «الملاحظة الاستهلالية».
٨. المرجع السابق، ص ٣٢٩ – ٣١١، المرفق ٢.
٩. عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٦ – ٨. Ardien-Maisonneuve, Paris, 1966
١٠. Diouldè Laya, *Traditions historiques Zarma-Songhays* المأثورات التاريخية للزارما – صنغاي، صفحة ٣٣ – ٣٥) SCOA, Niamey, Foundation for Reasearch in Africa, 1977.
١١. Obaré Bagodo, 'Le royaume Borgou Wasangari de Nikki dans la première moitié du XIXe siècle: Essai d'histoire politique' (مملكة البورجو واسنجاري في نيكّي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر: مقال في التاريخ السياسي) ص ٢٥ – ٣١. رسالة للحصول على درجة الماجستير في التاريخ، العام الدراسي ١٩٧٨، جامعة بنين الوطنية، كوتونو، Faculté des Lettres, Arts et Sciences Humaines (Flash), Centre National de Publications Universitaires (CNPU) ٢٣٣ صفحة مطبوعة بالرونيو.
١٢. استُقيت هذه المعلومة من المرجع السابق، ص ٢٥ – ٣١.
١٣. S. O. Biobaku, 'The Origin of the Yorubas', quoted by Boubou Hama, in *Rnquête sur les fondements et la genèse de l'unité Africaine*, Paris, Présence Africaine, 1966 (دراسة في أسس وأصول الوحدة الإفريقية. ص ٢٢١ – ٢٢٤).
١٤. C. K. Meek, *The Northern Tribes of Nigeria*, Vol. 1, pp. 71-2, London, Frank Cass, 1971; O. S. M. Temple, *Notes on the Tribes of Northern Nigeria*, London, Frank Cass, 1965, 376 pp.
١٥. Jean Rouch, *La religion et la magie Songhay*, Paris, Presses Universitaires de France, 1960: وقد استخلصنا أصل أساطير نشأة الكون لدى الصنغاي من رواية روش، واضعين في اعتبارنا ما هناك من مصادر شفهية.
١٦. Rouch, op. cit., p. 56
١٧. Rouch, op. cit., pp. 58-9 وحسبما جاء في بعض الروايات كان البطلان ابنين لأختين من الزن.
١٨. G. Dieterlen, 'Note sur les Kouroumba du Yatenga septentrional (ملاحظة عن كورومبا شمالي ياتنجا) *Journal de la Société des Africanistes*, Vol. X, 1940, pp. 181-9
١٩. Rouch, op. cit., pp. 95-102, verses 47, 61, 62, 91, 92, 384 and 385
٢٠. Rouch, op. cit., pp. 111 and 120
٢١. G. Dieterlen المرجع السابق، ص ١٨١ – ١٩٨٩.
٢٢. Association SCOA pour la Recherche Scientifique en Afrique Noire, *Actes du*

Colloque (histoire et tradition orale), Troisième Colloque International de l'Association SCOA, pp. 125-82, Niamey, 30 November-6 December 1977

٢٣. E. A. Wallis Budge, *Egyptian Language. Easy Lessons in Egyptian Hieroglyphics*, London, Routledge & Kegan Paul, 1973

٢٤. G. Rachet and M. F. Rachet, Dictionnaire de la civilisation égyptienne, Paris, Larourre, 1968

٢٥. في الميثولوجيا المصرية ، يُعتبر التمساح سوبيك ملتهم الأرواح التي تعجز عن تبرئة ساحتها ، ومع ذلك فقد بُنيت معابد لتكريم هذا الإله في مدينة «**كروكوديلوبوليس**» ، وكان يُعتبر إلهًا صعد من المياه الأولى ويشار إليه باسم «**ثور الثيران** ، الكائن الذكر العظيم» ، إله الخصوبة في منطقة البحيرات ، على حين كان يُعتبر وحشًا في مناطق أخرى من مصر (أنظر Jean Chevalier et Alain Cheerbrant, *Dictionnaire des symboles*, (CHE G), Paris, Sushers, 1973, p. 139

٢٦. إن جهلنا بمصر القديمة يبلغ درجة لا نعرف معها العلاقة والفارق الزماني والمكاني بين فكرتي **الهق والسر** ، فيما عدا أن الهق يمثّله في الرموز الهيروغليفية رجل يحمل صولجانًا ، في حين يرمز إلى السر رجل يحمل عصا بسيطة (؟).

٢٧. يذكر هيرودوت أن سكان بعض القرى المصرية في الفيوم مثل **كروكوديلوبوليس** ، أو **شدت** كانوا يعتبرون التمساح سوبيك حيوانًا مقدّسًا ويعبدونه ويرعونه ويطعمونه «كانوا يزيّنون أذنيه بأقراط من الذهب والبلّور ويضعون أساور في قائمتيه الأماميتين ، وكانوا يطعمونه ببقايا مختارة من القرابين ، ويبذلون قصارهم في رعايته : وحين كان يموت كانوا يحنّطونه ويخصّصون له مدفنًا» ، نقلاً عن راشيه وراشيه ، المرجع سالف الذكر ، ص ١٩٨٥ .

٢٨. Cheikh Anta Diop, *Parenté génétique de l'Egyptien pharaonique et des langues négros-africaines*, Dakar, Nouvelles Editions Africaines, 1977, pp. XXXVII, 294, 306 and 380

٢٩. المرجع السابق .

٣٠. المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

٣١. المرجع السابق ، الصفحات XXXVII و ٢٩٤ و ٣٩٦ ، ويبدو أن هاو Hau اسم شعب كان يعيش في دلتا النيل وسا *Sa* تعني «غنى» ، أو «عظيم» أو «أمير حاكم» ، في اللغة المصرية القديمة .

٣٢. Y. Georges Madiega, *Contribution à l'histoire précoloniale du Gulma (Haute-Volta)*, Studien zur kulturkunde 62, Franz Stiener Verlag, Weisbaden, 1982, pp. 52, 285

كان لقب «**مالي**» فيما يبدو هو لقب جوبنانجو ، أحد الأقاليم الجنوبية في جورما حيث أسّس الأسرة المالكة «بيبالا» ، وهو قناص أغلب الظن أنه جاء من جوبير (وأنه) تزوّج بابنة أحد **البادو** من تندانجو (قرية في جوبنانجو) . ويبدو أن جوبنانجو هذه قد ظلّت بدورها تمارس صناعة التماثيل الصغيرة ، كالتماثيل التي عُثر عليها في المواقع الأثرية في كاريجورو ، بالقرب من نيامي ، وحُدِّد تاريخها بالفترة ما بين القرنين الميلاديين الخامس والثاني عشر .

٣٣. الشيخ آنتا ديوب ، المرجع سالف الذكر ، ص ١٩١ .

٣٤. Musa, B, I. «Political and Economic Relations in Bariba States»,

رسالة دكتوراه مسجّلة في برمنجهام (توجد صورة منها في زاريا) عن العلاقات السياسية والاقتصادية في دول الباريبا ، ص ١١٨ – ١٣٢ . (أسطورة كسرا في **ندوة بورنو**) Kisru Legend in *Bornu Seminar*,

ABU-ZARIA, AB -KANO, 1973, Bagado, op. cit., pp. 25-32 and note No. 2 p. 26

نقلاً عن موسى

٣٥. نحاول فيما تبقّى من المقال طرح أفكار عامة نأمل أن نتمكّن من تناولها بالتفصيل في وقت لاحق .

المجتمع في منطقة بحيرة تشاد
في نهاية الفترة البيزنطية قبل الفتح الإسلامي

د. لانج

تعرّضت منطقة السودان الأوسط، على مرّ القرون، لتغيرات إيكولوجية كبيرة. فمن المعروف أن بحيرة تشاد قد اتسعت خلال الفترات المطيرة في العصر الحجري الحديث بحيث كانت مساحتها تفوق كثيرًا المساحة التي بلغتها نتيجة لما حدث من تغيّرات في العصرر التاريخية. وعلى الرغم من أن فكرة تشاد الكبرى التي تفترض الوجود المستمرّ لرقعة واسعة من المياه تفقد مسوغاتها على نحو متزايد، فإنه يمكن القول بأنه كانت هناك مستنقعات كبرى تغطّي مناطق مختلفة بين هضبة عير وجبال دارفور. ومن هنا ينبغي دراسة شعوب السودان الأوسط قبيل العصر التاريخي، والتبلور البطيء للتمايزات الإجتماعية، في ضوء التغيرات الإيكولوجية الكبرى.

كذلك ينبغي التسليم بأن عدم وجود مصادر مكتوبة خلال الفترة السابقة على الفتح الإسلامي يحول دون دراسة المنطقة الواقعة جنوب الصحراء بنفس الدقة التي تدرس بها مناطق البحر المتوسط. وفيما يتّصل بالمنطقة التي تعنينا في هذا المقام، فإننا لا نملك سوى أن نقنع بمعلومات ضئيلة لم يتسن حتى الآن التيقن منها إلاّ في أضيق الحدود. ونأمل، مع ذلك، أن يقدم هذا البحث خطوطًا توجيهية للبحث العلمي يمكن أن يسترشد بها علماء اللسانيات والآثار الذين يبحثون عن إمكان وجود صلات متبادلة تربط بين مجالات تخصّصهم وبين التاريخ. وقد استحدث مؤخرًا مصطلح جديد لوصف هذه البحوث، هو مصطلح البحوث «الأثرية – اللغوية»[1].

صيادو الأسماك ومربو الماشية

تتمثّل فرضية العمل الأولى في التمييز بين صيادي الأسماك ومربي الماشية، الذي قد يقابله، بالنسبة للسودان الأوسط، بدءًا من فترة الأمطار الطويلة في عهد الهوليسين، التمييز بين الناطقين باللغات التشادية والناطقين باللغات النيلية – الصحراوية.

ومن المسلّم به الآن أن اللغات التشادية تمثل فرعًا من أفرع الأسرة الأفرو– آسيوية

(الحامية – السامية) الكبرى. وربما كان الاتساق الذي يميّز مجموعة اللغات التشادية راجعًا إلى تطوّر طويل الأمد للغات الأصلية (proto-languages) في بيئة جغرافية مؤاتية للإتصالات والتبادلات اللغوية. وبوسعنا أن نفترض أن مختلف المناطق الجنوبية في وسط الصحراء الكبرى كانت تتوافر فيها أفضل الظروف المعيشية خلال الفترات المطيرة. إلاّ أن هذه الظروف قد أخذت في التدهور بسرعة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وربما اضطر الناطقون باللغات التشادية الأصلية، بدءًا من هذه الفترة، إلى النزوح نحو مناطق أكثر ايغالاً في الجنوب. ومع ذلك فانه ليس من المستبعد أن تكون هذه الأقوام قد رحلت في فترة لاحقة من تنيري وجوراب وغيرهما من المناطق – حيث تدلّ بقايا العظام على أن هذه المناطق كانت مغطاة من قبل بالمستنقعات أو البحيرات. كما يحتمل أن تكون هذه الأقوام قد فقدت تدريجيًا سماتها السودانية – المتوسطية نتيجة لاتصالها بمجموعات افريقية – زنجية. وتوجد اليوم مجموعات مختلفة من الناطقين باللغة التشادية تعيش منعزلة في بقاع نائية بين نهر النيجر ومنطقة وداي، إلاّ أن منطقة بحيرة تشاد تظل هي المركز الجغرافي الذي تنتشر من حوله هذه المجموعات. ولا يزال صيادو الأسماك من البودوما (اليدينا) والكوري يحتلون جزر البحيرة وشواطئها الشرقية. وفي المنطقة الواقعة إلى جنوب بحيرة تشاد يعيش الكوتوكو، وهم قوم تشاديون آخرون، استوطنوا سهول نهر شاري التي تغمرها المياه بسهولة ويعد صيد الأسماك الحرفة الأولى بالنسبة إليهم أيضًا.

ومن شأن دراسة مصطلحات صيد الأسماك – مع استبعاد الكلمات الدخيلة الحديثة العهد[٢] – ان تتيح التحقّق مما إذا كانت هذه المصطلحات تنتمي إلى اللغة التشادية، أم أنها على العكس مشتقة من لغة صحراوية أو نيلية – صحراوية قديمة.

المزارعون والبدو

ويمكن أن تتمثّل فرضية العمل الثانية في استقصاء العلاقات بين الناطقين باللغات النيلية – الصحراوية وأقوام العصر الحجري الحديث المنتمية إلى الثقافات الصحراوية – السودانية. وقد يشمل ذلك اختبار الفرضية القائلة بوجود علاقات قديمة بين الأقوام الرعوية الناطقة بلغات صحراوية (التوبو والزغاوي) والأقوام الناطقة بلغات الصنغاي (إجدالين وإيبيروجان).

وعلى خلاف اللغات الأفرو – آسيوية، لا تستخدم مجموعة اللغات النيلية – الصحراوية إلاّ في النطاق الزنجي – الافريقي. وتعد لغة الصنغاي، المستخدمة على امتداد نهر النيجر، من جني إلى جايا، أكثر لغات هذه المجموعة إيغالاً في اتجاه الغرب. ومع ذلك فإنه توجد، في اتجاه الشمال، مجموعات صغيرة من مزارعي الواحات (السودانيين) وبضعة تجمعات لمربّي الإبل (من أصل بربري) تستخدم لهجات مختلفة من لغة الصنغاي[٣]. أما المجموعة الفرعية الثانية من الأسرة النيلية –

الصحراوية ، فهي المجموعة الصحراوية التي تشمل الزغاوي ، والتيدا – دازّا ، والكانيمبو – كانوري[٤] . وفي الوقت الراهن ، انقطعت صلة لغة الصنغاي بأية لغة من اللغات الصحراوية ، إلاّ أن الصيغ الدلالية (lexicographical) العديدة المشتركة بين المجموعتين اللغويتين توحي بأن الأقوام الرعوية السودانية التي كانت تستخدم اللغات النيلية – الصحراوية احتلت جزءًا كبيرًا من الرقعة الممتدة بين منعطف نهر النيجر وجبال اينيدي . وربما يرجع التواصل الجغرافي لهذه الأقوام إلى تضافر آثار إجداب الصحراء الكبرى وضغط البربر الليبيين الغزاة في القرون الأخيرة قبيل التاريخ الميلادي[٥] . وفي الشرق ، يحتمل أن يكون الناطقون بلغة الصنغاي الأصلية هم الذين أسّسوا كاو – كاو (جاو) ، على حين أسّس الناطقون باللغات الصحراوية الأصلية كانم في منطقة بحيرة تشاد[٦] .

وربما توضح الدراسة المقارنة لمصطلحات الزراعة وتربية الماشية ، التي ترتكو الى التمييز بين المزارعين الكانيمبو والأقوام الرعويين التيدا – دازّا ، ما اذا كانت وحدة سابقة ، تقوم على تربية الماشية ، قد وجدت بين المجموعتين النيليتين – الصحراويتين (الصحراويين والصنغاي) .

الحدّادون وطوائف الأرستقراطية العسكرية

وثمة فرضية ثالثة تسعى إلى الربط بين بداية عصر الحديد في منطقة بحيرة تشاد ، وظهور طائفة الحدّادين التي عُرفت باسم الدوجو (أو حداد)[٧] ، وحظيت بمنزلة في عهد الزغاوي .

وتوحي التواريخ المتاحة فيما يتّصل بانتشار تقنيات صناعة الحديد بأن بعضًا من أقوام هذه المنطقة ظلّ عهدًا طويلاً منبت الصلة بالابتكارات الكبرى في ذلك العصر . ويبدو أن الخط الفاصل الرئيسي هنا كان هو الخط الذي يفصل بين الشرق والغرب ، وليس الخط الفاصل بين الشمال والجنوب . ومن المعروف الآن أن تقنية صناعة الحديد كانت تمارس جنوب هضبة عير ، في اكنى وان أباران ، اعتبارًا من – ٤٥٠ ± ٩٠[٨] . ويتوافق هذا التاريخ تمامًا مع التاريخ الذي حدّد لتاروجا (ثقافة النوك) في نيجيريا الوسطى[٩] ، وهو – ٤٤٠ ± ١٤٠ . أما في منطقة ترميت ، الممتدّة من هضبة عير إلى بحيرة تشاد ، فيبدو أن صناعة الحديد كانت تمارس منذ وقت مبكر يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد[١٠] . ولم تعرف سائر المناطق تقنيات صناعة الحديد إلاّ بعد ذلك بفترة طويلة . وقد اكتشفت آثار لثقافة تقوم على صناعة الحديد في تورو تورو ، بين بحيرة تشاد وتيبستي . وعُرفت هذه الثقافة باسم حداديان Haddadian وهي كلمة مشتقة من كلمة «حداد» العربية – ولم تزدهر إلاّ في الفترة ما بين القرنين الرابع والثامن الميلاديين. ويتيح الفخار المطلي الذي عُثر عليه في المواقع نفسها ، إمكانية ربط هذه الثقافة بحضارتين كبيرتين في وادي النيل هما الحضارة المروية والحضارة النوبية المسيحية[١١] . وتتوافر معلومات أخرى عن المنطقة الواقعة على امتداد الشواطئ الجنوبية لبحيرة تشاد .

وثمة تأريخات غير مقطوع بها تمامًا تشير إلى أن الحديد لم يظهر في موقع «دايما» الهام إلاّ في القرن الخامس أو السادس الميلادي، وان تقنيات إنتاج الحديد لم تظهر إلاّ في مرحلة لاحقة[١٢]. وتوضح هذه البيانات القليلة المستقاة سن الآثار الحديدية أن منطقة بحيرة تشاد كانت تتميّز، قبل تأسيس كانم، بوجود تقسيمات مختلفة وتباين في مراحل التطوّر، أكثر مما تتميّز بتوافر عوامل الوحدة.

وربما يتعيّن الربط بين نشوء طوائف الحدادين الذي يمثّل الآن سمة خاصة من سمات الطوارق والبدو الناطقين باللغات الصحراوية – وإن كان أقل شأنًا في كانم وشبه منعدم في بورنو – وبين وجود أو غياب النظم السياسية المركزية. ففي دولة غير مركزية، مثل كانم في عهد الزغاوي، كان الحدّادون يحظون بعلاقات متميّزة مع طائفة الأرستقراطية العسكرية[١٣]. ويبدو أن الحدّادين لم يتحوّلوا إلى طائفة تابعة ومنعزلة بين الناطقين باللغات الصحراوية في المنطقة الواقعة شرق بحيرة تشاد، إلاّ بعد طرد الزغاوي في القرن الحادي عشر.

التجارة عبر الصحراء الكبرى وظهور الأرستقراطية العسكرية

وهناك فرضية خامسة مؤداها أن نشوء أرستقراطية عسكرية تربط بينها صلات أسرية ومصالح مشتركة، ربما يكون قد نتج عن النمو السريع للتجارة عبر الصحراء الكبرى خلال الفترة البيزنطية. والحفريات الأثرية هي وحدها الكفيلة بأن تحدّد مدى قدم التجارة عبر الصحراء في وسط الصحراء الكبرى. وليس هناك في الوقت الراهن سوى موقع واحد يمكن الحصول منه على معلومات ترجع إلى العهد البيزنطي، وهو موقع جيزيبي، في كرار[١٤].

إلاّ أن لدينا الآن، فضلاً عن ذلك، الدراسة الفذة التي أجراها ت. جارّاد T. Garrad وأثبت فيها، من خلال بيانات المسكوكات، أن تجارة الذهب عبر الصحراء بدأت في القرن الرابع الميلادي، واتسع نطاقها اتساعًا ملحوظًا في القرون السادس والسابع والثامن. وكانت تونس هي غاية هذه التجارة، وأغلب الظن أن الذهب كان يستخرج من مناجم بامبوك وبوريه، إلاّ أن المؤلف لا يستبعد امكانية استخراج جزء من الذهب من منطقة نيجيريا الحالية. ومن شأن هذا الاحتمال، في حالة التيقن من صحته، أن يفسّر حركة المرور المبكرة على امتداد طريق كوار[١٥].

وقد بدأت في حوالى القرن الخامس الميلادي، عملية تحوّل مستمرة في العلاقات الاجتماعية. وكان الحافز غير المباشر لهذه العملية هو ظهور الإبل لأوّل مرة في منطقة شمالي افريقيا، واستخدامها من جانب البربر في الصحراء الكبرى. فمع ظهور الإبل التي تتفوّق كثيرًا على الجياد سن حيث قدرتها على التكيّف مع الظروف الطبيعية للصحراء الكبرى، أصبح من السهل اجتياز مسافات هائلة عبر الصحراء ونقل أحمال ثقيلة نسبيًا. وكانت الظروف الطبيعية مؤاتية بوجه خاص لعبور الصحراء في

الجزء الممتد بين فزان ومنطقة بحيرة تشاد. إذ كانت تنتشر على امتداد الطريق في هذا الجزء، سلسلة من الواحات الصغيرة وعيون المياه، وتتوسّطه واحة كوار الشاسعة، مما جعله طريقًا مثاليًا للقوافل. ومع ذلك فاننا لا نزال نفتقر في حقيقة الأمر إلى دليل محدّد يتيح لنا التأريخ لنشأة تجارة منتظمة بين شطري المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى أو تحديد ظروف هذه التجارة. ولا شك أن وجود مملكة الجارامنت القديمة في فزان كان عاملاً هامًا في تنظيم التجارة عبر مسافات طويلة، إلاّ أن عدم توافر شواهد أثرية محدّدة بالنسبة لواحتي فزان وكوار الجنوبيتين يجعل من التخمين السبيل الوحيد المتاح في هذا الشأن. ومهما كان الأمر، فإنه يبدو أن قوافل فزانية صغيرة كانت تعبر، بدءًا من القرن التاسع، الطريق الذي يتوسّط الصحراء الكبرى، إذ تفيد مصادر القرن التاسع بأنه لو لم يكن التجار البربر قد فتحوا هذا الطريق لشق على الفاتح العربي الشهير عقبة بن نافع التقدّم حتى كوار. غير أنه من المؤكّد أن واحة كوار لم تكن غاية هذه الرحلات، وأغلب الظن أن التجار البربر كانوا يتجاوزون هذه الواحة وهم في طريقهم إلى منطقة بحيرة تشاد[١٦]. وهنا نجد، بالإضافة إلى ظهور التجارة، عددًا من العوامل التي تشمل حركة التنقّل المتزايدة للبدو، واستخدام أسلحة مصنوعة من الحديد، وهي عوامل أفضت إلى تأسيس واتساع كيان سياسي هو كانم، كان لقدرته على التوحيد والابتكار تأثير على مصير المنطقة بكاملها حتى بداية عهد الإستعمار.

ومن المنتظر أن يؤدّي استمرار الحفريات في موقع جيزيبي إلى توفير مادة يُستَنَد إليها لتحديد الترتيب الزمني لحركة التجارة عبر الصحراء الكبرى. وإذا كانت أعمق الطبقات الأثرية في هذا الموقع لا ترجع إلى أبعد من فترة الفتح العربي لمنطقة شمالي أفريقيا، فلا بدّ من إيلاء اهتمام لاستكشاف مواقع في جنوبي فزان أو في واحة فاشي (أجرام)[١٧]. وعلى الرغم من ذلك فان التاريخ الذي حدّده ت. شو – وهو القرن التاسع – لثقافة ايجبو – أكوو البالغة الثراء والتي استخدمت بالفعل طريقة الشمع المذاب لصب البرونز – يعتبر مؤشرًا أوليًا لوجود تجارة قديمة في النحاس في منطقة السودان الأوسط[١٨]. بيد أنه لا يمكن مع ذلك القطع بوجود ارتباط بين التجارة عبر الصحراء الكبرى وظهور أرستقراطية عسكرية في منطقة السودان الأوسط.

الغزاة الناطقون بالكانورية والأقوام الأصلية في «ساو»

وهناك فرضية أخرى تطرح احتمال أن تكون حضارات «زنجية قديمة» قد اكتسبت العديد من سماتها المميزة في مجرى اتصالها بالارستقراطيات العسكرية في الحضارات «السودانية الحديثة». وربما يكون من الخطأ بوجه خاص اعتبار «حضارة ساو» بمثابة بنية تحتية ارتكزت اليها الدول التي أقيمت في منطقة السودان الأوسط. وفضلاً عن ذلك فإن الحضارات التي تؤكّد تأريخات يعتد بها أنها سبقت

بالفعل إقامة الدول الكبيرة المشار إليها في مصادر عربية ، تشهد – شأنها شأن الحضارات التي كشف عنها الأثريون – بحدوث تطوّر داخلي وتأثيرات خارجية.

وفي السهول الطينية الواقعة عند أسافل نهر شاري ، جنوب بحيرة تشاد ، اتصل الكانوريون بحضارة قديمة تميزت بفن تصويري رائع[١٩] . وقد أوضحت الحفريات الأثرية التي أجراها ج. كونّاه G. Connah في موقع دايما ، أنه كان لسكان سهول فيركي ، خلال مرحلة أولى سابقة للتاريخ الميلادي ، اقتصاد مختلط يجمع بين الزراعة وتربية الماشية وصيد الأسماك. ويقول كونّاه إن المرحلة الثانية التي بدأت في مستهل التاريخ الميلادي ، قد تميّزت فيما يبدو بظهور تقنيات صناعة الحديد. وكان لهذا التجديد الهام تأثيره المباشر على الإنتاجية وعلى عملية الإستيطان : فقد ترتّب على تكثيف الأنشطة الزراعية ، ولا سيّما شيوع الفلاحة التي تعتمد على مياه الفيضانات ، أن تراجعت وانحسرت الأنشطة الأخرى المتمثّلة في تربية الأبقار وصيد الأسماك ، ويبيّن ظهور المباني الطينية في المرحلة الثانية أن سكان دايما كانوا يتبعون نهجًا معيشيًا حضريًا لا يتفق ومتطلّبات الإنتجاع. وخلال الفترة الثالثة ، من حوالى عام ٧٠٠ الى حوالى عام ١٠٥٠ ، بدأ سكان سهول فيركي يعيشون حياة أرغد : فقد أدخلت التجارة عبر المسافات الطويلة أشياء مختلفة في حياتهم ، وهناك آثار لنسيج يدوي (قبل ظهور الإسلام بوقت طويل). ويبدو أن هذه الفترة شهدت مزيدًا من التطوّر في إنتاج أشياء تتخذ هيئة بشرية أو حيوانية ، وصنع خزّافو دايما لأول مرة – خلال هذه الفترة نفسها – جرارًا ضخمة يعتبرها سكان المنطقة في الوقت الراهن العلامة المميّزة «لحضارة ساو». وثمة ابتكار هام آخر يتّصل بالتحصينات ؛ فقد عثر كونّاه في دايما على بقايا خندق يحيط بمساكن مبنية فوق تل ، ومن المحتمل أن تكون هناك تلال أخرى تحميها أسوار دفاعية[٢٠].

وقد لا يكون من الشطط أن نعتبر ظهور المنشآت الدفاعية أول علامة على التعرّض لتهديد من الخارج ، ذلك التهديد الذي كان شديد الوطأة فيما بعد على المزارعين في سهل نهر شاري والذي لا يصعب الربط بينه وبين زحف المحاربين الناطقين بالكانورية.

وبعد عدة قرون من السيطرة السياسية والثقافية التي فرضتها دولة كانم – بورنو ، استخدم الكوتوكو ، الذين يقيمون الآن في سهول فيركي ، مصطلح «سو» أو «ساو» للدلالة على أسلافهم المؤمنين بالديانات الحيوية. ولما كان هذا المصطلح مستخدمًا في جميع المناطق التي حلّ فيها الناطقون بالكانورية محل السكان السابقين ، فإنه يمكن الإفتراض أنه مصطلح كانوري أصلاً شاع استخدامه للدلالة على الأقوام الأصليين الذين عجزوا عن مقاومة الإستيعاب[٢١] . ومن ثم فإن تحرّي الدقّة يقتضي استخدام مصطلح «حضارة ساو» للدلالة على ثقافة أسلاف الكوتوكو المعروفة نسبيًا – وهو المعنى المتعارف عليه الآن لهذا المصطلح – وعلى الثقافات القديمة للكومادوجو يوبي وسكان الجزء الجنوبي من منطقة بحر الغزال[٢٢] . ومع ذلك فإنه يبدو من وجهة النظر الأثرية أنه لا تشابه على الإطلاق بين

هذه المجموعات الثلاث بالغة التباين ، وأنه لا يضفي عليها مظهر الوحدة سوى اعتمادها على سلطنة بورنو ووضعها كأقوام من أهل الذمة.

خاتمة

إذا كانت التجارة عبر الصحراء الكبرى قد شهدت نموًا كبيرًا خلال الفترة البيزنطية ، حسبما توحي به شواهد عديدة[٢٣] ، فإنه يمكن بالمثل الإقرار بأن أرستقراطية محاربي الزغاوي كانت قد فرضت سيطرتها بالفعل على الأقوام الحضرية في كانم ، جنوب الطريق الرئيسي في وسط الصحراء الكبرى. إلاّ أن سيطرة هذه الأرستقراطية لم تتخذ شكل الدولة المركزية إلاّ في عهد دوناما ديبلامي (حوالى ١٢١٠ – ١٢٤٨). وقد أضحى تنظيم هذه الدولة أكثر وضوحًا بعد قرن من الزمان ، أي بعد انتقال « الصفوة » من كانم الى بورنو. وفي هذه المرحلة اللاحقة كان الناطقون باللغات الصحراوية في دولة كانم – بورنو قد توحّدوا نتيجة الإنتشار السريع للإسلام فتخلّوا عن نظام الطوائف الذي يعدّ السمة المميزة لمنطقة السهل والذي يلازم الدولة في مراحل التكوين الأولى بوجه خاص.

الملاحظات

١. Cf. C. Ehret and M. Posnansky (eds.). *The Archaeological and Liguistic Reconstruction of African History*, Berkeley, Calif., University of California Press, 1982

٢. كانت لدى الأقوام التي تتحدّث الكانورية ، في القرن الثالث عشر ، زوارق تبحر بها في بحيرة تشاد ، التي عُرفت عندئذٍ باسم كوري (ابن سعيد). ويبدو أن الناطقين بالتشادية هم الذين سيطروا على البحيرة فيمَا بعد.

٣. أنظر: R. Nicolaï, «Les dialectes du Songhay» ، رسالة قدّمت إلى جامعة نيس ، ١٩٧٩.

٤. التصنيف اللغوي المستخدم هنا هو تصنيف ج. جرينبرج في كتاب (*The Languages of Africa*, The Hague, Mouton, 1966)

٥. وفقًا لما ذكره ب. مونسون P. Munson يرجع مجيء البربر الليبيين (موريتانيا) إلى القرن السابع قبل الميلاد. ('Archaeology and the Prehistoric Origins of the Ghana Empire', *Journal of African History (JAH)*, Vol. 21, No. 4, 1980, pp. 462-5)
انظر أيضًا البحث المقدّم من ج. ب. روزيه J. P. Roset ، والوارد في هذا الكتاب.

٦. يطرح س. اهرت C. Ehret و م. بوسنانسكي M. Posnansky الفرضية القائلة بأن اللغة التشادية الأصلية قد ترجع إلى العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى خلال الألف السادس قبل الميلاد (١٩٨٢ ، ص ٢٤٣). وبالنسبة لفترات أحدث ، لا بدّ من الإشارة أيضًا إلى الدراسة التي أجراها د. ساكسون D. Saxon, 'The History of the Shari River Basin, *c.* 500 B.C. – A.D. 1000'. (تاريخ حوض نهر شاري) رسالة دكتوراه مقدّمة إلى جامعة لوس انجلوس ، ١٩٥٠.

٧. نشرت دراسة انثروبولوجية أولى عن الدوجو، أجراها أ. كونت E. Conte تحت عنوان:
Marriage Patterns, Political Change and the Perpetuation of Social Inequality in South Kanem (أنماط الزواج، التغيّر السياسي واستمرار عدم التكافؤ الاجتماعي في جنوب كانم)، باريس. مكتب الأبحاث العلمية والتقنية لما وراء البحار، ١٩٨٣.

٨. معلومات مقدّمة من د. جريبنار D. Grebenard، شخصيًا.

٩. أنظر: R. Tylecote, 'Iron Smelting at Taruga, Nigeria', *Bulletin of Historical Metallurgy* Vol. 9, 1975, pp. 49-56.

١٠. أنظر: R. Quéchon and J. P. Roset, 'Prospection archéologique du massif de Termit (Niger)' (استكشاف للمواقع الأثرية في هضبة ترميت، نيجر)، منشورات المكتب الفرنسي للابحاث العلمية والتقنية لما وراء البحار. المجلّد الثاني، العدد الأول، ص ٩٧ (سلسلة العلوم الإنسانية).

١١. أنظر F. Treinen-Claustre, 'Eisenzeitliche Funde aus dem Nord-Tschad', in R. Kuper (ed.). *Sahara: 10000 Jahre zwischen Weide und Wuste*, pp. 330-3, Cologne, 1978.

١٢. G. Connah, *Three Thousand Years in Africa: Man and His Environment in the Lake Chad Region of Nigeria* (ثلاثة آلاف عام من أفريقيا)، كمبريدج، ١٩٨١ ص. ١٤٦ – ١٤٧

١٣. أنظر: D. Lange, *Chronologie et histoire d'un royaume africain* (تدوين لتاريخ مملكة افريقية)، ڤيسبادن، ١٩٧٧، ص ١٥١ – ١٥٤.

١٤. أنظر: D. Lange and S. Berthoud, 'Al-Qasaba et d'autre villes de la route centrale du Sahara', *Paideuma*, Frankfurt, Vol. 23, 1977, pp. 21-2

١٥. أنظر: T. Garrad, 'Myth and Metrology: The early Trans-Saharan Gold Trade' *JAH* (London/New York, Oxford University Press), Vol. 23, No. 4, 1982, pp. 443-61

١٦. أشار كاتبان إلى حملة عقبة بن نافع إلى كوار: ابن عبد الحكم، **فتوح مصر**، توري، ص ١٩٥، والبكري، **كتاب المسالك**، دي سلان de Slane ص ١٣ – ١٤. بالنسبة للترجمات من العربية انظر:
N. Levtzion and J. Hopkins, *Corpus of Early Arabic Sources for West African History*. Cambridge University Press. 1981

١٧. أنظر: Lange and Berthoud, op. cit., pp. 19-40

١٨. أنظر: T. Shaw, 'Those Igho-Ukwo Radiocarbon Dates: Facts, Fictions and Probabilities' *JAH*, Vol. 16, No. 4, 1975, pp. 503-17

١٩. J. P. and A. Lebeuf, *Les arts Sao, Cameroun, Tchad, Nigeria*, Paris, 1977

٢٠. روعي في عرض التسلسل الزمني «لثقافة دايما» أن يتفق على نحو دقيق مع نظريات كونّاه المتضمنة في كتابه **ثلاثة آلاف عام في افريقيا**، كمبريدج، ١٩٧١، ص ٩٩ – ١٩٦.

٢١. في منطقة دايما، يرجع استخدام الكوتوكو للغة الكانوري إلى بضعة أجيال، وهم يعتبرون أنفسهم الآن كانوريين.

٢٢. كانوا يعرفون، في القرن الثالث عشر، باسم المكاريين، وهو الإسم الذي يطلقه عليهم الكانوريون حتى الآن.
أنظر: D. Lange, 'La région du Lac Tchad d'après la Géographie d'Ibn Saïd', *Annales Islamologiques*, Vol. 16, Cairo, 1980, pp. 149-81.

٢٣. أنظر: T. GARRET، المرجع سالف الذكر.

المجتمع منذ أواخر العصر البيزنطي حتى عشية الفتح العربي

بوللو ــ بي كواهي

مقدمة

رسّخ التدوين التاريخي التقليدي الفكرة القائلة بأن التطور الماضي لمنطقة شمال افريقيا لم يكن سوى سلسلة من الغزوات الأجنبية المتعاقبة ، فكتب أ. ف. جوتييه يقول : «من المستغرب حقًّا أنه لم يحدث قط أن كان المغرب الكبير يملك زمام أمره. ومهما أوغلنا في التنقيب في ماضيه ، فلن نصادف سوى حلقات متتابعة من السيطرة الأجنبية»[1]. وقد شاع هذا الرأي إلى حد أننا نخرج من معظم كتابات المؤلفين الفرنسيين بانطباع مؤدّاه أن أهل شمال افريقيا ظلّوا مجرّد متفرجين يتابعون الأحداث التي تجري على أرضهم. فالسكان الأصليون لهذه المنطقة ينكر عليهم – على سبيل المثال – الحق في أن يكون لهم تاريخ خاص بهم ، إذ يعتقد أن «هذا الجنس الذي يتمتع بحيوية لا يكبح جماحها ، يفتقر إلى **الفردية الايجابية**»[2]. إن الجانب الأكبر من كتبنا المدرسية يقتصر في بحثه لتكون المجتمعات في شمالي أفريقيا القديمة ، على مجتمعات المدن الإستعمارية وسكانها الذين اصطبغوا بالصبغة الرومانية بدرجات متفاوتة. وفيما خلا ذلك ، ليس هناك سوى إشارات عارضة إلى حركات تمرّد البربر المستقلين التي تظهر وكأنما لم يكن لها أي تأثير على مجرى التاريخ. ومن ثم ، فقد طرح البعض سؤالاً له ما يبرّره وهو : هل «أغفل التاريخ»[3] أولئك البربر المستقلين الذائعي الصيت؟

وسعيًا إلى تصحيح هذا الإنطباع غير الصائب ، استرعى ج. كامبس الإنتباه منذ فترة غير بعيدة ، إلى الطابع الدائم لوجود البربر. ولكن إذا كان وجود البربر متواصلاً حقًّا على امتداد تاريخ شمالي افريقيا بكامله ، فهل يكون من الصواب التحدّث عن البربر على اعتبار أنهم «بلا تاريخ» حسبما يوحي به العنوان الفرعي لذلك الكتاب الشائق[4] الذي ألّفه ج. كامبس؟ ومن ناحية أخرى هل نحن على ثقة من أنه طوال القرون التي شهدت على سبيل المثال عصور الإحتلال البوني والروماني والوندالي والبيزنطي ، كان ثمة انقسام واضح بين «البربر الذين احتفظوا بهويتهم البربرية ، والبربر الذين أصبحوا رومانيين»[5]؟ إننا مقتنعون ، على أية حال ، بأن أية محاولة لاتخاذ موقف قاطع ازاء مسألة تقتضي التنبه إلى فوارق دقيقة ، يمكن أن تعمينا عما يتّسم به الوضع الفعلي من طبيعة بالغة

التعقيد. وعلى حدّ تعبير ب. فيدال – ناكيه، فإن افريقيا الشمالية قد تحوّلت من مجتمع تتفاوت فيه أوضاع الأفراد ابتداءً من المنزلة العليا للرومان وانتهاءً بالمنزلة الدنيا للبربر، إلى مجتمع أضحى فيه التعارض بين هذين الطرفين أقل وضوحًا وأقل حسمًا.

والحق أن روما لم تخلف لبيزنطية، بعد هزيمة الوندال، مجتمعًا ذا قطبين، بل أورثتها مجتمعًا متعدّد الأقطاب تعيش فيه، جنبًا إلى جنب، أقوام متباينة الأصول والثقافات، كما يزخر بأوجه الإختلاف الدقيقة. ذلك هو المجتمع الذي ورثه جستنيان. كان مجتمعًا متنوّع العناصر تختلف فيه المصالح ويضم رومانيين وافريقيين اصطبغوا بالصبغة الرومانية بصورة كاملة أو جزئية، وبربر يعيشون داخل حدود المستعمرات الرومانية وخارجها ولا يندمجون في المجتمع، فضلاً عن الوندال، الذين كانوا قد هزموا مؤخرًا وأرادت السلطات البيزنطية أن تصبّهم في القالب الروماني. وحين يتكون السكان من عدة مجموعات متميزة، يصير مجال المناورة محدودًا بعض الشيء، وفي مثل هذه الظروف تزداد صعوبة انتهاج سياسة تجديد أو إصلاح تقتضي اتخاذ تدابير جذرية.

وكان طموح جستنيان، ذلك المواطن الإلّيري الذي اعتبر نفسه وريث التقاليد الرومانية، هو أن يعيد مجد امبراطورية أباطرة روما العظاء بإعادة توحيد أراضيها وإحياء تقاليدها. وتتضمن ديباجة الدستور، التي تعبّر عن أيديولوجية الإمبراطور، عدة إشارات إلى هذه الرغبة في العودة إلى التقاليد القديمة والى إرث الاباطرة من أوغسطس إلى دقلديانوس. وكانت هذه الدوافع نفسها هي الركيزة التي استندت اليها سياساته الداخلية، سواء فيما يتّصل بإعادة تنظيم الحكم المركزي أو حكومات الأقاليم أو العلاقات مع الكنيسة. إلاّ أن تطلع بيزنطية إلى خلافة روما في افريقيا قد اصطدم بعقبة تمثّلت في تباين العوامل الجغرافية والعناصر السكانية. فلم يكن بمقدور بيزنطية أن تتجاهل التأثير المتفاوت للثقافة الرومانية على القارة الأفريقية، ولا أثر الإحتلال الوندالي الذي دام قرنًا من الزمان. لقد تسبّب مجيء الوندال في تفكّك أنظمة إقليمية سالفة كما أدّى بوجه خاص إلى اختلال النظام الاجتماعي الذي ساد إبّان العصر الروماني. وكانت سياسة «الرومنة» قد شجّعت الإنقسامات بين السكان، وعزّزت ما حظي به الرومانيون الأصليون وأولئك الذين حصلوا على المواطنية الرومانية من امتيازات بإزاء الأقوام الأصليين. وسعى الإستعمار الوندالي إلى تحقيق التجانس بين جميع القطاعات السكانية في افريقيا بإعادة النظر في كل الحقوق القائمة وخفض الصفوة، الى مستوى عامة الشعب. وبذلك بذر هذا الإستعمار بذور الوعي الوطني وكان عامل توحيد قوي كما أسهم إسهامًا جوهريًا في تعزيز نهضة البربر.

كان هذا هو حال المجتمع الافريقي عند مجيء الغزاة البيزنطيين. ولكن بصرف النظر عن المشاكل التي عانى منها هذا المجتمع أثناء تطوره، فهناك ثمة إجماع على أن ليبيا كانت تنعم بالرخاء الاقتصادي. ويقول كوريبّوس في بداية الكتاب الثالث من Iohannis : «كم كانت افريقيا

مزدهرة ، يا رفاقي ، حين وصلنا اليها ... »

«فعلى الرغم من ألوان العذاب الذي أذاقها جيلامير البغيض للافريقيين وما أشاعه هذا الأمير الظالم من خراب ودمار ، كانت أفريقيا لا تزال محتفظة برونقها حين أخضع بليساريوس العظيم مدينة الصيدانيين (الفينيقيين)... ولم تكن افريقيا أقل ازدهارًا بعد أسر الملك وإقرار السلام. وحين غادرْت ليبيا كانت تنعم بالثراء والنمو الملحوظ ، وظلّت بعد رحيلي على نضرتها السابقة إن لم تكن قد ازدادت بهاء. إنني أقول ، وذاكرتي لا تخونني ، إنها كانت بلادًا خصبة وفيرة المحاصيل ، تطالع المرء فيها أينما ذهب أشجار الزيتون بثمارها النضرة ، والكروم التي تتدلّى منها العناقيد المكتنزة بالرحيق»[٦].

ويعزّز بروكوبوس ، وهو أيضًا شاهد عيان ، هذا الإنطباع بالثراء والوفرة ، إذ يقول : «إنها أغنى المناطق على الإطلاق ، فهي تنتج كل ما يوفّر أسباب الحياة»[٧].

ويبدو أن الحبوب الغذائية وأشجار الفاكهة وبساتين الكروم كانت تملأ صفحة الأرض التي طالعت الغزاة البيزنطيين حين قدموا إلى شمال افريقيا واستقروا فيه. ويقول بروكوبوس أنه شاهد في الرقعة الممتدة ما بين قرطاجة وسوسة «أجمل ما رآه من البساتين».

وحين يُنظر إلى الغزو الوندالي من هذه الزاوية ، يتعذّر حصره في إطار المذابح وأعمال السلب والنهب وإشعال الحرائق وإشاعة الإرهاب. كما يبدو عندئذٍ أن ذكر الدمار الذي لا يزال حتى يومنا هذا مقترنًا باسم الوندال ، ليس بالأمر المسوغ تمامًا. بل إن العكس هو الصحيح إذ تتفق جميع المصادر في الإلقاء على عاتق الإدارة البيزنطية بتبعة ما أصاب ليبيا من تدهور اقتصادي واجتماعي. ومن وجهة النظر الإجتماعية ، يبدو أن التردي يرجع إلى عهد جستنيان على الرغم من الدعاية الإمبراطورية التي تحملنا على الإعتقاد بعكس ذلك. ومن الواضح ان بروكوبوس لم يأخذ بالمعلومات الرسمية في عرضه للمحنة المؤسفة التي ألمّت بافريقيا وما ترتّب عليها من اضطرابات ، فهو يقول :

«الواقع أنه بعد هزيمة الوندال ، لم يفعل جستنيان شيئًا كي يحكم سيطرته على البلاد ، وكان يمارس إدارته لأفريقيا من بعيد ويمعن في استنزافها وسلبها كما يحلو له. لقد أوفد موظفين حكوميين لتقييم الأرض وفرض ضرائب باهظة لم تكن موجودة من قبل واختص نفسه بأفضل الأراضي. كما حظر على الأريوسيين أداء شعائرهم الدينية ، وتوانى في إرسال التعزيزات ودأب على معاملة الجيش بغلظة: وقد نتج عن ذلك كلّه ظهور المشاكل التي أفضت إلى كوارث كبرى»[٨].

ان هذه الفقرة المقتبسة من كتاب *Historia Arcana* تكشف ، بايجاز ، وربما مع قدر كبير من المبالغة ، عن الخطوط العريضة للسياسة البيزنطية في شمال أفريقيا : فرض ضرائب جديدة ، إعادة التشدّد الديني ، تعديل تشريعات الأراضي ، العلاقات مع القبائل الخ...

صعوبات الإصلاح الريفي

إن الخصائص التي تميزت بها إدارة الأراضي في أفريقيا خلال الفترة الرومانية معروفة ، فقد انتزعت روما ملكية أراضي القبائل أو أراضي الأسر البربرية ، وسلمت هذه الأراضي إلى المهاجرين. وتحول الملاك السابقون لهذه الأراضي إلى عمّال زراعيين يعملون في فلاحتها ، أو اكتفوا بالعيش في أجزاء منها غير صالحة للزراعة ، أو اضطروا إلى الخروج منها نهائيًا . وكانت أراضي القبائل تؤول إلى الإمبراطور أو الكنيسة أو الأثرياء من الأفراد.

وفي ظلّ سيطرة الوندال ، تغيّر وضع الأرض في المناطق الريفية تغيّرًا كاملاً. فقد نزع الغزاة ملكية أصحاب الأرض الرومانيين الذين تحوّلوا في معظم الأحيان إلى العيش كأقنان على الأرض التي كانوا يمتلكونها ، شأنهم شأن خدمهم الافريقيين السابقين. واقتطع ملك الوندال أراضيه من أراضي الأرستقراطيين الرومان. كما آلت ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية إلى خصومها الأريوسيين.

وكان للإصلاح الريفي في هذه الحالة هدف واحد هو أن تعود إلى الكنيسة وإلى الطبقة الأرستقراطية الرومانية الأراضي التي انتزعها منهما الوندال. وعلى ذلك انتقلت الأراضي التي تمّ الإستيلاء عليها من الجنود الوندال إلى الأموال العامة أو القطاع الخاص واستولى الإمبراطور البيزنطي على ممتلكات الملوك الجرمانيين ، أما أصحاب الأراضي من السكان الأصليين فقد جرّدوا من ملكيتهم باسم جستنيان.

كذلك يشكّل الوضع الجديد للأفراد موضوعًا لدراسة شائقة. فقد دفع الوجود الوندالي عددًا كبيرًا من الأقنان والعمال الزراعيين إلى ترك ضياع سادتهم الإقطاعيين لكي يعيشوا حياة الأحرار أو يصبحوا كهنة في الكنائس، الأمر الذي كانت له عواقب وخيمة على الإنتاج الزراعي. وهكذا كان الإصلاح يعني أيضًا بالنسبة للملاك أن يعود الهاربون إلى الأرض التي هجروها. واتسع نطاق مطالبهم لتشمل أيضًا أبناء خدمهم السابقين ، الذين ولدوا بعد قرار آبائهم. وكانوا يسمحون للأقنان الذين هجروا الأرض قبل وصول الجيش الإمبراطوري بأن يظلوا أحرارًا ، ويوافقون على أن يبقى في الكنيسة من لجأ اليها من الأقنان. وقد نص القانون الصادر في عام ٥٣٣ على أن يكون الابن الذي يولد لأب من الأقنان وأم حرة إنسانًا حرًّا ، على حين كان القانون القديم يطبّق بكل ما ينطوي عليه من صرامة على الأقنان الذين هربوا بعد الغزو البيزنطي.

وقد أثارت هذه التدابير التحررية غضب أصحاب الأراضي الذين كانوا يشهدون نزوحًا مطردًا من المناطق الريفية. وحملت شكواهم الإمبراطور على إدخال بعض التعديلات على تدابيره فأصدر قانونًا يقضي باعتبار الإبن الذي يولد لأب من الأقنان وأم حرّة إنسانًا حرًّا على أن يظل مرتبطًا بالأرض التي يعيش عليها والده. وذهب خلفاء جستنيان إلى ما هو أبعد من ذلك فأعادوا العمل

بالقانون الروماني القديم. وقد استند جستين الثاني وتبيريوس في تبرير ما اتّخذاه من تدابير في عامي ٥٧٠ و ٥٨٢ إلى «(ضرورة) الإستمرار في زراعة الأرض».

وكان من المحظور التصرّف في أراضٍ مملوكة للكنيسة سواء بالبيع أو الهبة أو المبادلة. وكان للعاملين في هذه الأراضي وضع معترف به اعترافًا كاملاً بموجب القانون.

وفيما يتعلّق بفرض الضرائب، ينبغي الإشارة الى جشع جباة الضرائب البيزنطيين ولجوئهم إلى ابتزاز الأموال بالاكراه، إذ كان هدفهم الرئيسي هو امداد القسطنطينية بالقمح والزيت، وجباية الضرائب أكبر مما كان يفرضه الوندال، الأمر الذي جعل الأهالي يتحسرون على رحيلهم.

وقد اقترن إخفاق الإمبراطور في فرض نظام جديد بإخفاق مماثل في المحافظة على الوحدة الدينية التي كانت إدانة الآريوسية قد أعادتها لبعض الوقت. فلئن كان البيزنطيون قد قضوا على مذهب واحد من مذاهب الكفر، فقد حلّت محلّه ثلاثة مذاهب أخرى، هي مذاهب النسطوريين والتوحيديين والقائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح، مما أدّى إلى تجدّد الشقاق في اجتماعات المجمع، وإلى معارضة حادة لسلطة الإمبراطور والبابا وإلى تفشي الإضطهاد.

إن الوصف الوارد في كتاب *Historia Arcana* ليس وصفًا مبالغًا فيه بأي حال من الأحوال، فسرعان ما ظهرت عواقب التدابير غير المتسقة التي اتّخذها الإمبراطور إذ تسبّبت في إثارة السخط واذكاء روح التمرّد في كل مكان. وقد خلّف لنا المؤلّفون المعاصرون كتابات مفيدة، تتفق جميعها على أن الأرض التي نعمت فيما مضى بالازدهار والرخاء، قد حل بها الفقر وأخذت تخلو من سكانها نتيجة تعرّضها لغارات السلب والنهب المستمرّ من جانب السكان الأصليين للمغرب. كما يصف كوريبّوس المعاملة المهينة التي لقيها الافريقيون الذين كانوا يكبلون بالسلاسل ويساقون إلى الأسر عبر بلد لحق به الخراب. فقد أحزن هذا الشاعر وآلمه أن يرى «ثلث العالم، أن افريقيا بأسرها، يتهاوى وسط ألسنة اللهب وأعمدة الدخان»[٩].

وأخذ التمرّد – الذي لم يتوقّف قط في حقيقة الأمر – يندلع في كل مكان. ويمكن الإشارة إلى بعض حركات التمرّد الخطيرة التي شكّلت علامات بارزة في تاريخ السيطرة البيزنطية على ليبيا. لقد شهد عام ٥٣٤ بداية الغارات القبلية على مدن في بيزاسينا ونوميديا. وأضحت جبال الأوراس ملاذًا للمتمردين من مختلف المناطق، على حين أدّت حركات التمرّد في الجيش، التي ساندها البربر، والخصومات بين القادة البيزنطيين إلى اضعاف القوات الامبراطورية. وتفاقمت خطورة الوضع بعد وفاة جستنيان في عام ٥٦٥. وتمكن جارمول من احراز انتصارات باهرة، على الرغم مما اتخذ من تدابير إدارية لتعزيز القوة العسكرية. وفي عام ٥٩٥ كانت قرطاجة قد سقطت تقريبًا في أيدي المتمردين. ولما كان حاكم افريقيا متمتعًا بمساندة مجموعات بربرية كثيرة، فقد نصّب نفسه إمبراطورًا في عام ٦٤٦، وأنشأ جيشًا من الافريقيين.

وهكذا تبيّن الأحداث أن حركات المدّ والجزر في حياة ليبيا البيزنطية كانت ترتبط بحركات قبائل البربر الرئيسية.

مشكلة القبائل الافريقية

لم تكن القوانين البيزنطية قاصرة على البربر الذين اصطبغوا بالصبغة الرومانية، ولا بدّ أن يكون واضحًا أن هؤلاء البربر كانوا لا يمثلون بالتأكيد شعب البربر في جميع بلدان شمال افريقيا. فلا ينبغي، في حقيقة الأمر، الخلط بين الحدود الرسمية والحدود الفعلية في الأقاليم. لقد كان هذا الخلط مثار الخلاف الرئيسي بين الرومانيين والبربر. فلم تكن مسألة الحيازة القانونية للأرض واردة بالنسبة للبربر، بصرف النظر عن طبيعة السلطة المركزية. وكان حاكم البربر يعتبر الأرض أقل أهمية من الأقوام التي تسكنها، ولم يكن نظام البربر يقيم وزنًا الاّ للعلاقات الفردية، إذ كانوا يعتقدون أن التحالف يُعتبر أمرًا شخصيًا وينشئ صلة لا تربط بين دولتين بل تربط بين فردين، وأنه لا يجب أن ينال، بأي حال من الأحوال، من حرية المرور. إلاّ أن الرومانيين كانوا يمارسون السيطرة على السكان وعلى الأرض في آن واحد. وفضلاً عن ذلك كان يوجد شعبان، شعب يمقت حياة البداوة، وشعب يحرص أشدّ الحرص على حريته. وكان هذا الأمر مصدرًا لمنازعات كثيرة مع روما. وفي فترة سيطرة الوندال، الذين لم يستولوا على جميع الأراضي مثلما حدث في ظلّ السيطرة الرومانية، استعاد البربر حرية حركتهم. بيد أن الإدارة البيزنطية، جريًا على التقاليد الرومانية الأصلية، كانت تريد العودة إلى سياسة المناطق السكنية المحدّدة ومصادرة الأراضي المشاع، ومن هنا نشأ خطر اندلاع منازعات سافرة مع البربر الذين كانوا لا يفتأون يزدادون قوة.

وخلال الفترة التي ضعفت فيها شوكة السلطة الرومانية، كانت القبائل قد استعادت استقلالها الكامل وأقامت ممالك قوية. وقد نشأت هذه الممالك فيما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين، فأقيمت في بادئ الأمر بمحاذاة الولايات الرومانية، ثم على الأراضي التي كان الرومانيون يحتلونها من قبل ولم يحتلها الوندال. ومن ثم فقد كانت هذه الممالك متاخمة لدولة الوندال. وكان هناك نحو اثنتي عشرة مملكة ورد ذكرها في مصادر شتى، إلاّ أننا سوف نصب اهتمامنا على أربع ممالك من بينها هي ممالك فولوبيليس ووهران وأوراس ونوميديا. وكانت كل مملكة من هذه الممالك تتكوّن من تجمّع أو اتحاد لقبائل حمل رئيسها اسم الملك (Rex) أو حتى الامبراطور (Imperator). وسبق أن عرفنا كيف أدّى الوجود الوندالي إلى اندماج الرومانيين بعض الشيء مع عامة السكان الأفريقيين. وكان وجودهم بين البربر عاملاً بالغ الأثر في تحقيق التقدّم والوحدة والوعي الوطني. وأصبح عدد كبير منهم قادة سياسيين إقليميين ونظموا حركة مقاومة للسلطة البيزنطية بعد أن قضوا فترة في خدمة الجيش

الإمبراطوري. وهناك مثال واضح على ذلك، هو ماسونا، ملك وهران، الذي أعلن أنه ينتسب الى الرومانيين والمغاربة على السواء: «ملك المغاربة والرومانيين» (Rex gentium maurorum et romanorum) وقد اقتدى في تنظيمه الإداري بالتنظيم الإداري للرومانيين وعيّن ولاة وحكامًا عهد اليهم بحكم المدن. كما نجد مثالاً شائقًا آخر في هذا السياق، هو الإمبراطور ماستييس، الذي حكم مملكة أوراس في النصف الثاني من القرن الخامس قبل أن يستولي عليها يابداس (ياوداس) في بداية الإحتلال البيزنطي[١٠]. ويقول ماستييس في البيان الذي نشر بعد وفاته: «لم يحدث قط أن حنثت بيمين ولا أن نكثت بعهد، سواء مع الرومانيين أو مع المغاربة».

وأخيرًا، يمكننا أن نذكر قائدًا مثل انتالاس الذي كان برغم تمرّده لا يجد غضاضة في التذكير بأنه سبق أن خدم في صفوف الجيش البيزنطي: «أراكم تتحدّثون بأسلوب غريب عن صداقتكم لي. ألم أكن بدوري صديقًا لكم؟ أفلم أحارب تحت قيادتكم؟ أولم أقاتل أيها الرومان تحت امرة قادتكم؟»[١١].

وكان هؤلاء الزعماء المحنكون الذين ترأسوا اتحادات قبلية قوية، هم الذين وقّعت معهم السلطات البيزنطية اتفاقات تضمن حسن الجوار. وكانت العلاقات بين القبائل والسلطة الإمبراطورية محكومة باتفاقيات بالغة الدقة. فقد جرت في بادئ الأمر مفاوضات تمّ في أعقابها توقيع معاهدات تحالف نصّت على التزامات محدّدة لكل من الطرفين. فقد تعهّد البربر، على سبيل المثال، في المعاهدة المبرمة بين البيزنطيين وقبيلة الأستريس بأن يلزموا الهدوء وأن يعيشوا في سكينة تحت حماية الإمبراطور.

أما بيزنطية، فقد وهبت النواب هدايا كثيرة ومنحت ملك البربر الشارة التي ترمز إلى السلطان. وكان التابع يكافأ على إخلاصه وأمانته بمنحه رتبة بين الوجهاء البيزنطيين، فيمكنه بذلك أن يقود فصيلة من القوات النظامية وأن يحمل لقب قائد عسكري أو شريف روماني. وكان عليه أن يتولى قيادة الفرق الافريقية التي يتمّ جمعها من منطقته لكي تخدم في الجيش الإمبراطوري. كما كان يعيّن له حرّاس من الجنود اليونانيين. وفضلاً عن ذلك، تعهّد الإمبراطور بأن يدفع لهؤلاء القادة اعانة مالية سنوية *Annona* كانت قيمتها محدّدة رسميًا. وتعهّد الأمير الافريقي في مقابل ذلك بتقديم خدمات عسكرية وأصبح هو المسؤول عن ضمان السلام في أراضيه وعن صون النظام والهدوء في شتى أرجاء ناحيته.

وكان البيزنطيون يرون أن هذا النوع من المعاهدات يخوّلهم حق التدخل في شتى جوانب حياة القبائل ورؤسائها. ومن ثم كانت السلطات البيزنطية تعمل على أن تظلّ القبائل في حالة خضوع كامل كما كانت تتدخل بصورة متزايدة في شؤونها الداخلية، وقد أخذت على عاتقها أمر تنظيم الصلات التجارية بين هذه القبائل وغيرها، ومع العالم الخارجي، وحدّدت للقبائل، التي كانت تعيش في مساحات معيّنة بوضوح، جزءًا من الأرض تقوم بفلاحته.

التطوّر الديني

كانت الروابط الدينية هي العنصر الذي حقّق الاكتمال للنظام الذي أرساه جستنيان. فقد أعلن جستنيان أنه «لا يرغب فحسب في ضمان سلامة الأبدان، بل يريد أيضًا خلاص الروح»[١٢].

إلاّ أن المسيحية كانت قد تراجعت أمام الوثنية. وفي القرن السادس الميلادي كانت واحة أوجيلة أشهر مركز للتبشير في شمال افريقيا. وكان الليفاثيس Levathes يعبدون الإله جرزي Gurzi، الذي كان كاهنه الأكبر هو الملك يرنا. وكان إلهًا مقاتلاً تقدّم له الأضاحي والذبائح. كما كانت ثمة قبائل وثنية في بيزاسينا Bezacena، وقد سعى جستنيان إلى محاربة الوثنيين بنفس الطريقة التي حارب بها الأريوسيين والدوناتيين واليهود. كما كانت سياسته تهدف إلى استيعاب الرعايا، وقد بذل قصارى جهده في سبيل نشر المسيحية بين القبائل التابعة له.

وما لبثت هذه السياسة أن آتت ثمارها في افريقيا. فقد انتشرت المسيحية بسرعة فائقة وتجاوزت حدود المستعمرات الرومانية لتتأصل في واحات الصحراء الكبرى. وإذا كانت عبادة آمون قد ظلّت قائمة في واحة أوجيلة، فقد وجدت إلى جانبها عندئذٍ كنيسة مسيحية. واقترنت العلاقات الطيبة التي كانت السلطات البيزنطية تقيمها مع الجارامنت لنشر المسيحية. وسن ثم فقد اعتنق الجارامنت في فزان المسيحية في عام ٥٦٩ بعد أن عقدوا معاهدة مع الإمبراطورية. وهناك مثال آخر هو قبيلة ماكوريت Maccuritae التي كانت تعيش في مرتفعات وارسنيس Ouarsenis والتي اعتنقت بدورها المسيحية. وفي القرن السابع الميلادي تخلّت قبائل منطقة سبراطة بصفة نهائية عن الوثنية واعتنقت المسيحية.

خاتمة

إن النجاح الذي حقّقته المسيحية ينبغي ألا يجعلنا نغفل حالات الإخفاق الكثيرة لبيزنطية في البلدان الافريقية. لقد كانت بيزنطية تتطلّع إلى أن تصبح وريثة روما، إلاّ أنها لم تتمكن قط سن استعادة جميع أراضي الأباطرة الرومانيين في ليبيا. وكانت تزعم أنها ناقلة الثقافة الرومانية، بيد أن هذه الثقافة لم تخلّف سوى آثار سطحية. والسياسة الخرقاء التي انتهجتها بيزنطية ازاء القبائل، كانت نتيجتها الوحيدة هي إثارة العداء والمقاومة الضارية. كما تعرّضت سيطرتها السياسية لعدّة تقلّبات، على حين أخذت أراضيها في التقلّص والإنكماش بدءًا سن القرن السابع الميلادي. وكان البيزنطيون يعيشون في سائر الأراضي في حالة تأهّب مستمرّ ويسارعون ببناء الحصون الضخمة، مما أعطى انطباعًا بأنهم غزاة أصبحوا محاصرين في الأراضي التي فتحوها. وفي اعتقادنا أنه كان لوجودهم جانب مفيد واحد هو

أنه تسبّب في تحقيق الإندماج بين الصفوة والعامة من الافريقيين مما أدّى إلى ظهور احساس بالإنتماء الى وطن واحد. ومن هنا كان لا بدّ للحكام البيزنطيين – وهم يواجهون انتفاضات القبائل سواء داخل المستعمرات أو خارجها، والعداء المستتر من جانب شعب سُلِبَ ممتلكاته، وتمرّد اتباع المذاهب الدينية المنشقة – أن يسقطوا فريسة سهلة في أيدي القوات العربية حين هاجمتهم في عام ٦٤٧.

الملاحظات

١. E. F. Gautier, *Le passé de l'Afrique du Nord,* Paris, Payot, 1952, p. 24
٢. المرجع السابق، ص ٢٥.
٣. على حدّ تعبير J. Vignet-Zung
٤. (البربر، على هامش التاريخ) G. Camps, *Berbères. Aux marges de l'histoire,* Toulouse, Editions Hesperides, 1981.
٥. C. Courtois, *Les Vandales et l'Afrique,* (الوندال وافريقيا) p. 112, Paris, AMG, 1955.
٦. Corippus, *La Johannide (Iohannis),* Book III, pp. 27 ff. (trans. by J. Alix in *Revue Tunisienne,* Vol. VI, 1899, p. 453)
٧. Procopus, *De Bello Vandalico,* p. 423 (quoted by C. Diehl, *L'Afrique byzantine,* pp. 400-1, Paris, Leroux, 1896)
٨. Procopus, *Historia Arcana,* pp. 106-7 (quoted by Diehl, op. cit., pp. 382-3)
٩. Corippus, op. cit., p. 149
١٠. (شمال افريقيا في العصور القديمة) Cf. M. Fantar and F. Decret, *L'Afrique du Nord dans l'Antiquité,* p. 344, Paris, Payot, 1981.
١١. Cf. 'La Johannide', *Revue Tunisienne,* Vol. VII, 1900, p. 114.
١٢. Cf. Diehl, op. cit., p. 333.

المراجع

المصادر

CORIPPUS. *La Johannide (Johannis).* French translation in *Revue Tunisienne,* No. V, 1899; No. VII, 1900; No. VIII, 1901; and No. IX, 1902.
PROCOPUS. *De Bello Vandalico.* Ed. de Bonn.
—. *Historia Arcana.* Ed. de Bonn.

اعمال اخرى

BENABOUS, M. *La Résistance africaine à la Romanisation*. Paris, Maspero.
CAMPS, G. *Berbères. Aux marges de l'histoire*. Toulouse, Éditions Hesperides, 1981.
COURTOIS, C. *L'Afrique du Nord*. Paris, Presses Universitaires de France, 1949
DESANGES, J. *Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique à l'Ouest du Nil*. Dakar, 1962.
DIEHL. C. *L'Afrique byzantine. Histoire de la domination byzantine en Afrique*. Paris, Leroux, 1896.
FANTAR, M.; DECRET, F. *L'Afrique du Nord dans l'Antiquité*. Paris, Payot, 1981.
GAUTIER, E. F. *Le passé de l'Afrique du Nord*. Paris, Payot, 1952.
PRINGLE, Denys. *He defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest*, Oxford, British Archaeological Reports, 1981.

محضر موجز لأعمال الندوة

حضر الندوة الخبراء التالية أسماؤهم : الأساتذة مصطفى كامل عبدالعليم (مصر) ، ب. بيرنز (جمهورية ألمانيا الاتحادية) ، ك. بولّو – بي (ساحل العاج) ، ف. شامو (فرنسا) ، السيدة م. كورنفان (فرنسا) ، عبدالله المسلمي (مصر) ، فرج الراشدي (الجماهيرية العربية الليبية) ، ب. جادو (النيجر) ، ج. أ. إليفبار (نيجيريا) ، د. لانج (جمهورية ألمانيا الاتحادية) ، أ. لاروند (فرنسا) ، ف. موري (ايطاليا)، ج.ب. روزيه (فرنسا).

ووجهت الدعوة إلى خبيرين اعتذرا عن الحضور ، وهما الاستاذ أحمد حسن غزال (مصر) والأستاذ ي. ك. بوبلنسكي (اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية).

ولم يرد على الدعوة الخبراء التالية أسماؤهم : الأساتذة س. م. دانيلز (المملكة المتحدة) ، رجب الأثرم (الجماهيرية العربية الليبية) ، م. الكواش (الجماهيرية العربية الليبية) ، م. ت. جراري (الجماهيرية العربية الليبية) ، ت. سليمان (الجماهيرية العربية الليبية) ، ب. أ. وارمنجتون (المملكة المتحدة).

كما شارك في المناقشات أعضاء اللجنة العلمية الدولية التالية أسماؤهم : الأساتذة ج. ديفيس (فرنسا مقرّر هيئة المكتب) ، شيخ أنتا ديوب (السنغال) ، محمد الفاسي (المغرب – المشرف على تحرير المجلّد الثالث) ، أ. س. الحرير (الجماهيرية العربية الليبية) ، أ. هربك (تشيكوسلوفاكيا – أحد المشرفين على المجلّد الثالث) ، د. لايا (النيجر – نائب رئيس هيئة المكتب) ، جمال مختار (مصر – المشرف على تحرير المجلّد الثاني) ، ج. فانسينا (بلجيكا – نائب رئيس هيئة المكتب).

ومثل أمانة اليونسكو : السيد أ. أرفودسون ممثل المدير العام ، السيد أ. باكالسيوجلو ، السيد م. جليله ، السيد أ. ك. كاتوكي ، السيد م. ف. لنجيه.

وقد افتتح الندوة السيد أرفودسون في الساعة العاشرة سن صباح يوم ١٦ يناير / كانون الثاني ١٩٨٤ . واختارت الندوة هيئة مكتب لادارة العمل تشكّلت سن : الدكتور جمال مختار ، رئيسًا ؛ الدكتور أ. س. الحرير والأستاذ د. لايا ، نائبين للرئيس ؛ الأستاذ ج. ديفيس ، مقررًا.

ملخص مناقشات الندوة

الموضوع الأول : الاستقرار أو التغيّر البيئي قبل الفتح العربي ، نظم الري والنشاط الاقتصادي

كان البحثان المقدّمان من الأستاذين أ. لاروند و ر. الأثرم هما المنطلق الذي بدأت منه مناقشات هذا الموضوع.

الاقتصاد الليبي في سياق أفريقي من القرن الأول إلى القرن السابع الميلاديين

ساعدت البحوث في جنوبي إقليم طرابلس ، والتي تجري جزئيًا بمساعدة اليونسكو ، على إلقاء أضواء جديدة على أوضاع الإنتاج. وليس هناك ما يدل على أن جفاف الصحراء الكبرى كانت له آثار بالغة الضرر على الظروف البيئية خلال عدة قرون. فالجزء الشمالي من ليبيا يقع في نطاق يتراوح فيه منسوب الأمطار السنوية بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ملليمتر وهو ما يعني توافر امكانات الزراعة وان أعوزها الثبات بدرجة أو بأخرى.

وقد نفذت في الأودية قبل الإحتلال الروماني ، مشروعات كبرى للري : فقد اكتشف علماء الآثار آبارًا وتكسيات للمحافظة على التربة واستغلال المنحدرات ، وهو ما أدّى – على الأرجح – إلى تحسين الإنتاج الزراعي لا سيّما من القرن الأول إلى القرن الثالث ، ومع ذلك فإن إنتاج الحبوب لم يكن كافيًا قط لتغذية عدد متزايد من السكان يمكن أن يكون كثيفًا. فقد كانت غلّة خمسين هكتارًا لا تكفي إلاّ خمسين شخصًا. ولم يكن إنتاج الحبوب كافيًا قط بحيث يسد – على سبيل المثال – احتياجات جيش الإحتلال الروماني.

من هنا كان من الضروري توفير امدادات اضافية من الأغذية ، وهذا ما تكفّلت به تربية الماشية ، التي كانت بدوية الى حدّ ما ، وصيد الأسماك على الساحل وزراعة الأشجار. وفي كل حالة من هذه الحالات ، تم تطويع نمط الإنتاج لطبيعة البيئة. وكانت هذه الصورة البالغة التنوّع للانتاج تتّفق مع الحركات الموسمية للمنتجين.

وخلال العصر الروماني ، حدث تغيّر هام في ملكية الأرض في الشمال اذ استولى ملاك ممن شملتهم الرومنة على ضياع زراعية كبيرة. ومن المحتمل أن تكون أنماط الانتاج الجديدة المترتبة على ذلك قد أدّت إلى اضطراب العلاقة مع البيئة إذ ربما تكون قد شجعت على الأخذ بنمط من حياة الإستقرار لا يناسب نظام التكامل الإنتاجي بين المناطق وهو نظام كان قد استقرّ وتوطّد منذ عهد بعيد.

ولا بدّ أن تجري في أماكن أخرى ، ولا سيّما في إقليم برقة وفي الواحات ، دراسات شبيهة بالدراسة التي أُجريت في جنوبي إقليم طرابلس . وكان وراء الأسئلة المطروحة فكرة لم تعالج من قبل بل ولم يسبق طرحها صراحة – وهي أن أساليب الزراعة الرومانية المفرطة الكثافة قد دمّرت التوازن القديم بين الأنشطة الزراعية التي تعتمد على نسق تكاملي للمناطق، وبين الماء والبيئة السريعة التأثر. فمن الواضح أنه قد طرأت تغيّرات على الأنواع الحيوانية نتيجة الإنتخاب المفرط الذي دفع إليه اشتداد طلب حلبات السيرك الرومانية على القطاط الكبيرة ، على سبيل المثال.

أُبدِيَتْ ملاحظتان بشأن الإبل والخيول . وإذا كانت المعلومات الحالية توحي بأن الإبل لم يكن لها وجود واضح قبل نهاية القرن الثالث ، فإن بعض المؤلفات الحديثة تفسح مجالاً للاعتقاد بأن الإبل قد أدخلت الى ليبيا من وادي النيل الأوسط في وقت أقدم بكثير . وما زال الاهتمام يتركّز بطبيعة الحال على الدور الذي لعبته الابل بعد القرن الثاني في تغيير الظروف التي تحكم عبور الصحراء الكبرى .

وقد ظلّت الخيول على امتداد قرون عدة وفيرة العدد في إقليمي برقة وطرابلس وربما ظلّت كذلك إلى وقت جدّ قريب . ولم تحل الإبل محل الخيول . وعلى ذلك تجدر دراسة حركة الخيول نحو الجنوب والشواهد التي تدل على وجود الخيول في جنوب الصحراء .

لقد أمكن بفضل المصادر المكتوبة الحصول على معلومات عن التجارة الليبية على امتداد ساحل البحر المتوسط أوفر من المعلومات المتاحة عن التجارة في الجنوب . وقد انعقد الرأي على أهمية استكشاف مدى صحة الفرضية القائلة بوجود واردات من النحاس المستخرج من منطقة عير بالنيجر ، منذ فترة تعود على الأقل إلى الألف الأولى قبل الميلاد . فالمصنوعات النحاسية والبرونزية لبرقة التي اشتهرت بجودتها معروفة وذائعة الصيت. أما مصدر المعدن فغير معروف.

وبوجه أعم ، من الأمور الجديرة بمزيد من التقصي من جانب الباحثين ، الدور الذي لعبته واحات المناطق الداخلية في التجارة فيما بين بلدان افريقيا .

السيلفيوم

يبدو أن هذا النبات ، الذي ذاعت شهرته بين الإغريق والرومان ، والذي كان يصدر بكميات كبيرة من إقليم برقة ، قد اختفى تمامًا . وربما كان ذلك راجعًا للإفراط في استغلاله .

بعد اكتشاف عدد كبير من التماثيل المصنوعة من الطين النضج ، والتي تمثّل الإلٰهة أرتيمس وهي تحمل في يدها نبات السيلفيوم ، يمكن الآن تقدير طول هذا النبات بما يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ سنتيمترًا . وعلى ذلك لم يعد من الممكن الخلط بينه وبين عدد من النباتات الأخرى التي لا تزال

معروفة حتى الآن بخصائصها العلاجية. وينبغي إجراء بحوث نباتية في المناطق التي كان يجنى منها السيلفيوم بإقليم برقة.

لم يكن هذا النبات يصدّر مباشرة، بل كان يعصر وتخلط عصارته بالدقيق النقي حتى لا تتعرّض للفساد، ثم يصدر بعد ذلك في أوان.

لا تزال المعلومات المتاحة عن الطرق المختلفة لتصدير السيلفيوم ضئيلة. وقد كان يخضع أول الأمر لاحتكار ملكي، ولعلّه أصبح يُباع، بعد تزايد الطلب عليه، بطريقة سرية لا ضابط لها. وما زال هذا الموضوع بحاجة إلى دراسة من مؤرخي اقتصاد العالم القديم.

إن اسباب اختفائه لا تزال مجهولة. فهل اختفى نتيجة لانقراض هذا النوع النباتي نفسه؟ أم اختفى -كما توحي بعض الشواهد- بعد أن طرح في أسواق الاستهلاك نبات بديل أقل كلفة ويؤدّي نفس الوظيفة؟

الموضوع الثاني: إعمار ليبيا القديمة مع تركيز خاص على الليبيين والسيادة الأجنبية قبل الفتح العربي.

ينبغي التنويه بأنه في الفترة السابقة على الفتح العربي كان المؤلفون يستخدمون كلمة ليبيا لتدل على مجموعة من الأراضي تفوق رقعتها كثيرًا الدولة الحديثة التي تحمل هذا الاسم. وكان هذا الإسم يشير في كثير من الأحيان إلى جزء كبير من القارة الافريقية كما كانت تعرف في ذلك الوقت. ولا بدّ أن تكون هذه الحقيقة ماثلة في الأذهان حتى يمكن فهم المناقشة التي أثارتها البحوث المقدمة من السادة عبدالعليم وبرينتز وديوب والفاسي والمسلمي والراشدي وموري وروزيه ووارمنجتون.

نشوء «فرع البربر»

لا تزال شقة الخلاف واسعة في الآراء المطروحة حول هذه النقطة. وما زال البحث بعيدًا عن التوصل إلى حل ينعقد عليه الإتفاق العام.

فهناك رأي يستند إلى اللسانيات وعلم الآثار ويذهب إلى أن البربر - «التمحو» - قدموا من النوبة التي قيل إنهم استقروا بها بعد جفاف الصحراء الكبرى ثم تحرّكوا منها نحو الشمال.

وثمة رأي آخر يشير إلى تسمية «التحنو» التي أطلقها عليهم المصريون منذ عام - ٣٥٠٠ وإلى ارتباطهم الدائم بحياة مصر الفرعونية.

ويذهب رأي ثالث إلى أن الليبيين انحدروا من «شعوب البحر»، وأن اتصالهم بالمصريين يعود إلى عهد المملكة القديمة. وأنهم شنّوا من قواعدهم في غربي دلتا النيل هجمات عنيفة ومتواصلة على العالم الفرعوني بعد عام - ١٢٣٠ ثم استقروا في النهاية على الطرف الغربي لمصر.

ويستند رأي رابع إلى النسّابة الذين استشهد بهم مؤلّفون عرب ، فيدفع بوجود علاقة لليبيين بعصر الملك داود حوالى عام – ١٠٠٠ ، وباليمن.

ولم تحقّق المناقشة سوى بعض النجاح في التوفيق بين وجهات النظر التي كانت شديدة التعارض أول الأمر. وتفترض وجهات النظر هذه التسليم بأحد الفروض التالية :

أ الأصل المتوسطي والهندي – الأوربي لمجموعات أخذت في القرون التالية لوصولها تمتزج بالتدريج لغويًا وثقافيًا وبدنيًا مع مجموع الأقوام الافريقية. ولا يمكن أن يستبعد احتمال انتشار بعض أفراد هذه المجموعات حتى النوبة إبّان المملكة القديمة حتى قبل أن يبدأوا في شن هجماتهم الواسعة على الدلتا.

ب) الأصل الصحراوي ، ثم النوبي (أي عكس المسار الذي يقول به أصحاب الرأي السابق) لشعوب تمارس تربية الماشية ، وترتبطها برعاة افريقيين – آسيويين آخرين أوجه شبه لغوية هامة. وثمة صيغة بعيدة لهذا الإفتراض تقول إن المصريين قد طردوا «الليبيين» من مصر ودفعوهم نحو الشمال فتفرقوا في جهات أخرى من البحر المتوسط.

جـ) الأصل الشرقي لمجموعات تتكلّم لغات سامية قريبة من العربية.

وفيما يتعلّق بالإفتراض الأخير أوضح عديد من المشتركين أن كثيرًا من الشعوب الافريقية قد ادعت لنفسها ، بعد دخولها في الإسلام، أصولاً عربية أسطورية بدرجة أو بأخرى. ومن هنا كانت الدعوة الى توخي الحيطة في دراسة روايات النسّابة.

وكانت النقطة التي انعقد عليها اتفاق (ضمني) هي رفض الفكرة القائلة بأن الليبيين – الذين يقرنون بالتحنو – قد ارتبطوا ارتباطًا دائمًا بحياة المصريين ، إذ دأب المصريون على النظر إلى الليبيين ، وعلى تصويرهم ، كغرباء يختلفون عنهم.

وبغض النظر عن الأحداث التاريخية المقطوع بصحتها ، والتي أظهرت المناقشة أنه ليس من السهل التوفيق بينها وبين الإفتراضات المطروحة (وهي عقبة أخرى تحول دون الأخذ ببعض هذه الفروض) ، فقد تجلّى بوضوح أن إجراء مزيد من البحوث هو وحده الكفيل بحل هذه المسألة بعد دراسات مفصّلة في اللسانيات المقارنة. وهنا أيضًا تثور خلافات حقيقية : فهل كانت «البربرية» لغة مهجنة؟ وهل نشأت في افريقيا أم عن امتزاج عناصر أجنبية بطبقة تحتية افريقية؟ أكانت لغة مشتركة لمربي الماشية ، منتشرة في آسيا وافريقيا؟ أهي لغة ترتبط بصلة القربى بالعربية؟

وقد أعربت اللجنة عن تأييدها للنتائج المنهجية التي خلصت اليها ندوة القاهرة حول «عمران مصر القديمة وحل رموز الكتابة المروية» (١٩٧٤) ، دون أن تخرج عن نطاق هذه النتائج ، وقد تدعو الحاجة إلى التوصية باجراء دراسات جادة في مجال اللغويات وأسماء الأماكن.

وقد طرح مع ذلك خط جديد للبحث وهو دراسة ما كان يستخدمه الليبيون من معادن

لصنع أسلحتهم التي تذكر المصادر أنها كانت وفيرة. وسيكون من المفيد اجراء بحوث معملية على الذهب والنحاس لتحديد أصل المعادن المستخدمة.

واقترح مؤلّفو ثلاثة بحوث نهجًا آخر يقوم على **دراسة الآثار**.

ويقوم أحد هذه البحوث على إجراء دراسة مقارنة – على أوسع نطاق ممكن – لأشكال الدفن وشواهد القبور والصروح الجنائزية للجارامانت. ويسعى المؤلف إلى تحديد الرقعة الجغرافية التي عاش فيها هذا الشعب، وفترة استمرار عادات الدفن هذه وتتابعها الزمني إن أمكن. وهو يقترح أيضًا مقارنة قبور الجارامانت بالقبور الموجودة في جهات أخرى بالصحراء الكبرى، وفي شمال افريقيا وفي وادي النيل (ولا سيّما مروي). ويطرح المؤلّف افتراضه باحتراز بالغ. فنهجه يندرج في إطار النمط العام للبحوث التي يجريها الآن كل علماء ما قبل التاريخ المتخصصين في الصحراء الكبرى، وهي بحوث لم تتوصل بعد إلى نتائج حاسمة. وقد اقترح على المؤلف توسيع الدراسة المقارنة لتشمل سوريا وجنوب الجزيرة العربية.

وقد أسفرت الحفريات في أحد المواقع بمنطقة عير في النيجر عن بعض النتائج الدقيقة والهامة. ويتكوّن الموقع المذكور من منطقة مأهولة تتراوح مساحتها بين ثلاثة وأربعة هكتارات، وجبانة كبيرة وعديد من الرسوم الصخرية يرجح أن تكون متعاصرة. وكان السكان المقيمون بهذا الموقع في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد ينتجون نوعًا من الفخار عالي الجودة ولديهم أسلحة مصنوعة من النحاس الذي يحتوي على نسبة مرتفعة من الزرنيخ. وقد لا يكون من الشطط اعتبار هؤلاء السكان مجموعة من «البربر الأوائل»، فقد استقبلت منطقة عير بعد ذلك عددًا غفيرًا من البربر الآخرين، وتوضح الشواهد الأثرية القرابة الثقافية بين هؤلاء البربر وأسلافهم كما تبرز انقطاع صلتهم بثقافات العصر الحجري الحديث في المنطقة نفسها.

وتتمثّل أهمية هذا الموقع في أنه يقدّم لأول مرة شواهد مادية على ثقافة يمكن ربطها بعصر العجلات. ولم تسفر هذه الحفريات بطبيعة الحال عن تقديم معلومات جديدة محدّدة عن العربات والتي كانت الهدف المتوخى من الحفريات في هذه الجهة.

وتتوسّل الدراسة المخصّصة للرسوم الصخرية في شمال الصحراء الكبرى بنهج بيولوجي وفلسفي، وهي تعيدنا إلى أقدم العصور. ويوضح المؤلف أن التاريخ الذي يعود إليه كهف أبوللو في ناميبيا قد حدّد على وجه اليقين على أنه يتراوح بين عام – ٢٥٥٥٠ وعام – ٢٣٥٥٠. فلا غرو إذن أن نعتقد بأن يكون الوضع مماثلاً في شمال افريقيا وأن تنسب أقدم الأعمال إلى حقبة البليوسين وليس إلى حقبة الهوليسين كما يحدث في كثير من الأحيان. وتشهد هذه الرسوم على ما بلغه أصحابها من تطوّر ثقافي وفني. وينبغي ألا يعزل هؤلاء داخل الصحراء الكبرى الخصبة المعروفة لهم، عن كل المناطق المتاخمة.

وخلال المناقشة ، جرى التأكيد على ضرورة توخي الحيطة في هذه المرحلة ، عند تناول أمثلة التشابه بين الرسوم الكهفية ، ومنها التشابه الذي يمكن ملاحظته بين كهف أبوللو في ناميبيا وكهف لي تروا فرير (الأخوة الثلاثة) في أرييج Ariege ، نظرًا للصعوبة التي تكتنف تفسيرها في الوقت الحالي.

وعرّجت المناقشة برهة على مسألة تواريخ ظهور تكنولوجيا الحديد. فقد ثبت أن تاريخها في المنطقة المدارية الشمالية يسبق عام – ١٠٠٠ أو يقرب منه. ويقتضي ذلك إعادة بحث شاملة لمسألة نشأة تكنولوجيا الحديد. كما تتضح أيضًا تواريخ مبكرة في أماكن تقع إلى الشمال من المنطقة المذكورة: فقد اكتشف الحديد في مقبرة تعود إلى القرن الثامن في ايولين بهضبة عير.

وعلى نفس النحو يسلم الباحثون الآن بتواريخ مبكرة جدًا لإنتاج الفخار – حدّدت فيما بين عامي – ٧٥٥٠ و – ٧٠٥٠ ، في الصحراء الكبرى وهضبة عير. وأخيرًا كان النحاس موجودًا في الألف الثالث قبل الميلاد في عير (حيث يحتمل أن النحاس المستخدم كان محليًا) ، وفي صور تعدينية في النوبة (منطقة كرمه) حوالى عام – ٢٠٠٠ ، وفي عير وموريتانيا في الألف الأول قبل الميلاد.

الموضوع الثالث : محاور الإتصال : الشمال – الجنوب من الساحل إلى تشاد عبر كورا ؛ الشرق – الغرب ، من كفرة الى جاو – الليبيون القدماء وصلاتهم بالاغريق والرومان والبيزنطيين

ساعد الليبيون الاغريق في تنظيم مستعمراتهم الساحلية ، وعقدت زيجات بين مهاجرين من ثيرا ونساء ليبيات بتشجيع من القانون. ولكن الإغريق كانوا أقل حذرًا من الفينيقيين في معاملاتهم مع الليبيين : فقد كانوا يتدخّلون في حياة الليبيين ويمارسون عليهم ضغطًا مستمرًا. وازداد هذا الضغط مع الإحتلال الروماني الذي بذل محاولات للتوسع جنوبًا. وقد طرد الليبيون من أراضيهم ، واستمروا في مقاومة هذه السياسة ورافقت مقاومتهم – التي ينبغي أن تدرس بكل جوانبها – حركات هجرة لمجموعات بكاملها سواء من الفرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الفرب.

جرى تبادل للتقاليد الثقافية في كلا الاتجاهين بين الليبيين والمحتلين سن الإغريق أو الرومان. وهذا ما يتبيّن من دراسة أسماء الأعلام الرومانية. وقد تطرّق البحث – كمثال على ذلك – إلى التبادلات بين عبادتي «زيوس» و «آمون».

إن موضوع الصلات في منطقة البحر المتوسط ، الذي يفضل فهمه معظم الموضوعات التي تدارمتها الندوة ، يستحق الدراسة من منظور جديد. إلاّ أن إهمال هذا الموضوع أهون خطورة من إغفال الموضوعات العديدة المتصلة بالجوانب ذات الخصوصية الافريقية في حياة الشعوب الليبية.

الموضوع الرابع : الاتصالات المحتملة
بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر

استندت المناقشة الى البحثين المقدّمين من السيدين جادو وإيفبار.

هناك اليوم يقين، تؤيّده كثير من الإكتشافات الأثرية الحديثة، بحدوث تبادلات على امتداد محور النيل. وفيما عدا ذلك، فان افتراض حدوث اتصال بين النيل ومناطق أكثر إيغالاً في اتجاه الجنوب قد درس من جديد دون أن يتسنى التوصل إلى أية نتائج محدّدة.

إن الافتراض القائل بوجود روابط تمتد على الطريق البري بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي في حزام السافانا هو اقتراح معقول في حدّ ذاته. فالحقائق المؤيّدة لهذه الفكرة لا تعوزنا طالما سلمنا بأن المبادلات المعنية تمثّلت في سلسلة من المراحل المتميزة ولم تكن مبادلات متصلة من البحر إلى البحر. وليس هناك حتى الآن ما يقطع بحدوث مبادلات منتظمة من أحد الساحلين الى الآخر قبل وصول العرب.

ومع ذلك فهناك كثير من الشواهد التي تشير إلى تبادل في التقنيات وبعض المنتجات على أساس مرحلي على الأقل، وينبغي دراسة هذا الموضوع بمزيد من التدقيق. وربما كان النحاس والفخار يمثلان مصدرًا هامًا للشواهد التي يمكن التعويل عليها في هذا المضمار. إلاّ أن التدليل على انتقال الأشياء ما زال صعبًا، على الرغم من بعض الاكتشافات المثيرة مثل اكتشاف «تمثال» أثري في مظهره في النيجر.

وجرت مناقشة شائقة حول هذا التمثال طرح خلالها افتراض احتمال مجيئه من إقليم برقة، وأنه قد يعود إلى الفترة الرومانية – كما توحي التحليلات المعملية – وقد تكون له علاقة بتماثيل أرتيمس التي جاء ذكرها عند الحديث على نبات السيلفيوم. وسوف تنشر دراسة حول هذا الموضوع تصدر في النيجر وفرنسا في الوقت نفسه.

إن دراسة الروابط الثقافية بين وادي النيل ووادي النيجر، وهو مشروع لم يزل أكثر مشقة وطموحًا – تعتمد على تحليلات في مجالات علم الإجتماع السياسي واللسانيات وروايات الأنساب؛ وقد أورد أحد الأبحاث المقدّمة أمثلة لهذه التحليلات. وأوضحت المناقشة قيمة هذا النهج، إلاّ أنها اشارت أيضًا إلى صعوبة المهمة والحاجة إلى اجراء بحوث مشتركة في هذا الميدان.

وأكّدت المناقشة بقوة ضرورة توخي الحذر في هذه المجالات التي لم تزل المعرفة بها ضئيلة حتى الآن.

وقد عكف الباحثون طويلاً، فيما يتّصل بشتّى المبادلات في أفريقيا، على التفكير في اتجاه الشمال – الجنوب. ولم يشرع البعض في التفكير في اتّجاه الجنوب – الشمال (وادي النيل) إلاّ في أيامنا

هذه. ويجدر بنا أن نلاحظ أن المحاولات الأولية لاستقصاء فرضية حدوث مبادلات بين الشرق والغرب لم تنته إلى الإخفاق بل أسفرت عن صياغة فرضيات عمل هامة.

الموضوع الخامس: الوضع الإجتماعي منذ نهاية الفترة البيزنطية حتى عشية الفتح العربي

أوضحت البحوث التي أُجريت مؤخرًا أن ثمة احتمالاً كبيرًا في وجود تجارة نشطة بين حوض نهر تشاد والبحر المتوسط وبين تشاد ووادي النيل قبل مجيء العرب، ولا سيّما خلال الفترة التي تشملها الندوة بالدراسة. ويبدو أن وجود روابط تجارية منتظمة قد أصبح أمرًا مؤكّدًا وأن الطرق التجارية أصبحت معروفة بدرجة لا بأس بها. إلاّ ان الأمر ما زال يقتضي اجراء استقصاء دقيق لتطوّر الوضع برمته، ولا سيّما فيما يتعلّق بالفترة البيزنطية. وهناك موضوعان رئيسيان فيما يتعلّق بهذه الفترة هما التكثيف المحتمل لشتى أشكال الاستغلال الاقتصادي لافريقيا، والتوترات التي نشأت عن دخول المسيحية.

كما ينبغي أن يستأنف البحث – على أسس أسلم – حول المجتمع الذي سمّي بمجتمع «ساو»، وهي تسمية قاصرة، وحول الروابط بين تشاد ووادي النيل عبر دارفور.

خاتمة

إن الفترة التي تركّزت عليها مناقشات هذه الندوة لا تزال تطرح على الباحثين كثيرًا من موضوعات البحث. ويمثّل اجراء دراسات للعلاقات الإقتصادية والبشرية والثقافية التي قامت بين المناطق الشمالية للقارّة وحوض تشاد، وبين واديي النيل والنيجر، أولوية لا غنى عنها للتعرّف على الماضي الافريقي على نحو أفضل.

مرفق : مذكرة توجيهية

عقدت اللجنة العلمية الدولية المعنية بإعداد تاريخ عام لافريقيا ، دورة عامة غير عادية في باريس يومي ٣٠ و ٣١ يوليو / تموز ١٩٧٩ ، وقد رأت ، لدى استعراض المراحل النهائية لإخراج الطبعة الأولى من المجلّد الثاني ، أنه لا بدّ من توافر معلومات علمية إضافية يمكن أن تسهم في إصلاح ومعالجة أوجه القصور الموجودة في هذا المجلّد الثاني ، وأن تقدّم مادة تستخدم في المجلّد الثالث (الذي لا يزال قيد الإعداد).

وأوصت اللجنة بأن تضاف في نهاية الفصل الثامن عشر من المجلّد الثاني (انظر الصفحة ٤٧٤) ملاحظة تشير الى أنه «من المزمع أن يدرج في الطبعة التالية بيان أكثر تفصيلاً عن تراث ليبيا ودورها خلال الفترة المشمولة بهذا المجلّد» ، ثم اقترحت عقد ندوة لمناقشة هذا الموضوع. وعلى ذلك فقد اقترح أن تبحث الندوة اسهام «ليبيا في العصر الكلاسيكي القديم مع الاهتمام الخاص بدور برقة في العصر الإغريقي ، وبليبيا في الفترة الفينيقية ، وبحضارة الجارامنت». كما اقترحت اللجنة أن تنشر نتائج هذا البحث في أحد مجلدات سلسلة «تاريخ افريقيا العام : دراسات ووثائق» ، إلى حين تضمينها كاملة في الطبعة الثانية للمجلّد الثاني.

وقد أوضحت اللجنة هذا الإقتراح في دورتها العامة الخامسة التي عقدت في ابادان ، نيجيريا ، في الفترة من ٢٠ إلى ٣١ يوليو/تموز ١٩٨١ ، حين أوصت بتكليف الأستاذ الدكتور الحرير بأن يعرض على المكتب مشروع برنامج لهذه الندوة للنظر فيه ، على أن يتكوّن من : (أ) جدول أعمال ؛ (ب) موضوعات تقتضي دراسات تمهيدية ؛ (جـ) أسماء خبراء توجّه إليهم الدعوة إذا اقتضى الأمر.

وقد استرشد المكتب في اجتماعه الثالث عشر (باريس ، ١٢ – ٢٢ يوليو / تموز ١٩٨٢) بالمقترحات المقدّمة من الدكتور الحرير ، والمقترحات المقدمة من «فريق العمل» التابع للمكتب ، واتفق على اسم الندوة والموضوعات التي تبحثها ، وذلك على النحو التالي :

الاسم : «ليبيا القديمة : دراسة لفزان والعلاقات بين البحر المتوسط وحوض بحيرة تشاد ووادي النيل من القرن الأول إلى القرن السابع الميلاديين».

الموضوعات المقترحة

١. الاستقرار أو التغيّر البيئي قبل الفتح العربي ، نظم الري والنشاط الإقتصادي.

٢. الإعمار

(أ) نشوء فرع البربر.

(ب) البنية الإجتماعية لبرقة، والوضع المعرفي الراهن للموضوع.
(جـ) الجارامنت، التقدّم الجاري وأعمال البحث المقرّرة.
٣. محاور الإتصال:
(أ) الشمال – الجنوب، من الساحل إلى تشاد عبر كاوار،
(ب) الشرق – الغرب، من كفرة الى جاو.
٤. فن ما قبل التاريخ، من البحر المتوسط إلى تشاد.
٥. الإتصالات المحتملة بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر.
٦. الوضع الإجتماعي منذ نهاية الفترة البيزنطية حتى عشية الفتح العربي.

وعملاً بقرار المكتب، عهد بإعداد إحدى وعشرين دراسة إلى خبراء تم اختيارهم من قائمة اشترك في اقتراحها اللجنة والدكتور الحرير ومؤسسات وشخصيات أخرى جرى الإتصال بها. وقد صنّفت هذه الدراسات في مجموعات على النحو التالي:

١. الاستقرار أو التغيّر البيئي قبل الفتح العربي، نظم الري والنشاط الاقتصادي
(أ) نبات السيلفيوم في برقة.
(ب) التنمية الزراعية لليبيا في عهد الرومان وتأثيرها على الإقتصاد الليبي – الروماني.
٢. إعمار ليبيا القديمة مع تركيز خاص على الليبيين والسيادة الأجنبية قبل الفتح العربي
(أ) تكوين فرع البربر.
(ب) الجارامنت والإتصالات عبر الصحراء،
(جـ) هجرات البربر إلى شمال افريقيا.
(هـ) أصل الجارامنت؛ علاقاتهم مع جيرانهم من خلال عادات الدفن وكيف تأثروا بهم؛ أنشطتهم التجارية مع تركيز خاص على: الواردات الى الجارامنت؛ الدور الذي اضطلعوا به كوسطاء.
(هـ) البنى الاجتماعية لبرقة.
(و) الحالة الراهنة لموضوع الجارامنت بوجه عام، وآفاق المستقبل بالنسبة لاتجاهات البحث.
(ز) الهجرات السامية إلى ليبيا وشمال افريقيا.
٣. محاور الإتصال: الشمال – الجنوب، من الساحل إلى تشاد عبر كوار، الشرق – الغرب، من كفرة إلى جاو
(أ) اللغات في شرقي السودان والكتابة المروية.
(ب) العلاقات بين الأجناس منذ أوائل الفترة الهلّينستية.
(جـ) طرق القوافل والإتصال خلال العهد الروماني.
٤. فن ما قبل التاريخ من البحر المتوسط إلى تشاد.
(أ) الرسوم في فزان.
(ب) فن ما قبل التاريخ من البحر المتوسط إلى تشاد.
(جـ) الرسوم والصور الصخرية في الصحراء الليبية.
٥. الاتصالات المحتملة بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر

(أ) الإتصالات بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر.
(ب) الإتصالات بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر في ليبيا القديمة.

٦. الوضع الاجتماعي منذ نهاية الفترة البيزنطية حتى عشية الفتح العربي

لم يتجاوز عدد الدراسات التي تم تلقيها حتى اعداد هذه المذكرة، أربع دراسات فقط هي:

١. «العلاقات الليبية – البربرية مع مصر القديمة: التحنو في المصادر المصرية» (الدكتور أ. ح. س. المسلمي).
٢. «إيولين، موقع أثري من عصر العجلات في شمالي منطقة عير، النيجر» (البروفسور ج. ب. روزيه).
٣. «الوضع الإجتماعي في منطقة بحيرة تشاد في نهاية الفترة البيزنطية، قبل دخول الإسلام» (البروفسور د. لانج).
٤. «الإتصالات المحتملة بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر من القرن الأول الى القرن السابع الميلاديين». (البروفسور ج. أ. إيفبار).

يرجى من الخبراء أن يبحثوا هذه الدراسات، واضعين في اعتبارهم أهداف الندوة على نحو ما حدّدته اللجنة، وأن يوصوا بمعلومات علمية محدّدة: (أ) تدرج ضمن الفصول ذات الصلة بالمجلّد الثاني، عندما يحين وقت اصدار طبعة منقحة؛ (ب) تفيد في إعداد المجلّد الثالث (يشمل هذا المجلّد الفترة من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلاديين)؛ (جـ) تتّصل بأنشطة البحث ولا سيّما البحوث الخاصة بإعمار ليبيا القديمة – المشروعات الجارية وأنشطة البحث المقرّرة على السواء.

وتجدر الإشارة إلى أنه في حالة الموضوعات التي لا يرسل الخبراء المكلّفون من اليونسكو أية دراسات بشأنها، يرجى من الخبراء المتخصصين في هذه المجالات، والمشاركين في الندوة تقديم مواد شفهية أو مكتوبة تتّصل بمجال تخصّصهم، حتى يتسنى سد هذه الفجوة.

وسعيًا الى تحقيق هذه الأهداف، يقترح جدول الأعمال التالي:

١. افتتاح الندوة.
٢. انتخاب هيئة المكتب.
٣. تقديم دراسات واجراء مناقشات حول الموضوعات التالية:
(أ) الإستقرار أو التغيّر البيئي قبل الفتح العربي، نظم الري والنشاط الاقتصادي.
(ب) الإعمار؛ نشوء فرع البربر؛ البنية الإجتماعية لبرقة؛ الوضع المعرفي الراهن لهذا الموضوع؛ الجارامنت: التقدّم الجاري وأعمال البحث المقرّرة.
(جـ) محاور الإتصال: الشمال – الجنوب، من الساحل إلى تشاد عبر كورا؛ الشرق – الغرب من كفرة الى جاو.
(د) فن ما قبل التاريخ من البحر المتوسط إلى تشاد.
(هـ) الاتصالات المحتملة بين وادي النيل الأوسط ومنطقة نهر النيجر.
(و) الوضع الاجتماعي منذ نهاية الفترة البيزنطية حتى عشية الفتح العربي.
٤. التقرير النهائي والنتائج.
٥. اختتام الندوة.

[II] CC. 87/XXX. 11/Ar